خبايا العصور الوسطى

الكتاب: خبايا العصور الوسطى
المؤلف: أحمد سامى
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
تدقيق لغوي: حاتم الدسوقي
تنسيق داخلى : أحمد عبد الحليم
رقم الإيداع: 28794 / 2020
الترقيم الدولي: 978-977-778-224-1

للنشر والتوزيع
20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
info@noonpublishing.net
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

خبايا العصور الوسطى

أحمد سامي

للنشر
والتوزيع

إهداء

إلى كل محب وباحث في التاريخ أهدي إليه هذا الكتاب

كلمة شكر

أشكر الدكتور أحمد سعد الدين الذي أفادني بنصائحه القيمة في كتابي هذا، والتي لولاها ما خرج الكتاب على هذا الوجه من الدقة والتنظيم

مقدمة الكتاب

خبايا التاريخ الوسيط وحقائقه أكثر من ظاهره الذي نعرفه ويعرض لنا، فعلى الرغم من أن التاريخ قد كتب بأقلام المؤرخين الا أن بعضهم يظهره لنا في ثوب مليء بالخروق والرقع، وذلك حتى نكرهه ونكره قراءته والنظر فيه، فالتاريخ المخفي أكثر من التاريخ المعلن، ولهذا أسبابه الكثيرة والمتعددة، وكلها تختلف باختلاف مشارب أصحابها، ولكنها تتفق على هدف واحد، ألا وهو إخفاء أكبر قدر من حقائق التاريخ وخصوصًا التاريخ الإسلامي في حقبة العصور الوسطى، فقد شهدت هذه الحقبة نهضة أمة عظيمة في كافة المجالات الحضارية والعلمية وحتى العسكرية، وهي الحضارة الإسلامية والتي اكتسحت العالم في الشرق والغرب، ولهذا رغب الكثيرون في إخفاء الكثير من حقائق هذه الحضارة في تلك الحقبة أو إظهارها، ولكن بطريقة فيها الكثير من التدليس من أجل إخفاء أهميتها وفضلها، وبالتالي تظل الحقيقة المخفية أكثر من المعلنة، وهكذا

يصل إلى مبتغاه وهدفه، وهو تشويه التاريخ الإسلامي في العصر الوسيط، ولهذا أحببت أن أكشف الغطاء عن بعض هذه الحقائق المخفية مبينًا حقيقتها وأسرارها، في محاولة مني لتعريف المهتمين والمحبين لقراءة التاريخ أن يعرفوا هذه الحقائق، والتي أرجو أن ينتفعوا بها ويستفيدوا منها.

الفصل الأول

خبايا العصور الصليبية والتترية

مقدمة

الحروب والحملات الصليبية كما كان يطلق عليها في العصور الوسطى، هي الحملات التي قادها ملوك وأمراء أوروبا ضد ملوك وأمراء الشرق المسلمين (السلاجقة)، الذين كانوا يحكمون بلاد فارس والعراق وبلاد الشام، وكان هدفها استعادة بيت المقدس (أورشليم) من أيدي الوثنيين المسلمين -كما كانوا يطلقون عليهم في ذلك الوقت- أو الساراسان البرابرة في حد زعمهم، وحماية الحجاج المسيحيين من هجمات الأتراك (السلاجقة).

ولكن حقيقة هذه الحملات أنها كانت وقف لسيل الجيوش السلجوقية لمناطق آسيا الصغرى، فبعد انتصار السلطان (ألب أرسلان) في معركة (ملاذكرت)»[1]»فتح الطريق أمام السلاجقة

1 - معركة (ملازكرد) أو(منازكرد) المعركة التي انتصرفيها السلطان (عضد الدولة أبوشجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكاييل بن سلجوق 1063م – 1072م) على الإمبراطور البيزنطي (رومانوس الرابع 1067 – 1071 م) ما بين (خلاط) و(منازكرد) في (19 أغسطس 1071م)، وكانت البداية الحقيقية للتوسع السلجوقي في آسيا الصغرى (الأناضول)، وتكوين الفرع السلجوقي الذي عُرف فيما بعد (بسلاجقة الروم) – ص (189) – راحة الصدور وآية السرورفي تاريخ الدولة السلجوقية – محمد بن علي بن سليمان الراوندي – ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، وعبد النعيم محمد حسنين، وفؤاد عبد المعطي الصياد – طبعة

في أراضي الإمبراطورية البيزنطية يستولون على المدن الواحدة تلو الأخرى، ولا قدرة للبيزنطيين على صدهم أو إيقافهم، فما كان من الإمبراطورية البيزنطية سوى الاستنجاد بالكنيسة الغربية والباباوية، والتي لبَّت النداء لما رأت من تهديد السلاجقة لأمن واستقرار الجماعة المسيحية، فقام البابا (أوربان الثاني) بعبور جبال أوروبا وصولًا إلى بلاد الغال (فرنسا) حتى وصل سنة (1095 م) إلى مدينة (أوفريني) بـ(كليرمون)، وقام بعقد المجمع الديني الشهير، والذي على إثره اتحدت أوروبا كلها بعد حروب طاحنة بين ملوكها وأمرائها الإقطاعيين ضد العدو المشترك لهم جميعًا وهو المسلمين، فخرجت الحملة الصليبية الأولى.

*هدنة الرب وسلام الرب:

ولكي تنجح المهمة المقدسة لأوروبا كان ولابد من استقرار الأمن والسلام في داخل أوروبا أولًا حتى يتم التفرغ لقتال المسلمين، فقام البابا (أوربان الثاني) مع موافقة جميع ملوك وأمراء أوروبا بوضع هدنة فيما بينهم ملزمة للجميع، وقد قال (أوربان الثاني) في مرسومه (بكليرمون):

«ولذا فإن الهدنة التي يعرفها العامة بهذا الاسم (هدنة الرب)، والتي كانت مستقرة من زمن طويل بواسطة الآباء المقدسين، يجب أن تُعقد من جديد، إنني أحث كلًّا منكم (يقصد الملوك والأمراء) على أن يفرضها بصرامة في منطقته، ولكن إذا انتهكها أي فرد بدافع الطمع أو الكبرياء، فيجب أن توقع عليه.

(2005م) – المركز القومي للترجمة (الجيزة – القاهرة) – ص (44) – تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى – د. سعيد عبد الفتاح عاشور – طبعة (1991م) – دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت – لبنان).

وعلى إثر هذا الكلام الصادر من المجمع الشهير نفهم أن أوروبا قد اتحدت مع بعضها بدافع هدف واحد، ألا وهو القضاء على قوة المسلمين المتنامية في مناطق آسيا الصغرى (الأناضول)، ويظهر هذا جليًّا في النص التالي، فقد ذكر أحد الرهبان الذين كانوا في صحبة الحملة الصليبية الأولى، وهو الراهب (فوشيه الشارتري) من فرنسا فيقول:

«ووفقًا للخطة التي وضعها البابا أوربان الثاني، كان ولابد من تحويل لاقتتال الذي كان من العادة أن يدور بين المسيحيين إلى قتال ضد الوثنيين (المسلمين)». فقد كان شائعًا في ذلك العصر في أوروبا حتى وقت خروج الحملات الصليبية أن المسلمين كانوا يعبدون (محمدًا) صلى الله عليه وسلم، وهو جهل واضح بالدين الإسلامي وعقائده.

وبالتالي لم يكن هدف الحملات الصليبية في حقيقتها دينيًّا صرفًا، ولكن كان الهدف من هذه الحملات سياسيًّا اقتصاديًّا، سياسي لوقف القتال بين ملوك وأمراء الإقطاع الأوروبي، واقتصادي وهو سرقة ثروات وكنوز المسلمين، وتكوين إمارات إقطاعية جديدة، ولكن في المشرق الإسلامي.

*خروج الحملة الصليبية الأولى سنة (1096م):

وبدأ التجهيز للحملة الصليبية، وبدأ ملوك أوروبا والأمراء المغامرين في التجهز للخروج المقدس، وكان أشهر هؤلاء الملوك والأمراء هم:

1. هـوف كونـت نرمانـدوا، وهـو الأخ الأصغـر لملـك فرنسـا (فليـب الأول).

2. بوهيموند أمـير أبوليـا مـن النورمـان، وهـو مـن أبنـاء (روبـرت جويسـكارد).

3. جودفرى دوق اللورين.

4. ريمـون كونـت إقليـم البروفنسـال، والـذي كان معـه قـوات مـن القـوط والجاكسـون، وأديـمار أسـقف لوبـوي.

5. روبـرت كونـت النورمان وأحـد أبناء الملـك (وليم) ملـك إنجلترا، وكان معـه جيش عظيـم من النورمـان والإنجليز والبريتـون، وكان معـه صهـره سـتيفن كونـت بلـوا، ومعـه أيضًـا روبـرت كونـت الفليمنج[2]

وهكـذا نـرى تنـوع الجنسـيات الأوروبيـة التـي احتشـدت في هـذه الحملـة والـذي يـدل على ضخامـة الحملـة وأهميتهـا لأوروبا، هـذا كان حـال أوروبـا، أمـا حـال بـلاد المشرق الإسـلامي في ذلـك الحـين فقـد كانـت عـلى العكـس من اتحـاد أوروبـا تمامًـا، فقـد كان المشرق في حالة مـن التفـكك المخزي.

---

2 - ص (90) وص (91) – الاستطيان الصليبي في فلسطين (تاريخ الحملة إلى بيت المقدس 1095 م – 1127 م) – تأليف فوشيه الشارتري – ترجمة ودراسة وتعليق د. قاسم عبده قاسم – الطبعة الأولى (1422 هـ / 2001 م) – طبعة دار الشروق (القاهرة).

*البلاد الإسلامية قبيل مجيء الحملة الصليبية الأولى مباشرة:

انقسمت الإمبراطورية السلجوقية على نفسها، فقد كانت كبيرة جدًّا لدرجة صعوبة حكمها من قبل السلطان السلجوقي، فظهر نظام الأتابكيات (إقطاعيات صغيرة) كل أمير سلجوقي يحكم أتابكيته باسم السلطان الأعظم اسم الخليفة العباسي في بغداد، ولكن بدلًا من استقرار الأمن بين هؤلاء الأمراء، ظهر حب التوسع والطمع فيما أيدي كل واحد منهم في الآخر، فكانت الحروب الطاحنة فيما بينهم، وأيضًا كانت هناك الخلافة الفاطمية (الشيعية) في القاهرة، والتي لم يرضها أن تضيع ممتلكاتها في بلاد الشام وفلسطين وبيت المقدس، وبالتالي فقد كانت دولة الإسلام منقسمة على نفسها خلافتين ضعيفتين ليس لهما إلا الاسم، أقصد الخلافة العباسية ببغداد، والخلافة الفاطمية بالقاهرة، وأمراء السلاجقة الطامعون فيما أيدي بعضهما البعض، وبالتالي لما أتت الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام وفلسطين وجدت حالة الانقسام بين المسلمين، فاستغلت هذا الوضع أحسن استغلال، ونجحت في مهمتها واحتلت أغلب بلاد الشام، وتمكنت من أخذ بيت المقدس من المسلمين.

***

مذابح الصليبيين ضد المسلمين من خلال اعترافاتهم

والآن نتكلم على المذابح التي ارتكبها الصليبيون في حق المسلمين الجنود والعزل على حدٍّ سواء، وسوف يروعكم ما سوف تعلمونه عن هذه المذابح، وكيف ارتكبت بقلب بارد وخالٍ من الرحمة والإنسانية، وكيف وجدوا لهذا القتل الوحشي مبررًا أخلاقيًّا، بل وجعلوه من القربات إلى الله.

***مذبحة أنطاكية (491 ه / 1098 م):**

توجه الصليبيون إلى بلاد الشام، وبعد عدة حروب مع سلاجقة الروم والتي انتهت -للأسف- بغلبة الصليبيين، توجهوا إلى أولى المدن التي تقع على حدود بلاد الشام، وهي مدينة (أنطاكية)، وهي مدينة محصنة تحصينًا قويًّا، فالجبال تحيط بها من عدة جوانب، بالإضافة إلى أسوارها العالية، مما جعلها مدينة شديدة التحصين، وبالتالي فإن سقوط مدينة كهذه لابد وأن يأتي من الداخل، أقصد الخيانة، وهو ما حدث بالفعل.

كان أحد الفرسان الموكل لهم بحراسة أحد الأبراج المهمة، وقد كان يدعى (فيروز)، وهو أرمني الأصل وليس تركيًّا ولا عربيًّا، بالإضافة إلا أنه كان نصرانيًّا ثم أسلم، ولكن قام صاحب المدينة والذي يُدعى (ياغي سيان) بمصادرة أمواله وأملاكه، فحقدها عليه (فيروز) وكتمها في نفسه، والغريب في الأمر أن (ياغي سيان) بعد أن نكب هذا التعيس (فيروز) وثق به، وكيف يوليه ثقته ويدعه يتولى حراسة أحد أهم أبراج المدينة بعد أن صادر أمواله وأملاكه؟!!

وانتهز (فيروز) الفرصة عند مجيء الحملة الصليبية وحصارها للمدينة، فقد كانت فرصته التي لا تفوت من أجل الحصول على ثأره ممن صادر ثروته، فقام بالتواصل مع الصليبيين سرًّا وحدَّد لهم موعد الهجوم، والذي حُدِّد فجرًا والناس نيام والحراس متراخين، فقام بإرخاء سلمًا مصنوعًا من الحبال القوية المتينة التي تتحمل الأوزان الثقيلة، فصعد على هذا السلم حوالي عشرون فارسًا من أشداء الفرسان، وتمكنوا من قتل الحراس الموكلين بحراسة بوابة المدينة، ولم يمر كثير من الوقت حتى دخلت الجيوش الصليبية المدينة على حين غفلة من أهلها وصاحب المدينة، واستيقظ أهل المدينة على أصوات صليل السيوف المشحوذة لقتلهم، وأصوات تخبط الدروع وقعقعة الخيل المسرعة إلى داخل المدينة، وكان دخول الصليبيون المدينة بعد حصار طويل دام حوالي سبعة أشهر شداد.

يقول المؤرخ الصليبي (فوشيه الشارتري) عن كيفية دخول الصليبيين المدينة:

«وعندما تم الاتفاق على هذا (يقصد الاتفاق الذي تم بينهم وبين الخائن فيروز) أعطى التركي (فيروز أرمني الأصل وليس تركيًّا) ابنه رهينة للسيد (بوهيموند) الذي كان أول من عرف بأمر هذه الخطة، وأول من تأثر بها، وفي الليلة الموعودة ساعد التركي عشرين من رجالنا على تسلق الأسوار بواسطة سلم من الحبال، وتم فتح البوابة، ودخل الفرنج الذين كانوا على أهبة الاستعداد إلى المدينة، وقام أربعون من جنودنا الذين كانوا قد دخلوا المدينة بذبح ستين تركيًّا وجدوهم يحرسون الأبراج، ثم صاح الفرنج كلهم بصوت عال (الرب يريدها، الرب يريدها).

ثم يكمل القصة لما حدث وجرى بعد ذلك:

«وعندما لاحظ الأتراك راية (بوهيموند) الحمراء في بداية الأمر تخفق عالية، وسمعوا الضوضاء تشق المكان بصمته، على حين راحت أصوات طبول الفرنج تدوي فوق أسوار المدينة، والفرنج يجرون في شوارع المدينة وسيوفهم مشرعة، ويقتلون الناس في وحشية !!».

وهذا الذي يهمنا في رواية (فوشيه) وهي قوله (يقتلون الناس في وحشية) فقد اعترف اعترافًا صريحًا بوقوع مذبحة وحشية في حق العزل من الناس ولم يفرقوا بين كبير أو صغير، وبين رجل أو امرأة، وكانت هذه المذبحة من البشاعة أن (فوشيه) لم يذكر تفاصيلها، وإنما اكتفي بقوله: (ويقتلون الناس في وحشية)، ولم يسلم من هذه المذبحة حتى صاحب المدينة (ياغي سيان)، فقد قام على هول

الحدث وركب فرسه على عجل، ولكنه سقط من عليه مغشيًّا عليه، فما كان من حراسه إلا أنهم تركوه لمصيره المشئوم، فقد عرفه أحد الفلاحين الأرمن، فقام بالإجهاز عليه وقطع رأسه[3].

(صورة توضح دخول الصليبيين لمدينة أنطاكية)

*مذبحة الجيش الإسلامي الذي حاول استرداد المدينة:

كان لسقوط مدينة (أنطاكية) دوي عظيم في العالم الإسلامي، فالمدينة كانت حصينة جدًّا ولا يُتخيل سقوطها، كما كانت لها مكانة عظيمة عند المسلمين، فقد كانت مفتاح بلاد الشام الشمالية، فكان سقوطها نذيرًا لسقوط بقية المدن، فحاول حاكم مدينة (الموصل) ويُدعى (كربوغا) استرداد المدينة من الصليبيين، فجهَّز جيشًا كبيرًا ولم يدخر

3 - ص (114) وص (118) – الاستيطان الصليبي في فلسطين – تأليف فوشيه الشارتري.

وقتًا وتوجَّه من فوره إلى المدينة، خصوصًا وأن قلعة المدينة لم تسقط بعد، فكان يأمل أن يتمكن من التواصل مع قائد القلعة ويحيطوا بقوات الصليبيين من الداخل والخارج، فلا يتمكنوا من الفرار.

وتمكن (كربوغا) من ضرب الحصار على المدينة من الخارج، ولكن لسوء تدبيره أضاع على نفسه فرصة ذهبية، فقد أصاب الحصار معنويات القوات الفرنجية وأيقنوا بالهلاك، فأخذوا يخرجون من بوابة المدينة بأعداد قليلة، ونصح أمراء الحملة الذين كانوا مع (كربوغا) نصحوه بضرورة أخذ هؤلاء الجنود وهم على قلَّتِهم وقتلهم فورًا، فلم يستمع لنصحهم، بل رأى الانتظار حتى يكتملوا ثم يقومون بعد ذلك بقتلهم مرة واحدة !!!

فانفض الأمراء من حوله وتركوه، فلما رأى الفرنجة ذلك قويت معنوياتهم وجمعوا شتاتهم، وهجموا هجمة رجل واحد على ما تبقى من جيش (كربوغا)، فمزقوه شر ممزق، ودارت الدائرة على المسلمين، ففرَّ هاربًا تاركًا وراءه الأموال والخيام والنساء، وهنا نعود إلى (فوشيه) **فيقول:**

«أما النساء اللاتي وُجدن في خيام الأتراك، فإن الفرنج لم يرتكبوا شرًّا معهن (يقصد اغتصابهن)، وإنما بقروا بطونهن بحرابهم فحسب !!»وكأنه يتكلم عن حيوانات أو جمادات وليسوا بشرًا لهن حق الحياة، وأنهن لم يرتكبن جرمًا يستحققن عليه القتل بهذه الطريقة البشعة المؤلمة، وهذا -وإن دل على شيء- يدل على مدى وحشية جنود الفرنجة، وعدم تفريقهم في القتل بين الجندي والأعزل[4].

4- ص (42) نصارى الهلال الخصيب والحملة الصليبية الأولى – د. جمعه محمد مصطفى الجندي – دراسات تاريخية (تصدرعن قسم التاريخ – كلية التربية – جامعة عين شمس) العدد الأول (1423 هـ/ 2001 م).

*التنصير الجبري لحامية (أنطاكية):

وهنا يأتي الكلام على قلعة المدينة التي لم تسقط بعد، فعلى الرغم من سقوط المدينة إلا أن قائد القلعة والذي كان يُدعى: (أحمد بن مروان) والذي كان ينتظر ما سوف تسفر عنه معركة جيش (كربوغا) مع قوات الفرنجة، فلما علم بأمر هزيمة جيش المسلمين سلم القلعة للفرنجة، ولكن هذا التسليم لم يمر بسلام على ما يبدو، فقد قام رجال الحملة بإرسال رسالة إلى (البابا أوربان الثاني) وفيها حثه على ضرورة القدوم إلى مدينة (أنطاكية)، وفيها عبارة تظهر بوضوح، فنص الرسالة يقول:

«وبعد أن تغلبنا على الأتراك وطاردناهم على مدى يوم كامل، وقتلنا منهم عدة آلاف، رجعنا إلى المدينة فرحين سعداء، ثم قام أحد الأمراء بتسليم القلعة (يقصد الأمير أحمد بن مروان قائد قلعة المدينة) إلى (بوهيموند) وبها ألف من الرجال، وبفضل (بوهيموند) أدخلهم جميعًا العقيدة المسيحية! وهكذا قام سيدنا (يسوع) المسيح بتخليص (أنطاكية) كلها، وتسليمها إلى الديانة والعقيدة الرومانية (الكاثوليكية)».

وهنا ينتهي نص الرسالة إلى (البابا)، والذي يهمنا فيها هي عبارة: وبفضل (بوهيموند) أدخلهم جميعًا العقيدة المسيحية. والتي يظهر فيها بوضوح أنهم أُجبروا على ترك الإسلام والدخول إلى المسيحية، وإلا كان مصيرهم القتل، وهنا يُضاف عنصر جديد وهو التنصير الجبري للمسلمين الذين يقعون في الأسر.

*مذبحة (البارة) و(معرة النعمان) وأكل لحوم المسلمين سنة (492 هـ / 1099 م):

بعد أن تمكن الصليبيون من تحقيق مكسبهم العظيم في الاستيلاء على المدينة الحصينة (أنطاكية) ومفتاح بلاد الشام الشمالي، أخذ الجنود استراحة حرب من عناء المعارك والحروب الطاحنة التي واجهوها مع الجيوش الإسلامية السلجوقية، ولكن خوفًا على الجنود من الاعتياد على الراحة وحب الخمول والكسل، قام كل من (بوهيموند) و(ريمون السانجيلي) بالتوجه إلى مدينتي (البارة) و(معرة النعمان).

فتمكن (ريمون السانجيلي) من الاستيلاء على (البارة) في (25 سبتمبر 1099 م) وهي تابعة لمدينة حلب التي يحكمها (رضوان) والذي تركها لمصيرها المحتوم، فلم يقم بارسال قوات للدفاع عنها، فقام»(ريمون) بمعاقبة أهل المدينة رجالًا ونساءً، واستصفى أموالهم، وسبى بعضهم وقتل بعضهم، وحول جامعها الكبير إلى كنيسة[5].

ثم اتحدت قوات (ريمون السانجيلي) مع قوات (بوهيموند) وتوجها إلى مدينة (معرة النعمان) وحاصرا المدينة لمدة عشرين يومًا، ولم يحاول أي من أمراء المدن التي تقارب أو تجاور المدينة المنكوبة إرسال أية مساعدات أو قوات نجدة لفك الحصار عنها، لا من صاحب (حلب) ولا من الحصن الذي كان قريبًا منهم، فتُركت هي الأخرى لمصيرها المقدور.

---

5 - ص (122) – الاستيطان الصليبي في فلسطين – تأليف فوشيه الشارتري.

يقـول (فوشـيه الشـارتري) عـن معانـاة القـوات الفرنجيـة أثنـاء الحصـار التـالي:

«عانـى رجالنـا الذيـن عذَّبهـم الجـوع الضـاري بجنونـه، وكانـوا يأكلـون جثث المسـلمين الذيـن كانوا يرقـدون هناك بعد قتلهـم، وكانوا يطبخـون القطـع التـي انتزعوها مـن هذه الجثـث ويأكلونهـا، ويلتهمون اللحـم الآدمـي بوحشـية على الرغـم من أنـه لم ينضج في الشـواء، وبهذه الطريقـة كان الـضرر الـذي نـال ممـن فرضـوا الحصـار أشـد وطـأة مـن الـضرر الذي حـاق بمن فـرض عليهـم الحصـار»[6].

(الصليبيون يذبحون المسلمين أحياء)

6 - ص (126) – المصدر السابق.

ثم يكمل (فوشيه الشارتري) كلامه فيقول:

«وفي الوقت نفسه شن الفرنج الذين صنعوا بعض الآلات وحركوها نحو الحائط (يقصد سور أو حائط المدينة) هجومًا جسورًا، وفي ذلك اليوم واليوم التالي قتلوا جميع المسلمين كبيرهم وصغيرهم، ونهبوا كل الممتلكات»، وهكذا نراه لا يخجل من قيامهم بقتل جميع أهل المدينة من الكبار والصغار، بل ويلاحظ في كلامه نبرة الفخر والتعالي بالقيام بمثل هذه الأعمال المخجلة والتي يندى لها الجبين.

***مذبحة (القدس) سنة (492 هـ / 1099 م):**

وبعد أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على هذه المدن وجدوا الطريق مفتوحًا أمامهم إلى مدينة أورشليم (القدس) وخصوصًا أنهم لم يجدوا من المسلمين القوة التي تمنعهم أو تصدهم، فتوجهوا مباشرة إلى هدف الحملة الأساسي، ألا وهو استرداد القبر المقدس والمدينة المقدسة من المسلمين، وكان الكونت (ريمون) قد سبق الجيش الصليبي إلى المدينة وضرب عليها الحصار، وحاول دخول المدينة من خلال السلالم الخشبية، ولكن محاولاته باءت بالفشل، واستمر الحصار أسبوعًا كاملًا.

وفي اليوم السابع لحصار المدينة تمكن الصليبيون من دخول مدينة القدس، وكان ذلك يوم (الجمعة 15 يوليو سنة 1099 م)، فقد دخل الفرنجة المدينة وسط صيحاتهم وصرخاتهم العالية يقولون: (ليساعدنا الرب)، ورفعوا راياتهم ووضعوها على أعلى أسوار المدينة، وهرب الحرس الموكل بالأبراج والأسوار، وهنا يخبرنا (فوشيه الشارتاري) عن قصة دخول المدينة **فيقول:**

«ولم يلاحـظ الكونـت (ريمـون) ورجالـه، الذيـن كانـوا يشـنون هجومًـا عنيفًـا في جـزء آخـر مـن المدينـة مـا جـرى، حتـى شـاهدوا المسـلمين يقفـزون فوق الأسـوار، وعندمـا لاحظوا ذلك جـروا فرحين بأقـصى سرعـة ممكنة إلى داخـل المدينة، وانضمـوا إلى رفاقهـم في مطاردة أعدائهـم الأشرار (يقصـد المسـلمين) وذبحهـم دون توقـف !!.

ثـم يكمـل وكلـه تفاخر بـما حـدث قائلًا:»وهـرب بعض هـؤلاء من العـرب والأثيوبيـين إلى بـرج (داود)، وأغلق آخرون على أنفسـهم معبد الـرب ومعبد (سـليمان)، وتم شـن هجـوم وحشي على المسـلمين في فناء هذيـن المعبديـن (يقصـد الحـرم الأقـصى)، ولم يكـن هنـاك مـا يمكن أن ينجيهـم من سـيوف رجالنا.

وكثـيرون من المسـلمين الذيـن كانوا قد تسـلقوا قمة معبد (سـليمان) هاربين أصابتهم السـهام في مقتل، فسـقطوا من فوق السـقف، وتم ذبح حـوالي عـشرة آلاف في المعبـد، ولو أنـك كنت موجـودًا هنـاك لغاصت قدمـاك حتـى العقبـين في دمـاء المذبوحين (وهو هنـاك يتكلم بـلا مبالغة فهـذا مـا حـدث بالفعـل)، تـرى مـاذا أقـول؟ إننـا لم نـترك أحـدًا منهم عـلى قيـد الحيـاة، ولم ينج حتى النسـاء والأطفـال !!».

*حرق جثث المسلمين بعد قتلهم:

ولم تتوقـف أعـمال التشـفي مـن قبـل الصليبيـين في حـق القتـلى المسـلمين إلى حـد القتـل والتمثيـل بالجثث، بـل وصل الأمـر إلى إحراق الجثـث بحجـة اسـتخراج النقـود والعمـلات الذهبية من أمعـاء وبطون المسـلمين، فيقـول (فوشـيه الشـارتري) عـن ذلـك:

«كم سيكون المنظر مدهشًا !!! لو أنك رأيت فرساننا ومشاتنا بعد أن اكتشفوا خداع المسلمين، فشقوا بطون الذين ذبحوهم لكي يستخرجوا من المعدة والأمعاء العملات الذهبية التي كان المسلمون قد ابتلعوها وهم أحياء، ولنفس السبب قام رجالنا بعد أيام قليلة بجمع كومة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رمادًا بحيث يمكنهم بسهولة أن يجدوا الذهب الذي ذكرنا خبره بسهولة!!»[7].

وهناك رواية أخرى لأحد شهود العيان أيضًا تؤكد رواية (فوشيه) عن مذبحة (بيت المقدس)، وأقصد رواية (ريمون الأجيليري) فيقول:

«إلا أنه بعد أن استولى رجالنا على الأسوار والأبراج، لاحت للنظر مشاهد رائعة! فبعض رجالنا قد قطعوا رؤوس أعدائهم، وآخرون رموهم بالسهام فسقطوا من الأبراج، وآخرون أطالوا تعذيبهم برميهم في النار (انظر إلى مدى الحقد).

وقد شُوهدت أكوام من الرؤوس والأيدي والأرجل في شوارع المدينة، ولم يكن هناك مفر من أن يشق المرء طريقه فوق جثث البشر والخيول (حتى الحيوانات التي لا ذنب لها لم ترحمها سيوف الفرنجة)، ولكن هذه كانت أمورًا هينة قياسًا إلى ما حدث في (هيكل سليمان)، وهو مكان تُقام فيه الصلوات الدينية عامة (يقصد الحرم الأقصى) فما الذي حدث هناك؟ لو قلت الحقيقة فسوف تتجاوز قدراتكم على التصديق (يقصد من بشاعة القتل) لذا يكفي على الأقل قول

---

7 - ص (128) المصدر السابق.

هـذا الـشيء المهـم، وهـو أنـه في (هيـكل ورواق سـليمان) كان الرجـال الراكبـون يخوضـون في الـدم حتى ركبهـم وأعنـة جيادهم[8].

ثـم يبرر هذه الجرائـم في حق المسـلمين الخالية من الرحمة والإنسـانية، وذلك بقوله:

«الحـق أنـه كان حكـمًا عـادلًا ورائعًا من الـرب أن يمتلئ هـذا المكان بـدم عديمـي الإيمان، بـما أنه عانى طويـلًا من مروقهـم!!![9].

كانـت هـذه اعترافـات رسـمية وصريحـة مـن اثنـين مـن المؤرخـين الكنسـيين الذيـن رافقـوا الحملـة الصليبيـة الأولى، ولم يجـدوا مـا يعيـب هـذه المذابـح الرهيبـة في حـق المسـلمين، بـل جعلوهـا حكـمًا عـادلًا من الـرب على المسـلمين المارقين، وكأن المسـلمون يسـتحقون القتل والحرق والإبـادة لكونهـم أعـداء الـرب، ولكنهـم نسـوا أن الرب الـذي حاربوا باسـمه لم يأمـر بالقتـل، بـل أمرهـم بالسـلم ونشر السـلام بـين العالم.

---

8 - ص (136) وص (137) المصدر السابق.

9 - ص (96) السلام الصليبي (الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي الغربي) – تأليف توماش ماستناك – ترجمة بشير السباعي – الطبعة الثانية (2009 م) – المركز القومي للترجمة – (القاهرة).

(الصليبيون يحاصرون القدس ويقتحمونها)

***

فرسان الهيكل سفراء إبليس
عندما يكون القتل مقدسًا باسم الإله

كان لإنشاء وظهور هذه الجمعية التي تكوَّنت من الرهبان المحاربين والفرسان السفاكين للدماء، شهرة كبيرة في حقبة الحروب الصليبية، فقد أُنشئت مباشرة بعد سقوط مدينة (القدس) في يد الفرنجة، واتخذوا اسمهم من المعبد الذي يعرف عندهم في العهد القديم باسم (هيكل سليمان) المزعوم لديهم.

ولكن قبل الكلام عن كيفية إنشاء هذه الجمعية الإرهابية بحق والمجرمة، والأفكار التي أُسِّست عليها، لابد من الحديث عن تاريخ الجمعيات المسيحية المسلحة والمتطرفة والتي أنشئت على يد قساوسة ورهبان في أوروبا بعد عقد ما عرف باسم: (هدنة وسلام الرب)، ففي الحقيقة لم تكن (فرسان الهيكل) هي الجمعية الأولى الدينية التي حملت السلاح باسم الرب، فقد سبقتها جماعة دينية أحدثت بعنفها وتطرفها في سفك دماء الأبرياء كوارث في أوروبا لم تنته إلا بالقضاء

عليها وحلها عن طريق الكنيسة، وهذه الجماعة هي التي عرفت باسم جماعة (أيمون)، وقصتها كالآتي:

أولًا: جماعة (أيمون) وتكوين جيش (السلم الشعبي):

وتبدأ قصة هذا القس المتطرف بعد أن أقرت الكنيسة الغربية ما عرف باسم: (سلام الرب) من أجل وقف الحروب بين أمراء وملوك أوروبا، واتخذت أقسى القوانين، رغب جميع الرهبان والقساوسة في إقرار (سلام الرب) هم أيضًا في مقاطعاتهم ومدنهم ولو اضطروا في سبيل تحقيق ذلك الهدف إلى حمل السلاح وسوق الناس إلى تطبيق هذا السلام بالقوة الجبرية، ومن هؤلاء القساوسة قس يدعى (أيمون) من مقاطعة (بورج) وكان يحتل منصب كبير الأساقفة في هذه المقاطعة.

وقد كتب عن (أيمون) أحد المعاصرين له يُدعى (أندرو)، وهو من مقاطعة (فليوري) تقريرًا عن جماعة (أيمون) الدموية بتاريخ (1038 م) يقول فيه:

«أراد (أيمون) فرض السلم في أبرشيته من خلال أداء اليمين، وقد دعا أساقفة مقاطعته إلى اجتماع أقسم فيه للرب ولقديسيه على آثار (ستيفن) وهو أول شهيد في سبيل (المسيح) وقال:»إنني سوف أهاجم بكل عزيمتي أولئك الذين يضطهدون الرهبان والراهبات والكهنة، وأولئك الذين يحاربون أمنا الكنيسة المقدسة إلى أن يتوبوا«» ثم يكمل قسمه فيقول:»وأن أتحرك بكل قواتي ضد أولئك الذين

يتجـرؤون بـأي شـكل عـلى انتهـاك مراسـيم السـلم، وألا أتوقـف بأي شـكل إلى أن يتـم إحبـاط مقاصـد الخائن».

وبنـاء عـلى هـذا التقريـر يتبـين طبيعة هـذه الجماعـة الدينيـة المتطرفة، والتـي انتهجـت القـوة في سـبيل تحقيـق أهدافهـا، وهكـذا امتثـل جميـع الأسـاقفة وأقسـموا عـلى يمـين (أيمـون)، بـل وقامـوا بجمـع جميـع الذكـور مـن بداية بلوغهم سـن الخامسـة عشر مـن عمرهم فـما فوقهم، وجعلوهـم ينضمـون إلى أبرشـياتهم المنفصلـة ويشـاركون هـم أيضًـا في تحقيـق عمليـة السـلم، أي: أن ينفـذوا هـذا السـلم باسـتخدام قـوة السـيف، وليـس عـن طريـق العظـات واسـتعمال الحكمـة، وجعلوهـم يـؤدون يمـين (أيمـون)، وقـد ربـط (أيمـون) العامـة مـن الذكـور بهذا القانـون قائلا: »إنهـم سـوف يكونـون عـلى قلـب رجـل واحـد خصومًا لأي انتهـاك للقسـم الـذي أدوه، وأنهـم لـن ينسـحبوا بـأي شـكل مـن الميثـاق، وأنهـم إذا مـا دعـت الـضرورة إلى ذلـك سـوف يطـاردون بالسـلاح أولئـك الذيـن يتنصلـون مـن القسـم». بـل وقامـوا بأخـذ (بيـارق / أعـلام) مـن محـراب الرب، وشـنوا الهجـوم على بقية حشـود العامـة مـن العلمانيين (غـير المتدينين مـن الرهبان والقساوسـة والكهنة) المدنيـين، والذيـن اعتبروهـم مـن وجهـة نظرهـم المتطرفـة مـن منتهكي (السـلام) الـذي أقسـم هـو وأتباعـه على حفظـه وصونـه مـن خرقه أو تد نيسه .

*الأعمال المتطرفة والمذابح التي قام بها القس (أيمون):

وقـد تمكـن (أيمـون) مـن تكويـن جيشـه لحفـظ (سـلام الـرب)، وأطلـق عليـه (جيـش السـلم الشـعبي)، ولم ينتظـر كثـيرًا مـن الوقـت،

فقد بدأ في شن الغارات والهجمات السريعة والمدمرة على عديمي الإيمان كما سماهم الذين يقومون بانتهاك (سلام الرب)، فقاموا بهدم القلاع بكل عنف وقسوة، وجعلوها والأرض سواء، ومن أبرز انتصاراتهم الدموية هو انتصارهم على قلعة (بينيكيا كوم) فقد اتهم (أيمون) سيدها بانتهاك (سلام الرب)، فقاموا بإحراق القلعة بالكامل، بل وقتلوا بدون أية رحمة كل من تمكَّن من النجاة بحياته من النار، فقد وجد سيوف جماعة (أيمون) بانتظاره لتحصد رقبته، فقاموا بقتل حوالي (1400) من السكان المحليين العزل الذين هربوا من الأساس من هجمات فرسان (أيمون) للاحتماء بالقلعة، فكان مصيرهم المؤسف هو الذبح على يد هذه الجماعة الإرهابية المتطرفة.

*نهاية جيش (السلم الشعبي):

وقد ظن (أيمون) وجيشه أنهم قد قدَّموا خدمة جليلة بهذه الجرائم البشعة في حق الأبرياء من العزل والذين لا ذنب لهم، وظنوا أن بإمكانهم النجاة من جرائمهم دون عقاب، فقد تمكَّن أحد النبلاء والذي جعله (أيمون) الضحية التالية له، وحاول أن يفعل معه مثل ما فعل من قبل في قلعة (بينيكيا كوم)، فقام هذا النبيل بعمل كمين لهم في أحد الأودية، وهزم جيش (أيمون)، بل وتمكن من قتل (700) كاهن، وبهذه الهزيمة تم القضاء على جيش (السلام الشعبي) تمامًا، وعرضت قضية (أيمون) وأتباعه على الكنيسة، فتم تطبيق القوانين التقليدية للكنيسة عليهم، والتي تتمثل في (الحظر على القساوسة والرهبان من حمل السلاح، أو المشاركة في الحروب).

وبعد عرض طبيعة جماعة (أيمون) وجيشه الذي كوَّنه من أجل فرض (سلام الرب) المقدس ليس بالحكمة والعظة، بل عن طريق استخدام السلاح والقوة المفرطة، وهذا وإن دل على شيء، فإنه يدل على سمات وطبيعة الجماعات والمليشيات المسيحية التي تكونت في تلك الفترة، فقد اتصفت بالدموية والتعطش لسفك الدماء، بل وتتطور الأمر إلى حب جمع الثروات والأموال حتى قال (أندروه): «إنهم أصبحوا ممسوسين بالطمع الأعمى، وحادوا عن سبيل الرب.» وهذا يفسر بوضوح طبيعة (فرسان الهيكل) والتي تكوَّنت في (القدس) حوالي عام (1119 م) أي: بعد (جيش السلام الشعبي) الذي كوَّنه (أيمون) بما يقرب (81) عامًا من تشابههم الكبير في الحب والتعطش إلى سفك الدماء، وتكوين الثروات، ولكنهم امتازوا عنهم بميزة خاصة، ألا وهي أنهم قد حصلوا على تفويض من رجال الدين والكنيسة بالقتل وجعلوه مقدسًا، بل وفي سبيل إرضاء الرب، فأصبحوا مباركين عندما يقتلون، وقديسين عندما يقتلون[10]

10 - ص (25، 26) – السلام الصليبي (الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي الغربي) – توماش ماستناك – ترجمة بشير السباعي – الطبعة الثانية (2009 م) – المركز القومي للترجمة (القاهرة).

ثانيًا: جمعية الهيكليين (فرسان الهيكل) أو (فرسان المعبد):

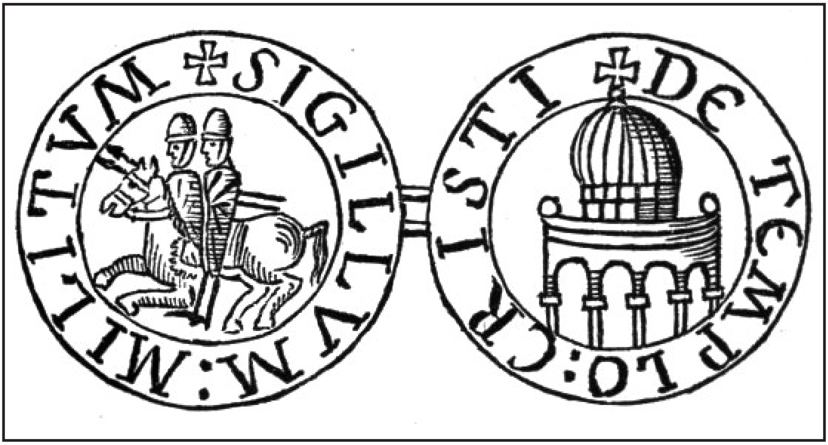

(شعار وختم فرسان الهيكل)

والآن نتكلم على هذه الجمعية الخطيرة، والتي لعبت دورًا أساسيًّا في حقبة الحروب الصليبية، وكان ظهور هذه الجمعية على الساحة الحربية في (بيت المقدس) تقريبًا سنة (119 م)، فقد أحدث ظهورها تحولًا كبيرًا في شكل وطبيعة الحروب والحملات الصليبية، وكان الغرض الأساسي والرئيسي لتكوين جماعة (فرسان الهيكل) هو حماية الحجيج المسيحيين الآتين للحج إلى الأراضي المقدسة، أي: كان الغرض من تأسيسها دفاعيًّا فقط، ولكن سرعان ما تحوَّل نشاطها إلى الهجوم، فقد مثلت حركة (فرسان الهيكل) بعد قيامها وتنظيمها الروح الصليبية الحقيقة من همجية وبربرية في القتل، فقد كان من أهم خصائصها حب سفك الدماء، والقتل بوحشية لكل أعداء المسيح والصليب.

وكان المقر الرئيسي لهذه الجمعية هو (القدس) عاصمة الصليبيين المقدسة، واتخذوا اسمهم من (هيكل سليمان) الموجود بالتوراة، والمفارقة هنا هو اتخاذهم اسم جمعيتهم من المكان الذي تم فيه ذبح ما لا يقل عن عشرة آلاف مسلم، وتم فيه غسل المعبد بدمائهم !! فكان هذا دليل على طبيعة وخاصية الجمعية الإرهابية وهي القتل فقط، وليس قتل أي عدو عادي، بل قتل الكفار (الساراسان) المسلمين فقط، وتتبعهم في كل مكان من الأراضي المقدسة حتى يتم تطهير البلاد منهم، فقد وصفهم أحد الكتاب المعاصرين لهم بأدق وصف فقال عنهم (جون) من إقليم (سالسبوري): «إن المهنة العادية لفرسان الهيكل قد تمثلت في سفك الدم البشري»، وتكونت هذه الجمعية في الأساس من الرهبان القادرين على حمل السيف والسلاح، والذي كان هدفهم من ذلك في اعتقادهم هو خدمة الرب، والتقرب إليه من خلال القتل، والتي تبدو على هيئة قرابين بشرية إلى الرب، فقد جعلوا عمليات القتل التي قاموا بها تأخذ صفة القداسة، وقد ساعدهم على تكوين وولادة هذه الفكرة الخطيرة مجموعة من الكتاب القساوسة والرهبان من خلال الرسائل التي كتبوها لهم، والفتاوي التي اصطبغت بالصبغة الدينية اللاهوتية، مما حفَّزهم ونشَّطهم لأداء مهمتهم المقدسة بكل حماس لا يفتر أبدًا، وبعزيمة من فولاذ، وهذا ظهر في حروبهم مع المسلمين، فقد كانت جماعة (فرسان الهيكل) من المليشيات الأساسية في الجيوش الصليبية، بل كانت من أعمدة انتصاراتهم الهامة في جميع حروبهم بعد ذلك، وأصبح لهم شأن خطير في صنع قرارات الحرب بعد ذلك.

أولًا: القديس (برنار) من (كليرفو):

ومن الكتاب المهمين الذين كان له عظيم الأثر في تكوين فكر وأيديولوجية (فرسان الهيكل) هو القديس (برنار)، وهو من كبار الرؤساء الدينيين المعروفين في الغرب آنذاك، وقد أيد بكل قوة هذه الجمعية بكتاباته وفتاويه، وكان لكتاباته تأثير عظيم على الكنيسة البابوية في ذلك الوقت، فقد جعلها تعترف بهذه الجمعية العسكرية بشكل رسمي على الرغم من مخالفتها في تكوينها تقاليد الكنيسة، والمتمثلة في تحريمها على الرهبان والقساوسة من حمل السيف، والدخول والمشاركة في الحروب مع الفرسان العلمانيين، ولكنه تمكن من نزع اعتراف رسمي في شرعية أهداف الرهبان الذين كوَّنوا هذه الجمعية، فقد ذكر في أحد كتاباته هذا الاعتراف قائلًا: «إن المراسيم البابوية قد وافقت على الجمعية الجديدة موافقة لا لبس فيها بالمرة، بحيث إن الشكوك في مشروعية المفهوم (يقصد مفهوم حمل الرهبان للسلاح) لم تعد منذ تلك اللحظة فصاعدًا تجد مكانًا لها في التيار الفكري الرئيسي في الكنيسة الغربية».

وهكذا اكتسبت جمعية (فرسان الهيكل) اعترافًا واحترامًا عظيمًا في العالم المسيحي الغربي، وأيضًا اعترافًا رسميًّا وشرعيًّا في القيام بالقتل المقدس باسم (المسيح)، وهكذا تمكن (برنار) من إضفاء الشرعية على العمليات العسكرية التي قامت بها جمعية (فرسان الهيكل)، بل وجعل من جرائمهم التي قاموا بها في حق المسلمين مقدسة ومشروعة، ولا وزر أو خطيئة عليهم من ارتكابها، والقيام بها مهما كانت هذه الجرائم بشعة وبربرية.

وقد قام (برنار) بوضع كتاب لهم أسماه: (الثناء على جمعية الفرسان الجديدة) قام فيه بمدح (فرسان الهيكل)، وكان من الذكاء بحيث إنه لم يمدحهم بشكل مباشر، وإنما تمثل مدحه لهم من خلال نقده للفرسان العلمانيين والأمراء الصليبيين، فقد قال عنهم ساخرًا:

«أهذه شارات عسكرية أم حلي نسوانية؟». فقد كان يقصد بهذه العبارة الواضحة الفرسان الذين انغمسوا في حياة الترف والبذخ ولبس الحرير من الثياب، والحلي الذهبية، وإطالة شعورهم، وتخليهم عن الانضباط العسكري اللازم والتدريب العسكري لمحاربة الكفار، ولهذا كان ظهور وتكوين جمعية (فرسان الهيكل) نوعًا خاصًّا وجديدًا من الفرسان، فقد ميَّزهم عن غيرهم من الفرسان أنهم رهبان أصبحوا محاربين بموجب عهود الرهبنة التي قاموا بها، وصليبيين محاربين خاضعين للانضباط الديري الصارم، فكانوا على درجة عالية من القوة الجسدية، والرغبة والحماسة الروحية الشديدة في القتال الروحي الداخلي، والمتمثل في الخلاص من رذائل وعلائق الدنيا وخطاياها، وهو يمثل الجانب الرهباني في تكوينهم، وأما الجانب القتالي الحربي فتمثَّل في حمل السيف وقتل والقضاء على الوثنيين وسفك دمائهم دون رحمة، والهدف من هذا القتل هو الحصول على الخلاص من الدنيا، والحصول على الأجر الأخروي، ولهذا أطلق عليهم (برنار) لقب: (جنود المسيح).

لقد كان لظهور هذه الجمعية البديل القوي والمؤثر عن الجيش الصليبي العلماني، فقد غيَّروا طبيعة الحروب التي خِيضت بعد ذلك مع المسلمين، فقد كانوا مقدسين في حربهم وفي حياتهم اليومية العادية، وقد مثل لهم (برنار) السند الشرعي لهم، بل يعتبر واضع لائحة النظام الخاصة بهم من خلال

كتابه سابق الذكر، وهو بذلك يعتبر المؤسس الروحي لهم، فقد كانوا في نظره يحاربون من أجل نصرة (السيد المسيح)، أما الجيوش الصليبية العلمانية فقد كانوا -من وجهة نظره- يحاربون من أجل مكاسب دنيوية حقيرة، وأطماع خسيسة لا علاقة لها بالحرب المقدسة، وبالتالي فهم يحاربون في سبيل الشيطان على عكس (فرسان الهيكل)، وبالتالي ليس عليهم القلق من مسألة القتل أو سفك الدماء باعتبارها من أعظم الخطايا في المسيحية، فهي مبررة على أنها في سبيل الرب، وحماية الممتلكات والأراضي المقدسة، وأنها تطهير للأراضي المقدسة من نجس الوثنيين.

ومن الأمثلة الشاذة لأفكار (برنار): «في موت الوثني يكسب المسيحي المجد؛ لأن المسيح إنما يجري تمجيده بهذا القتل !!

وهكذا نجد أن أفكار القديس (برنار) في تقديس القتل قد مثلت جريمة في حق الإنسانية جمعاء، فقد قام بعملية غسل دماغ للرهبان الذين انضموا إلى جمعية (فرسان الهيكل) بأن وصفهم (بمليشيا الرب)، وجعل مهمتم الأولى والوحيدة هي القتل وسفك الدماء، وجعلهم يقتنعون أن ما يقومون به هو إرضاء للرب، وفي سبيل إنقاذ المسيحية والأراضي المقدسة من يد الوثنيين (الساراسان)، وبهذا أعطاهم تفويضًا إلهيًّا لجميع جرائمهم التي ارتكبوها في حق المدنيين العزل، دون تفريق بين رجال ونساء وأطفال وعجائز.

ثانيًا: (جيجو) الرئيس الخامس لدير (لاجراند شارتروز):

وهو أيضًا كان من المتحمسين لجمعية (فرسان الهيكل) ومؤيدًا لأعمالهم الحربية، فقد قال مشجعًا للذين يرغبون في الانضمام إلى (فرسان الهيكل) قائلًا لهم:

«فلنبدأ بتطهير أرواحنا من الرذائل، ثم ننتقل إلى تطهير الأراضي المقدسة من البرابرة» يقصد بذلك تحفيز كل من يرى في نفسه الرغبة في تطهير روحه من الذنوب والخطايا بأن يبدأ بتطهير روحه. فإذا لمس في نفسه النقاء والطهارة، فلينتقل إلى المرحلة التالية والأهم، وهي الانضمام إلى (فرسان الهيكل) ليشترك معهم في حروبهم المقدسة من أجل طرد وتطهير هذه الأرضي من البرابرة (يقصد المسلمين).

ثالثًا: (إيلجيه) أسقف مقاطعة (أنجيه):

وهو أيضًا من الذين مدحوا مجهودات وأعمال (فرسان الهيكل) الحربية فقد وصفهم قائلًا:

«يقاتلون أعداء الرب، ولا يترددون في أن يهبوا أرواحهم ويريقوا دماءهم إلى أن يسحقوا ويستأصلوا الوثنيين الكافرين من الأماكن المقدسة». ونلاحظ هنا إضفاء صفة الملحمية والبطولة في أعمال (فرسان الهيكل)، مما يجعلهم محط إعجاب كل مسيحي غربي، بل تشجيع رسمي لكل متردد في الانضمام إليهم ليكون مثلهم.

رابعًا: البابا (سليستين الثاني):

فقد أصدر مرسومًا كنسيًّا في غاية الخطورة لصالح (فرسان الهيكل) فقد قال عنهم في مرسومه:

«إنهم ينفذون العمل المقدس الذي يتمثل في تحرير (الكنيسة الشرقية) من رجس الوثنيين !!»[11]

11 - ص (234) إلى ص (240) باختصار– المرجع السابق.

وبهذا أصبحت جمعية (فرسان الهيكل) جمعية حربية مقدسة بموجب كل هذه الفتاوى وهذا المرسوم، والذي أعطاهم بموجبه تفويضًا إلهيًّا في حمل السلاح والقتل، وبدءوا عملهم بكل حماس، وبشكل منظم وممنهج، والذي تمثل في عمليات القتل الجماعي في حق المسلمين، وبقلب تملؤه السكينة والطمأنينة، بل والفخر والفرح، سواء قتل الوثني الكافر أو الموت على يديه، فهو في كلتي الحالتين الفائز، ففي الأولى هو ينفذ مشيئة الرب، وفي الثانية يحصل على خلاصه الأخروي والنجاة من الدنيا.

* نهاية جمعية (فرسان الهيكل) على يد ملك فرنسا (فيليب الرابع):

وقد كانت نهاية جمعية (فرسان الهيكل) نهاية مستحقة على جرائمها الشنيعة، فكما كان تكوينها على يد الكتاب من الرهبان والقساوسة مقدسًا، كانت نهايتها والقضاء عليها من الأعمال المقدسة، فقد صدر في مجمع (فيينا) والذي أقيم بين سنتي (1311 م – 1312 م) أي: بعد حوالي قرنين من تكوين جمعية (فرسان الهيكل) ظهر على الساحة السياسية الأوروبية ملك جديد، هو ملك فرنسا (فيليب الرابع)، وقد امتاز هذا الملك بالثقافة والقوة والحنكة السياسية، وقد رأى أن من مصلحته السياسية القضاء على قوة ونفوذ (فرسان الهيكل)، وذلك من أجل الحصول على ثرواتهم الكبيرة، والتي حصلوا عليها من أموال وممتلكات المسلمين أثناء حروبهم معهم في بلاد الشرق، وبعد نقل مقرهم من (القدس) إلى جزيرة (قبرص)، والتي

أصبحت مقر عملياتهم العسكرية بعد ذلك، وكان ذلك بعد استرجاع المسلمين (للقدس الشريف) من الصليبيين، وبدء انهيار القوى الصليبية أمام (الأيوبيين) و(المماليك) بعد ذلك.

وفي مجمع (فيينا) وجَّه إلى (فرسان الهيكل) تهمة الهرطقة، وهي من أخطر التهم، فقد تصل عقوبتها ليس فقط الحرمان من الكنيسة، ولكن قد تصل إلى القتل، وهذا ما حدث مع (فرسان الهيكل)، فقد تم اصدار مرسوم كنسي خاص بإلغاء جمعية (فرسان الهيكل) ومصادرة ثرواتها فقد أعلن فيه:

«إن ثروات هذه الجمعية سوف تُستخدم لأجل عزة الرب وتمجيد الدين المسيحي!! وتوفير الرخاء للأرض المقدسة» وهذا يدل على مدى ضخامة هذه الثروات، والتي جعلت الملك (فيليب الرابع) يطمع بها ويرغب في الحصول عليها بشدة، وبهذا المرسوم حصل (فيليب الرابع) على العشر من أموال الكنيسة العالمية ولمدة ست سنوات قادمة، بحجة التمويل من أجل القيام بحملة صليبية جديدة، والذي ساعد الملك (فيليب) في تحقيق هذا الهدف هو البابا (كليمانس الخامس)، وهو فرنسي الأصل، وكان لين العريكة سهل الانقياد، فانصاع لرغبات الملك (فيليب)، وأصدر المرسوم الذي قام فيه بحل وإلغاء جمعية (فرسان الهيكل) ومصادرة أموالهم، بل وقام بحرق عددٍ منهم على الخازوق[12].

وهكذا حصلت (فرسان الهيكل) على النهاية التي تستحقها، فكما كان تكوينها وإنشاؤها مقدسًا وباسم الإله، كذلك كانت نهايتها مقدسًا وباسم الإله أيضًا.

---

12 - ص (350) المرجع السابق.

الزنا تحت عباءة الدين
نكاح الجهاد عند الصليبيين

في السنوات الأخيرة من العالم العربي والإسلامي، وبعد أن ظهرت على الساحة السياسية الجماعات المسلحة، وبعد قيام الثورات في المنطقة العربية، وظهور جماعة (داعش) في (العراق) و(سوريا)، وتمكنها من السيطرة على أجزاء شاسعة من هاتين الدولتين، وتهديدها المباشر لدول المنطقة بأسرها، ظهرت على شاشات الفضائيات قضية خطيرة، وقد روّج لها بشدة، وحاول البعض إلصاقها بالدين الإسلامي، وهذه القضية هي قضية (نكاح الجهاد)، والتي تبنتها جماعة (داعش) في (العراق) و(سوريا)، فهل فعلًا كانت هذه الجماعات الإسلامية المتطرفة هي الأولى التي ابتدعت هذا النوع من النكاح؟ أم سبقتها جماعات أخرى من أديان ومذاهب مختلفة؟

وقد حيرني هذا السؤال لمدة ليست بالقصيرة، ولكن أثناء مطالعتي في تاريخ الحملات الصليبية، لفت انتباهي تشابه غريب، والذي لا أظنه من قبيل المصادفة، وأقصد به قيام جيوش الصليبيين

في حروبهم بعمل نفس الشيء، وفاجأني أن أول من ابتكر هذا النوع من النكاح (الزنا) وأباحه هم الصليبيون أنفسهم، وليس المسلمون، ففي أثناء حروب الجيوش الصليبية مع المسلمين في بلاد الشام، ولطول المدة وعدم اصطحاب هؤلاء الجنود لنسائهم وزوجاتهم، ظهر فيهم وبينهم الشذوذ الجنسي !! وقد أرَّق ذلك قادة الحملة الصليبية وأمراءها، وأخذوا يفكِّرون في إيجاد حلٍّ سريع لهذه المشكلة الخطيرة، والتي تهدد سمعتهم، بل وقد تقضي على مستقبل الحملات الصليبية في بلاد الشام، ولا تمكنهم من تحقيق أهدافهم وغاياتهم المقدسة.

ولم يجد قادة الجيوش الصليبية سوى حل واحد هداهم تفكيرهم الطويل إليه، فليس من الممكن تزويج جميع الجنود في الجيوش الصليبية دفعة واحدة، ومن الصعب أيضًا إن لم يكن من المستحيل جلب زوجات ونساء هؤلاء الجنود من أوروبا إلى الشرق، فهذا يتطلب وقتًا طويلًا وتكاليف مادية كبيرة، إذًا ما هذا الحل الذي هداهم تفكيرهم إليه؟ لم يجد أمراء وقادة الحملات الصليبية سوى أن يطلبوا من الجزر القريبة من سواحل بلاد الشام أن يجلبوا لهم نساء شابات وجميلات من أجل الترفيه عن الجنود المتعبين من الحروب، وإشباع رغباتهم الجنسية والجسدية، وهذا ما حدث بالفعل، وقد كتب بعض المؤرخين المسلمين عن هذه الحادثة في كتبهم من بينهم (ابن العماد الأصفهاني) و(أبو شامة المقدسي) فقد كتبوا لنا عن ذلك التالي:

«أثناء حصار الصليبيين لمدينة (عكا) سنة (1189 م) وصلت مركب وبها حوالي ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة (أي: جميلة)،

اجتمعن من الجزائر وانتدبن من الجزائر، وقصدن بخروج تسبيل (أي: تسهيل) أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العزبان (جمع عازب وهو الرجل الذي لا زوجة له) ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه القربة ما فوقها قربة، ولا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة»(انتهى)[13]

فإذا نظرنا إلى هذه الرواية، والتي كُتبت في سنة (1189 م) ونحن اليوم في سنة (2018 م) أي: بينهما حوالي (829) عامًا، أليس غريبًا أن تتكرر الأحداث، ولكن باختلاف الدين والملة؟

لماذا لا نربط تشابه هذه الأحداث بين جيوش الصليبيين وما فعلته (داعش) كونهم تمكَّنوا من إقناع النساء وفتيات المسلمات من القدوم من بلادهم وترك عائلاتهم، والزواج من مقاتليهم، وجعلوا ذلك من مراتب الجهاد، أن أصحاب هذه الأيديولوجية ليسوا من المسلمين، بل من المرجح أنهم من الغرب الذين يقرءون التاريخ، ويرغبون في مشاركة المسلمين لهم في نجاستهم الفكرية فنكون سواء، ولا نكون أفضل منهم، فيطلع علينا من يسمي نفسه مفتي الجماعات المتطرفة، ويفتي بجواز هذا النوع من النكاح، وأن الشريعة الإسلامية تجيزه وتبيحه!.

---

13 - ص (288) – مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي) – للإمام أبي شامة المقدسي – تصنيف الدكتور محمد موسى الشريف – الطبعة الثالثة (1424هـ / 2003م) – دار الأندلس الخضراء – المملكة العربية السعودية (جدة)، وانظر أيضًا -ص (334، 335) – تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى – دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور – الطبعة الأولي (1999 م) – دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت، لبنان.

ولهـذا أطالـب فئـة المثقفـين في العـالم العـربي أن يقـرؤوا التاريـخ ويدرسـوه ويفهمـوه بتعمـق، ولا يتعجلـوا في إصـدار الأحـكام جُزافًـا عـلى الإسـلام دون فهـم لـه، وحتـى ولـو افترضنـا بـأن هنـاك مـن العلـماء أو مـن بعـض الذيـن ينتسـبون إلى الديـن حقًّـا أو زورًا، وصـدرت منـه بعـض هـذه الآراء أو الفتـاوى الشـاذة، فهـي باطلـة شرعًـا وعقـلًا، ولكـن ليـس مـن الإنصـاف في شيء أن نتهـم الإسـلام وعلـماءه بأنهـم يبيحـون أنواعًـا شـاذة مـن النـكاح، أو ننقـب عـن الآراء الغريبـة التـي ربـما لم يسـمع بهـا، أو أنهـا صـدرت مـن قبيـل المسـائل البحثيـة الاحتماليـة الخياليـة، وليسـت حقيقيـة، ونرمـي بهـا علـماء الإسـلام، ونصفهـم بالجهـل والبربريـة.

***

نشر الدين عن طريق الدياثة

استخدام النساء كسلاح في الحروب الصليبية

لم تكن فكرة استخدام النساء في الحروب من الأمور المبتدعة أو الجديدة في تاريخ الحروب، فقد قام بذلك قادة الحملات الصليبية من قبل كما ذكرنا في حصار مدينة (عكا) كما أشرنا من قبل، ولكنه كان أمرًا غير ممنهج، وكانت له ظروف خاصة واستثنائية، ولكن ظهر بعض المفكرين من الغرب وقبل نهاية الحروب الصليبية دعا عن طريق تطوير التعليم واستخدامه، أن تدرج خطة استغلال النساء وخصوصًا الجميلات منهن من أجل نشر المسيحية بين الكفار البرابرة، والحصول على أكبر قدر من الأراضي التي تخضع تحت سيطرة وحكم المسلمين من خلال الزواج من هؤلاء النساء، وتحويل أزواجهن من الدين الإسلامي إلى الدين المسيحي عن طريق الزواج (على اعتبار أن المسلمين حيوانات شهوانية تتحكم فيهم غرائزهم فقط)، وأبرز من صوغ هذه الأفكار في برنامج تعليمي واضح المعالم هو (بيير ديبوا).

*(بيير ديوا) وفكرة استخدام النساء في الحروب ضد المسلمين:

من أبرز المفكرين والكتاب الفرنسيين في العصور الوسطى، ومن الدعاة الكبار الكاثوليك، وكانت أفكاره وكتاباته تتمتع بقدر كبير من الغرابة والشذوذ، فقد كان من أنصار الحروب الصليبية، وقد وظَّف جهوده الفكرية والعقلية لنصرة القضية الصليبية، ولكن بشكل مختلف عن معاصريه من الكتاب والدعاة، فقد كان صليبيًّا من نوع آخر، وذلك أنه دعا إلى حرب المسلمين، ولكن ليس عن طريق الحرب المباشرة وحمل السلاح، ولكن من خلال الغزو الفكري العلمي، وعن طريق الدياثة (استخدام النساء) في تحقيق الأهداف الصليبية (وهذا ما تم تحقيقه بعد قرون من انتهاء الحروب الصليبية، فقد تمكنت الدول الاستعمارية في العصور الحديثة من غزو الدول العربية والإسلامية من خلال الغزو العلمي والفكري، بل وبالفعل عن طريق المحرمات من الخمر والنساء والمخدرات).

*وقد ابتكر (بيير ديوا) نظامًا تعليميًّا منظمًا يقوم على النقاط التالية:

أولًا: دعا (بيير ديوا) إلى تعليم الجنسين من الشباب (الذكور والإناث) من أبناء الغرب الأوروبي، وتدريبهم من أجل الذهاب إلى أراضي الشرق الإسلامي، وقد وضع برنامجًا للتعليم في غاية الانضباط والتنظيم يقوم على الآتي:

1. استيطان وإدارة الأراضي البعيدة المفتوحة على أيدي القادة الصليبيين.

2. تدريب الطلاب (الذكور) على فنون القتال واستخدام السلاح وتدريبهم على الفنون الحربية والعسكرية.

3. تعليم الطلاب الفنون الميكانيكية المفيدة في عمليات القتال والحرب.

4. دراسة اللغات الشرقية المتعددة وإتقانها، وذلك من أجل التفاهم مع السكان الشرقيين، والهدف من ذلك هو أن تكون هذه اللغات وإتقان التحدث بها أداة للإدارة والسيطرة على بلاد المسلمين (وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك من خلال حملات التبشير النصرانية في أفريقيا وأسيا، ومن خلال المستشرقين في الدول العربية).

5. إنشاء مدارس للأولاد والبنات المسيحيين في كل مقاطعة في أديرة (الهيكليين) و(الأوسبتاليين).

6. تكليف ما أسماه (بالفيلسوف الحكيم) والذي تكون مهمته الأساسية هو اختيار الأطفال الذين يجب تعليمهم، وذلك على ألا يرجع أي من الأطفال المختارين إلى آبائهم، مالم يرد الآباء جميع الأموال التي أنفقت على تربيتهم، وكان غرض (بيير ديبوا) من هذه الفكرة هو استخدام الأطفال كأداة من أدوات فرض السيطرة المسيحية على الكفار (المسلمين) وغيرهم من الشعوب الأخرى.

7. بعد أن يتم تعليم وتدريب الأطفال بشكل لائق ومتقن يجب إرسالهم إلى الأرض المقدسة، بعضهم كرجال دين (قساوسة ورهبان) وبعضهم كأطباء وجراحين (بشري، وبيطري)،

والغـرض مـن ذلـك هـو مسـاعدة الجيـش الصليبـي أثنـاء حروبه، والسـكان كلهـم في البـلاد المفتوحـة.

*استخدام النساء والفتيات في فرض المسيحية والسيطرة على بلاد الشرق الإسلامي:

ونـأتي هنـا إلى النقطـة الأساسـية والمهمـة في مقالنـا هـذا، ألا وهـي اسـتخدام النسـاء والفتيات في الحـروب الصليبية، وهـي النقطة الأخطر في النظـام التعليمـي الـذي وضعـه (بيـير ديبـوا)، فقـد طالـب بتعليـم الفتيـات النابهـات القراءة والكتابـة، والطب والجراحة، ولكنه أشـار إلى فئـة مـن الفتيـات، وأقصد بهـن الجميلات ومـن ذوات الأصـول النبيلة والبيـوت الراقيـة، فـإذا كـن هـؤلاء الفتيـات عـلى قـدر كبير مـن الجمال (الخلقـي والجسـدي)، فسـوف يتم فصلهـن في فئة مميزة، وسـوف يجري تبنيهـن مـن جانـب الأمـراء في بلادهـن الأصليـة، وحينما يتم إرسـالهن إلى الأراضي المقدسـة سـوف يتـم تبنيهـن هنـاك مـن جانـب الأمـراء في الأراضي المحتلـة مـن قبلهـم (يقصـد أراضي الشرق الإسـلامي).

ثـم تـأتي الخطـوة التاليـة، وهـي تزويـج هـؤلاء الفتيـات مـن قبـل الأمـراء الصليبيـين إلى المسـلمين مـن الأمـراء ورجـال الديـن:

وهنـا يشـير (بيـير ديبـوا) إلى كيفيـة اسـتخدام جمـال وحسـن هؤلاء الفتيـات مـن أجـل نشر المسـيحية، وذلـك عن طريـق تزويجهـم إلى كبار أمـراء الـشرق الإسـلامي، وأيضًـا إلى كبـار رجـال الديـن الإسـلامي، وذلـك اعتقـادًا منـه أنهـا الوسـيلة الناجحـة في تحقيـق خطتـه وأهدافـه، ألا وهـي:

1. أن يجعلوا هؤلاء الأمراء ورجال الدين المسلمين يكتفون بالزواج منهن وعدم التعدد.

2. التوقع أن تكون الذرية الناتجة من هذه الزيجة مسيحية (يقصد الأبناء)، فقد كانت القصص المتوارثة في الأدب الشعبي الأوروبي في العصر الوسيط تصور الوليد الناتج من فتاة مسيحية وأب مسلم أنه قطعة من اللحم لا شكل لها، ولكن بمجرد القيام بعملية التعميد على الطريقة المسيحية يصبح الطفل من أجمل الأطفال، فيختفي شعره الأشعث القبيح، أو يكون هذا الطفل على هيئة مشوهة (منقسم إلى قسمين أحدهما لونه أسود والقسم الآخر أبيض اللون) وبمجرد تعميد هذا الطفل يتحول لون جسد هذا الطفل بالكامل إلى اللون الأبيض الناصع لا شائبة فيه نهائيًّا، وذلك على شرط وهو أن تقوم الأم بعملية تعميد وليدها بنفسها، ودون تدخل من أحد أو مساعدة من أحد في ذلك، وهنا يشير (بيير ديبوا) أن الأب الوثني الكافر عندما يرى هذه المعجزة تحدث أمام عينيه سوف يتبنى هو الآخر الدين المسيحي، ويدخل طواعية ودون إكراه من أحد.

وقد عرفت هذه الفكرة السياسية الخطيرة باسم (التنصير عبر التدييث) في فكر (بيير ديبوا) وقد استندت إلى حقائق تاريخية، فربما ما رآه من تمكن (الساراسان المسلمين) من فرض سيطرتهم على مساحات شاسعة من بلاد الشرق الإسلامي أو حتى في بلاد الغرب (الأندلس)، وكذلك ما رآه من وفرة ثرواتهم وممتلكاتهم، ونظر إلى مسألة تعدد الزوجات في الدين الإسلامي والذي تبيحه الشريعة الإسلامية، فقد ظن أن هذه طبيعة رجال المشرق الإسلامي، أقصد

أنـه ظـن أن طبيعتنا شـهوانية، وأن لدينا الحب في الاسـتكثار من النسـاء (وهـذه حقيقـة، ولكـن لا تنطبق عـلى جميع رجـال الشرق، وإنـما تنطبق عـلى بعضهـم فقـط) فاعتقد (بيـير ديبـوا) أن بإمكانـه النفـوذ من خلال هـذه النقطـة إلى فـرض السـيطرة المسـيحية الصليبيـة، ولكن عـن طريق اسـتخدام النسـاء بـدلًا من الحـرب المباشرة واسـتخدام السـلاح، وهذا مـا اسـتخدمته الـدول الأوروبيـة فيـما بعـد، ولكـن تحـت مسـمى آخر، وهـو (الاسـتعمار الثقـافي) للبـلاد الإسـلامية، وما تـزال تسـتخدمه مع الـدول العربيـة والإسـلامية إلى يومنا هـذا[14]

***

14 - من ص (381) إلى ص (382) – السلام الصليبي (الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي الغربي) – توماش ماستناك – ترجمة بشير السباعي – الطبعة الثانية (2009 م) – المركز القومي للترجمة (القاهرة).

الفرنجة وانعدام غيرتهم على نسائهم من مذكرات الأمير أسامة بن منقذ

إكمالًا للمقال السابق أحببت أن أعرف لماذا كان تفكير أحد مفكري الفرنج عن استخدام المرأة في الحرب كأداة للنصر على الأعداء؟ فقد ذكر أحد فرسان المسلمين المجاهدين ضد الصليبيين والذي خبر حياتهم واحتك بهم كثيرًا، بل كان أحد سفراء السلطان (نور الدين محمود السلجوقي)، وأقصد به الفارس (أسامة بن منقذ) فقد وضع كتابًا مهمًّا في الحروب الصليبية، وفيه الكثير من طبائع الفرنج الذين أقاموا إماراتهم في بلاد الشام، وقد سمى هذا الكتاب: (الاعتبار)، وقد ذكر عن نخوة وغيرة الفرنج على نسائهم وزوجاتهم فقال:

«وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى !!!».

وطبعًا هذا التصرف في نظر (أسامة) من الأمور المستقبحة، وهي فعلًا من الأمور المستقبحة ولا ترضي أي رجل صاحب مروءة، ويكمل (أسامة بن منقذ) مشاهداته عن طباع الفرنجة فيكمل:

«ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى (نابلس) أنزل في دار رجل يقال له: (معز داره) عمارة المسلمين لها طاقات (شبابيك) تفتح إلى الطريق، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار، يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول:»فلان التاجر قد فتح بيته من هذا الخمر، من أراد منها شيئًا فهو في موضع كذا وكذا»، وأجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة، فجاء يومًا ووجد رجلًا مع امرأته في الفراش!! فقال له:»أي شيء أدخلك إليَّ عند امرأتي؟ قال:»كنت تعبان كذا دخلت أستريح»، قال:»فكيف دخلت إلى فراشي؟». قال:»وجدت فراشًا مفروشا نمت فيه» قال:»والمرأة نائمة معك؟»قال:»الفراش لها، كنت أقدر منعها من فراشها؟»قال:»وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت»فيعلق (أسامة) على موقف بائع النبيذ المتراخي بقوله مستهزئًا به:»فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته».

ثم يكمل (أسامة بن منقذ) كلامه عن عدم غيرة الفرنجة على نسائهم، فينقل عن رجل حمامي (يعمل في حمام الرجال مغسل) **فيقول**:

«ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يقال له: (سالم) من أهل (المعرة) يقصد (معرة النعمان) في حمام لوالدي رحمه الله قال:»فتحت حمامًا في (المعرة) أتعيش فيها، فدخل إليها فارس منهم وهم ينكرون

على من يشد في وسطه المئزر (منشفة تربط في وسط الجسم لستر العورة) في الحمام، فمد يده فجذب مئزري من وسطي فلما رآني، وأنا قريب عهد بحلق عانتي (يقصد متطهر من الشعر الزائد في منطقة العورة) فقال:»(سالم)» فتقربت منه، فمد يده على عانتي وقال:»(سالم) جيد!! وحق ديني اعمل لي كذا (يقصد يحلق له شعر عانته)»واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع، فحلقته فمد يده عليه فاستوطأه (لمسه) فقال:»(سالم) وحق دينك اعمل للداما (وهي في لغتهم تعني الزوجة) وقال لغلام:»قل للداما تجيء» فمضى الغلام أحضرها وأدخلها، فاستلقت على ظهرها وقال:»اعمل لها كما عملت لي !!»، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني، فشكرني ووهبني حق خدمتي.

*وهنا يعلق (أسامة) تعليق شديد الغرابة فيقول تعقيبًا على هذه القصة:

«فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم، ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة».

*ويذكر (أسامة بن منقذ) حادثة حدثت معه شخصيًّا فيخبرنا عنها، فيقول:

«ومما يقارب هذا (أي/ الحادثة السابقة) أنني دخلت الحمام بمدينة (صور) فجلست في خلوة فيها، فقال لي بعض غلماني:»في الحمام معنا امرأة!»، فلما خرجت جلست على المصاطب، وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة

مـع أبيهـا ولم أتحقق أنهـا امـرأة، فقلت لواحـد مـن أصحابي: «أبصر هذه امـرأة هـي؟»، وأنـا أقصـد أن يسـأل عنهـا، فمضى وأنـا آراه رفـع ذيلها وطلـع فيهـا، فأدخلتهـا معـي الحـمام غسـلت رأسـها، قلت: «جيـد مـا عملـت هـذا لك فيـه ثـواب»[15].

والجديـر بالذكـر أن طبائـع الغـرب عـلى رغـم تمدنهـم الآن لم تتغـير طباعهـم بشـأن النخـوة والغـيرة عـلى نسـائهم إلا قليـلًا، وهـذا يظهـر مـن خـلال أفلامهـم وتمثيلياتهـم التي نراهـا على شاشـات التلفـاز، وقد حـاول الاسـتعمار الحديث أن ينقـل إلى المسـلمين طباعهم هـذه على أنها مـن المدينـة والتحـضر، ويعيبـون علينـا نحـن المسـلمين التـزام نسـائنا بغطـاء الـرأس واللبـاس المحتشـم، ويعتبرونـه مـن مظاهـر العبوديـة القديمة.

***

15 - ص (135) وص (136) – كتاب الاعتبار– أسامة بن منقذ – طبعة (2002م) – دار الهلال (القاهرة).

تحالف (الحلة) الشيعي الصليبي ضد العباسيين

(الحلة) هي مدينة تقع بين مدينتي (الكوفة) و(بغداد)، وقد كانت عاصمة لإمارة عربية في العصر الوسيط، وذلك في فترة حكم الخلافة العباسية، ومؤسسو هذه الإمارة ينتميان لبطنين من أعظم بطون قبائل العرب، وهما (بنو مزيد) و(بنو دبيس)، وهما فرعان من قبيلة (بني أسد) القبيلة العربية العريقة في الجاهلية والإسلام، وهما أبناء عمومة، وبينهما أواصر صهر ونسب، وكانت محلاتهم ومساكنهم ممتدة ومعروفة، فكانت مساكنهم ممتدة من (بغداد) إلى (البصرة) إلى (نجد)، وكانت (النعمانية) أيضًا من ضمن مساكنهم، وهذه كانت مساكن (بني مزيد)، أما مساكن (بني دبيس) فقد كانت مساكنهم في (خوزستان) في جزائر هناك معروفة بهم، وقد بدأت دولتهم في الظهور في عهود الضعف التي ضربت الخلافة العباسية، وقد ساندتهم دولة (بني بويه) الشيعية، وذلك أن (بني مزيد) و(بني دبيس) كانوا شيعة مثلهم، ولهذا ساندوا إمارتهم الناهضة، وكان لهذه الإمارة دور كبير في زيادة ضعف الخلافة العباسية، بل كانت مشاركة في جميع الأحداث السياسية الجسام على الساحة في ذلك

الوقت، بل كانوا خونة للأمة، فقد شاركوا الصليبيين في حصارهم وحربهم للمدن الإسلامية.

وليس هذا موضوع كتابة تاريخ هذه الإمارة، أو تاريخ دولتهم في مدينة (الحلة) والمدن التي حكموها وما حولها، فقد امتد سلطان إمارة (بني دبيس) حتى شملت (البصرة) و(تكريت) و(هيت) و(واسط) و(الجزيرة الدبيسية)، ولكن المهم هنا أن نعرف أن هذه الإمارة الشيعية كانت وبالًا على المسلمين، وعلى الأمة الإسلامية جمعاء، فقد احترفوا أعمال السلب والنهب والسبي، وإحراق المدن، ومحاربة الخلفاء العباسيين، فقد كان همهم الأول والأخير هو مصلحتهم المذهبية والشخصية فقط، وسوف أتناول أهم الأحداث والفتن التي شاركوا فيها ضد الخلافة العباسية (ببغداد)، ثم أذكر تحالفهم مع الجيوش الصليبية عند مجيئهم إلى بلاد الإسلام.

أولًا: مشاركة (نور الدولة دبيس بن مزيد) مع (أبي الحرث أرسلان البساسيري):

وهي الفتنة المعروفة في التاريخ الإسلامي (بفتنة البساسيري)، فقد كان (أرسلان البساسيري) من قواد الخلافة العباسية المقربين، ولكن في سنة (448 ه) حدثت وحشة بين (البساسيري) وبين الخليفة (القائم بالله أبي جعفر عبد الله بن أحمد القادر بالله) لأسباب كثيرة ليس هنا المجال لذكرها، وزادت هذه الوحشة عندما أحس أن الوزير (رئيس الرؤساء أبي القاسم علي بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر بن المسلمة)، فسار إلى (دبيس بن بدران) وراسل الخلافة الفاطمية لإقامة الدعوة لهم في (بغداد)، وإسقاط الخلافة

العباسية نهائيًّا، فأرسل له الخليفة الفاطمي (بمصر) (المستنصر بالله) جميع أموال الخزانة، وكانت أموالًا طائلة، وأرسل له أيضًا الخلع والألوية الفاطمية، وساعده في تحقيق مراده أمير (الحلة) الأمير (دبيس بن مزيد)، وتمكن (البساسيري) من دخول عاصمة الخلافة العباسية (بغداد)، وقبض على رئيس الرؤساء (أبي القاسم بن المسلمة)، ومثَّل بجثته أبشع تمثيل، وصلبه على الخشب، وخطب للخليفة الفاطمي على منابر جوامع ومساجد (بغداد) لمدة عام كامل، وكان الخليفة تحت الإقامة الجبرية لا حول له ولا قوة، حتى أتى السلطان (طغرل بك) سلطان (السلاجقة) من بلاد فارس سنة (450 ﻫ)، وحارب (البساسيري) وأعوانه وانتصر عليهم، وقبض على الخائن (البساسيري) وقتله، وفر (دبيس بن مزيد) من أمام السلطان (طغرل بك) وطلب الصلح، فصالحه السلطان وعاد إلى مدينته (الحلة) فوجدها خرابًا، فقد ضربها الوباء وقضى على معظم أهلها[16].

ثانيًا: محاربة (دبيس الثاني بن صدقة) للخليفة العباسي (المسترشد بالله):

وكان ذلك في سنة (516 ﻫ)، وكان سبب هذه الفتنة وهذه الحرب أن (دبيس الثاني بن صدقة) كان قد أسر أحد خدم الخليفة العباسي، وكان يُدعى (عفيفًا) فأطلقه وأرسل معه رسالة فيها التهديد والوعيد

---

16 - ص (263، 264) – تاريخ الشيعة (السياسي الثقافي الديني) – تأليف العلامة الشيخ سليمان ظاهر (عضو المجمع العلمي العربي بدمشق) – حققه وضبطه عبد الله سليمان ظاهر – المجلد الأول – الطبعة الأولى (1422 ﻫ / 2002 م) – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – (بيروت – لبنان).

الشديد للخليفة، ولبس (دبيس) السواد وجز شعره (حلق شعره) وحلف لينهبن ويخربن عاصمة الخلافة العباسية (بغداد)، فغضب الخليفة غضبًا شديدًا لهذا التهديد، وأمر بالركوب من أجل الحرب والجهاد، وأمر قائده (برسق) بالتأهب والتجهز للخروج والحرب مع (دبيس)، فخرج (برسق) للحرب في شهر رمضان سنة (516هـ) وتجهز الخليفة هو أيضًا وخرج بنفسه مع الجيش، وقام باستدعاء الجنود والعساكر والقواد، فأتاه من القواد (قرواش بن مسلم) و(سليمان بن مهارش) صاحب مدينة (الحديثة) في (عقيل) وغيرهما من القواد لعظم الخطب والحدث، وفي تلك الأثناء قام (دبيس بن صدقة) بإرسال بعض جنوده إلى (نهر ملك) فنهبوه وعمل أصحابه كل فعل عظيم من أعمال الفساد، فوصل أهله إلى (بغداد)، وهنا أمر الخليفة بالنداء العام في (بغداد) وألا يتخلف أحد من الجنود، وفتح باب التطوع للعامة بأن جعل كل من أحب من العامة الجندية فليحضر، فجاء خلق كثير ففرق عليهم الأموال والسلاح، فلما رأى (دبيس) ذلك وعلم بالحال كتب إلى الخليفة يستلطفه ويسأله الرضا عنه، فلم يجبه الخليفة إلى مطلبه، وأخرجت خيام الخليفة في يوم العشرين من ذي الحجة من نفس السنة، ونادى أهل (بغداد) (النفير! النفير ! الغزاة ! الغزاة !) وكثرت العامة وتجهز الخليفة للحرب، وتجهز (دبيس) هو أيضًا للحرب والتحم الفريقان ودارت الدائرة على (دبيس) ومن معه، وانتهت الحرب بهزيمة (دبيس) وفراره من المعركة بشق الأنفس، وأسر عدد كبير من جيشه، وأمر الخليفة بضرب أعناقهم صبرًا، ووقع في الأسر أيضًا نساء (دبيس) وسراريه، وكان عدد جيش (دبيس) (عشرة آلاف فارس) و(اثني

عشر ألف راجل)، بينما كان عدد جيش الخليفة بقيادة (البرسقي) (ثمانية آلاف فارس) و(خمسة آلاف راجل)، وبعد انتصار الخليفة في الحرب عاد الخليفة إلى عاصمته (بغداد) في يوم عاشوراء[17]

ثالثًا: الخيانة العظمى (لدبيس الثاني بن صدقة) بمحالفته للفرنج على المسلمين:

لما وصل الصليبيون إلى بلاد الشام وتمكنهم من احتلال عدد من المدن الإسلامية، ففي سنة (518 ه) وقعت مدينة (صور) بأيديهم، وقد رأوا تفرق كلمة أمراء وملوك المسلمين، وأيضًا انتصارهم على السلاجقة في عدة مواقع، فقويت نفوسهم بذلك ورغبوا في الاستيلاء على بلاد الإسلام كلها، وفي ذلك الوقت كان (دبيس الثاني بن صدقة) قد ضعف سلطانه وأحس بتقلص نفوذه وسلطانه أمام السلاجقة، فبحث عن حليف قوي، ولم يجد هذا الشيطان سوى الفرنجة، فراسلهم ورغبهم وأطمعهم في الاستيلاء على مدينة (حلب)، وأرسل لهم يحثهم على التحالف معه، فقال لهم:«إن أهلها شيعة، وهم يميلون إليَّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد»وبذل لهم على مساعدته بذولًا كثيرة، وقال لهم:«إنني أكون هاهنا نائبًا عنكم ومطيعًا لكم !!»انظر إلى مدى خبث هذا الشيعي اللئيم الذي باع دينه، وباع أمته من أجل ولاية ودنيا زائلة.

فسار (دبيس الثاني بن صدقة) مع الصليبيين إلى مدينة (حلب) وحاصروها حصارًا شديدًا، وقاتلوا قتالًا شديدًا، ووطنوا أنفسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يفارقونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت

---

17 - ص (298-296) – المرجع السابق.

لأجل البرد والحر، فلما رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك، وظهر لهم من والي المدينة (تمرتاش) الوهن والضعف والعجز، وقلت الأقوات عندهم، فانتهى رأي أهل مدينة (حلب) إلى الاستنجاد (بالبرسقي)، وكان هذا الرأي هو الرأي الصواب، فما أن أرسل (البرسقي) الجند حتى رحل عنها الفرنج.[18]

وهكذا فشل مخطط هذا الخبيث الخائن لدينه وأمته، وفشل معه مخطط الشيعة اللئيم في محاصرة القوى السنية بالمنطقة، وتطويق السلاجقة ومضايقتهم.

*نهاية (دبيس الثاني بن صدقة):

وانتهى أمر (دبيس) أن قتله السلطان (مسعود) حيث اتهمه بتحريض الباطنية على قتل الخليفة (المسترشد بالله العباسي)، فقد دخلوا عليه خيمته وكان معه بعض أصحابه فقتلوه وقتلوا معه أصحابه، فلما علم السلطان غضب وعلم أن هذا فعل (دبيس)، فأرسل له غلامًا أرمنيًّا ومعه سيف، فوجده في داخل خيمته ينكت الأرض بأصبعه، فضربه الغلام بالسيف فأطار رأسه وهو لا يشعر[19].

*تولي (صدقة الثاني بن دبيس الثاني) ومقتله:

وبعد مقتل (دبيس الثاني) تولَّى بعده ابنه (صدقة الثاني) وشارك هو الآخر في الأحداث والفتن، فبعد اغتيال الخليفة (المسترشد) تولى

---

18 - ص (298) – المرجع السابق.

19 - ص (305) – المرجع السابق.

بعده ابنه (الراشد) بإشارة من السلطان (مسعود)، ولكن لم تدم أيام الصفاء بينهما، فقد وقعت الفتنة بينهما، وخلع السلطان (مسعود) الخليفة (الراشد) سنة (530 ه) وبايع (المقتفي) ووقعت الحرب بين الفريقين، فريق الخليفة المخلوع (الراشد) ومعه صاحب (الموصل) (عماد الدين زنكي)، وفريق السلطان (مسعود) ومعه بقية القواد والجند، وكان معه (صدقة الثاني بن دبيس)، وانتصر السلطان في هذه الحرب، وظن السلطان أن الحرب قد انتهت، فخفف من الجنود وأبقى معه (صدقة) وزوَّجه من ابنته، ولكن تسلل إليه بعض أتباع وقواد الخليفة (الراشد)، وكان السلطان في عدد قليل من الجنود والناس، فهزموه وقتلوا جماعة من أصحابه منهم (صدقة الثاني بن دبيس الثاني بن صدقة) و(عنبر بن أبي العسكر)[20].

*نهاية إمارة (بني مزيد) في الحلة وانقراض دولتهم:

وبعد أن هزم السلطان (مسعود) عاد وجمع أمره مرة أخرى واستقام له الملك وصفي له الأمر، وولى على إمارة (الحلة) ابن (دبيس الثاني) ويدعى (محمد)، وكان له أخ يدعى (علي)، وقد أشار أحد أتباع السلطان (محمود) ويدعى (مهلهل بن أبي العسكر) أن يحبس (عليًّا) هذا في قلعة (بتكريت) وذلك قبل أن يرحل السلطان من (بغداد)، وكان ذلك سنة (542 ه)، وعلم (علي بن دبيس) بما يدبر له فهرب مع غلمانه في نفر قليل من الناس، والتجأ إلى قبيلته (بني أسد) فجمعهم وسار بهم إلى مدينة (الحلة)، وبرز له أخوه (محمد) فهزم (علي) أخاه وملك (الحلة)، وكثر جمعه وجنوده، فأرسل له السلطان (مهلهل بن أبي العساكر) فيمن معه من عساكر

20 - ص (324، 325) – المرجع السابق.

(بغـداد)، وضربـوا عليـه مصافًـا للحـرب، ولكـن (عـلي بـن دبيـس) تمكَّـن مـن هزيمتهـم، وعـادوا منهزمـين إلى (بغـداد).

وكان (عـلي بـن دبيـس الثـاني) كثـير العسـف للرعيـة ظالمًـا لهـم، فارتفعـت شـكاوى الرعية إلى السـلطان (مسـعود)، وكان ذلك في سـنة (542 ه)، فأقطـع (الحلـة) لأحـد قواده يدعى (سـلاركرد)، فسـار إليها مـن (همـذان) وجمـع عسـكرا مـن (بغـداد) وقصـد (الحلـة)، واحتـاط عـلى (عـلي بـن دبيـس الثـاني) وأقـام (بالحلـة) في مماليكـه وأصحابـه، ورجعـت عنـه العسـاكر، وتمكـن (عـلي بـن دبيـس) مـن اللحـاق بالقائـد (التقشـكنجر)، وكان في إقطاعـه (باللحـف) متجنبًـا للسـلطان (مسـعود)، فاسـتنجده (عـلي) فلبـى نجدتـه وسـار معـه إلى (واسـط) وسـار معهم القائـد (الطرنطـاي) صاحـب (واسـط)، فانتزعـوا (الحلة) مـن (سـلاركرد)، ورجـع إلى (بغـداد) آخـر سـنة (542 ه) ورجعـت (الحلـة) إلى ملـك (عـلي بـن دبيـس الثـاني) مـرة أخـرى[21].

*نكبة (علي بن دبيس الثاني) ووفاته:

ولم يهنـأ (عـلي بن دبيس الثـاني) بالإمـارة ففي سـنة (544 ه) انتقض جماعـة مـن الأمـراء عـلى السـلطان (مسـعود) منهـم (التقشـكنجر) و(الطرنطـاي) و(عـلي بـن دبيـس الثـاني)، وبايعـوا السـلطان (ملـك شـاه) ابن السـلطان (محمـود) وسـاروا به إلى العـراق، وراسـلوا الخليفة (المقتفـي) في الخطبة له، فامتنـع الخليفة وجميع العسـكر وحصن (بغداد) وأرسـل إلى السـلطان (مسـعود) بالخـبر، ولكـن السـلطان شـغل عنهم بلقـاء عمـه السـلطان (سـنجر)، والـذي سـار إليـه (بالـري)، ولمـا علم

21 - ص (325)وص (326) – المصدر السابق.

(التقشـكنجر) بذلـك نهـب (النهـروان) وقبـض عـلى (علي بـن دبيس) وهـرب (الطرنطـاي) إلى (النعمانيـة)، ثـم وصـل السـلطان (مسـعود) إلى (بغـداد)، فرحـل (التقشـكنجر) مـن (النهـروان)، وأطلـق (عـلي بـن دبيـس) فسـار إلى السـلطان (مسـعود)، فلقيـه (ببغداد) واسـتعطفه فـرضي عنه.

ثـم تـوفي (عـلي بـن دبيـس الثـاني) عليـلًا بمدينة (أسـد آبـاد)، وقد اتُّـهم طبيبـه (محمـد بـن صالـح) بالإدهـان فيـه (أي: بوضع السم له في الدهان)[22]

وبمـوت (عـلي بـن دبيـس الثـاني) انتهـت إمـارة (بنـي مزيـد) في (الحلـة)، وطـوت معهـا صفحـة مليئـة بالفتـن والخيانـات للخلافـة العباسـية والأمـة الإسـلامية، فقـد كانـت إمـارة (الحلة) شـوكة في ظهر الخلافـة العباسـية السـنية (ببغـداد)، وبانتهائهـا انتهـت معهـا صفحـة سـوداء في تاريـخ الأمـة الإسـلامية.

***

٢٢ - ص (٣٢٧) – المصدر السابق.

الحلف الشيطاني بين الشيعة والتتار

الوزير مؤيد الدين بن العلقمي وإنهاء الخلافة العباسية

من كان يتصور أو يتخيل أن يقوم أحد بخيانة أمته ودينه من أجل انتمائه لمذهب، أو طائفة مختلفة مع مذهب الدولة، مع العلم أن الكل في النهاية ينتمون إلى نفس الدين، أو هذا ما يبدو للبسطاء من العامة.

هذا ما قام به الوزير الشيعي (مؤيد الدين بن العلقمي) الخائن لدينه ولأمته، فقد قدَّم مذهبه الشيعي وأهل طائفته على الأمة كلها، فقد راسل بل حثَّ وشجَّع التتار على دخول عاصمة الخلافة الإسلامية ومقر العباسيين (بغداد) سنة (656 ه)، لكن هل كان الأمر يستحق أن يضحي الوزير بخليفته وأمته؟ هذا ما سنعرفه من خلال هذا المقال.

ولكن سوف أبدأ بمحاولة من مؤرخ وكاتب شيعي حاول أن يدافع عن الوزير (ابن العلقمي) ولكن من خلال دفاعه عنه أدانه

دون أن يعي ذلك، وفي البداية سوف أذكر ما ذكره هذا المؤرخ عنه وهو (محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا) فقد قال عنه:

«هو الوزير مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد بن العلقمي، أسدي الأصل من (النيل) وقيل لجده: (العلقمي)؛ لأنه حفر النهر المسمى (بالعلقمي) وكان (مؤيد الدين) الوزير، عفيفًا عن أموال الديوان وأموال الرعية متنزهًا مترفعًا عنها».

ثم ينقل (محمد بن علي بن طباطبا) عن ولده (شرف الدين أبي القاسم علي) عن أبيه فيقول:

«اشتملت خزانة والدي على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب، وصنف الناس له الكتب»[23]

والجدير بالذكر أن (ابن طباطبا) سوف يستكمل دفاعه عن الوزير (مؤيد الدين ابن العلقمي) فينفي عنه ما نُسب إليه من الشر والخبث وخيانة الخليفة وجميع الأمة الإسلامية، ومراسلته للتتار و(هولاكو)، ودعوتهم لهم لدخول (بغداد) وإسقاط الخلافة العباسية، فينسب الشر والغفلة إلى خواص الخليفة وقواده، أما الوزير فقد كان أمينًا حريصًا على مصلحة الخلافة، وهنا يظهر بوضوح تحيز وتعصب (ابن طباطبا) إلى الوزير (مؤيد الدين ابن العلقمي)، فكلاهما شيعي المذهب والعقيدة، ولهذا نافح (ابن طباطبا) عن الوزير، لهذا نجده يدافع عنه فيقول:

---

23 - ص(335) إلى ص (339) – الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية – تأليف (محمد بن علي بن طباطبا) والمعروف (ابن الطقطقا) – دار صادر (بيروت) – بدون سنة طبع .

«وكان وزيره (مؤيد الدين ابن العلقمي) يعرف حقيقة الحال (يقصد التتار) في ذلك ويكاتبه بالتحذير والتنبيه، ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد (يقصد الخليفة المستعصم بالله)، وهو لا يزداد إلا غفولًا، وكان خواصه يوهمونه أنه ليس في هذا كبير خطر ولا هناك محذور، وأن الوزير إنما يعظم هذا لينفق سوقه، ولتبرز إليه الأموال ليجند بها العساكر فيقتطع منها لنفسه» وهذا كلام لا يعقله أحد وبعيد عن الحقيقة تمامًا وكله تناقض، وسوف أبين ذلك في موضعه إن شاء الله، وصاحب الكتاب إنما يحاول دفع التهم التي وُجهت إلى الوزير (مؤيد الدين ابن العلقمي) ولو بالكذب والزور والبهتان، وبدون دليل وبقلب الحقائق، وذلك حتى يظهر الوزير أنه كان من الناصحين الأمناء، ولكن حقائق التاريخ تكذبه.

ونعود إلى (محمد بن علي ابن طباطبا) وهو يورد المعركة التي دارت بين عسكر الخليفة وجيش المغول فيقول:

«فلما وصل العسكر السلطاني (يقصد التتار) إلى مدينة (الدجيل) وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس، فخرج إليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيوش (مجاهد الدين أيبك الدويدار) وكان عسكرًا في غاية القلة، فالتقوا بالجانب الغربي من مدينة (بغداد) قريبًا من البلد، فكانت الغلبة في أول الأمر لعسكر الخليفة، ثم كانت الكرَّة للعسكر السلطاني، فأبادوهم قتلًا وأسرًا، وأعانهم على ذلك نهر فتحوه في طول الليل (وهي من الأمور التي كان للوزير ابن العلقمي يد فيها، وسوف أبين ذلك في موضعه) فكثرت الوحول في طريق المنهزمين، فلم ينج منهم إلا من رمى نفسه في الماء، أو من دخل البرية ومضى

على وجهه إلى بلاد (الشام)، ونجا (مجاهد الدين أيبك الدويدار) في جمع من عسكره، ووصل إلى (بغداد)، وساق (باجونوين) وهو قائد جيش المغول العساكر حتى دخل البلد من جانبها الغربي، ووقف بعساكره محاذي التاج، وجاست عساكره خلال الديار، وأقام محاذي التاج أياما (وهنا أيضًا تعمية للحقيقة من قبل ابن طباطبا، إذ كيف عرف باجونوين الطريق إلى مدينة بغداد من خلال جانبها الغربي إلا من خلال خائن من داخل المدينة؟).

*ذكر حال الجيش المغولي وكيفية دخولهم (بغداد):

فيقول (ابن طباطبا) عن كيفية اقتحام جيوش المغول عاصمة الخلافة:

«إنه في يوم الخميس رابع المحرم سنة ست وخمسين وستمائة ثارت غبرة عظيمة شرقي (بغداد) على درب (بعقوبا) بحيث عمت البلد، فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعالي السطوح والمنابر يتشوفون، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخيوله ولفيفه وكراعه، وقد طبق وجه الأرض وأحاط (ببغداد) من جميع جهاتها، ثم شرعوا في استعمال أسباب الحصار، وشرع العسكر الخليفي في المدافعة والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من المحرم، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة على سور (بغداد) من برج يسمى (برج العجمي) من ناحية باب من أبواب مدينة (بغداد) يقال له: (باب كلواذي)، وكان هذا البرج أقصر أبواب سور المدينة (فمن دلهم على هذا الباب أيضًا؟) وتقحم العسكر السلطاني هجومًا ودخولًا، فجرى القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه

جملـة، وأمر السـلطان بخـروج الخليفة وخواصـه، ويقال: إنـه عاتبه على تفريطـه وغفلته[24].

ثـم يحاول (ابـن طباطبـا) أن يدافع عـن موقـف الوزير (مؤيـد الدين بن العلقمـي) فيقول:

«وكان خـواص الخليفة جميعهم يكرهونه ويحسـدونه، فـكان الخليفة يعتقـد فيـه ويحبـه، وكثروا عليـه عنـده، فكـف يـده عـن أكثـر الأمور، ونسـبه النـاس إلى أنـه خامـر (أي: خـان)، وليـس ذلك بصحيـح، ومن أقـوى الأدلـة عـلى عدم مخامرتـه (خيانتـه) سـلامته في هذه الدولـة، فإن السـلطان (هولاكـو) لمـا فتـح (بغـداد) وقتـل الخليفـة سـلم البلـد إلى الوزيـر، وأحسـن إليـه وحكمَه، فلـو كان قـد خامر (خان) عـلى الخليفة لمـا وقـع الوثـوق إليـه»إذا كان هـذا دليل تبرئـة الوزيـر (ابـن العلقمي) فكيـف يكـون دليـل الإدانـة !!، وهنا أثبـت (ابـن طباطبا) تهمـة الخيانة والمخامـرة عـلى الوزيـر الشـيعي دون أن يعـي إلى ذلـك، إذ لـو رغـب (هولاكـو) في إصـدار العفـو لمـا اسـتثنى أحـدًا، ولعفـى عـلى الخليفـة وأهـل بيتـه وعـلى جميع خواصـه، وليـس فقـط الوزيـر (ابـن العلقمي) وأهلـه وحدهم.

ثـم يكمـل (ابـن طباطبـا) دفاعـه عـن الوزيـر بدليـل إدانة آخـر، ألا وهـو سـوقه الـكلام عـلى لسـان أحـد أقـارب الوزيـر، ويُدعـى (كـمال الديـن أحمـد بـن الضحـاك) وهـو ابن أخـت الوزيـر (مؤيـد الديـن ابن العلقمـي) فقـد حدثـه قائلًا:

---

24 - المرجع السابق

«لما نـزل السـلطان (هولاكو) عـلى (بغداد) أرسـل يطلـب أن يخرج الوزيـر إليـه، قال:»فبعـث الخليفـة في طلـب الوزيـر فحـضر عنـده وأنا معـه»، فقـال لـه الخليفة:»قـد أنفـذ السـلطان يطلبـك وينبغـي أن تخرج إليـه» فخـرج الوزيـر مـن ذلك وقال:»يـا مولانـا إذا خرجت فمـن يدبر البلـد ومن يتولى المهام؟»فقال لـه الخليفة:»لابد أن تخرج»فقال:»السـمع والطاعة»ثـم مـضى إلى داره وتهيـأ للخـروج، ثـم خـرج، فلـما حضر بين يـدي السـلطان وسـمع كلامـه وقـع بموقـع الاستحسـان، وكان الذي تـولى تربيتـه في الحـضرة السـلطانية الوزيـر (السـعيد نصـير الدين محمد الطـوسي)، فلـما فتحت (بغداد) سـلمت إليـه وإلى (علي بهادر) الشـحَنة (قائـد الحاميـة بالمدينـة) فمكـث الوزيـر شـهورًا ثـم مـرض ومـات في جمادى الأولى سـنة سـت وخمسـين وسـتمائة[25].

والجديـر بالذكـر هنـا أن الوزير الخاص (بهولاكو) المسـمى (السـعيد نصـير الديـن محمـد الطـوسي) مـن علـماء الشـيعة أيضًـا، فقـد كان على المذهـب الإسـماعيلي، ثـم تحـول عنـه إلى المذهـب الشـيعي الإمامـي الاثنـي عـشري، وهـو الـذي أيضًـا حـرَّض (هولاكـو) عـلى دخـول وغـزو عاصمـة الخلافـة العباسـية (بغـداد)، فهـل هنـاك دليـل أكثر من ذلـك عـلى تخامـر الشـيعة وخيانتهـم للخلافـة الإسـلامية والممثلـة في هذيـن الشـخصين الوزير (مؤيـد الدين ابـن العلقمـي) والوزير الخاص (لهولاكـو) (السـعيد نصـير الديـن الطـوسي)، وأيضًـا هـل هنـاك دليل أكثـر مـن نجـاة أسرة (مؤيـد الديـن ابـن العلقمـي) مـن القتـل والأسر وقتـل الخليفـة وأهـل بيتـه فقـط، والدليـل الأخـير هـو قيـام (هولاكو) بتسـليم مدينـة (بغـداد) بعـد قتـل أهلهـا وتشريدهـم ونهبهـا إلى (ابـن

25 - **المرجع السابق**

العلقمي) ومعه شحنة من العساكر التترية ليحكمها باسمهم ويكون نائبهم عليها.

هذا كان دليل النفي الذي أحببت أن أذكره أولًا في قصة هذا الوزير الشيعي الخائن ابن العلقمي، وكيف أن (ابن طباطبا) حاول أن يبعد التهمة عنه، والآن سوف أذكر أدلة الإثبات التي سوف تثبت تهمة الخيانة على الوزير (ابن العلقمي).

أولًا: رأي المؤرخ (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي):

فقد ذكر قصة الوزير (ابن العلقمي) في كتابه (النجوم الزاهرة) فقال:

(فتنة مؤيد الدين بن العلقمي بين السنة والرافضة بين باب البصرة وأهل الكرخ):

«وكان وزير الخليفة (المستعصم بالله) العباسي رافضيًّا خبيثًا حريصًا على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين، يدبر ذلك في الباطن، ويظهر للخليفة (المستعصم) خلاف ذلك، ولا زال يثير الفتن بين أهل السنة والرافضة حتى تجالدوا (تقاتلوا) بالسيوف، وقتل جماعة من الرافضة ونهبوا، فاشتكى أهل باب (البصرة) إلى الأمير (مجاهد الدين أيبك بن عبد الله الدوادار) وللأمير (أبي بكر) ابن الخليفة، فتقدما إلى الجند بنهب (الكرخ)، فركبوا من وقتهم وهجموا على الرافضة (بالكرخ) وقتلوا جماعة وارتكبوا معهم العظائم، فحنق الوزير (ابن العلقمي) ونوى الشر في الباطن وأمر أهل (الكرخ) الرافضة بالصبر والكف عن القتال، وقال لهم: »أنا أكفيكم فيهم».

وكان الخليفة (المستنصر بالله) قد استكثر من الجند قبل موته حتى بلغ عدد عسكره مائة ألف، وكان الوزير (ابن العلقمي) مع ذلك يصانع التتار في الباطن ويكاتبهم ويهاديهم، فلما استخلف (المستعصم بالله) بعد موت أبيه (المستنصر بالله) وكان (المستعصم) خليًّا من الرأي والتدبير، فأشار عليه (ابن العلقمي) بقطع أرزاق أكثر الجند، وأنه بمصانعة التتار وإكرامهم يحصل بذلك المقصود، ولا حاجة لكثرة الجند، ففعل الخليفة ذلك.

ثم إن الوزير (ابن العلقمي) بعد ذلك كاتب التتار وأطمعهم في البلاد سرًّا، وأرسل إليهم غلامه وأخاه، وسهل عليهم فتح (العراق) وأخْذ مدينة (بغداد)، وطلب منهم أن يكون نائبهم بالبلاد فوعدوه بذلك، وتأهبوا لقصد (بغداد) وكاتبوا (لؤلؤًا) صاحب مدينة (الموصل) وحاكمها في تهيئة الإقامات والسلاح، فكاتب (لؤلؤ) الخليفة سرًّا وحذَّره، ثم هيأ لهم الآلات والإقامات، وكان الوزير (ابن العلقمي) ليس لأحد معه كلام في تدبير الخليفة، فصار لا يوصل مكاتبات (لؤلؤ) ولا غيره إليه، وعمَّى عنه الأخبار والنصائح، فكان يقرؤها هو ويجيب عنها بما يختار، فنتج أمر التتار بذلك غاية النتاج، وأخذ أمر الخليفة والمسلمين في إدبار، وكان (تاج الدين بن صلايا) نائب الخليفة بمدينة (إربل) حذَّر الخليفة وحرَّك عزمه، والخليفة لا يتحرك ولا يستيقظ، فلما تحقق للخليفة حركة التتار نحوه سيَّر إليهم (شرف الدين بن محيي الدين ابن الجوزي) رسولًا إليهم ويعدهم بأموال عظيمة، ثم سيَّر مائة رجل إلى (الدربند) يكونون فيه يطالعون الخليفة بالأخبار، فمضوا فلم يطلع

لهم خبر؛ لأن الأكراد الذين كانوا هناك دلَّوا التتار عليهم، فهجموا عليهم وقتلوهم أجمعين.

ثم ركب (هولاكو بن تُولي خان بن جنكيز خان) في جيوشه من المغول والتتار، وقصدوا (العراق) وكان على مقدمته الأمير (بايجو نوين) وفي جيشه خلق من أهل (الكرخ) الرافضة، ومن عسكر (بركة خان) ابن عم (هولاكو)، ومدد من صاحب (الموصل) مع ولده (الملك الصالح ركن الدين إسماعيل)، فوصلوا قرب (بغداد) واقتتلوا من جهة البر الغربي عند (دجلة)، فخرج عسكر (بغداد) وعليهم (ركن الدين الدَواداار) فالتقوا على نحو مرحلتين من (بغداد)، فانكسر البغداديون وأخذتهم السيوف، وغرق بعضهم في الماء وهرب الباقون، ثم ساق (بايجو نوين) مقدمة (هولاكو)، فنزل القرية مقابل دار الخلافة وبينه وبين (دجلة) لا غير، وقصد (هولاكو) مدينة (بغداد) من البر الشرقي، وضرب سورًا وخندقًا على عسكره، وأحاط (ببغداد)، فأشار الوزير (ابن العلقمي) على الخليفة (المستعصم بالله) بمصانعتهم، وقال له:»اخرج إليهم أنا في تقرير الصلح»فخرج إليهم، واجتمع (بهولاكو) وتوثق لنفسه ورد إلى الخليفة، وقال:»إن الملك قد رغب في أن يزوج بنته بابنك الأمير (أبي بكر) ويبقيك على منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يطلب إلا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف هو عنك بجيوشه ! فتجيبه يا مولانا أمير المؤمنين لهذا، فإن فيه حقن دماء المسلمين، ويمكن أن تفعل بعد ذلك ما تريد ! والرأي أن تخرج إليه»

فخرج الخليفة (المستعصم) بعد أن سمع له، ومعه جمع من الأعيان من أقاربه وحواشيه وغيرهم، فلما توجه إلى (هولاكو) لم يجتمع به (هولاكو) وأُنزل في خيمة، ثم ركب الوزير وعاد إلى (بغداد) بإذن من (هولاكو) واستدعى الفقهاء والأعيان والأماثل ليحضروا عقد بنت (هولاكو) فضرب أعناقهم جميعًا، ثم مد الجسر ودخل (بايجو نوين) بمن معه إلى (بغداد) وبذلوا السيف فيها، واستمر القتل والنهب والسبي في (بغداد) بضعة وثلاثين يومًا، فلم ينج منهم إلا من اختفى، ثم أمر (هولاكو) بعد القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف وكسرًا، ثم نودي بعد ذلك بالأمان، فظهر من كان اختفى وهم قليل من كثير[26].

وأما الوزير (ابن العلقمي) فلم يتم له ما أراد، وما اعتقد أن التتار يبذلون السيف مطلقًا ولا يفرقون بين السنة والرافضة في الذبح والقتل، وراح مع الطائفتين أيضًا أممٌ لا يحصون كثرة، وذاق (ابن العلقمي) الهوان والذل من التتار ! ولم تطل أيامه بعد ذلك، ثم أمر (هولاكو) بضرب عنق مقدم جيشه (بايجو نوين)؛ لأنه بلغه عنه من الوزير (ابن العلقمي) أنه كاتب الخليفة (المستعصم بالله) لما كان بالجانب الغربي.

وأما الخليفة العباسي (المستعصم بالله) فقد انتهى أمره، بأن أمر (هولاكو) بطلب الخليفة وقتله خنقًا، وقيل غم في بساط، وقيل: جعله هو وولده في عدلين (جوالين) وأمر برفسهما حتى ماتا، ثم

---

26 - النجوم الزاهرة في ملوك مصروالقاهرة – الجزء السابع – ص 47 : 51 -جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي – الطبعة الثانية (1426 هـ / 2005 م) - دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

قتل الأمير (مجاهد الدين الدوادار) والخادم (إقبال الشُرابي) صاحب الرباط (بحرم مكة)، والأستادار (محي الدين ابن الجوزي يوسف بن أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي) وولداه وسائر الأمراء الأكابر والحجُاب والأعيان، وانقضت الخلافة من (بغداد) وزالت أيامهم من تلك البلاد، وخربت مدينة (بغداد) الخراب العظيم، وأُحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا مثلها، وقيل: إنهم بنوا بها جسرًا عوضًا عن استخدام الطين والآجر، وكانت كسرة الخليفة يوم عاشوراء سنة ست وخمسين وستمائة، ونزل (هولاكو) بظاهر (بغداد) في عاشر من المحرَّم، وبقي السيف يعمل فيها أربعة وثلاثين يومًا وآخر جمعة خطب الخطيب (ببغداد) وكانت نص الخطبة هي:

«الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار» إلى أن قال: «اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يُصب الإسلام وأهله بمثلها، وإنا لله وإنا إليه راجعون» ثم عمل الشعراء والعلماء قصائد في مراثي (بغداد) وأهلها[27]

ثانيًا: رأي المؤرخ (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي):

فقد ذكر (المقريزي) حادثة سقوط عاصمة الخلافة العباسية، ومقتل آخر الخلفاء العباسيين (ببغداد) الخليفة (المستعصم بالله) فقال:

«وفي سنة (656 ه) أمر (هولاكو) بالهجوم على (بغداد) في أول يوم من تلك السنة (الموافق 30 يناير 1258 م) ودحر جيوش

---

27 - المصدر السابق

الخليفة (المستعصم) بعد ذلك بتسعة أيام، ولم يبق في طريقه إلى أبواب (بغداد) مقاومة، وفي يوم (4 صفر 656 هـ / 15 فبراير 1258م) سلم الخليفة نفسه وعاصمته بلا قيد أو شرط، وذلك بعد أن وعده (هولاكو) بالأمان لنفسه وأهله، وبعد ذلك بعشرة أيام قُتل الخليفة وولداه (أبو العباس) و(أبو الفضائل عبد الرحمن).

وممن قتل أيضًا (محيي الدين بن الجوزي) وأولاده (جمال الدين) و(تاج الدين) و(شرف الدين) وغيرهم كثير، وأما الخليفة (المستعصم) لم يطلع على قتله كيف كان، فقيل: إنه خنق، وقيل: وضع في عدل (جوال) ورفس حتى مات، وقيل: غرق في نهر (دجلة)، حيث كانت من تقاليد التتار ألا يريقوا دمًا ملكيًّا، وكان مقتل الخليفة يوم (6 صفر سنة 656 هـ) فكانت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام، وبمهلكه انتهت دولة الخلافة العباسية (ببغداد)، وصار الناس بلا خلافة إلى سنة (659 هـ)[28].

ثالثًا: رأي المؤرخ (أبي الحسن الروحي علي بن أبي عبد الله محمد):

وهو من المؤرخين المعتبرين، وواضع كتاب تاريخ الخلفاء المعروف باسم (بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء) فقد ذكر في هامش كتابه قصة تولي (مؤيد الدين بن العلقمي) الوزارة، وحادثة سقوط (بغداد) كالآتي:

---

28 - ص (409) وهامشها – السلوك لمعرفة دول الملوك – (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي) – الجزء الأول (القسم الثاني) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1430هـ / 2009م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

«تـولى الـوزارة (أي: مؤيـد الديـن ابـن العلقمـي) لآخر خلفـاء بني العبـاس وهـو الخليفـة (المسـتعصم بـالله)، وكان (مؤيـد الديـن) هـذا رافـضي المذهـب خبيـث الطويـة يضمـر الـشر بـآل العبـاس، وأهلـك الحـرث والنسـل، ولعـب بالخليفـة كيـف أراد، وأخـذ (بغـداد) وأراد قطـع الخلافـة العباسـية، وذلـك لكـي ينقلهـا إلى خليفـة مـن آل عـلي، فكلـما جـاء خبر عنهـم كتمه عـن الخليفـة، وكان يطالـع بأخبـار الخليفة العبـاسي إلى التتـار، إلى أن خربـت (بغـداد) عـلى أيديهـم، وقتـل الخليفة سـنة (656 ه)، وقـد قـال الإمـام (الذهبـي):

«ومـا أظنـه دفـن (يعنـي الخليفـة) وقتـل معـه جماعـة مـن أولاده وأعمامـه، وأسر بعضهـم، ولم ينـل الوزيـر مـا أراد، ولكنـه نـال الـذل والهـوان، ولم تطـل أيامـه بعـد ذلـك[29].

رابعًا: رأي المؤرخ والعالم (جلال الدين السيوطي):

فقـد ذكر قصـة التتـار ودخولهم (بغـداد) ومؤامـرة (ابـن العلقمي)، وقـد ذكرهمـا كالتالي:

«ولمـا دخلـت سـنة (656 ه) وصـل التتـار إلى (بغـداد)، وهـم مائتا ألـف، ويقدمهـم (هولاكـو)، فخـرج إليهـم عسـكر الخليفـة، فهـزم العسـكر، ودخلـوا (بغـداد) يـوم عاشـوراء، فأشـار الوزيـر (يعنـي ابن العلقمـي) – لعنـه الله – عـلى (المسـتعصم) بمصانعتهـم، وقال:»أخـرج

---

29 - هامش ص (283) – بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء – لأبي الحسن الروحي على بن أبي عبد الله محمد بن أبي السروربن عبد الرحمن بن عبد العزيز– تحقيق عماد هلال، ومحمد حسني عبد الرحمن، وسعاد محمود عبد الستار– إشراف ومراجعة الدكتور / أيمن فؤاد السيد – طبعة (1435 هـ / 2014 م) – وزارة الأوقاف (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) – مركز السيرة والسنة – إدارة تحقيق المخطوطات وكتب التراث (جمهورية مصر العربية).

إليهـم أنـا في تقريـر الصلح»فخـرج وتوثـق بنفسـه منهـم، وورد إلى الخليفـة، وقـال:»إن الملـك قـد رغـب في أن يـزوج ابنته إلى ابنـك الأمير (أبي بكـر) ويبقيـك في منصـب الخلافـة كـما أبقـوا صاحـب الـروم في سـلطنته، ولا يريـد إلا أن تكون الطاعـة كما كان أجدادك مع السـلاطين السـلجوقية، وينـصرف عنك بجيوشـه، فيجيـب مولانا إلى هـذا فإن فيه حقـن دمـاء المسـلمين، ويمكن بعد ذلـك أن تفعل مـا تريـد، والرأي أن تخرج إليهـم، فخـرج إليـه في جمـع مـن الأعيـان، فأنـزل في خيمـة، ثـم دخـل الوزير فاسـتدعى الفقهـاء، والأماثـل ليحضروا العقـد، فخرجوا مـن (بغـداد)، فضربت أعناقهـم، وصار كذلـك تخرج طائفـة بعد طائفة فتـضرب أعناقهـم، حتـى قتـل جميع مـن هنـاك مـن العلـماء، والأمراء، والحجـاب، والكبار.

ثـم مـد الجسر، وبـذل السـيف في (بغـداد) واسـتمر القتـل فيها نحو أربعـين يومًـا، فبلـغ عدد القتـلى أكثر من ألف ألف نسـمة، ولم يسـلم إلا مـن اختفـى في بئر أو قنـاة، وقـد قتل الخليفة رفسًـا.

أمـا الوزيـر (ابـن العلقمي) فقد حسـن لهـم أن يقيموا خليفـة علويًّا، فلـم يوافقـوه وأطرحـوه، وصار معهم في صـورة بعض الغلـمان، ومات كمـدًا، لا رحمـه الله، ولا عفـا عنـه، وقد قال الشـعراء الكثير مـن المراثي مثل:

يا عصبة الإسلام نوحي واندبي حزنًا على مأتم المستعصم.

دست الوزارة كان قبل زمانه لابن الفرات مضا لابن العلقمي[30].

---

30 - ص (516، 517) – تاريخ الخلفاء – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي – الطبعة الأولى (1422هـ / 2001م) – مكتبة مصر – (القاهرة).

خامسًا: رأي المؤرخ والجغرافي (شهاب الدين ابن فضل الله العمري):

فيقول عن الوزير (ابن العلقمي): «ولي وزارة للخليفة (المستعصم بالله) بعد الوزير (ابن الناقد) في (ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وستمائة) من الهجرة، وكان فاضلًا رئيسًا عالي الهمة، مغاليًا في التشيع، وذلك الذي حمله على فعل ما فعل (يقصد من مراسلة التتار وتطميعهم في بغداد والخلافة العباسية)، فإنه حصل بينه وبين (الدوادار) شحناء بسبب المذاهب، فقد كان (الدوادار) مغاليًا في السنة، وعضده بعض أولاد الخليفة (يقصد أبا بكر) الابن الأكبر من أبناء الخليفة، فحصل عند (ابن العلقمي) الوزير الضغن، مما حمله على السعي في دمار الإسلام.

فقد كان الوزير (ابن العلقمي) يكاتب قائد التتار (هولاكو) حفيد ملكهم (جنكيز خان) ويشير عليه باحتلال (بغداد)، ويعده بالإعانة على الخليفة، فزحف (هولاكو) سنة (خمس وأربعين وستمائة)، وخرجت إليه عسكر الخليفة (المستعصم)، فلم تثبت لجيش (هولاكو) طويلًا، ودخل التتار (بغداد)، فجمع له (ابن العلقمي) ساداتها ومدرسيها وعلماءها فقتلهم عن آخرهم، وأبقى الخليفة حيًّا، إلى أن دل على مواضع الأموال والذخائر ثم قتله، وكانت مدة حكم الخليفة (المستعصم بالله) (خمس عشرة سنة وثمانية أشهر) وكان محدثًا سنيًّا، محمدًا سنيًّا، تفقه على مذهب الإمام (أحمد) ولد (ببغداد)، ولكنه كان ضعيف الرأي، فلما تقلَّد مقاليد الخلافة ألقى بزمام الأمور إلى الأمراء والقواد، واعتمد على وزيره (مؤيد الدين ابن العلقمي) فكان هلاكه وانقراض دولة (بني العباس)

علـى يديـه، وكان مقتـل الخليفـة في سـنة (سـت وخمسـين وسـتمائة) من الهجـرة، وبمقتلـه انتهـت الخلافـة العباسـية نهائيًّـا في (بغـداد).

وقـد تُـوفي (ابـن العلقمـي) يـوم الجمعـة مسـتهل (جمـادى الآخـرة سـنة سـت وخمسـين وسـتمائة) مـن الهجـرة، ومولـده (ببغداد) في شـهر (ربيـع الأول سـنة إحـدى وتسـعين وخمسـمائة) مـن الهجـرة[31].

سادسًـا: رأي عـالم ومـؤرخ معـاصر لنكبـة (بغـداد) وهـو العـالم (شـيخ الإسـلام وقـاضي القضـاة أبي عمر منهـاج الديـن عثمان) والمعـروف بـ(القـاضي منهـاج السـراج الجوزجـاني):

وقـد وضـع كتـاب ضخم أسـماه (طبقـات نـاصري) وذكر فيـه قصة سـقوط مدينـة (بغـداد)، وكيـف تمـت الخيانـة مـن قبـل وزيـر الخليفـة (المسـتعصم بـالله) الوزيـر (مؤيـد الديـن ابـن العلقمـي)، وسـوف تجد أجوبـة عـلى بعـض مـا قاله (محمـد بـن طباطبا) في فتـح الميـاه على جيش الخليفـة، والآن نبـدأ:

يقـول (أبـو عمـر منهـاج الديـن) عـن كيفيـة توجـه (هولاكـو) إلى (بغـداد) والأحـداث التـي تلتهـا:

«حينـما ذهـب (هولاكـو) إلى (العـراق) راسـل صاحـب (الموصل) (بـدر الديـن لؤلؤ) والـذي قبل الدخـول في طاعة التتـار، وكان الأتابك (أبـو بكـر) ملك (فـارس) قد قبـل أيضًا الدخـول في طاعة التتـار ودفع الخـراج (الجزيـة)، وجـاء الاثنان مـن ولايتهما لمسـاعدة جيـش التتار.

---

31 - ص (209) وص (210) و(287) – مختصر كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار– شهاب الدين ابن فضل الله العمري (ت 749هـ) – الجزء الثاني – اختصار وتقديم دكتور عامر النجار– الطبعة الأولى (2012م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – (القاهرة)

وكان لأمير المؤمنين (المستعصم بالله) وزير فاسد الدين ورافضي اسمه (أحمد بن العلقمي)، وقد وقعت بينه وبين الابن الأكبر لأمير المؤمنين والذي يدعى (أبو بكر) خصومة بسبب الغارة على الروافض الذين كانوا يسكنون مدينة (الكرخ) ومشهد الإمام (موسى بن جعفر) (رضي الله عنه)، وهي الحادثة المعروفة بفتنة (الكرخ)، وكان الأمير (أبو بكر) قد أغار عليهم وقتل البعض منهم، وانتقامًا لهم قام الوزير (ابن العلقمي) بمخالفة دار الخلافة في السر، وكتب الرسائل في الخفاء وأرسلها إلى (هولاكو)، وتواطأ معه، واستدعى التتار، وأرسل جيوش (العراق) المحتشدة من (بغداد) إلى الأطراف، وخدع الخليفة بأن ذلك في مصلحة الخليفة والخلافة، فوافقه الخليفة، وأظهر لأمير المؤمنين أنه قد عقد صلحًا مع التتار، ولا حاجة للجيش من أجل الحرب معهم، فخلت (بغداد) بهذه المؤامرة من الجنود، وفجأة وصل إلى (بغداد) جنود المغول وأحاطوا بالمدينة من جميع الأنحاء والأطراف، وكانوا قد استولوا على جسر من صاحب (الموصل)، وأقاموا جسرًا آخر (جنوب بغداد) وعبروا نهر (دجلة).

وكانت مدينة (تكريت) قلعة في غاية الاستحكام، فخرج مجاهدوها وأحرقوا ذلك الجسر الذي أقامه التتار، وفي اليوم التالي أصلح التتار الجسر مرة ثانية، وقتلوا المسلمين وقام كل من الأمير (أبي بكر) ابن الخليفة، وأمير علم دار الخلافة (سليمان شاه الإيوائي التركماني) بمهاجمة جنود المغول عدة مرات بقيادتهما جنبًا إلى جنب، وكانا قد حاربا المغول مدة ثلاثين سنة، وقاما بغزوات عديدة ضد المغول، وهزما جيش التتار، ففي المرة الأولى تعقبا المغول وطردوهما

من حدود (بغداد) حتى (أصفهان) حيث ذهب كثيرون من جيش التتار، وكان الأمير حامل راية الخلافة (سليمان شاه الإيوائي التركماني) ملكًا على قبائل (ابنوه) وهي قبائل من التركمان الذين كانوا على درجة عالية من الشجاعة والجلد والخبرة بالقتال، وكانت لهم ميسرة جيش أمير المؤمنين.

ولما كان (هولاكو) قد انهزم أول مرة، فقد جمع في المرة الثانية الجنود والفرسان من التتار والمغول وكذلك الأسرى من سائر أنحاء إقليم (خراسان) و(العراق) وتوجه إلى (بغداد) بناءً على دعوة الوزير (ابن العلقمي) والذي سرح جيش الخلافة من (بغداد) مدينة السلام، وسمح للجنود بالانصراف من المدينة.

وقد علم خواص الخليفة وأعيانه بأمر الرسائل التي أرسلها الوزير (ابن العلقمي) إلى (هولاكو)، وكانت وقعت بأيديهم إحدى هذه الرسائل، فعرضوها على الخليفة، فبدلًا من تصديقهم، شك الخليفة في نواياهم تجاه وزيره، فلم يصدقهم.

والسبب في عدم تصديق الخليفة لأمراء وخواص دولته مقولتهم في وزيره، أن أحد أمراء جيشه ويدعى (مجاهد الدين أيبك) وهو رئيس ديوان الخليفة، كان بينه وبين (ابن العلقمي) خصومة وخلاف، والذي كان على علم بأمر الخلاف الذي كان بين الأمير (أبي بكر) والوزير (ابن العلقمي) بسبب فتنة وحادثة روافض (الكرخ)، فأوصل الأمير (مجاهد الدين) هذا المعنى إلى مسامع أمير المؤمنين، وحينما علم الوزير بسعي رئيس الديوان للإيقاع به عند الخليفة، أظهر للخليفة أن رئيس الديوان يريد أن يخلعه من الخلافة،

ويجلس بـدلًا منه ابنـه (أبـا بكـر) مكانـه في الخلافـة، وحينما علـم أمير المؤمنين بسـعي كلا الطرفين للإيقاع بالآخـر فلم يهتم بـكلام أي واحد منهـا ظنًّـا منه أنهـا مكائـد عاديـة مثـل التـي كانت تحـدث مـن قبل في داخـل قـصر الخلافـة مـن أجـل الوصـول إلى دسـت الـوزارة، وعندما أظهـر الأمراء الرسـائل التي أرسـلها الوزيـر (ابن العلقمـي) والتي كان قـد أرسـلها إلى (هولاكـو) قائـد المغـول، أجـاب الوزيـر عنهـا: »إن هذا مجـرد وشـاية مـن أيبـك رئيـس الديـوان، وإلا فالوزيـر لا يقـوم بمثـل تلك الأعــمال[32].

فيئـس الأمـراء مـن تلـك الإجابـة، وعلمـوا أن الخليفـة لـن يشـك في وزيـره، حتـى وصـل (هولاكـو) إلى مـا يقـرب مـن عـشرة فراسـخ مـن مدينـة (بغـداد)، وهنـا تشـاور كلا من (سـليمان شـاه) أمـير الراية، والأمـير (عز الدين ابـن فتح الدين كـرد) والذي كان بطـل دار الخلافة، وصاحـب ميمنـة الجيـش، والأمـير (مجاهـد الديـن أيبك) رئيـس ديوان الخليفـة، وخرجـوا بنتيجـة واحـدة، ألا وهـي أن الأمـر قـد خـرج عـن السـيطرة، وأن العـدو القـوي المتمثـل في (هولاكـو) وجيـوش التتـار، مـع تواطـأ الوزيـر (ابـن العلقمـي) مع التتـار قـد آذن بسـقوط الخلافة، ولابـد مـن تـدارك الأمـر، ولابـد مـن توضيـح الأمـر مـرة ثانيـة لأمير المؤمنـين، حتـى يهيـئ تدابـير المقاومـة ودحـر التتار.

32 - ص (206) إلى (215) – طبقات ناصري – الجزء الثاني - تأليف شيخ الإسلام وقاضي القضاة أبي عمر منهاج الدين عثمان المعروف بالقاضي منهاج السراج الجوزجاني، كتبه في دهلي بالهند عام (658 هـ) – ترجمة وتقديم ملكه علي التركي – الطبعة الأولى (2012 م) – المركز القومي للترجمة – (القاهرة).

فقال (مجاهد الدين أيبك): «لقد قلت للخليفة كل ما أمكنني في هذا المجال، فلم يعر هذا الكلام اهتمامًا، ويبقى أن أطلب لكما الإذن بمقابلة الخليفة لتعرضا عليه الأمر»، فعرض كلاً من (سليمان شاه) و(عز الدين بن فتح الدين كرد) على الخليفة أمر وصول التتار إلى حدود (بغداد)، وطلبا منه التفكير في تدبير المقاومة وتجهيز الجيش لقهر التتار، فقال الخليفة: «لقد عرضت هذا الأمر قبل ذلك على الوزير، فسألوه عن ذلك[33]، فخرجا من عند الخليفة يائسين، وفي تلك الأثناء حصل القائد المغولي (بايجو نوين) ومعه ثمانين ألف فارس من أنحاء (إيران) و(أذربيجان) على جسر من صاحب (الموصل) (بدر الدين لؤلؤ) جنوب (بغداد)، وأقاموا الجسر بالجهة الغربية من (تكريت)، وخرج مجاهدو (تكريت) من المدينة والقلعة، وأحرقوا الجسر الممدود تمامًا وقتلوا الكثير من التتار، واستشهد القليل من المجاهدين، وفي اليوم التالي أصلح المغول الجسر مرة ثانية، ومضوا وعبروا عليه حتى أسرعوا في التعدية عليه، ووصلوا إلى ناحية (الكوفة) و(الكرخ) وقتلوا الكثير من المسلمين، وعبر الأمير (عز الدين بن فتح الدين كرد) ومعه (مجاهد الدين أيبك الدوادار) رئيس الديوان إلى نهر (دجلة) ومعهم حوالي عشرين ألف فارس من (بغداد)، وطلبا من سكان (الكرخ) والقصبات الأخرى المساعدة ومحاربة التتار معهما، وقد تمكن جيش المسلمين في البداية من الثبات أمام جيش التتار الكبير، بل وتمكنوا من هزيمتهم ورأى الأمير (عز الدين) تعقب المنهزمين من التتار، وذلك من أجل القضاء على بقيتهم، ولكن (مجاهد الدين) أبطأ في تعقبهم، فحل الظلام وانقضى

33 - المصدر السابق.

النهار ورجع المسلمين إلى معسكرهم، وكان بجوار معسكر المسلمين مدينة تسمى (شير) ويشقها نهر (الفرات)، وكانت أرض تلك المدينة مرتفعة، بينما كان معسكر المسلمين في مكان منخفض.

وهنا الرد على قصة (ابن طباطبا) والتي ذكرناها في موضعها عندما أراد أن يدافع عن الوزير الرافضي الخائن، فقد ذكر قصة فتح الماء على جيش المسلمين، ولكن ذكر أن التتار هم من فعلوا ذلك، ولكن شيخ الإسلام (أبو عمر) قد أوضح هذه النقطة وضوح الشمس فقال:

«وفي تلك الليلة أرسل الوزير الشيعي (ابن العلقمي) جماعة ففتحوا ماء النهر على معسكر المسلمين، فغرق الجيش كله تحت الماء، وفسدت أسلحتهم وعجزوا عن الحرب، وعاد التتار في الفجر، ونشبت الحرب، وانهزم المسلمين من شدة العوز ومشقة البلل، وقد عبر القواد المنهزمون (دجلة) وعسكروا في (بغداد) في المكان الذي يوجد فيه جامع (سنجر) وقصره، وحينما وصل جيش التتار إلى هناك، جاء (سليمان شاه) و(عز الدين) و(مجاهد الدين أيبك) إلى الخليفة قائلين له: »إن العدو قد وصل إلى باب المدينة، ولنا في (بغداد) قلة من الفرسان، وعدد الكفار يزيد على مائتي ألف، والصواب هو أن يركب أمير المؤمنين سفينة، ويضع الخزائن والنساء في سفينة، بينما نجتمع نحن جميعًا في سفينة في خدمة أمير المؤمنين، ونعبر (دجلة) إلى حدود (البصرة)، ونقيم في تلك الجزائر حتى يأتي نصر الحق تعالى وينهزم الكفار».

وهذه الرواية في اعتقادي هي أقرب الروايات إلى الحقيقة، إذ كيف يعرف المغول مكان السد فيفتحوه ويغرقون جيش المسلمين على

حسب رواية (محمد ابن طباطبا)، إذ لابد لهم من معاون ومرشد لهم على هذا الأمر، فالتتار غرباء عن البلاد ولا يعرفون مداخلها ولا مخارجها وخباياها، وهنا يظهر ويأتي دور الوزير (ابن العلقمي) والذي لابد من أنه قام بإرسال رجال من عنده قاموا بفتح هذا السد على الجيش الإسلامي المرابط فتم إغراقه.

ونعود مرة أخرى إلى موقف أمير المؤمنين، فقد استصوب أمير المؤمنين هذا الرأي، وأرسل ابنه (أبا بكر) لكي يقابل (هولاكو)، وعلم الوزير (ابن العلقمي) بهذا الأمر، فأرسل إلى (هولاكو) يعلمه بخطة الخليفة في الهرب، فأرسل إليه رسولًا في السر يقول له: «قدم للأمير (أبي بكر) كثيرًا من مظاهر الترحيب، وأعزه وأكرمه واستقبله استقبالًا حسنًا ليثق الخليفة بك ويتحقق هدفك».

وحينما خرج الأمير (أبو بكر) ووصل إلى معسكر (هولاكو) استقبله الناس كافة من كفار ومسلمين وقدموا له فروض الطاعة، وعندما وصل إلى خيمة (هولاكو) تقدم إليه (هولاكو) أربعين خطوة لاستقباله، وقام بمراسم الترحيب وأجلسه مكانه، وركع بين يدي الأمير (أبي بكر) احترامًا له وقال:

«لقد جئت لتقديم الطاعة، وسأقدم الولاء، و(بركة) ابن عمي كان قد أسلم على يد الشيخ (سيف الدين باخرزي – ساخوري) وأنا أيضًا سوف أسلم هنا، ولكن حينما سألت من هو أعظم المسلمين؟ دلوني على الخليفة، فجئت حتى أسلم على يدي أمير المؤمنين» وكانت هذه مكيدة وخديعة من (هولاكو) حتى يقنع ابن الخليفة بأنه ما جاء ليقضي على الخلافة، ولكنه جاء لكي يسلم

ويكون في خدمة الخليفة والخلافة، كل هذا كذب لا حقيقة له وهو من تدبير الوزير (ابن العلقمي).

وحينما قال (هولاكو) هذه الكلمات المعسولة، وثق الأمير (أبو بكر) في هذه الكلمات وعاد من هناك بإعزاز إلى أمير المؤمنين، فعرض عليه كل ما شاهده وما سمعه عند (هولاكو)، فقال الوزير (ابن العلقمي): «إن الصواب هو أن يخرج أمير المؤمنين بجلال تام في موكب الخلافة حتى يقوم (هولاكو) المغولي بمراسم الاستقبال والترحيب».

ومهما حاول الأمراء إقناع الخليفة بعدم الثقة في وزيره (ابن العلقمي)، إلا أن أمير المؤمنين خرج مع ألف ومائتي فارس من القواد والأمراء والعلماء والأكابر والتجار وعمال الدولة الأكفاء، وحينما وصل إلى معسكر (هولاكو) صحبوه مع ذلك الموكب إلى مكان حيث فرقوا الجميع بعضهم عن بعض، وهنا أسر أمير المؤمنين وأمر بكتب كتاب بقلمه إلى بقية رجالات (بغداد) ممكن كانوا قد بقوا بها حتى يأتوا إلى معسكر التتار، حيث أمسك (هولاكو) بالجميع وقتلهم[34].

*مصير ابن الخليفة (أبي بكر):

وهنا تختلف الروايات حول مصير وموت الأمير (أبي بكر) وهي:

1 -ففي رواية أن (هولاكو) قتله مع (سليمان شاه) و(فتح الدين كرد) و(مجاهد الدين أيبك الدوايدار)، وهذه الرواية هي الأقرب للقبول.

34 - المصدر السابق.

2-وهناك رواية أن الأمير (أبا بكر) عاد من عند (هولاكو) إلى أبيه وقت خروج أمير المؤمنين، ولم يخرج معه، وذهب من (بغداد) إلى بادية بجانب (الشام) اختفى فيها.

3-وهناك رواية أخرى تقول: إنه استشهد، وذلك أنه قال كلمات عنيفة في حضور (هولاكو) بعد أن أسر، وكانت كلماته هي: »لقد اعتقدنا أن لك أصلًا عظيمًا، وأنك رجل كامل وسوف تكون ملكًا عظيمًا، فوثقنا في قولك، والآن وقد اتضح إنك لست ملكًا ولا رجلًا، فقد غدرت والملوك والرجال لا يغدرون»، فأمر (هولاكو) بقتله، فقتل رحمه الله شهيدًا.

4-وهناك من روى أن (هولاكو) قد أمر بأن يحملوا الأمير (أبا بكر) مع واحد من السادة العظام إلى (آذربيجان) على أن يبقى هناك حتى يفصل (هولاكو) في أمره بعد انتهائه من أمر (بغداد)، وبعد أن حملوا الأمير (أبا بكر) إلى هذا السيد العظيم، وقطعوا عدة مراحل إلى (آذربيجان) على أن جماعة (هولاكو) قالوا له: »إنك قد أخطأت؛ لأن الأمير (أبا بكر) سيصل سالمًا إلى (آذربيجان) وسيجتمع حوله جيوش الروم والشام والمغرب كافة، ومن المؤكد أنه سينتقم لنفسه» فأرسل (هولاكو) وراءه أشخاصًا في إثره فأعاده مرة أخرى، وأمر بقتله.

*مصير الخليفة العباسي (المستعصم بالله):

أما الخليفة فقد رغب التتار في الإبقاء على حياته والحفاظ عليه سالمًا عدة أيام أخرى، وكان هناك جماعة من المسلمين في جيوش المغول والتتار فقالوا: »إنه إذا أراق (هولاكو) دم الخليفة على الأرض،

فسوف يغوص (هولاكو) وجيش المغول الكفار داخل الأرض نتيجة زلزال، لذلك لا ينبغي قتله»وكان هدف هؤلاء المسلمين أن يبقوا على حياة أمير المؤمنين بنشر هذه القصة المختلقة والتي لا أصل لها، ولكنها أتت على الخليفة بالوبال.

فلما سمع المغول ذلك عطلوا قتله، إلا صاحب (الموصل) (بدر الدين لؤلؤ) حيث قال للتتار: «إذا بقي الخليفة حيًّا، فسوف يثور المسلمون الموجودون في الجيش والطوائف الموجودة في البلاد الأخرى ويخلصونه، ولن يتركوك يا (هولاكو) حيًّا».

فسيطر الخوف على (هولاكو) لأنه إذا بقي الخليفة حيًّا فسيتحقق خروج المسلمين، وإذا قتل الخليفة بالسيف ووقع دمه على الأرض على حسب الرواية المزعومة فسوف يقع زلزال ويهلك هو ومن معه، ففكر في طريقة أخرى لقتل أمير المؤمنين، واهتدى إلى طريقة لقتل الخليفة دون أن يريق دمه على الأرض، فأمر (هولاكو) بوضع الخليفة في جوال (كيس من قماش كبير) وأمر به فقام الجنود بضرب الخليفة باللكمات الشديدة وركله في جميع أنحاء جسمه حتى مات، وقد قتل من كان مع الخليفة جميعًا عدا ابن صغير له.

وقام (هولاكو) بعد ذلك بالاستيلاء على جميع خزائن (بغداد) من الأموال والجواهر وأوان ومرصعات، وحمل (هولاكو) كل ذلك إلى معسكره وأرسل قدرًا من الأموال إلى ملكه ملك المغول (منكو خان) الخان الأعظم، وأرسل إليه بعض جواري الخليفة وفيهن حريمه.

*مصير إحدى بنات الخليفة في الأسر:

وكان مـن بـين الجـواري وحريـم الخليفة إحـدى بنات الخليفـة، كان قـد أرسـلها (هولاكـو) إلى إقليم (التركسـتان)، وأرسـل بعـض الغنائم عـلى سـبيل الهدية إلى ابـن عمه (بركـة خان) المسـلم، واحتفـظ بالبعض الآخـر لنفسـه، وقـد روى البعـض أن (بركـة خـان) لم يقبل الهدايـا التي أرسـلها (هولاكـو) إليـه، بـل وقـام بقتـل الرسـل، فقـام بينهـما العـداء بسـبب ذلـك، ويقـال: إن الهدايـا والأمـوال والجـواري التـي أرسـلها (هولاكـو) إلى (منكـو خـان) حتـى وصلـوا إلى مدينة (سـمرقند) وكان مـن بين الجـواري ابنـة الخليفة، فاسـتأذنت مـن القائـد المـوكل بحمايتها قائلـة لـه:»إن قـبر أحـد أجـدادي وهـو (قثـم بـن العبـاس) (رضي الله عنـه) في مدينـة (سـمرقند) وأريـد أن أزوره»، فأذن لها هـذا القائد القائم بحراستها.

فذهبـت (المعصومـة) ابنـة الخليفـة وزارت قـبر (قثـم بـن العبـاس) وقامـت بواجبـات الزيـارة، وأدت ركعتـين مـن الصـلاة، ونظـرت إلى الأرض ثـم دعـت قائلة:»يا إلهـي إذا كان لجـدي هذا (قثم بـن العباس) مكانـة لديـك، فلتقبـض روحـي إلى حضرتـك، وتخلصنـي مـن أيـدي هـؤلاء الأخسـاء». وكان باب الإجابة مفتوحًا في تلك السـاعة نفسـها، فصعـدت روحهـا الطاهـرة إلى حـضرة الباري تعـالى[35].

وسـواء أكانـت هـذه القصـة صحيحـة أم خيالية، فهـي تعكس مدى فداحـة الحـدث الـذي حل بعاصمـة الخلافـة الإسـلامية (بغـداد)، وما حـلَّ بالخليفـة وأهل بيتـه، والدمـار الذي حـل بالأمة على أيـدي هؤلاء

35 - المصدر السابق.

المغول المتوحشين الذين قتلوا النساء والأطفال والشيوخ، وحرقوا الكتب وأغرقوها في نهري (دجلة) و(الفرات).

*ذكر ما حل بالوزير الرافضي (مؤيد الدين أحمد بن محمد ابن العلقمي):

ونأتي الآن إلى ذكر ما حدث مع الوزير (ابن العلقمي) والذي ظن أنه سوف يُكافأ على ما قام به من خدمات لصالح التتار، فبعد أن أغار (هولاكو) على عاصمة الخلافة (بغداد) وما قام به من تقتيل المسلمين، أودع البقية الباقية من الأحياء والذين نجوا من المذابح الرهيبة التي قام بها المغول، إلى الوزير (ابن العلقمي)، وعيَّن له شحنة من المغول حتى يجمع الخلق، وبعد أن عاد الوزير إلى (بغداد) جمع بعضًا من القوم، وأقام بهم في (بغداد).

وكان بعض عبيد الخليفة قد هربوا من التتار إلى الوديان، وظلوا هناك على قيد الحياة جمعوا ما قدروا عليه من الفرسان، فبلغوا نحو عشرة آلاف فارس، وعبروا نهر (دجلة) بغتة وعلى حين غرة من شحنة المغول الموجودة بالمدينة، وقاموا بالإغارة على (بغداد)، وقبضوا على الوزير (ابن العلقمي) الملعون وعلى قائد الشحنة، وقطعوهما إربًا إربًا (وهذه رواية أخرى غير التي تقول أن الوزير مات كمدًا وحسرة على سوء المعاملة التي تلقَّاها من هولاكو) كما أسروا كل من وقع في أيديهم من أتباع المغول، فقبضوا عليهم وقتلوهم جميعًا.

ثم عادوا بسرعة من حيث أتوا وعبروا نهر (دجلة) قبل أن يصل خبرهم إلى (هولاكو)، وما أن وصل الخبر إلى معسكر المغول، حتى

توجَّـه ركـب مـن الجيـش إلى (بغـداد) فلـم يتمكنوا مـن الإمسـاك بأي مـن المجاهدين المسـلمين الذيـن قامـوا بالغارة.

ويـروي البعـض أن حينـما فـرغ (هولاكـو) مـن أمـر (بغـداد) ومـن قتـل جميـع المسـلمين قـال للوزيـر (ابـن العلقمي): »مما كانـت نعمتـك ودولتك؟»فأجابـه الوزير: »مـن دار الخلافة»فقال: »بـما أنك لم تحفظ حق نعمـة أربـاب نعمتك، فإنـك لا تصلح لخدمتـي أيضًا»فأمر بـه فقتل[36].

وأيًّـا كان مـا حـدث مـع الوزيـر (مؤيـد الديـن ابـن العلقمـي) فـإن جـزاء الخيانـة كان ولابـد أن يكـون القتـل أو الإبعـاد، وقـد نـال (ابـن العلقمـي) أسـوأ من القتل والإهمال، فقد سـطر اسـمه في كتـب التاريخ عـلى أنه مثـال الخيانـة وتقديـم المذهبية والطائفية على حسـاب الإسـلام والوطـن مـن أجل مصالح شـخصية وأهـداف دنيئة، وضحـى بالخلافة وبالإسـلام وبخليفتـه وولي نعمتـه، وقـضى عـلى الخلافـة العباسـية (ببغـداد)، والتـي انتهـت إلى الأبـد ولم تعـد إليها مـرة أخـرى، حتى قام السـلطان (الظاهـر بيـبرس) بإحياء الخلافة مـرة أخرى ولكـن هذه المرة في (مـصر)، وجعـل مقر وعاصمـة الخلافة هي (القاهـرة)، ومقر الخليفة هـو (قلعـة الجبل) لتبـدأ مرحلة ثانيـة من الخلافـة العباسـية ولكنها أكثر ضعفًـا، فقـد أصبـح الخليفـة في (القاهـرة) محجـورًا عليه ليس له سـوى الاسـم فقـط، وذلك لكـي تكتمل صـورة السـلطنة والحكـم للمماليك في (مصر).

---

36 - المصدر السابق.

الفصل الثاني

خبايا العصر الفاطمي

مقدمة

الدولـة ((الفاطميـة)) في ((مـصر)) منذ نشـأتها وهي تكيد للإسـلام والمسـلمين، ولم تكـن أبـدًا عونًـا للأمـة الإسـلامية فلـم يكـن لهـا هـم سـوى تفريـق كلمة المسـلمين، وضرب الخلافـة ((العباسـية)) والقضاء عليهـا وإنهائهـا تمامًا من الوجـود، وكادت أن تنجـح في ذلك لولا ظهور ((السـلاجقة)) الذيـن قضـوا عـلى طموحـات وآمـال ((الفاطميـين)) وطردوهـم مـن بلاد ((الشـام)).

وفي هـذا الفصـل سـوف أتنـاول بعض مـا قامت بـه هـذه الدولة من أعـمال كان لهـا أكبر الأثر السـلبي في تاريخ المسـلمين، وضيـاع ممتلكات الإسـلام في ((جنـوب ايطاليا وصقليـة))، وضياع هيبة الإسـلام في أيام الحمـلات الصليبيـة، وكادت أن تضيـع الإسـلام بالكليـة لـولا مجـيء السـلطان ((النـاصر صـلاح الديـن))، والـذي أعـاد هيبة الإسـلام مرة أخـرى وجعـل مـن ((مـصر)) قلـب العـالم الإسـلامي النابـض ومادته التـي مـن خلالهـا تـم طـرد الصليبيين مـن ((القـدس)) وبلاد الإسـلام بالكلية.

عندما تأتي الطعنة في الظهر

خيانة الفاطميين للمسلمين والإسلام

عندما قامت الحملات الصليبية سنة (1095م)، وتحركت من بلاد الغرب الأوروبي متجهة إلى بلاد (الشام وفلسطين) من أجل تحرير (بيت المقدس) وأراضي الإمبراطورية البيزنطية التي فتحتها الجيوش السلجوقية، وطردهم من أراضي الإمبراطورية في ذلك الوقت، كانت الدولة الفاطمية في (مصر) يملؤها الغيظ والحقد لضياع ممتلكاتها في (فلسطين) وبلاد (الشام)، ولم يكن لها قدرة ولا طاقة على مواجهة الأتراك السلاجقة بسبب ضعفها الشديد أمام قوة السلاجقة الناهضة، ولهذا وجدت الدولة الفاطمية فرصة مُنحت لها ولن تعوض مرة أخرى فانتهزتها، ألا وهي مجيء الجيوش الصليبية إلى المنطقة، ولم تراع الدولة الفاطمية رابطة الدين، ولم تراع حتى مصلحة الحفاظ على أرواح الأبرياء من المسلمين، فقد تركوا الجيوش الصليبية تتوغل في بلاد الشام تسقط مدنها الواحدة تلو الأخرى، وهي لا تحرك ساكنًا، فلم ترسل جيشًا واحدًا لوقف هجوم الجيوش الصليبية، ولم ترسل حتى معونات مالية مع القدرة على ذلك كما قال

المؤرخ (أبو المحاسن بن تغر بردي) ولا يمكن تفسير هذا الفعل السلبي وهذا السلوك الشاذ سوى أنه روح التشفي والغيظ الشديد الذي تكنه هذه الدولة الشيعية على غيرها من دول وإمارات يحكمها أمراء وملوك من السنة في هذه المناطق.

ولهذا نرى أن صاحب السلطة الفعلية في (مصر) وهو وزير الدولة الفاطمية، وأقصد به الوزير (شاهنشاه) بن الوزير (بدر الدين الجمالي)، والذي تقلَّد الوزارة في عهد كلا من الخليفتين، الخليفة (المستعلي بالله) طوال مدة خلافته (1094 م / 1101 م) وأول عشرين سنة من حكم الخليفة (الآمر بأحكام الله) حتى سنة (1121 م)، فلما بلغته أخبار وصول طلائع الجيوش الصليبية إلى المنطقة وتتابع هذه الجيوش على بلاد الشام ومحاربتهم لجيوش الدولة السلجوقية ونوابها في بلاد آسيا الصغرى (الأناضول) وتحقيقهم انتصارات كبيرة على المسلمين هناك، قامت في ذهن الوزير (الأفضل) عند ذلك فكرة شيطانية ألا وهي ترك مدن المسلمين وقلاعهم وحصونهم تسقط في أيدي الصليبيين، بل فكر في أبعد من ذلك، فكر في محاولة عقد تحالف بين القوى الفاطمية والقوى الصليبية، فكلاهما له هدف وغاية واحدة ألا وهي تحطيم قوة السلاجقة في المنطقة والاستيلاء على أراضيهم وطردهم نهائيًّا وردهم إلى بلادهم من حيث أتوا، وأقصد بلاد فارس وما وراءها، وإن لم تنجح فكرة عقد التحالف بينهم وبين الصليبيين فعلى أقل تقدير يمكنه استغلال انشغال محاربة السلاجقة للصليبيين في الشمال والانقضاض على ممتلكاتهم وأراضيهم في (فلسطين) وما حولها، وعودة هذه الأراضي إلى الحكم الفاطمي مرة أخرى.

وربما أتت هذه الفكرة الغبية الى ذهن الوزير (الأفضل) لاعتقاده الفاسد من أن هذه الجيوش الصليبية أتت إلى بلاد الشام من أجل السلب والنهب كما في العهود السابقة، أو لمعاونة جيوش الإمبراطورية البيزنطية ومساعدتها في استرداد أراضيها وممتلكاتها في آسيا الصغرى (الأناضول)، فقط تصور (الأفضل) أن أطماع الصليبيين لن تتعدى الحصول على مدينة (أنطاكية)، هذه المدينة التي كانت نقطة النزاع الدائم والمستمر على حدود الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية، فتارة تكون في قبضة المسلمين، وتارة أخرى تكون في قبضة البيزنطيين، ولهذا لم تكترث الدولة الفاطمية عندما سمعت نبأ سقوط مدينة (أنطاكية) المدوي، فقد اعتبرته استمرار لمسلسل الحروب على الحدود فقط لا غير، ولكن الأيام أثبتت خطأ هذا التفكير الغبي، وهذا المعتقد الناجم عن التعصب المذهبي البغيض والذي كان على حساب المسلمين لا فرق فيه بين سني أو شيعي، فلم يفرق السيف الصليبي عند قتله للمسلمين ما إذا كان المقتول سني أو شيعي، فالاثنان عندهم سواء، والدليل على فساد فكر الوزير (الأفضل) هو قيامه بحملة عسكرية على (بيت المقدس) وما حولها من المدن واسترجاعها من السلاجقة السنة في نفس توقيت استيلاء الجيوش الصليبية على مدينتي (أنطاكية) و(الرها)، وهذا وإن دل على شيء يدل على قصر نظر وغباء الخلافة الفاطمية وعدم فهمها لطبيعة وروح الحملات الصليبية الجديدة التي أتت إلى المنطقة، والتي تختلف في طبيعتها ومضمونها عن سابقتها من الحملات العسكرية الفرنجية، والتي كان هدفها فقط إحراق المدن والقتل والسلب والغنائم، أما

هـذه فـكان هدفهـا تكـون إمـارات صليبيـة هدفهـا الاسـتقرار وطـرد المسـلمين أصحـاب البـلاد مـن أراضيهم.

عـودة إلى الدولـة (الفاطميـة) وتخاذلها عـن محاربـة الصليبيين، وعدم مسـاندة ومعاونـة المسـلمين في بـلاد (الشـام) و(فلسـطين)، بـل عـلى العكـس كانـت الدولة الفاطمية شـوكة في ظهـر المسـلمين وعونًا عليهم مـع أعدائهـم، وإليك حمـلات الفاطميين على المسـلمين وتقاعسـهم عن جهـاد الفرنجـة الصليبيين:

*حملات الفاطميين على ديار الإسلام:

أولًا: حملة (بيت المقدس) سنة (491هـ):

وفي شـهر شـعبان سـنة (491هـ) خـرج الوزيـر الفاطمـي (الأفضـل شاهنشـاه) عـلى رأس جيـش كبـير متوجهًـا إلى (بيـت المقـدس) والتـي كانـت تحت حكـم الأخوين (سـكان) و(إيلغـازي) ابنـا الأتابك (أرتق) السـلجوقي، وكانـا يحكمانها مـع خواصهـا مـن أقاربهـا وعسـاكرهما من الأتـراك، فقـام (الأفضـل) بإرسـال رسـالة لهـا مفادهـا تسـليم المدينـة دون حـرب أو قتـال، فرفضـا طلبـه، فقـام بمحـاصرة المدينـة وضربهـا بالمجانيـق حتـى هـدم جانبـا مـن سـورها، فسـلم الأخـوان لـه المدينـة عـلى الأمـان، فأطلقهـما (الأفضـل) ودخـل المدينـة، وبذلـك تمكـن من اسـترجاع (القـدس) مـن السـلاجقة وعودتهـا مـرة أخـرى تحـت حكم العبيديـين الفاطميـين[37].

37 - ص (22) – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – الجزء الثالث – تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد – طبعة (1429 هـ / 2008 م) – وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة إحياء التراث) – (القاهرة).

ثانيًا: تقاعس الوزير (الأفضل) عن جهاد ومحاربة الصليبيين:

وقد أنكر المؤرخ المصري (جمال الدين أبو المحاسن) تقاعس الوزير الفاطمي (الأفضل) عن الجهاد ضد الفرنجة، في حين قيام ملوك وأمراء الشام السلاجقة بتعبئة الجند من أجل الجهاد وهم:

1- (رضوان) ملك (حلب) ومعه أخوه (أقماق).

2-الأمير (طغتكين) ملك (دمشق).

3- (أبو سعيد قوام الدولة كربوغا) ملك (الموصل).

4- (سكمان) ملك (ماردين).

5- (سكمان) ملك (سنجار).

وقد اتحد جميع هؤلاء الأمراء والملوك بعد أن سقطت مدينة (أنطاكية) محاولين استعادة المدينة من الصليبيين، ووقف توغلهم في أراضي المسلمين، في حين أن الدولة الفاطمية ووزيرها (الأفضل) في مصر لا يعبئون بما يحدث في بلاد الشام وجهاد المسلمين هناك، وهنا يقول (أبو المحاسن) عن الوزير الفاطمي:

«ولم ينهض (الأفضل) بإخراج عساكر (مصر)، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال ؟»

ص (81) وص (82) – المنتقى من أخبار مصر – ابن ميسر تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب – انتقاه (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي) – قابله بأصوله وأعده للنشر د. أيمن فؤاد السيد – طبعة (1436 هـ / 2014 م) – الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

وقد قام هؤلاء الأمراء والملوك السلاجقة بمحاصرة مدينة (أنطاكية)، وضيَّقوا عليها الحصار حتى كاد الفرنج أن يهلكوا من شدة الحصار، لولا قيام الفرنجة بحيلة على المسلمين تمكنوا من خلالها كسر الحصار، وهنا يذكر (أبو المحاسن):

« أن كلا من (دقماق) و(رضوان) وبقية الأمراء قد كاتبوا الخليفة العباسي في (بغداد) الخليفة (المستظهر بالله) يستنصرونه ويطلبون من النجدة والمدد، فأخرج الخليفة (أبا نصر ابن المؤصلايا) إلى السلطان السلجوقي (بركيا روق) ابن السلطان (ملكشاه) يستنجده، كل ذلك وعساكر (مصر) لم تتهيأ للخروج !».[38]

وهنا يتركنا المؤرخ المصري (أبو المحاسن) لكي نستنتج الإجابة على سؤاله وتعجبه في السبب في عدم خروج أية جيوش من (مصر) للمشاركة في حصار (أنطاكية) مع بقية جيوش السلاجقة ومحاربة الصليبيين الفرنجة، وهو ببساطة حب التشفي والنكاية في السلاجقة السنة، وأيضًا إعدادهم لخطة شيطانية ألا وهي محاصرة أتابكيات السلاجقة في الجنوب، وترك الفرنجة يحاصرونهم في الشمال، فتكتمل عليهم الدائرة ويضيق على سلاجقة الشام الحصار والخناق، وبالتالي يسهل على الجميع (الفرنجة) (الفاطميين) الوصول إلى غاياتهما وتحقيق أهدافهما دون كبير عناء أو خسارة في الأموال والجنود، وكان الهدف الأساسي والموحد لكلا الطرفين هو القضاء على الوجود السني في المنطقة والمتمثل في الأتراك السلاجقة الذين يمثلون العدو المشترك للصليبيين الفرنجة، وللفاطميين الشيعة في (مصر).

38 --ص (147) وص (148) – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي – الجزء الخامس – الطبعة الثانية (1426 هـ / 2005 م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

ثالثا: تقاعس (المستعلي بالله):

ويصف المؤرخ المصري (أبو المحاسن) الخليفة الفاطمي (المستعلي بالله) ويعلق على صفاته المتضادة فيقول:»وكان (المستعلي) حسن الطريقة في الرعية، جميل السيرة في كافة الأجناد، ملازمًا لقصره كعادة أبيه، مكتفيًا (بالأفضل) فيما يريده، إلا أنه مع تقاعده عن الجهاد وتهاونه في أخذ البلاد متغاليًا في الرفض والتشيع، وكان يقع منه الأمور الشنيعة في مأتم عاشوراء (ذكرى استشهاد الحسين عليه السلام في كربلاء سنة 61هـ) ويبالغ في النوح والمأتم، ويأمر الناس بلبس المسوح وغلق الحوانيت واللطم والبكاء زيادة عما كان يفعله آباؤه، مع أن الجميع رافضة (يقصد أباءه الخلفاء السابقين) ولكن التفاوت نوع آخر».

والإجابة عن تقاعس الخليفة الفاطمي (المستعلي) موجودة بين سطور الفقرة السابقة، ألا وهي عقيدته ومقالاته في الرفض والتشيع، والتي ترى أنه ليس عليهم نصرة المخالفين لهم من المذاهب الإسلامية الأخرى، وإن كانوا مسلمين مثلهم، ولكن عقيدة التشيع الفاسدة منعتهم من نصرة مسلمي الشام وفلسطين.

رابعًا: تقاعس الخليفة (الآمر بأحكام الله):

وهو ابن الخليفة (المستعلي بالله) وكان أكثر تقاعسًا من أبيه في أمر الجهاد ومحاربة الصليبيين، ولا يهتم بأمر الفرنجة وما يقومون به من حملات عسكرية وحربية على بلاد (الشام) و(فلسطين)، فيقول عنه (أبو المحاسن):

«وكان (الآمـر) يتناهى في العظمة ويتقاعد عـن الجهاد، وكان رافضيًّا كآبائـه، فاسـقًا ظالمًا جبـارًا متظاهـرًا بالمنكـر واللهو، ذا كـبر وجبروت، فإنـه مـع تلك المسـاوئ التـي ذُكـرت عنـه كان فيه تهـاون في أمـر الغزو والجهـاد حتـى اسـتولت الفرنـج عـلى غالـب السـواحل وحصونهـا في أيامـه، وإن كان وقـع لأبيـه (المسـتعلي) أيضًـا ذلـك وأخـذت (القدس) في أيامـه، فإنـه اهتـم لقتـال الفرنـج وأرسـل (الأفضـل بن بـدر الجمالي) أمـير الجيـوش بالعسـاكر، فوصلوا بعـد وفـات المصلحة (يقصـد نجدة القـدس) بيـوم، فكان لـه في الجملة مندوحـة بخلاف (الآمر) هـذا، فإنه لم ينهـض لقتـال الفرنـج البتـة، وإن كان أرسـل مـع الأسـطول عسـكرًا فهـو كلا شيء (أي: ليـس لهـم أهميـة حربية حقيقـة)». [39]

ففي أيام (الآمر بأحكام الله) استولى الفرنج على البلاد التالية:

1 –(القدس) سنة (492هـ).

2 – (عرقة) و(بانياس) سنة (496هـ).

3 – (عكا) سنة (497هـ).

4 –(طرابلس) سنة (502هـ).

5 – (بيروت) سنة (503هـ).

6 – (صيداء) سنة (504هـ).

7 – (تبنين) سنة (511هـ).

8 – (صور) سنة (518هـ).

39 - ص (153) وص (178) – المصدر السابق.

وقد شرح المؤرخ (أبو المحاسن) كيفية تقاعس الفاطميين عن حماية مدنها، وعن عدم الدفاع عنها وإرسال الجيوش إلى بلاد (الشام)، وكيف تجرأ الفرنجة على الدولة الفاطمية، فيقول:

1-عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج وتقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة مع القدرة بالمال والجنود.

2-ضعف العسكر الذي أرسلوه مع الأسطول المصري، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر على حسب الحال.

3-لم يخرج الوزير (الأفضل) بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية كما كان يفعل والده (بدر الدين الجمالي) في أوائل الأمر، مع قوتهم في العساكر والأموال والأسلحة.

*خذلان الفاطميين للأمة:

والآن نشرح كيف تعاملت الدولة الفاطمية مع القوى الإسلامية، وتقاعسها عن تلبية الجهاد:

أولًا: سقوط ثغر (عكا) سنة (497 هـ / 1103 م):

وهنا يذكر المؤرخ المصري (تقي الدين المقريزي) باقتضاب كيفية سقوط هذا الثغر العظيم **فيقول:**

«سنة سبع وتسعين وأربعمائة، فيها نازل (بغدوين) وهو (بولدوين) ملك الفرنج وصاحب (القدس) ثغر (عكا) وحاصر أهله وألح عليهم حتى ملكه، وكان فيه من قبل (الأفضل) يومئذ (زهر الدولة الجيوشي) ففر إلى (دمشق) وصار إلى (ظهير الدين طغتكين أتابك) فأكرمه وأحسن إليه، ثم جهزه إلى (الأفضل)

فأنكر عليه وهدده على تضييع الثغر، ولم تعد بعدها (عكا) إلى المسلمين» انتهى من المقريزي[40].

وهنا يحزنني هذا القول حقيقة من مؤرخ عظيم مثل (المقريزي) في عدم ذكر حقيقة سقوط مدينة (عكا) واختصاره الشديد في ذكر هذه الواقعة الخطيرة بهذا الشكل المخل، ولكن يذكر (أبو المحاسن) خبر سقوط هذه المدينة العظيمة بشكل مختلف، فيقول:

«وفيها (أي: سنة 497 ه) نزل (بغدوين) صاحب (القدس) الفرنجي على (عكا) في البر والبحر في نيف وتسعين مركبًا، فحاصروها من جميع الجهات، وكان واليها (زهر الدولة الجيوشي) فقاتل حتى عجز، فطلب الأمن له وللمسلمين، فلم يعطوه لما علموا (يعني الفرنج) من أهل (مصر) (يقصد الفاطميين) أنهم لم ينجدوه، ثم أخذوها (أي: المدينة) بالسيف في شهر رمضان»[41].

وهذا التفسير من قبل (أبي المحاسن) لكيفية سقوط هذه المدينة وهذا الثغر هو التفسير الصحيح، وليس كما ذكر (المقريزي)، فإن الجيوش المصرية لم تكن من القوة والمنعة من إنجاد (زهر الدولة)، ويؤيد قول (أبي المحاسن) ما أورده أحد المعاصرين لحملة (بغدوين أو بلدوين) على (عكا) وهو المؤرخ الكنسي (فوشيه الشارتري) والذي أورد قصة كيفية حصار (عكا) الأول والثاني، فيقول:

---

40 - ص (34) – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد – الجزء الثالث – طبعة (1429 هـ / 2008 م) – وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة إحياء التراث الإسلامي) – (القاهرة).

41 - ص (188) – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – جمال الدين أبي المحاسن بن تغري بردي الأتابكي – الجزء الخامس – الطبعة الثانية (1426 هـ / 2005 م) – دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة.

«في سنة (1103 م) في الربيع، وبعد أن احتفلنا بعيد الفصح في (بيت المقدس) كما جرت عادتنا، تقدم الملك بجيشه الصغير وحاصر (عكا) التي تسمى أيضًا (بطلمية)، ولكن لأن المدينة كانت قوية جدًّا سواء من حيث متانة أسوارها، أو من حيث دفاعاتها الخارجية، لم يستطع الملك أن يستولي عليها في ذلك الحين، لاسيما وأن المسلمين بداخلها دافعوا عن أنفسهم في شجاعة فائقة تستحوذ على أقصى درجات الإعجاب، وبعد أن دمر الملك محصولاتهم، وكرومهم (العنب)، وبساتينهم عاد إلى (يافا)»[42].

ثم يعود ويذكر كيفية استيلاء الفرنجة على المدينة فيقول:

«في سنة (1104 م) بعد انقضاء الشتاء، وعندما كان الربيع مزدهرًا احتفلنا بعيد الفصح في (بيت المقدس) عندئذ جمع (بلدوين) رجاله وسار إلى (عكا) لكي يفرض عليها حصارًا ثانيًا، وجاء (الجنوية) لمساعدته بأسطول مؤلف من سبعين مركبًا، وبعد أن فرض المسيحيون الحصار على المدينة بآلات الحصار وشنوا هجمات عديدة على مدى عشرين يومًا، غشي المسلمين خوف عظيم واستسلموا للملك، وبعد أن تم الاستيلاء على المدينة بهذه الطريقة قتلوا كثيرين من المسلمين، ولكنهم أبقوا على حياة البعض، واستولوا على جميع ممتلكاتهم»[43].

42 - ص (191) الاستيطان الصليبي في فلسطين (تاريخ الحملة إلى بيت المقدس 1095 م – 1127 م) – فوشيه الشارتري – ترجمة ودراسة وتعليق د. قاسم عبده قاسم – الطبعة الأولى (1422 هـ / 2001 م) – دار الشروق – القاهرة.

43 - ص (192) المصدر السابق.

وبعد ما أورده (فوشيه الشارتري) عن كيفية سقوط (عكا) ننتهي إلى عدة حقائق تخالف ما ذهب إليه (المقريزي) من سقوط المدينة وهروب واليها (زهر الدولة الجيوشي) وتركه للمدينة لمصيرها المشئوم، ألا وهي:

1-أن والي المدينة (زهر الدولة الجيوشي) ومن معه من الجنود وأهل المدينة قد صمدوا أمام الحصار الأول للملك (بلدوين) والذي لم يذكره (المقريزي)، بل ودافعوا دفاعًا مجيدًا رد ملك الفرنجة على أعقابه دون أن يحقق غايته من الاستيلاء على المدينة.

2-أن الدولة الفاطمية في (مصر) لم ترسل أية نجدات أو قوات كافية تعين (زهر الدولة) في دفاعه وصموده ضد حصار الفرنجة، أو حتى ردهم عن (عكا).

3-أن الحصار الثاني على (عكا) صمد فيه أيضًا والي المدينة (زهر الدولة) وحاميته مدة عشرين يومًا كاملة، وهذا لم يذكره (المقريزي) أيضًا، دون أن يصل إليه أي مدد من الوزير (الأفضل)، والذي قال فيه (أبو المحاسن) عن (زهر الدولة): (إنه قاتل حتى عجز).

4-لم يذكر أي مصدر أن (الأفضل) قد هدد (زهر الدولة) والي (عكا) لتضييعه الثغر، بل على العكس من ذلك، فقد ذكر أحد المؤرخين للدولة الفاطمية وهو (ابن ميسر أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف) المولود سنة (628 ه) والمتوفي سنة (677 ه) وهو بالتالي أقرب من المؤرخ (المقريزي) ومن المؤرخ (أبي المحاسن) ولديه من المصادر عن تلك الفترة التي لم توجد عند كليهما، فيقول عن هذه الحادثة:

«سنة (497 ه) فيها حاصر (بردويل) يقصد (بلدوين) ملك الفرنج وصاحب (القدس) ثغر (عكا) وملكه، فخرج عن أيدي المسلمين ولم يعد، وكان ثغر (عكا) بأيدي نواب صاحب (مصر) وكان الوالي يومئذ (زهر الدولة الجيوشي) ففر إلى (دمشق) وأكرمه (ظهير الدين أتابك) وأحسن مثواه مكرمة (للأفضل)، ثم جهزه إلى (مصر) فشكره (الأفضل)»[44].

وهنا ينتهي (ابن ميسر) من ذكر كيفية سقوط المدينة، وكيف أن (زهر الدولة) فر إلى (ظهير الدين) وأن هذا الأخير جهزه ووفر له سبيل العودة إلى (مصر)، ولم يذكر (ابن ميسر) قصة تهديد (الأفضل) لوالي (عكا) على تضييعه لها، وما أظن هذه الزيادة إلا من جهة (المقريزي)، وذلك لحفظ ماء وجه الوزير (الأفضل) وللدولة المصرية التي تقاعست عن نجدة المدينة.

5-أن الفرنجة أيقنوا تماما بعد تمكنهم من الاستيلاء على (عكا) أن الدولة المصرية من الضعف بمكان أنها لا تستطيع أن ترسل أية نجدة لبقية مدنها في الساحل وحصونها، فواصل الفرنجة استيلائهم على ما تبقى من هذه المدن دون خوف أو حذر من الفاطميين في (مصر) أو غيرهم من أمراء الشام السلاجقة.

44- ص (93) – المنتقى من أخبار مصر – ابن ميسر تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب – انتقاه (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي) – قابله بأصوله وأعده للنشر د. أيمن فؤاد السيد – طبعة (1436 ه / 2014 م) – الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

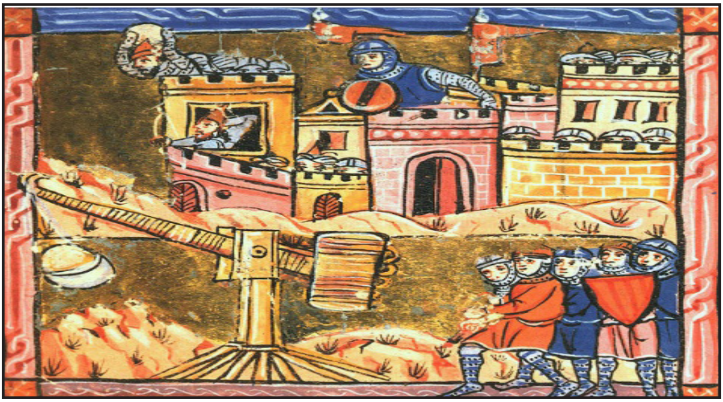

(صورة توضح حصار مدينة عكا)

ثانيًا: سقوط (القدس) سنة (492 ه / 1099 م):

وعلى الرغم من سقوط مدينة (القدس) كان قبل مدينة (عكا)، إلا أنني آثرت أن أذكرها بعدها لعظم الحدث، وكان سقوط المدينة يوم الجمعة (23 من شهر شعبان سنة 492 ه)، وذلك بعد أن استولى الفرنجة على مدينة (أنطاكية) فقد ساروا بجيوشهم بقيادة (كندهري) وهو (جودفري) إلى مدينة (القدس)، والعجيب أن والي المدينة ويدعى (افتخار الدولة) ظل هو والحمية يدافعون عن المدينة طيلة أربعين يومًا كاملة لم ترسل فيها أو خلالها الدولة الفاطمية (بمصر) أية مساعدة عسكرية للمدينة، وبعد سقوط المدينة بعد الحصار الشديد والهجمات العنيفة هرب (افتخار الدولة) وبقية الحامية إلى (برج داود) أو كما هو معروف (بمحراب داود)، وحاصرهم الصليبيون هناك أكثر من أربعين يومًا أخرى، ولم يحضر أيضًا أيه عساكر أو جنود من الدولة الفاطمية، كما ذكر (أبو المحاسن) ذلك !!

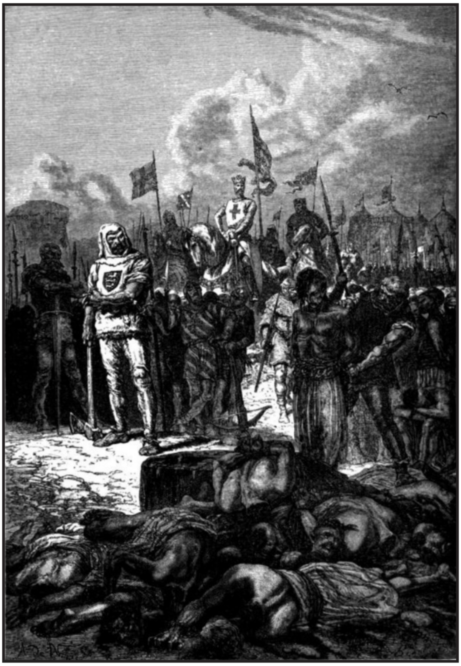

(الصليبيون يقومون بذبح حامية مدينة القدس)

فلما سقطت المدينة خرج الوزير (الأفضل) من (مصر) ووصل إلى مدينة (عسقلان) يوم (14 من شهر رمضان) ويذكر (المقريزي) كلامًا غريبًا عن موقف الوزير (الأفضل) فيقول الجواب:

«فبعث (أي: الوزير الأفضل) إلى الفرنج فوبخهم على ما كان منهم !!! فردوا عليه الجواب».(45)

45 - ص (23) وص (24) – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد – الجزء الثالث – طبعة (1429 هـ / 2008 م) – وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة إحياء التراث) – (القاهرة). ص (83) – المنتقى من أخبار مصر – ابن ميسر تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب – انتقاه (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي) – قابله بأصوله وأعده للنشر د. أيمن فؤاد

أليس هذا دليل على أن هناك اتفاقًا وتعاونًا بين الفاطميين والصليبيين على القضاء على السلاجقة في بلاد الشام وعلى اقتسام أراضي ومدن الشام، وعدم تجاوزهم إلى مدينة (القدس)، وإلا فلما أرسل (الأفضل) إلى الصليبيين يوبخهم على استيلائهم على مدينة (القدس) إلا لأنهم أخلوا بالاتفاق الذي عقدوا فيما بينهم.

***هزائم الفاطميين - هزيمة الوزير (الأفضل) نموذجًا:**

ولما رأى الوزير (الأفضل) أن توبيخه لم يجدِ نفعًا مع الفرنجة بعد استيلائهم على (القدس)،علم أنه لا خيار أمامه سوى الحرب، وهو الخيار الذي كان يكرهه ولم يرده من البداية، وقد علم الفرنجة بدورهم أن (الأفضل) لن يسكت على استيلائهم على (القدس)، وأنه سوف يحاربهم، فقاموا بتتبع أثر الرسل لكي يعلموا أين وصل الجيش المصري، فوجدوا الجيش المصري معسكرًا وكان عددهم حوالي عشرين ألفًا، وكان جيش الصليبيين عشرة آلاف فقط، فهجموا على الجيش المصري هجمة رجل واحد، ولم يثبت الجيش المصري وحدثت فيهم مقتلة عظيمة، وفرَّ الوزير (الأفضل) إلى داخل مدينة (عسقلان) وحاصر الفرنجة المدينة حتى كاد أن يؤسر (الأفضل)، لولا أن وقع خلاف بين قادة الجيش الصليبي بين (جودفري) و(ريموند الأول) فتركوا مدينة (عسقلان) ففر منها (الأفضل) بجلده وهو لا يصدق بالنجاة فركب في مركب وسار في البحر حتى أتى إلى عاصمة الخلافة الفاطمية (القاهرة) ولم يخرج بعدها أبدًا بنفسه للحرب.[46]

السيد – طبعة (1436 هـ / 2014 م) – الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

46 - ص (84) – المصدر السابق.

أليس ما حدث مع مدينتي (القدس) و(عكا) من قبل الخلافة الفاطمية (بمصر) خيانة للإسلام والمسلمين؟! والمهم أنه بعد سقوط هاتين المدينتين أخذت مدن الساحل الشامي وموانئه تتساقط في أيدي الفرنجة الصليبيين دون أن يجدوا قوة تصدهم من الخلافة الفاطمية الضعيفة، بل إن الفرنجة حاولوا دخول (مصر) والاستيلاء عليها وذلك حتى يؤمنوا ظهورهم ضد السلاجقة والخلافة العباسية، وبالفعل خرج (بلدوين) على رأس جيشه ووصل إلى مدينة (الفرما) وأحرق مساجدها وجامعها، وتوقفوا عند (العريش)، وكادوا يدخلون (مصر) لولا وفاة الملك وقائد الحملة الملك (بلدوين) على إثر جرح قديم فتح مرة أخرى نتيجة سباحته في البحرية التي عرفت باسمه إلى اليوم، وهي سبخة أو بحيرة (بردويل).

وهذا وإن دل على شيء، فإنه يدل على مدى ضعف الدولة الفاطمية في ذلك الوقت، ومدى قوة وجراءة الصليبيين حتى فكروا في دخول (مصر) والاستيلاء عليها، وكان ذلك جزاءً وفاقًا للدولة الفاطمية التي تقاعست عن نجدة إخوانهم المسلمين في الشام وفلسطين، فكان الجزاء من جنس العمل.

***

القاهرة المعزية... يوتوبيا سوداء على الطراز الفاطمي

مقدمة:

الدولة الفاطمية أو العبيدية، فكلا الاسمين قد عرفت به هذه الدولة الشيعية التي ظهرت في أقصى الشمال الافريقي في الدولة الإسلامية، فقد قام داعيها الأكبر وحامل دعوتها (أبو عبد الله الشيعي) بنشر الدعوة الشيعية على المذهب الإسماعيلي بين قبائل الأمازيغ (البربر) هناك، وبالأخص بين قبائل (كتامة)، فقد كان الداعي (أبو عبد الله الشيعي) بالنسبة للدولة الفاطمية مثل (أبي مسلم الخراساني) حامل الدعوة العباسية في بلاد فارس، فكلاهما حمل الدعوة وحارب في سبيلها، وكلاهما كانت نهايته مأسوية، فقد تم التخلص منهما بالقتل سواء كان خوفًا من نفوذهما، أو أنهما قد أديا مهمتهما وأصبحا عبئًا على أصحاب الدعوة من الخلفاء، ولهذا كان التخلص منهما أفضل من بقائهما على قيد الحياة.

وهنا لن نقوم بذكر مجهود (أبي عبد الله الشيعي)، وإنما سوف نتكلم عن حدث مهم، ألا وهو بناء عاصمة جديدة في العالم

الإسلامي أصبحت عاصمة لخلافة امتدت لحوالي قرنين من الزمان، ألا وهي مدينة (القاهرة).

وقد سُميت (بقاهرة المعز) نسبة إلى صاحب الدولة وقتها، وهو الخليفة الفاطمي (المعز لدين الله الفاطمي)، وقد قام ببنائها قائده (جوهر الصقلي) بأمر منه، وأمره كذلك ببناء الجامع والذي سُمِّي بعد ذلك باسم (الأزهر الشريف) والذي كان الغرض من بنائه هو نشر الدعوة الشيعية على المذهب (الإسماعيلي) في كافة العالم الإسلامي.

*دخول القائد (جوهر) بجيوشه (مصر):

فبعد وفاة (أبي المسك كافور الإخشيدي) سنة (357 هـ) حاكم (مصر) الفعلي تدهورت الحالة الاقتصادية في البلاد وحل الوباء والقحط في أرض (مصر) كلها، وذلك بسبب انخفاض منسوب مياه نهر النيل، ومع عجز الدولة عن دفع رواتب الجنود أصبحت البلاد في حالة من الفوضى والضعف، دفعت أصاحب الكلمة العليا في أرض (مصر) من توجيه رسالة إلى الخليفة الفاطمي (المعز لدين الله الفاطمي) في عاصمته في إفريقية والمسماة (بالمهدية)، وقد وجدت هذه الرسالة تلبية لرغبة الخليفة الفاطمي، فقد حاول الفاطميون قبل ذلك ضم (مصر) أكثر من مرة، ولكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل، وذلك لقوة الدولة المصرية آنذاك في ظل حكم (كافور الإخشيدي)، والذي نهض لصد جيوش الفاطميين وتمكن من ردهم إلى المغرب منهزمين، ولهذا انتهز الخليفة (المعز لدين الله الفاطمي) حالة الفوضى التي

سادت أرض مصر، ومراسلة كبار الدولة له، فنهض بكل أمواله وذخائره وحتى أنه حمل معه رفات أبيه وأجداده الذين توفوا في المغرب، وحملها كلها معه إلى (مصر).

وفي شهر (ربيع الثاني) وبالتحديد في (14 ربيع الثاني سنة 358 ه) دخل القائد (جوهر الصقلي) مدينة (الإسكندرية) بدون مقاومة، وكان الوزير في (مصر) هو (جعفر بن الفرات) وكان مقيمًا في عاصمة (مصر) القديمة والتي كانت (الفسطاط) وقتها، فلما أن عرف بمقدم القائد (جوهر) فرأى أنه لا جدوى من المقاومة وأن تسليم البلاد أصبح حتميًّا لا جدال فيه، فرأى أن يكسب أكبر قدر من الشروط لأهل (مصر) والذين كانوا على المذهب السني خلافًا للدولة الفاطمية الشيعية، فقرر أن يعقد شروط التسليم، فقابل الوزير (جعفر بن الفرات) القائد (جوهر) في قرية (بتروجة) في إقليم (البحيرة) حاليًا، وتم اللقاء من أجل التسليم على الشروط التي وضعها الوزير (ابن الفرات) في شهر (رجب) بالتحديد يوم (18 من شهر رجب 358 ه) ووضعوا شروط التسليم وهي:

1-أن يؤمن المصريين السنيين على أرواحهم وأموالهم.

2-أن يظل المصريون على مذهبهم السني، ولا يلزموا بالتحول منه إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي.

3-أن يعامل المصريون بالعدل، وألا يحرموا من تولي مناصب الدولة العليا في الدواوين والوزارة.[47]

---

47 - ص (34) وص (35) – مصر في عصر الدولة الفاطمية – تأليف دكتور محمد جمال الدين سرور – طبعة الألف كتاب (1379 ه / 1960 م) – مكتبة النهضة المصرية (القاهرة).

وهكـذا أصبحـت (مـصر) رسـميًّا تحـت الحكـم والنفـوذ الفاطمـي الشـيعي، وأصبحـت قاعـدة الخلفـاء العبيديـين ونقطـة انطلاقهـم بعـد ذلـك في نـشر المذهـب الشـيعي في بـلاد المـشرق الإسـلامي.

* (القاهرة) العاصمة الجديدة:

ولم يرغـب الفاطميـون أن يسـكنوا في العاصمـة القديمـة (الفسـطاط)، ورغبـوا أن تكـون لهـم عاصمـة خاصـة بهـم، ولكـن هـل كانـوا يفكـرون أن يبنـوا فعـلًا عاصمـة تكـون سـكنى لهـم وللمصريـين معًـا؟ أم كانـوا يريـدون أن تكـون لهـم مدينـة خاصـة بهـم تكـون داخـل (مـصر) ؟ أي مدينـة حصينـة لا يختلـط بهـم أبنـاء البـلاد التـي يحكمونهـا، فقـد كانـت الأسرة العبيديـة أو الفاطميـة كـما كانـوا يحبـون أن يسـموا أنفسـهم يـرون أنفسـهم جنسًـا مختلفًـا عـن بقيـة البـشر، ولهـذا لم يرغبـوا في أن تكـون عاصمتهـم مثـل سـابقاتها (الفسـطاط) و (القطائـع) سـكنى للأمـراء والحـكام وأهـل الإقليـم معًـا، بـل أرادوا أن تكـون عاصمـة دولتهـم لهـم وحدهـم فقـط لا يشـاركهم فيهـا أحـد مـن الرعيـة، وبالتـالي كانـت عاصمتهـم عبـارة عـن مدينـة عنصريـة قائمـة عـلى التميـز الطبقـي، فلـم يـر الفاطميـون أن المصريـين مـن أهـل البـلاد يسـتحقون أن يجاوروهـم في مدينتهـم الجديـدة، وهكـذا كانـت الدولـة الفاطميـة منـذ أن دخلـت (مـصر) دولـة قائمـة عـلى التميـز والظلـم وليـس العـدل والمسـاواة، فلـم يرعوا الـشروط التـي تـم الاتفـاق عليهـا مـن أجـل تسـليم (مـصر) لهـم، بل حرمـوا أهـل السـنة مـن تدريـس مذاهبهـم الفقهيـة (المذاهـب الفقهية الأربعـة) وحرمـوا أهـل البـلاد مـن تـولي أي منصـب في الدولـة، إلا بعـد اعتنـاق المذهـب الشـيعي الإسـماعيلي.

***بناء (القاهرة):**

وهكذا بدأ (جوهر الصقلي) في البحث عن المكان المناسب لبناء مدينة سيده (المعز لدين الله) فوقع اختياره على مكان يُعرف (بالمناخ) شمالي مدينة (الفسطاط)، وأصبح بعد ذلك موضعًا يعرف بهذا الاسم داخل (القاهرة)، وذلك من أجل أن يحفر أساس المدينة وقصر الخليفة، وكان ذلك في ليلة يوم الثلاثاء الموافق (17 شعبان سنة 358 ه)، وفي الليلة التالية حفر أساس قصر الخلافة وقد أدخل فيه مكانًا يُعرف باسم (دير العظام) والذي تغير اسمه بعد ذلك إلى (الركن المخلق) ويقع قبالة حوض الجامع (الأقمر) قريبًا من (بئر العظام)، وأدخل كذلك قصر (الشوك) وكان منزلًا معروفًا لقبيلة (بني عذرة) العربية[48]، ثم أدار السور حول المدينة بعد ذلك، والذي بناه من اللبن، وجعل له أربعة أبواب وهي:

1-باب النصر.

2-باب الفتوح.

3-باب زويلة.

4-باب القوس.

وقد زيد في عدد أبواب (القاهرة) تبعًا لزيادة العمران في المدينة مع تقادم الزمان وظهور الدول التي تلت الدولة الفاطمية، فقد زيد

48- المرجع السابق ص (37).

-ص (34) وص (35) – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – الجزء الرابع – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي – طبعة (1426 ه / 2005 م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

في جهتها الشرقية ثلاثة أبواب هي: باب البرقية، والباب الجديد، والباب المحروق، ومن الجهة الغربية ثلاثة أبواب أيضًا وهي: باب القنطرة، وباب الفرج، وباب الخوخة، وهذه الأبواب لم تكن موجودة على عهد القائد (جوهر الصقلي) ولم تكن هذه الأبواب موضوعة في هذه الأماكن التي استقرت عليها، وإنما وضعها من أتوا من بعده.

وقد استغرق بناء المدينة وقصور الخلافة والجامع (الأزهر) حوالي ثلاث سنوات، وقام (جوهر) بتسمية المدينة باسم (المنصورية) نسبة إلى والد الخليفة (المنصور بنصر الله)، وظل هذا اسمها حتى مجيء الخليفة الفاطمي (المعز)[49].

وبعد أن انتهى القائد (جوهر الصقلي) من بناء المدينة والقصور وتسويرها أرسل إلى سيده (المعز) يعلمه بإنجاز عمله وانتهاء أعمال البناء، وقد حمل (المعز) كما قلنا سابقًا كل ذخائره وأمواله ورفات أبيه وأجداده إلى (مصر).

*قدوم (المعز لدين الله) إلى (مصر):

قدم (المعز) أولًا مدينة (الإسكندرية) يوم (الجمعة لست بقين من شهر شعبان سنة 362 ه) فنزل تحت منارتها، ثم سار إلى (الجيزة)، وعقد القائد (جوهر) جسر (الجيزة)، وعقد جسرً آخر عند البستان، والذي يعرف (بالمختار) بالجزيرة، وذلك لكي يسير عليه الخليفة مع أهله وحشمه، فسار عليه حتى مدينة (الفسطاط) ومنها إلى عاصمته

49- ص (195) – الفاطميون في مصر (تاريخهم وآثارهم في مصر) – تأليف أميرة الشيخ رضا فرحات – الطبعة الأولى (2013 م) – كتاب – ناشرون (بيروت – لبنان).

الجديـدة، وقـد زين أهـل (الفسـطاط) مدينتهم مـن أجل قـدوم الخليفة الفاطمـي وقامـوا بالاحتفـال لمقدمه، ولكـن قابلهم الخليفـة بالجفاء فلم يشـق طريقـه إلى (الفسـطاط) ولم يلتفت إليهـا ولا إلى أهلهـا، فقد توجه مبـاشرة إلى عاصمتـه (المنصوريـة)، وهـذا يؤكـد صحـة مـا ذهبنـا إليـه مـن عنصريـة الأسرة الفاطميـة لرعيتهـا التي تحكمهـا وأنفتهـا حتى من الاختـلاط بهـا، وقـد دخـل إلى مدينته وقـصره مـع أولاده وإخوته وبني عمومتـه، ومعه توابيـت آبائه (المهـدي، والقائم، والمنصـور) وكان ذلك في يـوم (الثلاثاء لسـبع خلون من شـهر رمضـان سـنة 362 ه).[50]

*تسمية (المعز) لمدينته الجديدة وسبب ذلك:

فلـما وصل الخليفـة (المعز لديـن الله) إلى عاصمته الجديـدة في (مصر) لم يعجبـه مكانها ولا اسـمها، فقـد كان يرغب أن تكـون عاصمته بجوار خليـج (المقـص) أو عـلى سـطح جبـل (الرصـد)، وعمومًا لم يفـد تذمر الخليفـة من سـوء اختيار مـكان عاصمة ملكه الجديدة شـيئًا، واسـتحوذ الخليفـة عـلى مقاليد الحكم ونحى قائـده من تولي أي منصـب في الدولة، ولكنـه لم يتخلـص منه خوفًـا أو عدم رغبة منه في إنشـاء كراهيـة للجنود لـه، فقـد كان (جوهـر الصقـلي) محبوبًـا بـين جنـوده وصاحـب كفايـة وشـجاعة، ولهـذا اسـتبقاه بجـواره كمستشـار خـاص له يأخـذ بنصحه وإرشـاده في شـئون الدولة.

---

50 - ص (134) – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – الجزء الأول – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال – الطبعة الثالثة (1425 هـ / 2005 م) – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي (القاهرة).

-ص (72) – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – تأليف جمال الدين يوسف بت تغري بردي الأتابكي – طبعة (1426 هـ / 2005 م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

-ص (35) – الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة – الجزء الأول – تأليف علي باشا مبارك – طبعة (1435 هـ/2014 م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

وأمـا عـن سـبب تسـمية الخليفـة (المعـز) لعاصمتـه الجديـدة باسـم (القاهـرة) فقـد أرجعـه البعـض إلى عـدة مناسـبات:

الأولى: أنهـا سـميت (بالقاهـرة) لأنهـا سـوف تقهر كل من شـذ عنها وحـاول الخروج عـلى أميرها.

الثـاني: وهـي قصـة خياليـة وأقـرب منهـا إلى السـذاجة منهـا إلى الحقيقـة وقـد أوردهـا (المقريـزي) في كتابه (اتعـاظ الحنفا) بنـاء فقد ذكر في سـبب تسـمية المدينـة التـالي:

«أن القائـد (جوهـر) لمـا أراد بنـاء (القاهـرة) أحـضر المنجمـين (فقد كان الفاطميـين ووزراؤهـم مولعـين بالفلـك والتنجيـم واتخـاذ ما يقول المنجمـون لهـم مـن نصائـح يسـيرون عليهـا في حياتهـم كلهـا وشـئون حكمهـم) وعرفهـم أنـه يريـد عمارة بلـد ظاهر (مـصر) ليقيم بهـا الجند، وأمرهـم باختيـار طالـع لوضـع الأسـاس، بحيـث لا يخـرج البلـد مـن نسـلهم (يقصـد المعـز وأولاده)، فاختـاروا طالعًـا لحفر السـور، وطالعًا آخـر لابتـداء وضـع الحجـارة في الأسـاس المحفـور لذلـك، وجعلـوا بدائـرة السـور قوائـم مـن خشـب، بـين كل قائمتـين مـن الخشـب حبل فيـه أجـراس، وقالـوا للعمال:

«إذا تحركـت الأجـراس ارمـوا مـا بأيديكـم مـن الطين والحجـارة»، فوقفـوا ينتظـرون الوقـت الصالـح لذلـك، فاتفـق أن غرابًـا وقـع عـلى حبـل مـن تلـك الحبـال المعلـق فيهـا الأجـراس، فتحركـت الأجـراس كلهـا، وظـن العـمال أن المنجمـين حركوهـا، فألقـوا مـا بأيديهـم مـن الطـين والحجـارة وبنـوا، فصـاح المنجمـون:

«القاهـر في الطالـع»، فمضى وفاتهم مـا قصدوه، ويقـال: إن (المريخ) كان في الطالـع عنـد ابتـداء وضع أسـاس (القاهرة)، وهو قاهـر الفلك، فسـموها لذلك (القاهرة).

الثالـث: ويقـال إن السـبب في تسـمية (القاهـرة) بهذا الاسـم، هو أن الخليفـة (المعـز لديـن الله) قـال وهـو يـودع قائده أمـام جمع من مشـايخ (كتامـة) الذيـن وجههـم معـه لفتح (مـصر) فقال:

«والله لـو خـرج (جوهـر) هـذا وحـده، لفتـح (مـصر)، ولينزلـن في خرابـات (ابـن طولون) ويبني مدينة تسـمى (القاهرة) تقهـر الدنيا»[51].

هـذه كانـت أشـهر الأقـوال التـي قيلـت في سـبب تسـمية مدينـة (القاهـرة) بهـذا الاسـم، والآن سـوف نتكلـم عـن تقسـيم المدينـة وتخطيطهـا بين أمـراء الأسرة الفاطميـة وخاصتهم وجنودهـم فقط دون بقيـة أهـل (مـصر).

*تقسيم وتخطيط (القاهرة):

وبعـد أن تـم بنـاء (القاهـرة) وبنـاء الجامـع (الأزهـر) والـذي كان يُسـمى قبـلًا جامـع (القاهـرة)، فأبـاح الخليفـة (المعـز) سـكنى المدينـة لوزرائـه وخاصتـه وجنـوده وأنصـاره فقـط، وقـد قسـمت عـلى هيئـة حـارات ودروب، وقـد حرم عـلى المصريين مـن أهل البلد من السـكنى بهـا أو امتـلاك الدور والدكاكـين والحوانيـت، فقد كانت ملـك للخليفة الفاطمـي وحـده، وسـوف أوضـح ذلـك بعـد قليـل، وهـي **كالتالي**:

---

51 - ص (112) – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – ص (37) – مصر في عصر الدولة الفاطمية – دكتور محمد جمال الدين سرور.

1. حارة (كتامة):

وهـي منسـوبة إلى قبيلـة (كتامـة) المغربية، وهـي التي سـاندت دعوة الفاطميـين في المغـرب، وقـد نزلـوا بها لما قدمـوا مـع القائـد (جوهـر الصقـلي)، وكان مكانها في وسـط حارة (الأزهري) ومنطقـة (الدويدار) في الجنـوب الشرقـي مـن الجامـع (الأزهر).

2. حارة (زويلة):

وكانـت هـذه الحـارة مـن أكـبر حـارات (القاهـرة)، وقـد نـزل بها أفـراد قبيلـة (زويلة) المغربيـة من الأمازيـغ (البربر) والقادمـين أيضًا مع القائـد (جوهـر الصقـلي)، وقد تغير اسـمها بعـد زوال الدولـة الفاطمية وأصبحـت تعـرف باسـم حـارة (اليهـود)، وهـذه الحـارة موجـودة إلى الآن، ومازالـت تعـرف بهذا الاسـم.

3. حارة (الروم):

وهي تنقسم إلى حارتين:

الأولى: حـارة الـروم المشـهورة، والتـي تقـع الآن في نطـاق قسـم (الـدرب الأحمـر).

الثانية: حارة الروم (الجوانية) نسبة إلى الأشراف (الجوانيين).

4. حارة (البرقية):

وعرفـت بهـذا الاسـم نسـبة إلى جماعة مـن أهل إقليـم (برقـة) أتوا في صحبـة الخليفـة (المعـز لدين الله) مـن بلاد المغـرب معه أثنـاء دخوله إلى (مصر).

5. حارة (الجودرية):

وتنسب إلى أتباع (جـودر) خـادم (المهـدي)، والذيـن عرفوا باسـم (الجودريـة) وكان عددهـم أربعمائـة، ومكانهـا الآن في دائـرة قسـم (الـدرب الأحمـر).

6. حارة (الديلم):

وتنسـب إلى جماعـة (الديلـم) الواصلـين مـع (أفتكـين المعـزي) غـلام (معـز الدولـة البويهـي)، وذلـك حـين قـدم أولاده إلى (القاهـرة) مـع جماعـة مـن الأتـراك، وقـد عُرفـت هـذه الحـارة أحيانًـا باسـم حارة (الأمـراء)، وذلـك أنهـا كانـت مسـكنًا للأمـراء.

7. حارة (برجوان):

وتنسـب إلى (برجـوان) الخـادم، وهـو مـن خـدام القـصر أيـام الخليفـة الفاطمـي الثـاني في (مـصر) وهـو الخليفـة (العزيـز بـالله)، وكان (برجـوان) هـذا مدبـرًا للدولـة، ونـال الوسـاطة (الـوزارة) عـلى أيـام الخليفـة الفاطمـي (الحاكـم بأمـر الله)، وذلـك بعـد أن تـولى أمـور (مـصر) و(الشـام) و(الحجـاز) و(المغـرب)، وقـد قتلـه (الحاكـم بأمـر الله) سـنة (390 هـ / 1100 م)، وموقـع هـذه الحـارة اليـوم في قسـم (الجماليـة).

8. حارة (الباطلية):

وتنسـب هـذه الحـارة إلى جماعـة جـاءت إلى (المعـز لديـن الله) لمـا قسـم العطـاء عـلى النـاس، فسـألت هـذه الطائفـة عـن عطائهـا، فقيـل

لها: »فـرغ المـال»، فقالوا: »رحنا نحن في الباطل»فسـموا من حينها باسـم (الباطليـة)، وسُـميت الحـارة التـي سـكنوها بهـذا الاسـم، وموقعها في الجنـوب الشرقـي لجامـع (الأزهـر) بقسـم (الـدرب الأحمـر).

9. حارة (الريحانية):

وقـد سـميت بهـذا الاسـم نسـبة إلى طائفـة مـن عسـكر الخلفـاء الفاطميـين، كانـوا قـد نزلـوا بهـا بعـد إنشـاء مدينـة (القاهـرة) فعرفت بهم.

10. حارة (الحسينية):

وهـي تشـمل عـدة حـارات، وتنسـب إلى قائـد القـواد (الحسـين بن جوهـر)، وكانـت توجـد خارج بـاب (الفتـوح)[52]، وقد سـكنها جماعة مـن الأشرف (الحسـنيين) جـاءوا مـن الحجـاز، وأيضًـا كانـت سـكنى فرقـة مـن الجيـش الفاطمـي كانـوا يعرفـون بهذا الاسـم أيضًـا.[53]

11. حارة (الوزيرية):

نسـبة إلى الوزيـر (أبي الفـرج يعقـوب بـن كلـس) وزيـر الخليفـة (العزيـز بـالله)، وكان يهوديًـا ثم أسـلم وترقَّى في خدمـة الفاطميين حتى نال الـوزارة.

---

52 - هامش ص (46) – نزهة المقلتين في أخبار الدولتين – لابن الطوير أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني – أعاد بناءه وحققه وقدم له أيمن فؤاد السيد – طبعة (1430 هـ / 2010 م) – مؤسسة بيان (بيروت – لبنان).

53 - ص (220) – الفاطميون في مصر (تاريخهم وآثارهم في مصر) – تأليف أميرة الشيخ رضا فرحات – الطبعة الأولى (2013 م) – كتاب – ناشرون (بيروت لبنان).

12. حارة (الصالحية):

وتنسب إلى الوزير الملك (الصالح طلائع بن رزيك) وكان وزير الخليفة (الفائز بدين الله)، وكانت هذه الحارة سكنى لغلمانه.

13. حارة (العطوف):

وهي منسوبة إلى الخادم (عطوف) أحد خدام القصر الفاطمي أيام الخليفة (العزيز بالله)، وكان أصله من خدم (أم ست الملك) بنت (العزيز بالله) وأخت (الحاكم بأمر الله).

14. حارة (المصامدة):

وهي تُنسب إلى قبيلة (مصمودة) المغربية، فقد قام وزير الخليفة الفاطمي (الآمر بأحكام الله) باستقدامهم واستخلاصهم، فقد قرب كبيرهم (عبد الله المصمودي) وسيرهم في (القاهرة) لكي يختاروا مكانًا لكي يكون سكنًا لهم، فاختاروا أن تكون حارتهم بجانب الباب (الجديد) على يسرة الخارج منه بالقرب من بركة (الفيل).

15. حار (اليانسية):

وتُنسب إلى وزير الخليفة الفاطمي (الحافظ لدين الله) والملقب بـ(أمير الجيوش)، و(اليانسية) جماعة منسوبة إليه نزلوا بهذه الخطة فعرفت بهم.[54]

---

54 - ص (48) و(133) و(135) الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة – لابن عبد الظاهر محيي الدين أبي الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري – حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور أيمن فؤاد السيد – الطبعة الأولى (1416 هـ / 1996 م) – دار أوراق شرقية (بيروت – لبنان).

ومـن النظـرة الأولى إلى تخطيـط (القاهرة) وتقسـيمها على هـذا النحو مـن الحـارات يتبين لنـا طبيعة المدينـة الفاضلة التـي بناهـا القائد (جوهر الصقـلي) لسـيده (المعـز لديـن الله)، فقـد قسـمت المدينـة عـلى رجـال الخليفـة وقـواده وأنصـاره فقـط، ولم يتـم بنـاء حـارة واحـدة للمصريين أبنـاء البـلاد التـي احتلها الفاطميـون، وهـذا وإن دل عـلى شيء دل على مـدى كراهيـة الفاطميـين وأنصارهـم مـن الاختـلاط بأبنـاء البـلاد، وخوفهـم مـن قيامهـم بـأي حركـة مـن حـركات المقاومـة لحكمهـم، وحتـى الخلفـاء الذيـن أتـوا مـن بعـد (المعـز لديـن الله) لم يفكـروا في بنـاء حـارة واحـدة لأبنـاء البلـد المصريـين من السـنة، فقـد جعلـوا بناء حاراتهـم ومنازلهـم خـارج المدينـة في الخرائـب، وإنما يدخلـون المدينة في الصبـاح مـن أجـل البيـع والـشراء فقـط، ثـم يرحلـون منهـا بعـد ذلك عنـد المسـاء وحلـول الظـلام، وهـذا يتبـين بوضـوح مـن كثـرة الأبواب التـي تحيـط بالمدينـة، والسـور العظيم الـذي بني وضرب حـول عاصمة الفاطميـين (القاهـرة) والتـي كانـت عـلى شـكل مربع.

والآن سـوف نتنـاول كيفية بناء قـصر الخلافة الفاطميـة، وأن الخلفاء قـد نقلـوا إلى قـصر الحكـم جميـع دواويـن الدولـة، وخزائنهـا ومقـر القضـاء والحكـم فيـه، ولم يجعلـوا أي شيء يخـص الدولـة لا مـن ناحيـة الحكـم ولا مـن ناحيـة الادارة يكون خارج أسـوار القـصر، وذلك لعدم ثقتهـم بوزرائهـم أولًا، ورغبتهـم في الإحاطـة بـكل شـئون الدولـة وأن تكـون تحـت أعينهـم ثانيًا.

***بناء القصر (الشرقي الكبير):**

وهو مقر حكم الخلفاء الفاطميين منذ أن دخلوا إلى أرض مصر وحتى حكم آخر خليفة لهم وهو (العاضد)، والذي بوفاته أعلن السلطان (الناصر صلاح الدين) رسميًّا انتهاء حكم الشيعة في مصر، وعودة مصر للمذهب السني مرة أخرى، وتحت حكم الخلافة العباسية (اسميًّا فقط وليس فعليًّا) مرة أخرى من جديد.

قام القائد (جوهر الصقلي) ببناء القصر الفاطمي على مساحة ضخمة جدًّا، وجعل له تسعة أبواب وهي كالآتي:

1- **من جهة الغرب**: باب (الزهومة)، وباب (الذهب)، وباب (البحر).

2- **من جهة القصر البحرية**: جعل بابًا واحدًا، وهو باب (الريح).

3- **من القصر الشرقية**: باب (الزمرد)، وباب (قصر الشوك)، وباب (العيد).

4- **من جهة القصر القبلية**: باب (الديلم)، وباب (تربة الزعفران).

وأما عن مساحة القصر (الشرقي الكبير) فقد كانت من الكبر بحيث إن القصر كانت مساحته تشمل التالي:

«خان (سرور)، والمدارس (الصالحية)، والمدرسة (الظاهرية)، وأرض الدكاكين، والمنازل الموجودة في صفها، وممتدة إلى رحبة (العيد)، وأرض الحارات، والأزقة والاماكن الموجودة خلف جميع ذلك وصلًا إلى حارة (البرقية)، إضافة إلى التربة (المعزية) مدافن الخلفاء الفاطميين، والتي عرفت فيما بعد باسم (تربة الزعفران)»

وبالتـالي نحـن هنـا نتكلـم عن مسـاحة شاسـعة جـدًّا لا يسـتطيع أن يتخيلهـا أحـد، وقد ألحق القائـد (جوهـر) إلى القصر (الكبـير) ملحقاته وخزائنـه والتـي تحتـوي عـلى أمـوال الخليفـة وثيابـه وثيـاب خاصتـه، وفرشـه ولوازمه مـن الخيام والأعـلام والبنود والحـلي والذهب والفضة وكنـوز الخلافـة، والسـلاح الـذي تحتاجـه العسـاكر البريـة والبحريـة، إضافـة إلى أماكـن دواويـن الحكم.

وقـد ذكر أحد الرحالـة الذين زاروا مـصر بعد بنـاء (القاهرة) وذلك في سـنة (441 ه / 1049 م) أي: بعـد حـوالي خمسـين سـنة مـن بنائهـا، وكان فـارسي ويدعـى (نـاصر خـسرو) فقـد ذكـر وصـف (القاهـرة) وعظمهـا، وعظـم مسـاحتها، ولكنـه ذكـر شـيئًا مهـمًّا جـدًّا عـن أموال الخليفـة ومـوارد خزائنه فقـال الآتي:

«وقـد حسـبت فيهـا - يقصـد في القاهـرة - (عشريـن ألـف) دكان جميعهـا ملـك السـلطان !! وأغلبهـا مؤجـر بقـدر (عـشرة دنانـير)، والحمامـات والوكائـل وغيرهـا مـن المباني لا يحـصى عددًا، والـكل ملك السـلطان؛ لأنـه كان ممنوعًـا في (القاهـرة) التملـك لغـيره !! وكذلـك المنـازل كانـت تقـدر بحـوالي (عشريـن ألـف) منـزلٍ وكلهـا تؤجَّـر وتقبـض أجرتهـا شـهريًّا وهـي أيضًـا ملـك السـلطان».[55]

وهكـذا نـرى أن الخليفـة الفاطمـي وخاصتـه كونـوا مدينـة أو (يوتوبيـا) خاصـة بهـم، وليـس لأحـد غيرهـم سـواهم، وهـذا سـوف يتبـين أكثـر عندمـا نتكلم عـلى علاقتهـم بأهل البـلاد السـنة، وبنقضهم

55 - ص (40) - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة - الجزء الأول - تأليف علي باشا مبارك - طبعة (1435 هـ / 2014 م) - دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة)

ما واعدوا عليه أهل مصر من شروط ومواثيق أخذوها على أنفسهم عندما دخلوا إلى أرض مصر.

ثانيًا: سياسة الفاطميين تجاه أهل السنة في مصر:

عندما اشترط الوزير (جعفر بن الفرات) على القائد (جوهر الصقلي) عندما قدم لتسلم مصر، اشترط عليه شروطًا تضمن لأهل مصر السنة أن يعيشوا محتفظين بمذهبهم لا يُجبرون من التحول منه إلى المذهب الشيعي، وأن يضمن لهم أموالهم وحياتهم وأن يعيشوا آمنين، ولكن الذي حدث أن الفاطميين بعد أن دخل أولهم (المعز لدين الله) مصر لم يوف بأي من هذه الشروط، فقد حرموا المصريين السنة من حقهم في التدين وممارسة حياتهم العلمية والعملية، فقد اتبعوا الآتي:

أولًا: أُسندت المناصب العليا وأهمها الوزارة والقضاء إلى الشيعة فقط من أتباع مذهبهم، وأهل الذمة من اليهود والنصارى، فقد كانوا يرون فيهم الولاء والأمانة أكثر من أهل السنة !!، وتركوا الوظائف الصغرى في أيدي السنيين من أهل مصر، ولكن بشرط أن يلتزموا بأحكام المذهب الشيعي الإسماعيلي، ومن يثبت عنه أنه لم يطبق أحكام المذهب الشيعي في وظيفته يعزل منها.

ثانيًا: تركز اهتمام الخلفاء الفاطميين إلى تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي من خلال الدعاة.

ثالثًا: حُولت مساجد مصر الكبرى الى مراكز لنشر دعوتهم وهي: مسجد (عمرو بن العاص)، ومسجد (أحمد بن طولون)، ومسجد (الأزهر) الذي بنوه، فقد جعلوا كل هذه المساجد مراكز

لتدريس وتعليم المذهب الشيعي، ومركزًا لنشر الدعوة الشيعية على المذهب الإسماعيلي في مصر، وبث الدعاة منها إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي.

رابعًا: ابتكروا منصبًا جديدًا اسمه داعي الدعاة، مهمته الإشراف على نشر المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر وغيرها، ووضعوا تحته (اثني عشر) نقيبًا يعاونه على نشر الدعوة الشيعية.

خامسًا: حرموا منصب قاضي القضاة على علماء السنة، وجعلوه حكرًا على علماء الشيعة، واشترطوا فيه أن يكون عالمًا بمذاهب أهل البيت.

سادسًا: منعوا من لبس السواد (شعار العباسيين)، ومنعوا من ذكر الخلفاء العباسيين والخلفاء الراشدين.

سابعًا: أظهروا شعار الشيعة في الأذان، فقد زادوا في الأذان جملة: (حي على خير العمل)، بالإضافة إلى الاحتفال بأعيادهم الخاصة مثل عيد (الغدير)، وإقامة المآتم وأهمها مأتم (الحسين) – رضي الله عنه – وحرموا أهل السنة من إظهار شعائرهم.[56]

وبالتالي وجد المصريون أنفسهم بين نارين، نار ترك المناصب والوظائف الهامة في البلاد للشيعة يتولونها والبربر القادمين مع الخليفة، وبالتالي يحرمون من المكانة العالية في الدولة، ونار الاحتفاظ بعقائدهم ومذهبهم السني، ولهذا تحول الكثير من البيوتات المصرية من المذهب السني إلى المذهب الشيعي ليس عن قناعة، ولكن من

---

56 - ص (47) و(48) و(49) و(50) – مصر في عصر الدولة الفاطمية – تأليف محمد جمال الدين سرور – طبعة الألف كتاب (1379 هـ / 1960 م) – مكتبة النهضة المصرية (القاهرة).

أجل الحصول على الوظائف والمال في الدولة الجديدة التي حكمت مصر .

وهكذا ظل المصريون تحت نير حكم الفاطميين في مصر طيلة قرنين من الزمان، لم يستفيدوا منهم بشيء سوى التهميش والظلم من الخلفاء والولاة، والمجاعات والفساد والرشوة وغيرها من السلبيات التي قام الفاطميون بنشرها في مصر من البدع والخرافات والمخالفات الدينية بين المصريين، والتي ما تزال بقاياها إلى اليوم قائمة .

وإذا كان الفاطميون أرادوا أن يبنوا مدينة يحكمونها بالعدل والمساواة، أو ما يعرف في التاريخ عند المنظرين من علماء الفلسفة السياسية (باليوتوبيا)، فقد بنوا فعلًا (يوتوبيا) خاصة بهم على الطراز الفاطمي الشيعي، لا يحقق فيها العدل إلا بين أبناء مذهبهم من الشيعة والمساواة بين خاصتهم فقط، وأما السواد الأعظم من الرعية الذين لم يدينوا بالمذهب الشيعي فلم يكن لهم نصيب من هذه (اليوتوبيا) السوداء سوى التهميش والظلم، ولكن لم يفت المصريون أن ينتقموا لأنفسهم من هذه الأسرة الطارئة على بلادهم من خلال السخرية منهم، ومن أعيادهم، فقد قاموا بابتكار أعياد سنية خاصة بهم تقابل أعياد الشيعة، وكثيرًا ما كان يحدث تصادم عنيف بين السنة والشيعة في هذه الأعياد.

ولهذا فمن الظلم أن يستمر الافتخار بتسمية (القاهرة) باسم (قاهرة المعز) والذي لم يف للمصريين بالوعود الذي أخذها على نفسه قائده (جوهر الصقلي)، بل نكثها كلها ولم يراعها ولم ينجز منها

شيء، بـل عمـل بضدهـا كلهـا، وأمـا عـن (القاهـرة) فهـو لم يبنهـا مـن أجـل أن يعيـش فيهـا مع رعيته ووسـطهم، بـل بناها من أجـل أن تكون مدينـة شـيعية فاطميـة مسـورة مـن جميـع جهاتهـا ولهـا أبـواب عديـدة، وجعـل تحتها سراديب تحسـبًا مـن حدوث أي طـارئ، فيتمكـن الخليفة وأهـل بيتـه من الهـروب والنجـاة، أي: أنه بنـى مدينة فاضلـة من وجهة نظـر شـيعية عنصرية متعصبة ليـس فيها مجال ولا فرصـة إلا من مواليهم وأنصارهـم مـن الشـيعة، أو مـن أهـل الذمـة فقـط، ولم يكسر قيـد هذه العنصرية في (القاهرة) سـوى السـلطان العادل (النـاصر صلاح الدين)، والذي وسَّـع المدينة وأباح سـكناها للمصريين يعيشـون فيها ويتملكون دكاكينهـا وحوانيتهـا، فتكـون ملـكًا لهـم خاصة وغـير مسـتأجرة، وزاد في سـورها ووسـعها، وبنـى قلعتهـا العظيمـة، وأعـاد المذهـب السـني إلى مـصر، وأبـاح الحريـة الدينيـة والعقديـة بـين أهلهـا لا يلزمـون عـلى شيء كـما فعلـت معهـم الشـيعة مـن إلزامهـم المذهـب الشـيعي وبنـاء المـدارس والخانقـاوات والبيمارسـتانات وغيرهـا مـن المبـاني العظيمـة، فقـد حقَّـق العـدل ونـشر المسـاواة بـين أهلهـا لا يفضـل فيها أحـدًا على أحـد إلا بالتقـوى والعمـل الصالـح فقط، ولهـذا فمن العدل أن تسـمى (القاهـرة) بـ(قاهـرة الناصر) الذي هزم وسـحق الصليبيـين في (حطين) وليس بـ(قاهرة المعز) الذي لم يخدم الإسـلام ولا المسـلمين بشيء سـوى أنـه كان هـو وخلفـاؤه مـن بعده سـبب نكبـة العـالم الإسـلامي وضياع ممتلكاتهـم في العديـد مـن البـلاد؛ مثـل (جنـوب إيطاليـا) وجزيـرة (صقليـة) وجزيـرة (سردينيـا)، وعدم محاربتهـم ومقاومتهـم للصليبيين الذيـن اجتاحـوا العـالم الإسـلامي في بـلاد (الشـام) و(فلسـطين)، وهـذا أقـل مـا يقـال عنهـم مـن مفاسـدهم في الحكـم والسياسـة.

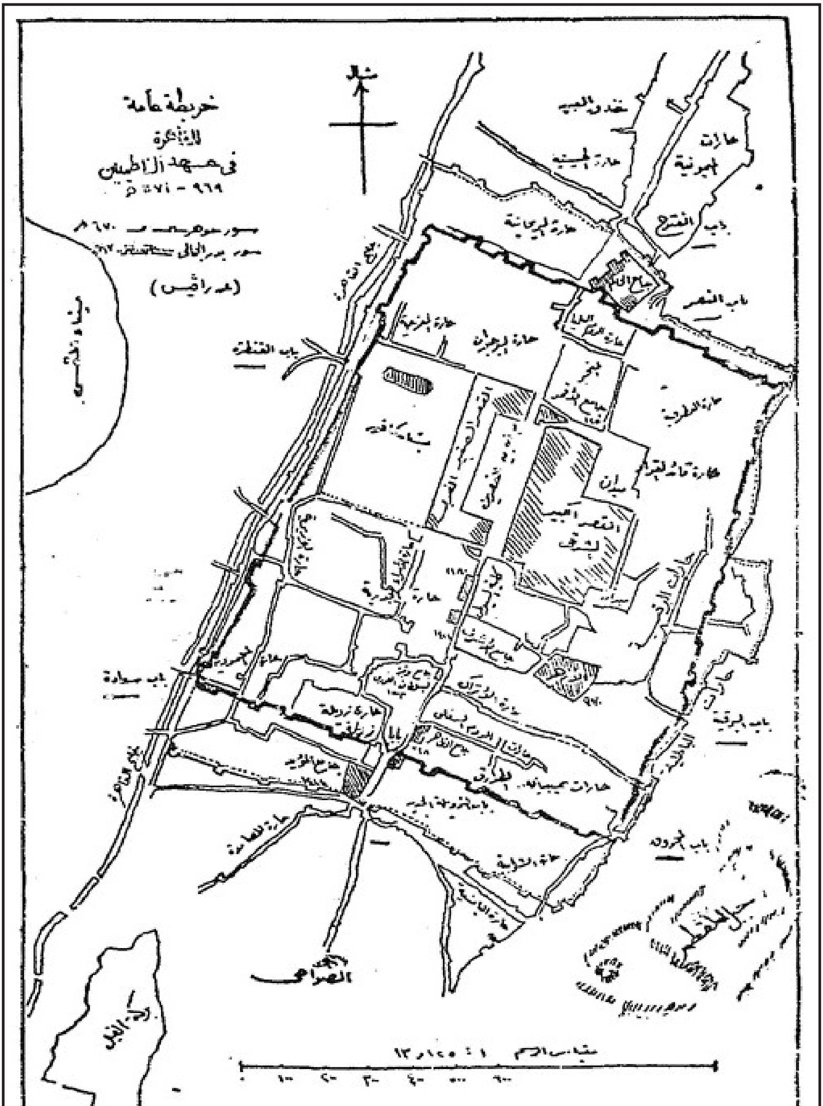

(خريطة القاهرة في عهد الدولة الفاطمية)

مجاعة فاطمية في مصر المحروسة
الشدة المستنصرية... السنوات العجاف

الزمـان سـنة (454 ﻫ)، وخليفـة مـصر المحروسـة هـو الخليفـة الفاطمـي (المسـتنصر بـالله أبـو تميم معـد بن الظاهـر لإعزاز ديـن الله أبي الحسـن عـلي بـن الحاكـم بأمـر الله أبي منصـور) والـذي تـولى مـن سـنة (427 ﻫ) وبقـي في الخلافـة (سـتين سـنة وأربعـة أشـهر وثلاثـة أيـام) وكان سـنه وقتهـا حـين تـولى الخلافـة ((سـبع سـنين !!) فيكـون بذلك أطـول الخلفـاء الفاطميـين الذيـن تولـوا حكـم مـصر.

وفي هذه السنة كما يقول المؤرخ الكبير (المقريزي):

«أن (المسـتنصر) كان مـن عادتـه في كل سـنة أن يركـب عـلى النجب ومعـه النسـاء والحشـم إلى (جـب عمـيرة)* وهـو موضـع للنزهـة، ويغـير مـن هيئتـه، كأنـه خـارج إلى الحـج عـلى سـبيل الهـزر والمجانة!!، ومعـه الخمـر المحمـول في الروايـا عوضًـا عـن المـاء، ويـدور بـه سـقاته عليـه وعـلى مـن معـه كأنـه بطريـق (الحجـاز) أو كأنـه مـاء (زمـزم)،

وقـد أنشـد الشريـف (أبـو الحسـين عـلى بـن الحسـين بـن حيـدرة العقيـلي) (المسـتنصر) في ذلـك صبيحـة يـوم (عرفـة) !!:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء

ولا تضـح ضحـــى إلا بالصـــهبـاء

وأدرك حجيج الندامى قبل نفرهم

إلى منى فصفهـــم مــع كـــل هيفاء

وعج على مكة الروحـــاء مبتـــكرًا

فطف بها حول ركن العود والناء(57)

هـذا كان حـال الخليفـة الفاطمي كل عـام هو وحاشـيته، فانظر كيف كانـوا يسـتهزئون بأحـكام الشريعة الإسـلامية، فكان لابد مـن أن تكون عاقبـة هـذا الخليفـة من جنس عمله، فقـد وقع بعد هـذه النزهـة الماجنة للخليفـة أن حدثـت فتنـة عظيمـة ضربـت الدولـة الفاطميـة بمـصر ضربـة موجعـة قضت عـلى هيبتهـا وإلى الأبـد، فقد ضربت مـصر مجاعة اسـتمرت سـبع سـنين كاملـة، أكل النـاس فيهـا الجيـف والأمـوات، وحتـى وصـل الأمـر بأهـل مـصر أن أكلـوا أولادهـم، ثـم انتهـى بهـم الحـال بـأن أكل بعضهـم البعـض، وإليك كيف كانـت مبتدأ هـذه الفتنة التـي أدت إلى خـراب مـصر ومجاعتها.

---

57 - ص ((265)) – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – الجزء الثاني – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد أستاذ التاريخ الإسلامي كلية دار العلوم جامعة القاهرة – طبعة ((1420 هـ / 2008 م)) – طبعة وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث (القاهرة).

وقد عدد (المقريزي) أسباب هذه المجاعة في العوامل التالية:

1 –ضعف السلطنة (أي: سلطة الخليفة).

2 –اختلال أحوال المملكة.

3 –استيلاء الأمراء على الدولة.

4 –اتصال الفتن بين العربان.

5 –قصور النيل، وعدم وجود من يزرع ما يشمله الري.[58]

*بدايات ظهور الفتنة أو الشدة (المستنصرية) وأسبابها:

وكان مبتدأ هذه الفتنة وهذه المجاعة في أرض مصر سنة (457هـ) فقد نزع السعر (أي: زادت أثمان الأقوات)، وتزايد الغلاء، ثم نزل الوباء، وتعطلت الأراضي من الزراعة، وشمل الخوف جميع أهل مصر، ولم تعد الطرق آمنة للمسافرين ولا حتى الماشين في طرقات المدن، وخيفت السبل برًّا وبحرًا، وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة (الحراسة) الشديدة، وركوب الصعاب، وانتشر الجوع في ربوع مصر كلها لتعذر وجود الأقوات والطعام.»3«

*مظاهر المجاعة التي ضربت مصر المحروسة:

وكان لهذه المجاعة التي نزلت وحلَّت بأرض مصر من المظاهر والأحوال ما لا يتصوره عقل، ولا يمكن أن يصدقه أحد، وكأنك تقرأ عن قصص خيالية أو خرافات، ولكن كانت هذه المجاعة من

58 - ص(37) – إغاثة الأمة بكشف الغمة – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق وتعليق الدكتور جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ الإسلامي – الطبعة الأولى ((1420 هـ / 2000 م)) – الناشر مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة).

البشاعة والشدة جعلت الناس يتخلون عن إنسانيتهم وعقلهم من أجل الحفاظ على حياتهم وحياة أهليهم، وإليك بعض ما حدث في هذه المجاعة:

1 –أصبح رغيف الخبز يباع بالنداء، مثل السلع الثمينة الغالية، فقد أصبح فعلًا رغيف الخبز أثمن من المال، فقد كان يباع الخبز في زقاق (القانديل) في مدينة (الفسطاط) بمبلغ (خمسة عشر دينارًا) للرغيف الواحد!!، فكان ينادى على الخبز (خراج !، خراج !).

2 –وأصبح أردب القمح يباع بحوالي (ثمانين دينارًا)، فقد كان يباع القمح كل كيل قروي زنته تسعة أرطال (بدينار نزاري)، ثم بيع بمثقالين ثم بثلاثة ثم فقد تمامًا.

3 –وأكل الناس لحوم القطط والكلاب، وأصبح لحم الكلب يُباع (بخمسة دنانير) ولحم القط (بثلاثة دنانير).

4 –وأصبحت بيضة الدجاج الواحد تباع بعشرة قراريط.

5 –وبيعت راوية الماء الواحدة بدينار.[59]

6 –وأخذ الجوع بالناس حتى طبخوا جلود البقر وباعوها رطلًا (بدرهمين)، وأكلوا نحاتة النخيل.

7 –وغلى سعر اللحم، فكانت الأوقية من اللحم تباع (بدرهم).

8 –وبلغ سعر الزيت الأوقية (بدرهمين).

---

59 - ص (37)– المصدر السابق.

-ص (536) – الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر– إعداد أميرة الشيخ فرحات – الطبعة الأولى (1434 هـ / 2013 م)– طبعة كتاب – ناشرون (بيروت – لبنان).

9-وباع الناس أمتعتهم بأبخس الأثمان، وباع الناس أملاكهم.

10-ووقع الوباء فألقى الناس أمواتهم في النيل بغير أكفان.

*أشهر قصص المجاعة التي حدثت في مصر:

أولًا: حارة تباع بطبق من خبز:

ومن القصص العجيبة التي حدثت أيام الشدة (المستنصرية) أن حارة كاملة في مصر قد أبيعت دورها منزلًا منزلًا بطبق خبز، كل دار برغيف، وأصبح اسم هذه الحارة بعد ذلك تعرف بحارة (طبق)، وما زال اسمها هكذا حتى دثرت فيما دثر من الحارات القديمة بمصر .

ومثلها بيعت الدور والمنازل، فقد بيعت دار ثمنها (تسعمائة دينار) بيعت بثمن (تسعين دينار)، واشترى بها دون تليس دقيق (وهو يزن حوالي مائة وخمسين رطلًا).[60]

ثانيًا: ومن القصص الشهيرة أيضا في انعدام الخبز والدقيق ما حكاه (المقريزي) هي هذه القصة:

«ومن عجيب ما وقع من أن امرأة من أرباب البيوت عرضت عقدًا لها قيمته (ألف دينار) على جماعة ليعطوها به دقيقًا وهم يعتذرون إليها ويدفعونها، إلى أن رق لها رجل وباعها به تليس

---

60 - ص (296) وص (307) – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – الجزء الثاني – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أستاذ التاريخ الإسلامي كلية دار العلوم جامعة القاهرة – (1420 هـ / 2008 م)– طبعة وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث (القاهرة).

مـن دقيـق، فحملتـه مـن مـصر واكـترت معها مـن يحفظـه مـن النهابة، وسـارت تريـد منزلهـا (بالقاهـرة)، فلسـمه الحملـة إليهـا عنـد بـابي (زويلـة)، فلـم تمـش غـير قليـل حتـى تكاثـر النـاس عليهـا، وانتهبـوه منهـا فانتهبـت هـي أيضًـا منه مـع النهابـة، فصار إليهـا ملء يديهـا دقيقًا لم ينبهـا منـه غـيره، فعجنته وشـوته، ثم مضـت إلى باب القـصر ووقفت عـلى موضـع مرتفـع، ورفعـت القرصـة في يدهـا حتـى يراهـا النـاس، ونـادت بأعـلى صوتها: »يـا أهـل (القاهـرة)، ادعـوا لمولانـا (المسـتنصر) الـذي أسـعد الله النـاس بأيامـه وأعاد عليهم بركات حسـن نظـره، حتى تقومـت عـلى هـذه القرصـة (بألـف دينـار).[61]

ثالثًا: وأيضًا ذكر قصة مشابهة لها فقال:

«ووقـف مـرة بعـض المياسـير ببـاب القـصر وصرخ إلى أن أحـضر (المسـتنصر)، فلـما وقـف بـين يديـه قال: »يـا مولانا هـذه سـبعون قمحة وقفـت عـلي (بسـبعين دينـارًا) كل حبة قمـح (بدينـار) في أيامـك، وهو أني اشـتريت إردبًا (بسـبعين دينـارًا) فنهب مني ولم يبق لي سـوى ما وقع بيـدي وانتهـابي منه مع مـن نهب، فعددت مـا في يدي فجاء سـبعين حبة مـن قمـح، وإذا كل حبة (بدينـار)، فقال (المسـتنصر): »الآن فرج الله على النـاس، فـإن أيامـي حكـم لهـا أنـه يبـاع فيهـا القمحـة (بدينار)[62]يريد بذلـك أنـه كتـب في علـم التنجيـم والـذي كان الفاطميـون مغرمـون به

61 - ص (296) وص (297) – المصدر السابق – ص (35) – الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة – لابن عبد الظاهر محيي الدين أبي الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري - حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور أيمن فؤاد السيد – الطبعة الأولى (1417 هـ / 1996 م) –الناشر أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت – لبنان).

62 - ص (299) – المصدر السابق.

أنـه سـوف يحـدث في زمانه شـدة، وأن حبة القمح سـوف تبـاع (بدينار) فحينهـا سـوف تفـرج عـن أهـل مـصر الشـدة، وهـذا وإن دل علي شيء دل عـلى سـخف عقـل (المسـتنصر بـالله) وضعف نظـره في أمـور دولته، فقـد حدثت الشـدة بسـبب ضعفـه وقصـوره عـن إدارة دولته.

والجديـر بالذكـر أن ميـاه النيـل بعـد وقوع هـذه الفتنـة العظيمة أخذ يرتفـع وينـزل ولا يقـدر أحـد عـلى الـري والزراعـة لانعـدام الأمـن، وعـدم وجـود مـن يقـوم بأعـمال الزراعـة مـن الرجـال والشـباب، إما لكثـرة الوفـاة، أو لانتشـار الأمـراض والأوبئـة بـين أهـل مـصر جميعًا.

رابعًا: أكل الناس لحوم بعضهم البعض:

فقـد ذكـر (المقريزي) أن الحـال قد وصـل بالناس إلى حد أنهـم أكلوا بعضهم فيقول:

«وكان بمـصر طوائـف مـن أهـل الفسـاد قـد سـكنوا بيوتًـا قصـيرة السـقوف قريبـة ممـن يسـعى في الطرقـات، فأعـدوا سـلبًا وخطاطيـف، فـإذا مـر بهـم أحـد شـالوه في أقـرب وقـت، ثـم ضربـوه بالأخشـاب وشرحـوا لحمـه وأكلـوه.[63]

وقـد ذكـر الشريـف (أبو عبـد الله محمد الجـواني) حادثة مشـابهة لهذه الحـالات، فقال:

---

63 - ص (38) – إغاثة الأمة بكشف الغمة – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق وتعليق الدكتور جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ الإسلامي – الطبعة الأولى (1420 هـ / 2000 م) – الناشر مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة).

-ص (297) – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – الجزء الثاني.

«حدثني بعض نسائنا الصالحات قالت: كانت لنا جارة امرأة ترينا أفخاذها وفيها كالحفر، فتقول: أنا ممن خطفني أكلة الناس في الشدة، فأخذني إنسان، وكنت ذات جسم وسمن، فأدخلني بيتًا فيه سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتيل، فأضجعني على وجهي وربط يدي ورجلي سلبًا إلى أوتاد حديد عريانة، ثم شرح من أفخاذي وأنا أستغيث ولا أحد يجيبني، ثم أضرم الفحم وأشوى من لحمي وأكل أكلًا كثيرًا، ثم سكر حتى وقع على جبينه لا يعرف أين هو، فأخذت في الحركة إلى أن تخلى أحد الأوتاد وأعان الله على الخلاص، وخلصت وحللت الرباط، وأخذت خروقًا من داره ولففت بها أفخاذي، وزحفت إلى باب الدار وخرجت أزحف إلى أن وقعت إلى الناس، فحملت إلى بيتي، وعرفتهم بموضعه، فمضوا إلى الوالي فكبس عليه وضرب عنقه، وأقامت الدماء في أفخاذي سنة إلى أن ختم الجرح، وبقي هكذا حفرًا». (64)

خامسًا: ولم تسلم دواب الخليفة نفسه من الأكل، فقد كان لدى الخليفة ما لا يقل عن عشرة آلاف دابة ما بين فرس وجمل، فلم يبق له سوى (ثلاثة) أفراس، وحدث أن وزير الخليفة (المستنصر بالله) ترك على باب القصر بغلته وليس معها سوى غلام له واحد يحرسها، فجاء ثلاثة رجال وأخذوا البغلة منه بالقوة، ولم يتمكن الغلام من ردهم لضعفه من شدة الجوع، فذبحوها وأكلوها، وقامت الشرطة بالقبض عليهم وصلبتهم، فلما جن الصباح على المصلوبين فلم يرى إلا عظامهم، فقد تهافت جياع الناس على المصلوبين بالليل وأكلوا لحومهم من شدة الجوع!!. (65)

64 - ص (537) – الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر – إعداد أميرة الشيخ فرحات – الطبعة الأولى (1434 هـ / 2013 م) – طبعة كتاب – ناشرون (بيروت – لبنان).

65 - ص (538) – المصدر السابق.

سادسًا: وأيضًا ذكر بعض المؤرخين أنه كان في مدينة (الفسطاط) زقاقين أشتهر أهل الفساد فيها بخطف الناس وأكلهم، وهما:

1-زقاق (البواقيل): وهو يعرف أيضًا باسم زقاق (الندافين) حيث كان جماعة من المفسدين أيام المجاعة تحت القبو في الزقاق، ويتبرصون بالمارين، فمن مر بهم (ندفوه) أي: ضربوه وأخذوا معهم بالعنف والقوة، ثم ينزعون ما عليه من ثياب ويرمونه في بئر هناك في هذا الزقاق، ثم يقومون بذبحه وأكله.

2-زقاق (العكامين): حيث كان يقف جماعة من المفسدين كذلك هناك، فيقومون بضرب الناس ثم يعكمونهم (أي: يكممون أفواههم) ثم يحملونهم إلى زقاق القتلى ليقتلوهم فيه، فسمي الزقاق بهذا الاسم لذلك.

وصارت لحوم الناس تباع مثل السلع علانية في الأسواق، فبعد قتل الناس وذبحهم يقومون بطبخها وبيعها مطبوخة، ومعظمها كان من لحوم الصبيان والنساء من ضحاياهم، وهذا يدل على مدى الحالة التي وصلت إليها مصر من شدة المجاعة والفاقة وانعدام الطعام والأقوات.(66)

*حال الخليفة (المستنصر بالله) وأهل بيته:

ولم يكن حال الخليفة الفاطمي بأفضل من رعيته، فقد أصابته وأصابت أهل بيته الشدة، فقد ذكر المؤرخ (المقريزي) الآتي:

---

66 - ص (298) – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – الجزء الثاني.

«وآل أمر الخليفة (المستنصر) إلى أن صار يجلس على نخ أو حصير، وتعطلت دواوينه وذهب وقاره، وخرج نساء قصوره ناشرات شعورهن يصحن:»الجوع، الجوع» وهن يردن المسير إلى (العراق)، فتساقطن عند المصلى بظاهر باب (النصر) من (القاهرة)، ومتن جوعًا»وعدم (المستنصر)) القوت جملة، حتى كانت الشريفة (بنت صاحب السبيل) تبعث إليه كل يوم بقعب من فتيت من جملة ما كان لها من البر والصدقات في سني الغلاء !! حتى أنفقت مالها كله -وكان يجل عن الإحصاء- في سبيل البر، فلم يكن (للمستنصر) قوت سوى ما كانت تبعث به إليه، وهو مرة واحدة في اليوم، لا يجد غيره، وبعث بأولاده إلى الأطراف لعدم القوت، فسير الأمير (عبد الله) إلى (عكا) فنزل عند أمير الجيوش، وأرسل الأمير (أبا علي) معه، وبعث الأمير (أبا القاسم) والد الخليفة بعد ذلك (الحافظ) إلى (عسقلان)، وسيره أولًا إلى (دمياط)، ولم يترك عنده سوى ابنه (أبي القاسم أحمد)».[67]

فقد خرج من أبناء عمومته وأقاربه في زمن المجاعة الكثير، فقد هربوا إلى بلاد (المغرب) و(الشام) و(العراق) هربًا من الموت إما من الجوع أو من الوباء، حتى قيل: إن أم (المستنصر) فرَّت هي الأخرى بنفسها إلى (العراق) وبقي الخليفة الفاطمي وحده خائفًا فقيرًا يترقب كيف سيئول حاله البائسة تلك هل إلى نجاة أم إلى هلاك[68]

---

67 - ص (307) – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – الجزء الثاني.

68 - وفي هذه الفقرة التي أوردها (المقريزي) عن تفرق جميع أهل الخليفة (المستنصر بالله) وحتى أمه عنه وتركهم (لمصر) في هذه الفتنة التي ضربت البلاد أكبر رد على من ادعى أن السلطان (الناصر يوسف صلاح الدين) أراد أن يقطع نسل الخلافة (الفاطمية) بالكلية. فقد ذكر (المقريزي) في كتابه (اتعاظ الحنفا) الفقرة السابقة والتي تدل أن نسل (

*الخلاصة:

وقد ظلت هذه الشدة والتي عرفت فيما بعد باسم (الشدة المستنصرية) حتى سنة (464 ه / 1071 م)، وكانت بدايتها سنة (457 ه) أي أنها استمرت حوالي سبع سنوات كاملة، وكانت بدايتها أن الخليفة الفاطمي قتل وزيره، فقد قام في سنة (450 ه) في أول شهر (المحرم) بالقبض على وزيره (الناصر للدين، غياث المسلمين، أبي محمد اليازوري) فقد جمع له قبل قتله من المناصب ما لم يجمعه لأحد، وهذا أيضًا من سوء الإدارة، فقد جعله كبير الوزراء، وقاضي القضاة، وداعي الدعاة، ولهذا لما قتله الخليفة اختلت أحوال دولته.[69]

وهذا بالإضافة إلى قصور نهر النيل عن بلوغه الحد الذي يسمح بالزراعة، واختلفت أيضًا كلمة الأجناد على الخليفة (المستنصر) فحاربوا بعضهم البعض، ولم يكن جنود (المستنصر) من جنس واحد أو طائفة واحدة، فقد كانوا طوائف وأجناس عدة، فتغلبت طائفة (لواته) والمغاربة على الوجه (البحري)، وتغلب العبيد و(السودان) على أراضي الصعيد، وطائفة (الملثمة) و(الأتراك) بمصر و(القاهرة)، وتحاربوا جميعًا، وقطعت الطرق والسبل وعدم الأمن، واضطربت

الفاطميين) لم ينقطع بعد قيام الدولة ((الأيوبية)) في ((مصر)). وكيف يتمكن ((صلاح الدين)) من قطع نسل هذه الأسرة الكبيرة التي تفرقت في جميع أرجاء العالم الإسلامي ! اللهم إلا أن تمكن من إحصائهم جميعًا وأتى بهم جميعًا وقام باعتقالهم وفرق بينهم وبين نسائهم، وهذا من كبير المستحيلات، ولا يستطيعه أحد مهما بلغ من السطوة وقوة السلطان مبلغهما.

-ص (236) – المصدر السابق.

69 - ص (294) وص (295) – المصدر السابق.

أحـوال الدولـة، ثـم بـدأت هـذه الشـدة سـنة (457 ه) وبـدأت تتزايـد إلى سـنتي (461 ه) و(462 ه)، وهلـك فيهـا معظـم أهـل إقليـم مصر، ولكـن الشـدة والبلاء بـدأ يخف وأخذت هـذه المجاعة في الانجلاء سـنة (446 ه) وذلـك بمقـدم أمير الجيـوش (بـدر الديـن الجـمالي) إلى مـصر سـنة (466 ه) والـذي قـام بقتـل جميـع رؤوس الفتنـة في مـصر كلها.

وقـد كانـت لهذه الشـدة والمجاعة التـي لم تعرف أرض مـصر مثلها لا مـن قبـل ولا من بعد آثـار خطيرة جـدًّا منها:

1-ضيـاع هيبـة الخليفـة الفاطمـي، فقـد أصبـح الخليفـة (المسـتنصر بـالله) بعـد مقـدم أمير الجيـوش (بـدر الديـن الجـمالي) مجرد صـورة على كـرسي الخلافـة، ليـس لـه مـن أمـور الخلافـة شيء سـوى الدعـاء عـلى المنابـر، والسـكة.

2-خـراب الخزائـن الفاطميـة، فقـد قـام الجنـد بنهـب الخزائـن والذخائـر والأمـوال مـن أجـل الحصـول عـلى رواتبهـم وأعطياتهـم المتأخـرة، ولم تنجـوا حتـى تربـة الخلفـاء (تربـة الزعفـران) فقـد نهبـت جميـع قناديـل الذهـب منهـا.

3-خربـت خزائـن الكتـب، فقـد أخـرج الجنـود والقـواد مـا يقـدر بحـوالي (ثمانيـة عـشر ألـف) كتابًـا في العلـوم القديمـة، و(ألفـين وأربعمائـة) ختمـة في ربعـات بخطـوط منسـوبة محـلاة بالذهـب والفضـة، وقـد أخـذ كل هـذه الكتـاب الأتـراك ببعـض قيمتـه، وأخـرج في (المحـرم) سـنة (461 ه) منهـا في يـوم واحـد مـا يقـدر (بخمسـة وعشريـن) جمـلًا موقـورة كتبـا صـارت إلى دار الوزيـر (أبي الفـرج محمـد بـن جعفـر بـن المعـز)، واقتسـمها هـو و(الخطير ابـن

الموفق في الدارين) بخدمات وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من دواوين الحلبيين، وأن حصة الوزير (أبي الفرج) قُومت عليه (بخمسة آلاف دينار)، وكانت تساوي أكثر من (مائة ألف دينار) نهبت بأجمعها من داره بعد ذلك.

وأخرج أيضًا ما في خزائن (دار العلم) في (القاهرة) من الكتب، وصار منها إلى (عماد الدولة أبي الفضل بن المحترف) والذي كان في مدينة (الإسكندرية) الكثير منها، وبعد مقتله انتقل الكثير من هذه الكتب التي كانت عنده إلى بلاد (المغرب) فاشتراها أناس وغصبها أناس آخرون، وكانت من الكتب الجليلة القدر التي لا تقدر بثمن، والطريف أن العبيد هناك في المغرب وإماؤهم جعلوا الجلود التي كانت تغلف هذه الكتب نعالًا في أرجلهم !! وأحرق ورقها تأولًا منهم أنها خرجت من القصر وأن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم، فصار رمادها تلالًا عرفت في نواحي (أبيار) بتلال الكتب، وغرق منها وتلف، ووصل إلى الأمصار منها ما يتجاوز الوصف.(70)

4-ضياع ممتلكات المسلمين في إيطاليا، ففي سنة (464 ه) فقد ضاعت مدينة (قلبريو) في جزيرة (صقلية)، فقد طلب (المستنصر) من واليها المال المقرر عليه لخزانة الخلافة، وكان الأخير عاجزًا عن

---

70 - وفي هذه المعلومة المهمة التي ذكرها ((المقريزي)) عن إخراج الكتب من خزانة الكتب بالقصر الفاطمي وبيعها بأبخس الأثمان، وكذلك وصول هذه الكتب النادرة والمهمة إلى بلاد المغرب إلى نهاية ما ذكره، أكبررد أيضًا على من يقول أن السلطان ((الناصريوسف صلاح الدين)) قام بحرق وإتلاف الكتب التي كانت موجودة بخزانة القصر الفاطمي، فقد تلفت واختفت بسبب الفتنة التي حدثت بين قواد ((المستنصر بالله)) الذين أخذوها مقابل رواتبهم المتأخرة، بالإضافة إلى التي قام المغاربة بحرقها ونثررمادها لجهلهم بأهميتها، وبالتالي فإن السلطان ((الناصر صلاح الدين)) بريء من هذه التهمة، والتهمة السابقة عليها.

المال فقام بمراسلة ملك القمص (رجلر بن تنكرد)، ففتح لهم باب المدينة فدخلوا وقتلوا وملكوا جزيرة (صقلية) بوقوع هذه المدينة.[71]

5-ضعف النفوذ السياسي الخارجي للخلافة الفاطمية، فقد انحصرت الدولة الفاطمية بعد هذه الشدة في إقليم مصر فقط، مع بعض المدن في بلاد (الشام)، ولكن اسميًّا فقط.

وهكذا نرى أن الشدة (المستنصرية) قد أتت على الخلافة الفاطمية، فقد كانت الضربة القاصمة التي أنهت على هيبة الخلفاء الفاطميين في مصر، وآذنت بقرب زوال دولتهم من العالم الإسلامي، والذي حدث بالفعل بمجيء القائد (الناصر صلاح الدين الأيوبي)، فقد تمكن هو وقواده المخلصون من إرجاع هيبة مصر مرة أخرى وجعلها قلب العالم الإسلامي ومادة قوته التي قهرت الصليبيين، ومن بعده قهرت التتار على يد المماليك، وهم صنيعة الأيوبيين أيضًا.

***

---

71 - ص (308) – المصدر السابق

-ص (87) – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي – الجزء الخامس – الطبعة الثانية (1426 هـ / 2005 م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

الفصل الثالث

خبايا العصر الأيوبي

مقدمة

في هـذا الفصـل سـوف نتنـاول بعـض القضايـا الهامـة التـي حدثت في تاريـخ إحـدى أهـم الدول الإسـلامية، أقصد بهـا الدولـة (الأيوبية)، والتـي تمكَّـن أول وأقوى وأتقـى سـلاطينها السـلطان ((الناصر صلاح الديـن)) تلميـذ السـلطان التقـي (نـور الديـن محمـود زنكـي) قائـد المجاهديـن ضـد الصليبيـين وموحد بلاد (الشـام) و(مـصر) تحت راية واحـدة، وهـي رايـة الإسـلام، ومسـقط الدولـة (العبيدية) الشـيعية في (مـصر) عـن طريـق قواده (أسـد الديـن شـيركوه) وابن اخيـه (صلاح الديـن)، والـذي سـوف يقـود حركـة الجهـاد ضـد الصليبيـين ويرجـع (القـدس) – أعادهـا الله مـرة أخرى للمسـلمين عن قريـب – في معركة خالـدة، وهـي معركـة (حطـين)، ولكـن في هـذا الفصـل سـوف يكون حديثنـا عـن بعـض مـا حـدث في عهـد (صـلاح الديـن) وليـس عـن (صـلاح الديـن) ذاتـه، ولكنها تمس دولتـه، وأرجو أن تكـون مفيدة لمن يرغـب أن يعـرف أكثـر عن هـذه الدولـة العظيمـة، التي كان لهـا مجهود عظيـم في جهـاد الصليبيـين وتوحيد المسـلمين .

فتاريـخ الدولـة الأيوبيـة على صغـر عمرها بالنسـبة إلى بقيـة الدول، إلا أنهـا مليئـة بالإشـكاليات والأحـداث المهمـة والخطـيرة في تاريـخ

الأمـة العربيـة والإسـلامية، وعـلى الرغـم مـن أن هـذه الأسرة لم تكـن عربيـة الجنـس واللسـان، إلا أنها قدَّمـت خدمـات جليلة للأمـة العربية والإسـلامية، بـل وأفنـت زهـرة شـبابها في حروبهـا ضـد الصليبيـين الفرنجـة، لم يسـبقها غيرهـا من الـدول، اللهـم إلا الدولـة النورية أقصد دولـة (نـور الدين محمـود) ومن قبـل أبيه الشـهيد (عماد الديـن زنكي).

وسـوف أتناول بعض هـذه الإشـكاليات محاولًا توضيح سـبب هذه الإشـكاليات، وتفنيـد بعـض أسبابها، وعلاقـات الدولـة الأيوبيـة مـع الصليبيـين، سـواء في أيام الحـرب أو أيام السـلم، أو علاقـات الأيوبيين مـع جيرانهـم مـن الإمـارات الإسـلامية جيرانهـم بعـد وفـاة السـلطان النـاصر (صـلاح الديـن يوسـف بـن أيـوب)، وأقصـد بالأيوبيـين مـن بعـده أولاده وإخوانـه، ومـا قامـوا بـه وأحدثـوه مـن بعـده، فللأسـف الشـديد لم يكـن أبنـاء (صـلاح الدين) في الجهـاد وحفظ ثغور المسـلمين مثلـه، بـل دب التباغـض والتنافـس فيـما بينهـم مـن بعـده عـلى الملـك والسـلطان، ولهـذا دب الضعـف في أوصـال الدولـة الأيوبيـة سريعًـا وانتهـت بشـكل غريـب وملفـت للنظـر عـلى الرغـم مـن جهادهـم العظيـم ضـد الصليبيـين، وضـد معاقـل الإسـماعيلية الباطنيـة في بـلاد (الشـام) ومحاولاتهـم المسـتمرة لاغتيـال السـلطان النـاصر (صـلاح الديـن) لـولا عنايـة الله لـه، ولكـن هـذه سـنن الله في الكـون، ولـن تجد لسـنة الله تبديـلًا، ولـن تجـد لسـنة الله تحويـلًا.

قراقوش - المظلوم حيًّا وميتًا

ما بين فيلم (الناصر) للمخرج المصري (يوسف شاهين) والذي أظهر فيه (قراقوش) في شخص الخائن الذي سلم مدينة (عكا) للصليبيين، وفاشوش (ابن مماتي) الكاتب المصري، الذي وضع كتابًا كاملًا عن شخصية (قارقوش) ملأه بحكايات ملفقه ومفبركة عنه، فخرج من رحم التاريخ الشعبي لمخيلة المصريين (قراقوش) في هيئة الحاكم المتغطرس والظالم، والذي امتازت أحكامه بالغباء الشديد والبعد عن الحق تمامًا، هذا ما أظهره الكاتب المصري (ابن مماتي) في فاشوشه، وهذا ما تعارفت عليه ذاكرة المصريين في ثقافتهم الشعبية، ولكن هل كان (قارقوش) بهذه الصورة؟ أم أن (ابن مماتي) اتخذه كإسقاط سياسي للواقع الذي عاصره وعاشته الأمة المصرية في أيام الدولة الأيوبية؟

*من هو قراقوش:

هـو الأمـير (بهاء الدين بـن عبد الله الأسـدي الرومـي المالكي) وكان في مبـدأ أمـره (طواش) أعتقه سـيده القائد (أسـد الدين شـيركوه) ولهذا يُنسـب إليـه، وأصبـح في أوائـل وزارة (صـلاح الديـن يوسـف) حاجبًا لـه، وقـد وكل إليـه (صـلاح الديـن) عـدة أعـمال خطـيرة وهامـة، منها تـولي إمـارة مدينـة (عـكا)، وهـي مـن الثغـور المهمـة في الشـام وتتاخم العديـد مـن الإمـارات الصليبيـة، فالـذي يتولاهـا لابـد وأن يكون على قـدر كبير مـن الكفايـة الحربيـة والسياسـية والإداريـة، وتولى أيضًـا بناء (قلعـة الجبـل) في (القاهـرة)، وكان موضـوع ثقـة السـلطان (صـلاح الديـن) وذراعـه الأيمـن كـما يقـال في هـذه الأيـام، وبعد وفـاة (صلاح الديـن) كان موضـع ثقـة ولـده السـلطان (العزيـز عثمان).

* أعمال قراقوش:

ويمكننا حصر أعمال (بهاء الدين قراقوش) فيما يلي:

الأولى (مصادرة خزائن الخلافة الفاطمية):

نيطـت إليـه بعـد إسـقاط الخلافـة (الفاطميـة) مهمـة تحصيـل مـا في القصـور (الفاطميـة) مـن ثـروات ونفائـس، وهـي بـلا شـك مهمـة تحتـاج إلى رجـل يتمتـع بالأمانة الشـديدة في تسـجيل كل مـا في القصور مـن كنـوز وثـروات، وقـد قـدم (بهـاء الديـن) كشـفًا وسـجلًا لحاصل القـصر (الفاطمـي) الخـاص فوجـد بـه:«مائـة صنـدوق كسـوة فاخـرة مـا بـين موشـح ومرصـع، وعقـود ثمينـة، وذخائـر فخمـة، وجواهـر

نفيسة» وغير ذلك من الذخائر العظيمة، وقد أداها كما وجدها دون أن يأخذ منها شيئًا لنفسه.(72)

الثانية: (الأعمال المعمارية والتحصينية):

في سنة (572هـ) أمر السلطان (صلاح الدين) ببناء سور حول مدينة (القاهرة) و(القلعة) ودوره على تسعة وعشرين ألف ذراع، وثلاثمائة وذراعين وذلك بذراع العمل، والذي تولى بناء هذا السور والإشراف عليه هو الأمير (بهاء الدين قراقوش)، وبالفعل شرع في بناء (القلعة) أولًا، ثم في حفر خندقًا عميقًا حول سور (القلعة) و(القاهرة)، وحفر واديه وضيق طريقه حتى لا يمكن الوصول إلى (القلعة) مما جعلها حصينة جدًّا، وكان في مكان (القلعة) سابقًا عدة مساجد قديمة مثل مسجد (سعد الدولة)، فدخلت هذه المساجد في جملة (القلعة)، كما حفر فيها بئرًا ينزل إليها بدرج منحوتة في الحجر إلى الماء.(73)

*استخدام قراقوش لأحجار الأهرام المهدمة:

رأى بهاء الدين قراقوش أن استغلال أحجار الأهرام الصغيرة المهدمة والتي كانت متواجدة في مجموعة أهرام الجيزة فعلًا حسنًا لإقامة منشآت أكثر فائدة، نظرًا لحاجة حالة المعمار في عصره إلى مثل تلك الخامات الفريدة، والتي لم يكن

72 - ص 45 – السلوك لمعرفة دول الملوك – أحمد بن على المقريزي – الجزء الأول (القسم الأول) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1430 هـ / 2009 م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

73 - ص 63 – المصدر السابق.

ليتأتـى لـه أن يحصـل عليهـا إلا باسـتغلال تلـك الأحجـار، وهـذه الأهـرام الصغـيرة كانـت في حالـة أقـرب للهـدم مـن البنـاء، ولم يكـن لبقائهـا مـن وجهـة نظـر أهـل العـصر أيـة فائـدة تذكـر.

وقـد ذكـر (عـلي باشـا مبـارك) في الخطـط التوفيقيـة نقـلًا عـن (المقريـزي) قيـام بعـض الخلفـاء والسـلاطين ومحاولاتهـم المختلفة لهدم الأهـرام، أو الوصـول إلى داخـل الهـرم الأكـبر ظنًّـا منهـم أن بإمكانهـم الحصـول عـلى كنـوز المصريـين القدمـاء.

يقول (المقريزي):

وقـد كان منهـا (يقصـد الأهـرام) (بالجيـزة) عـدد كثير كلهـا صغار، هُدمـت في زمـن السـلطان (صـلاح الديـن يوسـف بـن أيـوب) على يد الطـواشي (بهـاء الديـن قراقـوش)، أخـذ حجارتهـا وبنـى بهـا القناطـر (بالجيـزة)، وقـد بقـي مـن هـذه الأهـرام المهدومـة أقلها.

وإن القناطـر الموجـودة في (الجيـزة) مـن البنيـة العجيبة، ومـن أعمال الجباريـن وهـي نيـف وأربعـون قنطـرة، عملهـا الأمـير (قراقـوش الأسـدي) وكان عـلى العمائـر في أيـام السـلطان (صـلاح الديـن يوسـف بـن أيـوب) بـما هدمـه مـن الأهـرام التـي كانـت (بالجيـزة) وأخـذ حجرهـا فبنـى منـه هـذه القناطـر، وبنـى سـور (القاهـرة) ومـا بينهـما، وبنـى (قلعـة الجبـل) وكان خصيًّـا روميًّـا، سـامي الهمـة، وكان (قراقـوش) لمـا أراد بنـاء هـذه القناطـر، بنـى رصيفـا مـن الحجـارة ابتـدأ بـه مـن حيـز النيـل بـإزاء مدينـة (مـصر) كأنـه جبـل ممتـد عـلى الأرض مسـيرة سـتة أيـام، حتـى يتصـل بالقناطر»ا.هـ[74]

74 - ص 80 وص 81 – الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة – على باشا مبارك – الجزء السادس عشر – إعداد ومراجعة ومتابعة خديجة محمد كامل

والجدير بالذكر أن العديد من الخلفاء والسلاطين في عصور مختلفة قد قاموا بمحاولات لهدم الأهرام من أجل الوصول إلى كنوز المصريين القدماء، أو كما فعل (بهاء الدين قراقوش) بهدم الأهرام الصغار التي كانت شبه مهدمة من أجل استخدامها في بناء سور (القلعة) و(القاهرة)، لكن من الهام أن ندرك مدى قيمة وأهمية الآثار في هذه الفترة في نظر أهل هذا العصر.

ولابد وأن نعلم أن قيمة الأثار في هذه الفترة لدى أهل هذا العصر لم تكن كقيمتها اليوم، فقد كان المسلمون حكامًا ومحكومون على السواء ينظرون إلى الآثار على أنها بقايا الأولين الذين هلكوا قبلهم، فينظرون إليها على سبيل العظة والاعتبار من مصير الأولين، أما عن قيمتها الأثرية فلم تكن معروفة لديهم في هذه الحقبة من الزمن، ولهذا فمن الظلم الحكم على أهل هذا الزمان بمعايير زماننا هذا، فالأهرام بالنسبة لهم لم تكن أكثر من مجرد حجارة ليس لها نفع، فكان استعمالها في بناء القلاع والحصون والقناطر والأسوار وغيرها أفيد من تركها على هيئتها هذه، وبالتالي نستطيع أن نتفهم أسباب محاولات أهل تلك العصور في محاولة هدم الآثار الباقية حتى وقتهم سواء القائم منها أو المهدم.

الثالثة: (حملة بلاد اليمن):

وفي سنة (577ه) أمر السلطان (صلاح الدين يوسف) خادمه (بهاء الدين قراقوش) بالتوجه إلى بلاد (اليمن)، وذلك من أجل

- طبعة (1435 هـ / 2014 م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

القبض على رأس الفتنة هناك (سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ) والذي أراد أن يستبد بحكم بلاد (اليمن) وحده وطلب منه المال، وكان نائبًا لأخيه (توران شاه).[75]

الرابعة: عمارة مدينة (عكا):

وفي سنة (584هـ) قام السلطان (صلاح الدين) بانتداب الأمير (بهاء الدين قراقوش) لعمارة مدينة (عكا)، فترك (مصر) بعد أن استخلف غيره على إكمال عمارة سور (القاهرة)، فشرع أولًا في تجديد سور (عكا) وتعلية أبراجها مستعينًا في ذلك بمن قدم معه من (مصر) من الأسرى والأبقار والآلات والدواب.

ولكن لم يكن مع (بهاء الدين قراقوش) أسرى في الحقيقة عندما أراد عمارة سور ومدينة (عكا)، ولا أعلم من أين أتى (المقريزي) بعبارة (الأسرى)، فقد ذكر في موضع آخر عن هذا الأمر أن السلطان (صلاح الدين يوسف) أمر ببناء الاستحكامات حول مدينة (عكا) سنة (584هـ) فأمر بإحضار (بهاء الدين قراقوش) من (مصر) ومعه المهندسون وطائفة البنائين وما يلزمهم لعمارة سور (عكا) واستحكاماتها، فوصلوا في شهر المحرم سنة (585هـ) والسلطان مقيم بها، فأقام بها (بهاء الدين قراقوش) واليًا عليها، وأمر ببناء السور أمتن بناء، وترك معه (حسام الدين بشاره) وسار إلى (دمشق).[76]

---

75 - ص 89 – النجوم الزاهرة في ملوك مصروالقاهرة – جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغردي بردي الأتابكي (813هـ – 874هـ) – الجزء السادس – الطبعة الثانية (1426هـ / 2005م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

76 - ص 99 – كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك – أحمد بن على المقريزي – الجزء الأول (القسم الأول) – طبعة (1430 هـ / 2009 م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

إذًا لم يكـن هنـاك أسرى اسـتخدمهم (بهـاء الديـن قراقـوش) في عمليـات البنـاء والترميـم لسـور المدينـة، إنـما كان الفعلـة والبنـاؤون هـم مـن قامـوا بعمليـة البنـاء والترميـم لمدينـة (عـكا)، والدليـل عـلى ذلـك اختـلاف عبـارة (المقريـزي) في نفـس الحـدث، مما يـدل عـلى تضـارب الأقـوال.

الخامسـة: مقاومـة (بهـاء الديـن قراقـوش) لحصـار التحالـف الصليبـي عـلى (عـكا):

وهـي مـن المهـام الكـبرى التـي تعـرض لهـا (بهـاء الديـن)، وقـد أثبتـت مـدى شـجاعته ومهارتـه في قيـادة حركـة المقاومـة، فقـد قـاوم هـو ومـن معـه مـن القـادة حصـار الصليبيـين للمدينـة لمـدة عامـين كاملـين (وهـذا عكـس مـا في فيلـم النـاصر).

ففـي سـنة (585هـ) نـزل الفرنـج بعـد أن علمـوا برحيـل السـلطان (صـلاح الديـن) عـن (عـكا) وتوجـه إلى مدينـة (دمشـق) فحـاصروا المدينـة في (13 مـن شـهر رجـب) مـن هذه السـنة أشـد الحصـار، وكان عـلى الصليبيـين في هـذا الحصـار الملـك (غـوي) والـذي كان أسـيرًا وأطلـق السـلطان (صـلاح الدين يوسـف) سراحـه، وكان عـدد الجيش الصليبـي (ألفـي فـارس) و(ثلاثـين ألـف راجـل)، فلـما علم السـلطان بأمـر هـذا الحصـار ضـاق صـدره لذلـك، وتكاثـر الفرنـج وأحاطـوا (بعـكا) ومنعـوا مـن يدخـل إليهـا ومـن يخـرج منهـا، وكان ذلـك يـوم الخميـس سـلخ شـهر رجـب، وقـد حـاول السـلطان (صـلاح الديـن) أن يفتـح الطريـق إلى المدينـة، وذلـك لكـي يمكـن مـن وصـول المـيرة

والنجدات إلى داخل المدينة، فقد كان جهادًا عظيمًا من قبل السلطان (صلاح الدين) من خارج المدينة، وجهادًا عظيمًا من قبل الأمير (بهاء الدين قراقوش) من داخل المدينة، وبالفعل تمكن السلطان من فتح الطريق إلى المدينة، ودخل السلطان المدينة وأشرف على أمورها، وجرت الحروب والمناوشات بين المسلمين والفرنجة عدة أيام، وفي تلك الأيام توفي الأمير (حسام الدين طمان) في النصف من شهر شعبان سنة (585ه) وكان من الأمراء الشجعان.

ثم تواصل المدد للفرنج من جهة البحر من بلاد (البندقية) و(بيزا) و(جنوه)، وتوافق ذلك قدوم الجنود من بلاد (فرنسا) و(إنجلترا) و(النمسا) و(إيطاليا)، وهي ما عرفت في تاريخ الحملات الصليبية بالحملة الصليبية الثانية، والتي أتت لاسترداد (بيت المقدس) من المسلمين، فزادت قوة الصليبيين المحاصرين لمدينة (عكا)، فوصل عددهم نيفًا ومائة ألف مقاتل، وكان على رأس الفرنسيين الملك (فيليب أوغسطوس) وعلى رأس الإنجليز الملك (ريكارودس) وهو الذي عرف باسم (ريتشارد قلب الأسد)، والذي تولى قيادة الصليبيين في حصار مدينة (عكا) الملك (فيليب أوغسطوس) وكان وصولهم في (12 من شهر ربيع الأول سنة 587ه) أي: بعد أن استمر الحصار لمدة عامين كاملين.

(صورة توضح قدوم الحملة الصليبية الثانية بقيادة فيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد)

وقد واصل السلطان (صلاح الدين) حروبه مع الصليبيين من خارج المدينة، والأمير (بهاء الدين) مع فرسان وشجعان المسلمين من داخل المدينة، ولكن الصليبيين لم يبرحوا مكانهم حتى ملَّ أهل (عكا) من القتال والحصار، ووهنت عزائمهم وعزموا على تسليم المدينة على الأمان والخروج منها بأنفسهم ومتاعهم وأموالهم.

*تسليم (عكا) للملكين (فيليب أوغسطوس) و(ريتشارد قلب الأسد):

وقد قرر كبار القادة والأمراء على التسليم، فأخرجوا إلى الصليبيين الأمير (سيف الدين على بن أحمد الهكاري) والمعروف (بالمشطوب) وكان هو قائد الجند في (عكا) فقد قابل الملك (فيليب أوغسطوس) ملك (فرنسا) والذي أجابه على قرار تسليم المدينة، فقال الأمير (المشطوب) للملك (فيليب):

«إنا قد أخذنا منكم بلادًا كثيرة، وكنا نهدم البلد وندخله، ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا»فقام الملك (فيليب) بمداولة ديوان المشورة العسكري الخاص به، ثم قال للأمير (المشطوب):

«إنه لا يعطي للمسلمين إلا بعد أن يرجعوا مدينة (القدس) وجميع البلاد التي استولوا عليها بعد موقعة (حطين) يقصد (سواحل سوريا)»وقال له أيضا:»بعدما سقط سور المدينة جئت تطلب الأمان؟»

فأغلظ له الأمير (المشطوب) القول، وتركه وعاد إلى المدينة وأخبر أهل (عكا) بما حدث معه مع الملك (فيليب أوغسطوس)، فخاف أهل المدينة وأيسوا من النجاة، ثم قام الأمير (سيف الدين المشطوب) بتسليم المدينة على الشروط التالية:

1-تسليم البلد بجميع ما فيه من الآلات والعدد والمركب.

2-إعطاؤهم مائتي ألف دينار.

3-تسليمهم ألف وخمسمائة أسير مجاهيل، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم، وكان من ضمن الأسرى المعينين الأمير (بهاء الدين قراقوش الأسدي الصالحي).

4-إعطاؤهم (صليب الصلبوت) المقدس لديهم.

5-السماح للمسلمين الخروج سالمين على أنفسهم، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم.

6-ضمنوا (لكوفراد) صاحب مدينة (صور) عشرة آلاف دينار، وذلك كونه كان الواسطة في إتمام الصلح ولأصحابه أربعة آلاف دينار.

وفي ظهيرة يوم الجمعة (17 جمادى الآخرة سنة 587هـ) ارتفعت أعلام الصليبيين على أسوار مدينة (عكا) صلحًا، وذلك بعد حصار طويل دام لمدة سنتين، حصار كان مليئًا بالجهاد والتعب والشدائد واجهها الأمير (بهاء الدين قراقوش) هو ومن معه من قواده وفرسانه وأهل المدينة الشجعان، وقام الصليبيون بنشر البيارق (الأعلام) والتي فيها شعار الصليب، وصاح الفرنجة صيحة عظيمة، وعظم البلاء وعلا البكاء والعويل من قبل أهل المدينة المسلمين.[77]

77 - **ص 173 – الأخبار السنية في الحروب الصليبية – تأليف سيد علي الحريري – طبعة (1317 هـ / 1899 م) – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – (القاهرة).**

(تسليم مدينة عكا للملكين فيليب أغسطوس وريتشارد قلب الأسد)

السادسة: ولاية عدة مهام في عهد السلطان (العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين):

وقد تولى بعد وفاة أبيه السلطان (الناصر صلاح الدين) سنة (589هـ)، ولم ينس أيادي مملوك أبيه وخادمه الوفي الأمير (بهاء الدين قراقوش الأسدي) فقدمه لديه وجعله نائبه على (مصر) عندما كان يسافر من أجل محاربة أخيه الملك (الأفضل علي) ملك (دمشق)، وكذلك ولاه ديوان (الزكاة) وديوان (الأموال) وشدها وعدم التصرف فيها لأحد سواه وبأمر من السلطان

نفسه، وكذلك ضم إليه إضافة إلى كل هذه المهام ديوان (المظالم) والنظر فيها، وقد أحسن التدبير والتصرف في كل هذه المهام.[78]

وكل هذا يدل بلا شك على الثقة الكبيرة من قبل السلطان (العزيز عثمان) في وفاء مملوك أبيه الأمير (بهاء الدين قراقوش)، والذي كان جديرًا بهذه الثقة، وحمل هذه المسئولية كاملة، وأحسن إحكام أمور الدول للسلطان في وجوده، وأثناء غيبته في سفراته وحروبه.

السابعة: (الوصاية على السلطان محمد بن العزيز):

وهي آخر المهام الكبيرة التي تولاها الأمير (بهاء الدين قراقوش) وأقصد بها الولاية على السلطان الصغير (محمد بن الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب)، فقد امتد العمر (**ببهاء الدين قراقوش**) بعد وفاة

---

78 - ص 45 – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي – الجزء السادس – طبعة (1426 هـ / 2005 م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

-ص 880 إلى ص 883 – البداية والنهاية لشيخ الإسلام الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير – المجلد السادس – الطبعة الأولى (1412 هـ / 1991 م) – دار الغد العربي – (القاهرة).

-ص 344 – مختصر الروضتين في أخبار الدولتين (نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي) – الإمام أبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي الشافعي – تصنيف الدكتور محمد موسى الشريف – الطبعة الثالثة (1424 هـ / 2003 م) – دار الأندلس الخضراء – المملكة العربية السعودية – (جدة).

-ص 195 وص 196 – الأخبار السنية في الحروب الصليبية – تأليف سيد علي الحريري – طبعة (1317 هـ / 1899 م) – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة).

-ص 258 – النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفة أو سيرة صلاح الدين – بهاء الدين بن شداد – تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال – الطبعة الثانية (1415 هـ / 1999 م) – الناشر مكتبة الخانجي (القاهرة).

السلطان (صلاح الدين يوسف) ورأى تنازع أبناء وإخوة السلطان على اقتسام التركة العظيمة التي خلفها من بعده، وأقصد بها (مصر) وبلاد الشام، فبعد وفاة السلطان (صلاح الدين) خلفه على حكم (مصر) ابنه الملك (العزيز عماد الدين عثمان) وقد نشأ بينه وبين إخوته نزاع شديد على بلاد الشام، وكاد الأمر أن يتم للملك (العزيز) لولا وفاته، وقد ترك ابنًا له صغيرًا لم يبلغ أن يحكم، فقد كانت سن ابنه (محمد) حينما وصى له بالحكم من بعده تسع سنين وأشهر، وقد ولد الملك (محمد) في مدينة (القاهرة) في شهر (جمادى الأولى سنة 585هـ) وتلقب بالسلطان (المنصور ناصر الدين) وقد وصى السلطان (العزيز عثمان) والده على أن يكون الأمير (بهاء الدين قراقوش الأسدي) المدبر لأمر ولده حتى يبلغ الحلم، وقد تلقب بلقب (أتابك) وهي كلمة تركية الأصل مكونة من مقطعين وهما (أتا: وتعني الأب) و(بك: وتعني الأمير) فاللفظ مجموع مع بعضه يعني (أبو العساكر أو أبو الأمراء) وهو لقب أول من استعمله السلاطين السلاجقة مع من يولوه واصيًا على أبنائهم.

وقد تم إجلاس السلطان الصغير على سرير الملك في غد وفاة أبيه يوم الإثنين (حادي عشر المحرم) وكان ذلك في سنة (595هـ)، وحلف له الأمراء كلهم، خلا عماه الملك (المؤيد نجم الدين مسعود) و(الملك المعز)، فإنهما أرادا أن تكون (الأتابكية) لهما، وجرت بينهما منازعة، ولكن في النهاية حلفا للملك الصغير، ثم وقع الخلاف بين بقية أمراء الدولة على تولي (قراقوش) منصب الأتابكية من دونهم، فطعن عدة منهم

في أهليـة (قراقـوش) وكفاءتـه لتـولي هـذا المنصـب فقالـوا عنه: «أنـه مضطـرب الـرأي، ضيـق العطـن (ضيـق الأفـق)، ولا يصلـح لهـذا الأمـر»، ولكـن مـن جهـة أخـرى تعصـب جماعـة مـن الأمـراء مـع الأمـير (بهـاء الديـن قراقـوش) ورأوا أنـه أطـوع مـن غـيره (ولا يخفـى المقصـود مـن هـذه العبارة)، وكثـر النـزاع في هـذا الأمـر حتـى صاروا إلى القـاضي (الفاضـل) وذلـك ليأخـذوا رأيـه في هـذا الأمـر، فامتنـع مـن المشـورة عليهـم، فتركـوه وأقامـوا ثلاثـة أيـام يمحصـون الـرأي حتـى اسـتقروا عـلى مكاتبـة ومراسـلة الملـك (الأفضـل) والـذي كان في مدينـة (صرخـد) وقتهـا، وذلـك ليحـضر ويكـون هـو الأتابـك عوضًـا عـن الأمـير (قراقـوش)، **ولكـن بـشروط هـي:**

1-ألا يرفع فوق رأسه السنجق.

2-ألا يذكر في الخطبة (خطبة الجمعة).

3-ألا ينقش اسمه على السكة (النقود).

4-أن يدبـر أمـر المملكـة للملك الصغـير (محمد المنصور) مدة سبع سـنين، فإذا تـم هذا الأجل سـلم إليـه الأمـر والتدبير.

فقبـل الملـك (الأفضـل) بهـذه الـشروط، وسـيروا لـه القصـاد بذلـك، ولكـن عندمـا تـولى (الأفضـل) أمـر المملكـة لم يـراع هـذه الـشروط، واسـتولى عـلى الأمـر كلـه واسـتخلصه لنفسـه مـن دون الملـك الشرعـي والأمـراء، ولم يبـق للملـك (محمـد المنصـور النـاصر لديـن الله) غـير مجـرد الاسـم فقـط دون الحكـم.[79]

79 - ص (122) وص (132) وص (138) – السلوك لمعرفة دول الملوك – أحمد بن علي المقريزي – الجزء (القسم الأول) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ

وهكـذا انتهـت حكايـة وقصـة الأمـير (بهـاء الديـن قراقـوش) بعد حيـاة مليئـة الجهـاد والحـروب والبناء، وأهمهـا الوفـاء والإخلاص لولي نعمتـه وسـيده السـلطان (صـلاح الديـن يوسـف)، ولابنـه مـن بعـده السـلطان (العزيـز عثـمان)، ولولـده مـن بعده السـلطان الصغـير (محمد المنصـور)، ولكـن لم يـترك حتـى يتـم مهمتـه الأخـيرة، وهـي الولايـة والوصايـة عـلى السـلطان الصغـير، ولـو أنـه ترك لقـام بهـذه المهمة خير قيـام، ولسـلم الأمانـة ولم يسـتول على الملك كـما فعل الملـك (الأفضل).

الثامنة: إتمام الأعمال المعمارية في (مصر) و(القاهرة):

فبعـد أن تـولى الملـك (الأفضـل) ملـك (مـصر) أمـر الأمـير (بهـاء الديـن قراقـوش) بحفـظ (قلعـة الجبـل)، وأن يهتـم بحفـر مـا بقـي مـن سـور (مـصر) و(القاهـرة)، وأن يعمـق الحفـر حتـى يصـل إلى الصخـر، ويجعـل الـتراب داخـل المدينـة عـلى حافـة الحفـر، وذلـك لكـي يكـون مثـل الباشـورة (السـد مـن الـتراب) ويسـتعمل في ذلـك الأبقـار، وأن يكـون عملـه ذلـك فيـما بـين البحـر و(قلعـة المقـس)، وذلـك حتـى يحمـي البلـد ولا يبقـى إليهـا طريـق مـن أبوابهـا إذا أراد الأعـداء مهاجمتهـا مـن أحـد أبوابهـا.

***وفاة (قراقوش):**

وكانـت وفاة هـذا الأمير الـوفي المخلـص للعائلة الأيوبية في مسـتهل شـهر رجـب سـنة (597هـ)، وهـو الأمـير (بهـاء الديـن بـن عبـد الله الأسـدي الخـادم الخـصي الصالحـي) المنسـوب إليه حـارة (بهـاء الدين)

تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1430هـ / 20009م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

بمدينة (القاهرة) داخل (باب الفتوح)، وهو الذي بنى (قلعة الجبل) و(قلعة المقص)، والسور الذي حول (مصر والقاهرة)، و(القنطرة التي عند (الأهرام) وغير ذلك من المباني، واسم (قراقوش) تركي الأصل معناه (طائر العقاب)، وسُمي به لشهامته وشجاعته الفائقة، وكان (بهاء الدين قراقوش) من كبار الأمراء، وقيل: إن أول خدمته كانت لآخر خلفاء الدولة الفاطمية الخليفة (العاضد)، وقيل: إن أول خدمته كانت مع (أسد الدين شيركوه) وهو الصحيح، وبعد وفاة سيده دخل في خدمة السلطان (صلاح الدين يوسف) فكان يثق به ويعول عليه في المهمات الكبيرة، ولما افتتح السلطان مدينة (عكا) من الفرنج سلم المدينة إليه، ثم لما استولى الفرنج مرة أخرى على المدينة أخذ أسيرًا، ففداه السلطان (صلاح الدين) بعشرة آلاف دينار، وقيل: ستين ألف دينار، وقد دفن (بهاء الدين قراقوش) في سفح جبل (المقطم).[80]

***

80 - -ص 145وص 146و147 – السلوك لمعرفة دول الملوك – أحمد بن علي المقريزي – الجزء الأول (القسم الأول) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1430هـ / 2009م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة)، وص (150) – السلوك لمعرفة دول الملوك – أحمد بن علي المقريزي – الجزء الأول (القسم الأول) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الأداب جامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1430هـ / 2009م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة)، ص 176وص 177وص 178 – النجوم الزاهرة في ملوك مصروالقاهرة – جمال الدين أبي المحاسن بن تغري بردي الأتابكي (813هـ – 874هـ) – الجزء السادس – الطبعة الثانية (1426هـ / 2005م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

ضياع القدس من جديد

بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور فريدريك الثاني

بعد أن تمكَّن السلطان (الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب) من استرجاع (القدس) أو (أورشليم) إلى المسلمين مرة أخرى سنة (1178م)، كانت ضربة قاصية إلى أوروبا، وإلى الحملات الصليبية قاطبة، بل وإلى الكنيسة الرومانية نفسها، وفشلت الحملة الصليبية الثانية في محاولتها من استرجاع (القدس)، مما وضع جميع القوى الصليبية في أوروبا ممثلة في ملوكها وأمرائها في مأزق شديد، فقد أصاب الروح الصليبية اليأس والشعور بعودة وحدة المسلمين من جديد، ونمو قوتهم بشكل ملفت ومتزايد، وهذا جعلهم يشعرون أن جهود السنين التي أضاعوها في تحرير البلاد المقدسة من أيدي المسلمين قد ذهب أدراج الرياح، فضلًا عن زهرة شبابهم التي أريقت دمائهم من أجل تحقيق حلم أوروبا الصليبية.

ولكن يشاء القدر أن يتغير الزمان وتتغير الأشخاص، فالملك (الكامل) هو سلطان (مصر) وعلى الرغم من حنكته السياسية

وقدرة الفائقة في القيادة، لكن الظروف لا تساعده، فقد كانت بينه وبين إخوته حروب ومنازعات على الإرث الأيوبي، وفي ظل هذه الظروف يظهر في الجانب الأخر من أوروبا وبالتحديد على البحر المتوسط في (جزيرة صقلية) بوادر لقيام حملة صليبية جديدة بقيادة الإمبراطور (فريدريك الثاني).

كان الإمبراطور (فريدريك الثاني) يرغب بشدة في القيام بحملة صليبية كبيرة وتكون بقيادته هو وحده، فقد كان متأثرًا بالإمبراطور الروماني (شارلمان) ومعجب بحروبه، ولكن كانت هناك مشكلة وحيدة تقف أمامه، ألا وهي سلطة الكنيسة والمتمثلة في البابا، فقد كان الإمبراطور (فردريك الثاني) محرومًا كنسيًّا، أي: مطرودًا من رحمة الكنيسة الرومانية ورعايتها، ويرجع السبب في ذلك أنه بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة وهزيمتها في مدينة (دمياط) سنة (1221ه) والتي كان هدفها احتلال (مصر) أيام السلطان (الكامل)، بدأ الإمبراطور الشاب (فردريك الثاني) التخطيط مع البابا (أونوريوس الثالث) من أجل القيام بحملة صليبية جديدة.

ولكن الإمبراطور (فردريك الثاني) لم يخرج في الميعاد الذي تم تحديده، وأخذ يؤجل الخروج ويؤجل الوفاء الصليبي والذي قطعه على نفسه، حتى تولى البابا (جريجوريوس التاسع) كرسي البابوية للكنيسة الرومانية، فاستخدم سلطته وحقه في الحرمان الكنيسي في حق الإمبراطور (فريدريك الثاني)، فتم حرمانه من رعايا الكنيسة الرومانية.

وعلى الرغم من هذا الحرمان الكنسي صمم الإمبراطور الشاب الخروج إلى الشرق متوجهًا إلى بلاد الشام متزعمًا لحملة صليبية تحت لوائه وقيادته وحده من أجل تحقيق طموحه ومجده الخاص، وإن نُبذ من قبل الكنيسة الرومانية، ولكنه على الرغم من حماسه الشديد من أجل تحرير (القدس) إلا أنه لم يحارب المسلمين !!

وهذا التصرف يدعونا للتساؤل عن سبب قيامه بقيادة الحملة الصليبية، وفي نفس الوقت عزوفه وعدم رغبته في محاربة المسلمين؟ الإجابة بسيطة هي أن الإمبراطور (فريدريك الثاني) ولد وعاش في جزيرة (صقلية)، والتي كانت قبل سقوطها على يد (النورمان) تحت حكم المسلمين، فقد حكم المسلمين جزيرة (صقلية) وجزءًا كبيرًا من (جنوب إيطاليا) حوالي نيف ومائتي وخمسين سنة، منذ عهد دولة (الأغالبة) وعهد الخلافة (الفاطمية) قبل دخول (النورمان) وطرد المسلمين منها، وبالتالي فقد كانت هناك في تلك الفترة بقية أقلية مسلمة في (صقلية)، (فالنورمان) لم يتبعوا مع المسلمين سياسة التنصير الإجباري أو الطرد كما كان يفعل (القشتاليين) مع مسلمي (الأندلس) عندما كانوا يدخلون ويحتلون المدن المسلمة (بإسبانيا) بل أبقوا على المسلمين يستفيدون من علمائهم وعلومهم، بل واستخدموا في فرقهم الحربية النبالة المسلمين لمهارتهم في الرمي بالسهام المسمومة في الحروب ضد أعدائهم، ولهذا فقد احتك الإمبراطور (فريدريك الثاني) بالمسلمين منذ نعومة أظفاره، وخبر عاداتهم وتقاليدهم، وعلم عنهم ما لم يعلمه غيره من ملوك وأمراء أوروبا، لهذا تعاطف معهم وعاملهم معاملة كريمة، وفي نفس الوقت كانت نفسه تنازعه الرغبة في تحرير (القدس) وتخليد اسمه في التاريخ.

وهنا يتدخل القدر وتساعده الظروف، فعندما خرج من (صقلية) كان البيت الأيوبي في حالة تمزق وحرب على السلطنة، فقد كانت الحروب مستمرة ما بين السلطان (الكامل) في (مصر) مع أخيه السلطان (المعظم عيسى) في (دمشق) والملك (الأشرف موسى).

وربما علم السلطان (الكامل) بنوايا أوروبا في إرسال حملة صليبية جديدة، وكانت ظروف الحرب بينه وبين أخيه سلطان (دمشق)، ثم وفاة أخيه وتولي ابنه (الناصر داوود) حاكم (دمشق)، فقام (الكامل) بحركة غريبة !!

***مراسلة السلطان (الكامل) للإمبراطور (فريدريك الثاني):**

ففي سنة (624هـ) راسل السلطان (محمد الكامل) الإمبراطور (فريدريك الثاني) إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وذلك بعد أن رحل أخيه الملك (الأشرف موسى) إلى بلاده من (دمشق) وذلك بعد أن حلف لأخيه الملك (المعظم عيسى) أنه يحالفه ويعاضده ويناصره على أخيه الملك (محمد الكامل) سلطان (مصر)، فلما تأكدت الوحشة بين الإخوة الثلاثة (الأشرف، والمعظم، والكامل)، قام على إثر خوفه على سلطانه وملكه بمراسلة الإمبراطور (فريدريك الثاني)، فأرسل له الأمير (فخر الدين يوسف) ابن شيخ الشيوخ (صدر الدين بن حمويه)[81] يدعوه للقدوم إلى مدينة (عكا)، بل ووعده أن يعطيه بعض

81 - شيخ الشيوخ صدرالدين عبد الرحيم بن إسماعيل بن حمويه: كان رسول السلطان الناصر (صلاح الدين يوسف بن أيوب) وتولى مع سفراته للسلطان مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، وكان لأولاده مكانة كبيرة في عهد السلطان (الكامل) فكانوا كبار دولته وأعيانها، وهم:»فخر الدين يوسف – وعماد الدين عمر – وكمال الدين أحمد –

ما بيد المسلمين من مدن وبلاد الساحل الشامي، وذلك من أجل أن يشغل ويصرف أخيه (المعظم) عن (مصر)، فلما بلغ الملك (المعظم) ما قام به الملك (الكامل) كاتب سلطان الدولة (الخوارزمية) السلطان (جلال الدين خوارزم شاه) يسأله النجدة على أخيه الملك (الكامل)، ووعده أن يخطب له على المنابر، ويضرب اسمه على السكة (العملة)، وهذا يعني انتقال تبعيته من البيت الأيوبي إلى البيت الخوارزمي، وهذا منعطف خطير، وتحول كبير للأحداث السياسية في العالم الإسلامي، فقد كانت الدولة (الخوارزمية) متطلعة لاعتراف شرعي في العالم الإسلامي، ورغبت في تواجدها على الساحة لإثبات وجودها السياسي، وقد وجدت ضالتها في الملك (المعظم)، فأرسل السلطان (جلال الدين) خلعة لبسها، ونزل وسار وهو مرتديها في شوارع (دمشق) كإعلان لخلع الملك (الكامل) وتبعيته الجديدة للدولة (الخوارزمية)، وبالفعل قطع الملك (المعظم) الخطبة في (دمشق) للملك (الكامل)، فعلم (الكامل) في (مصر) بما حصل، فخرج هو أيضًا بعساكره من (القاهرة) حتى نزل (بلبيس) في شهر

ومعين الدين حسام»وأما (فخر الدين يوسف) وهو الذي تولى السفارة بين الملك (الكامل) والإمبراطور (فردريك الثاني) فقد ترك لبس العمامة، ولبس الشربوش والقباء، وهو لباس كبار الدولة من دون العلماء، ونادم السلطان، وكانت إليهم مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، وتدريس المدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعي من القرافة، وتدريس المشهد الحسيني، وقد جمع لهم أيضًا مع كل هذه المناصب قيادة الجيوش، ومباشرة الحروب، وكانت أمهم قد أرضعت السلطان (الكامل)، فهم بذلك إخوة له من الرضاعة – ص (261) – السلوك لمعرفة دول الملوك – أحمد بن علي المقريزي – الجزء الأول (القسم الأول) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1431هـ / 2009م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

رمضان من نفس السنة، فبعث إليه الملك (المعظم) رسالة كان فيها: «إني نذرت لله تعالى أن في كل مرحلة ترحلها لقصدي أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معي، وكتبهم عندي، وأنا آخذك بعسكرك»، فأظهر (الكامل) هذا بين الأمراء ورجع من (العباسة) إلى (قلعة الجبل) وقبض على من شك فيه من الأمراء ومماليك أبيه وذلك بعد تأكده من أنهم كاتبوا الملك (المعظم) وكان منهم (فخر الدين الطنبا الحبيشي) و(فخر الدين الطن الفيومي) وقبض أيضًا على عشرة من أمراء البحرية العادلية، فاعتقلهم وأخذ سائر موجودهم، وأنفق في العسكر ليسير إلى (دمشق) لكي يضمن ولاءهم ولا ينقلبوا عليه عند اللقاء والحرب.

وفي هذا الوقت وصل رسول الإمبراطور (فريدريك الثاني) بهدية سنية وتحف غريبة إلى الملك (الكامل)، وكان فيها عدة خيول منها فرس الإمبراطور نفسه، بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر، فتلقاه الملك (الكامل) بالإقامات من (الإسكندرية) إلى (القاهرة)، وتلقاه بالقرب من (القاهرة) بنفسه، وأكرمه إكرامًا زائدًا، وأنزله دار الوزير (صفي الدين بن شكر)، واهتم (الكامل) بتجهيز هدية سنية إلى الإمبراطور (فريدريك الثاني) فيها من التحف الهندية واليمانية، والعراقية والشامية، ومن مصر وبلاد العجم، ما جاوزت قيمته أضعاف ما أرسله الإمبراطور من هدايا، وكان من ضمن الهدايا (سرج من ذهب)، وفيها (جوهر) قيمته عشرة آلاف دينار مصرية، وقد عين الملك (الكامل) للسير بهذه الهدايا والتحف الأمير (جمال الدين بن منقذ الشيزري).

*قدوم الإمبراطور (فريدريك الثاني) سنة (625هـ):

ولكـن شـاءت الظـروف أن يتـوفى الملـك (المعظـم أبـو الفتـوح عيسى بـن الملـك العـادل) ملـك (دمشـق) في السـنة التـي راسـل فيها الملـك (الكامـل) الإمبراطـور (فريدريـك الثـاني)، وتـولى بعـده ابنـه الملـك (النـاصر داوود)، وأيضًـا كـما حـدث مع أخيـه حدث مـع ولده، فقـد وقعـت الوحشـة بـين الملـك (الكامـل) والملـك (النـاصر) وعـزم (الكامـل) عـلى المسـير إلى (دمشـق) وأخذهـا من ابـن أخيـه (النـاصر)، وخـرج بالفعـل مـن (القاهـرة) وترك عـلى مصر ولـده (الملـك الصالح نجـم الديـن أيـوب) نائبًا عنه يدبر أمور السـلطنة إلى حـين عودته، وكان (النـاصر) شـابًّا لم يتجـاوز عمـره حينـما تـولى سـلطنة (دمشـق) الحادية والعشريـن مـن العمـر، وكان غـرًّا لا حيلـة لديـه لا كعمـه (الكامـل)، فاسـتغل الملـك (الكامـل) هـذا الأمـر وتوجـه إليـه ليأخـذ بلاده.

وفي هـذه الأثنـاء قـدم الإمبراطـور (فريدريـك الثـاني) إلى مدينـة (عـكا) باسـتدعاء (الكامـل) لـه كـما أسـلفنا، فلـما وصـل بعـث برسـوله إلى الملـك (الكامـل) ومعـه رسـالة مفادها: «الملـك يقـول لـك كان الجيـد والمصلحـة للمسـلمين أن يبذلـوا كل شيء، ولا أجـيء إليهـم، والآن فقـد كنتـم بذلتـم لنائبـي - في زمـن حصـار (دميـاط) السـاحل كلـه، وإطـلاق الحقـوق لأهـل الإسـكندرية، ومـا فعلنـا، وقـد فعـل الله لكـم مـا فعـل مـن ظفركـم، وإعادتهـا إليكـم، ومـن نائبـي؟ إن هـو الا أقـل غلـماني، فـلا أقـل مـن إعطائـي مـا كنتـم بذلتمـوه لـه».

فتحير الملك (الكامل) ولم يمكنه دفعه ولا محاربته، فقد كان فعلا بينهما اتفاق ومراسلات، ولا يمكنه إنكارها، وهذا وإن دل على شيء دل على مسارعته في اتخاذ القرار ودون دراسة متعمقة وهوجا واستنجادًا بالفرنج أعداء المسلمين على إخوانهم المسلمين، فما كان من (الكامل) سوى إرسال سفير بينه وبين الإمبراطور والذي كان الأمير (فخر الدين) ابن شيخ الشيوخ، وقام الفرنج بتعمير مدينة (صيدا) والتي كانت تحكم مناصفة بين المسلمين والفرنج، فعمروا سورها المتخرب، وطردوا من بقي في المدينة من المسلمين.[82]

*شروط الاتفاق بين الملك (الكامل) والإمبراطور (فريدريك الثاني):

ولما كثرت السفارات بين الملك (الكامل) والإمبراطور (فريدريك الثاني) والتي كان يقوم بأمر هذه السفارات كل من الأمير (فخر الدين) ابن شيخ الشيوخ، والشريف (شمس الدين الأرموي) قاضي العسكر، تم توقيع الاتفاق بينهما على التالي:

1 –أن تؤخذ (القدس) من المسلمين وترد إلى الفرنجة مع عدد من الأماكن الأخرى، ولكن بشرط أن يبقيها على ما هي من الخراب، ولا يجدد سورها.

---

82 - ص 228وص 229 – السلوك لمعرفة دول الملوك – أحمد بن علي المقريزي – الجزء الأول (القسم الأول) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1430 هـ / 2009م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

2-أن يكـون سـائر قـرى مدينـة (القـدس) للمسـلمين، لا حكـم للفرنـج فيهـا.

3-أن يكـون الحـرم بـما حـواه مـن (مسـجد قبـة الصخـرة) و(المسـجد الأقـصى) في يـد وحكـم المسـلمين، ولا يدخلـه الفرنـج إلا للزيـارة فقـط، ويتـولاه قـوم مـن المسـلمين، ويسـمح للمسـلمين أن يقيمـوا فيـه شـعار الإسـلام مـن الأذان والصـلاة.

4-أن تكـون القـرى التـي فيـما بين (عـكا) وبـين (يافا)، وبـين (لد) وبـين (القـدس) بأيـدي الفرنـج، دون مـا عداها مـن قـرى (القدس).

5-حظـر عـلى الإمبراطـور (فريدريـك الثـاني) أن يمـد يـد العـون أو المسـاعدة للإمـارات الصليبيـة في (الشـام) ضـد السـلطان (محمـد الكامـل).

6-عقـد تحالـف بـين السـلطان (محمـد الكامـل) والإمبراطـور (فريدريـك الثـاني) ضـد أي عـدو مـن القـوى الصليبيـة في المنطقـة.

7-إطلاق جميع الأسرى من كلي الجانبين.

8-ثـم عـاد الإمبراطور (فريدريـك الثاني) وأدخـل في الاتفاق مدينة (تبنـين) وأعمالها، فسـلمها له الملك (محمـد الكامل).»3«

فلـما اتفقـا عـلى هـذ الـشروط عقـدت الهدنـة بينهـما، والتـي كانـت مدتهـا عـشر سـنين، وخمسـة أشـهر، وأربعـين يومًـا، وتبـدأ في الثامـن عـشري مـن شـهر ربيـع الأول مـن سـنة (626هـ/ 1229م)، وقـد اعتـذر الإمبراطـور (فريدريـك الثـاني) للأمـير (فخـر الديـن) بقوله:»بأنـه لـولا يخـاف انكسـار جاهـه، مـا كلـف السـلطان شـيئًا

من ذلك، ما له غرض في (القدس) ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج». وقوله هذا أكبر دليل على أن الإمبراطور لم يكن غرضه الحرب مطلقًا، وإنما كان غرضه اكتساب السمعة الحسنة وتخليد اسمه في التاريخ بإنجاز عظيم، وليس هناك إنجاز أعظم من استرداد (القدس) من المسلمين ورده إلى الفرنج مرة أخرى.

وأما عن موقف السلطان (الكامل) لما تم مواجهته بخطأ فعله وعقده لهذا الاتفاق مع الفرنج، فرد قائلًا: «إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس، وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع» وذلك على اعتبار أنه لم يكن ليسمح بأن يسلم الحرم بما يحتوي على المسجدين (قبة الصخرة، والأقصى) وما حولهما، وأنه قد حافظ بذلك على مقدسات المسلمين وممتلكاتهم، متناسيًا أن أهمية وقدسية المكان ليست في المساجد، وإنما تكمن قدسيتها في الأرض التي تحتويها، ولكنه كان قد تورط ولم يكن له من سبيل إلى الخروج من هذا المأزق إلا بأقل الخسائر، وكانت ضالته في هذا الاتفاق، ولحسن حظه أنه عقده مع الإمبراطور (فريدريك الثاني) والذي امتاز بلين العريكة وجنوحه إلى السلام.

ثم بعث السلطان (الكامل) من نادى في (القدس) بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من (القدس) إلى مخيم (الكامل)، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان (إمعانًا في إحراجه)، فعز عليه ذلك، وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات، وزجرهم، وقيل لهم: «امضوا إلى حيث

شئتم»، فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك (الكامل)، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار.

وبعث الإمبراطور إلى الملك (الكامل) يستأذنه في دخول (القدس)، فأجابه الملك (الكامل) إلى ما طلبه، وسير القاضي (شمس الدين) قاضي (نابلس) في خدمته، فسار معه إلى (المسجد الأقصى)، وطاف معه ما فيه من المزارات، وقد أعجب الإمبراطور (بالمسجد الأقصى) و(بقبة الصخرة)، وصعد درج المنبر، فرأى قسيسًا بيده الإنجيل، وقد قصد دخول (المسجد الأقصى)، فزجره وأنكر مجيئه، وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن ليأخذن ما فيه عينيه، ثم قال:»فإنما نحن مماليك هذا السلطان الملك (الكامل) وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس، على سبيل الإنعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره»فانصرف القس وهو يرعد خوفًا منه، ثم نزل الإمبراطور في دار لكي يبيت فيها، وأمر قاضي (نابلس) (شمس الدين) المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة، فلم يؤذنوا البتة، فلما أصبح الإمبراطور قال للقاضي:»لم لم يؤذن المؤذنون على المنائر؟»فأجابه القاضي:»منعهم المملوك إعظامًا للملك، واحترامًا له»فقال له الإمبراطور:»أخطأت فيما فعلت، والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت (بالقدس) أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل». [83]

---

83 - ص 230 – المصدر السابق.

-ص 200 – السلام الصليبي (الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي الغربي) – توماش ماستناك – ترجمة بشير السباعي – الطبعة الثانية (2009م) – المركز القومي للترجمة (القاهرة).

وبعد أن قام الإمبراطور (فريدريك الثاني) بزيارة كنيسة (القبر المقدس) وأدى الصلاة ولبس التاج في الكنيسة أرسل رسالة إلى ملك (الإنجليز) يقول فيها: «قمنا بوصفنا إمبراطورًا كاثوليكيًّا بلبس التاج الذي قدمه لنا الرب القدير من عرش جلالته، عندما رفعنا بنعمته الخاصة بين أمراء العالم».[84]

وهي رسالة لها مغزاها الواضح، فقد أوضح بها أنه قد قام بواجبه المقدس تجاه الكنيسة وهو تمكنه من استعادة واسترداد (القدس) من المسلمين، ولبسه التاج في كنيسة (القبر المقدس) دليل على شرعية حكمه كإمبراطور للدولة الرومانية المقدسة، وعدم مقدرة الكنيسة الكاثوليكية الممثلة في البابا من حرمانه أو نزع التاج من رأسه.

ثم رحل الإمبراطور (فريدريك الثاني) من (القدس) إلى مدينة (عكا)، ومن (عكا) ركب البحر في أساطيله ومراكبه عائدًا إلى مقر ملكه (بصقلية) في آخر جمادى الآخرة من هذه السنة، وفي نفس الوقت قام السلطان (محمد الكامل) بإرسال (جمال الدين) الكاتب الأشرفي إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة العباسي (ببغداد) الخليفة (المستنصر بالله)، وذلك من أجل تهدئة المسلمين وتسكين قلوب الناس، وتطمين خواطرهم من انزعاجهم من أخذ الفرنج (للقدس).[85]

84- ص 231 – السلوك لمعرفة دول الملوك – أحمد بن علي المقريزي – الجزء الأول (القسم الأول) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1430 هـ/2009م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

85 - ص 202 – السلام الصليبي (الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي الغربي) – توماش ماستناك – ترجمة بشير السباعي – الطبعة الثانية (2009م) – المركز القومي للترجمة (القاهرة).

*موقف المسلمين من توقيع هذه الاتفاقية:

كان العالم الإسلامي بعد عقد هذا الاتفاق بين الملك (الكامل) والإمبراطور (فريدريك الثاني) قد اشتعل من الغضب والغيظ تجاه (الكامل)، فقد كان الموقف محرجًا جدًّا بالنسبة له، حتى أنه تعرض لتأنيب الفقهاء والعلماء والذين كانت لهم مكانة عظيمة في قلوب المسلمين وهيبة كبيرة في قلوب الملوك والسلاطين؛ لما يتمتعون به من احترام العامة، وانتهز الملك (الناصر داوود) الموقف والذي جرده عمه (الكامل) من جميع أملاكه، فقد أعلن الحداد على فقدان (القدس) في محاولة منه لكسب تعاطف المسلمين ضد عمه الذي اغتصب ملكه وحقه الشرعي، ولم يكن لدى الملك (الكامل) من رد على سخط العامة والفقهاء سوى ما أوردناه سابقًا من:»إنا لم نسمح للفرنج إلا بالكنائس وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع»وهو رد كما قلنا سابقًا من ضعف الحجة ما هو ظاهر ولا يحتاج إلى رد، ولكن أحكام السياسة اقتضت من الملك (الكامل) القيام بهذا الاتفاق على الرغم من خطئه، ولكن الظروف المحيطة به أجبرته على ذلك.

*موقف البابا (جويجوريس) والقوى الصليبية من الإمبراطور (فريدريك الثاني):

وبالمثل تعرَّض الإمبراطور (فريدريك الثاني) إلى النقد والسخط، بل وإلى التخوين، وخيانة القضية المقدسة، فقد أدرك الصليبيون في

بـلاد (الشـام) مـدى هشاشـة الاتفـاق، وذلـك أن الإمبراطـور عندمـا عقـد هـذا الاتفـاق لم يـدرج في بنود الاتفـاق حمايـة مدينتـي (طرابلس) و(أنطاكيـة)، ممـا جعلها هدفاً سـهلا لهجمات الأيوبيين في بلاد (الشـام).

وكذلـك نظـر الصليبيـون والكنيسـة إلى هـذا النـصر الـذي حققـه الإمبراطـور (فريدريـك الثـاني) مـن دون حـرب عـلى أنه نـصر مزيف، فقـد كان مـن وجهة نظـر الكنيسـة الرومانيـة والصليبيـين أن (القدس) لابد وأن تسـترد عـن طريق حرب مقدسـة يذبح فيها المسـلمين الوثنين، وليـس عـن طريـق اتفاق سـلمي، ولهـذا قـام البابـا (جويجوريـس) بعد هـذا الاتفاق بإعـلان أن الإمبراطـور (فريدريـك الثاني) مـا زال محرومًا كنسـيًّا، بـل وأبـاح مملكتـه لرعايـا الكنيسـة، ولهـذا رجـع الإمبراطـور مسرعًـا إلى مملكتـه (بصقليـة) لمحاربـة جيوش الكنيسـة البابويـة.[86]

وهكـذا نجـد أن مـا قـام بـه كل مـن الملـك (الكامـل) والإمبراطور (فريدريـك الثـاني) مـن عقـد اتفـاق وهدنـة فيـما بينهـما مـن تسـليم (القـدس) للفرنـج بالإضافـة إلى المـدن السـاحلية التـي نصت عليهـا بنـود الهدنـة والاتفـاق، لم يُحـترم لا مـن جانـب صليبـي (الشـام) ولا

86- ص 232 – السلوك لمعرفة دول الملوك – أحمد بن علي المقريزي – الجزء الأول (القسم الأول) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1430هـ / 2009م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

-ص 125وص 126وص 127 – الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون) – الدكتور السيد الباز العريني – دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

-ص 202 – السلام الصليبي (الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي الغربي) – توماس ماستناك – ترجمة بشير السباعي – الطبعة الثانية (2009م) المركز القومي للترجمة (القاهرة).

مـن مسـلمي (الشـام)، وهـذا سـوف يظهـر بعد ذلـك من قيام سـلطان الدولـة (الخوارزميـة) بإرسـال جيوشـه إلى (الشـام) وقيامهـا بحـرب عظيمـة لا تقـل في عظمتها عـن معركة (حطـين)، فتمكَّنوا من اسـترداد (القـدس) مـرة أخـرى حتـى طردهـم الملـك (الصالـح نجـم الديـن أيـوب) منهـا بعـد ذلـك .

***

حطين الثانية

الخوارزميون يستردون القدس

كان لظهور الدولة (الخوارزمية) على الساحة السياسة في العالم الإسلامي حدث كبير، وقد كان لهم تأثير على الأحداث السياسية، سواء كان سلبيًّا أو إيجابيًّا، المهم أن هذه الدولة الناشئة كانت تبحث عن شرعية لدولتهم، واعتراف رسمي من الخلافة (العباسية) عاصمة الإسلام الروحية في ذلك الوقت، ألا وهي مدينة (بغداد).

وبداية وقبل الكلام عن دورهم في بلاد (الشام)، واستنجاد الملك (المعظم عيسى) لهم أولًا ضد أخيه الملك (الكامل) في (مصر)، ثم وفاة (المعظم) وتولي ابنه الملك من بعده الملك (الناصر داود)، ثم وفاة الملك (الكامل) في (مصر) وتولي الملك من بعده (الصالح نجم الدين أيوب)، وازدياد الخلاف بين أبناء البيت الأيوبي، فقد اشتد النزاع والخلاف بين (الصالح نجم الدين أيوب) وعمه (الصالح إسماعيل) صاحب مدينة (بعلبك) وابن عمه (الناصر داود) وتحالفهما ضده واستعانتهما بالصليبيين، فقد استعان هو الآخر بالدولة (الخوارزمية) والذين لبوا ندائه.

*من هم (الخوارزميين)؟:

كانت بداية (الخوارزمية) أنهم كانوا مماليك لدى (السلاجقة) فقد كان جدهم الأكبر (أنوشتكين / 470هـ - 490 هـ) مملوكًا لأحد أمراء البيت السلجوقي، وكان عالي الهمة متميزًا في عمله، حسن الطريقة، فعلا أمره لدى السلاجقة، فلما تُوفي دخل ابنه (قطب الدين محمد / 490هـ - 521هـ) إمارة (خوارزم) من قبل السلطان (بركيا روق)، ومن هنا عرفوا باسم (الخوارزمية) نسبة لبداية أمرهم في الحكم، وتولى أولى الإمارات، وتلقب (محمد) بلقب (خوارزم شاه)، وكان يتصف بصفات كثيرة حميدة، فقد كان عادلًا كريمًا محبًّا لأهل الدين والعلم، ثم توالت الأحداث وتوالى أمراء هذه الدولة حتى جاء أحد أحفاد (قطب الدين) وهو السلطان (علاء الدين محمد بن تكش / 596هـ - 617هـ) فقد وسَّع أملاك آبائه في بلاد ما وراء النهر و(خراسان) على حساب الدولة (الغورية)، وبعد صراع طويل معهم تمكن من الاستيلاء على أغلب أملاكهم فيما وراء بلاد النهر سنة (611هـ).

*علاقة (علاء الدين محمد) بالخلافة العباسية:

وكما كان شأن (السلاجقة) و(البويهيين) من قبله أراد (علاء الدين محمد بن تكش) أن يحتذي حذوهم، وأن يسيطر على الخليفة العباسي (ببغداد)، وهو الخليفة (الناصر لدين الله / 575هـ - 622هـ)، فطلب من الخليفة ذلك، فرفض الخليفة طلبه، فقطع الخطبة للخليفة العباسي في بلاده، وعزم على التوجه إلى (بغداد) لخلع الخليفة، ونقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي

منادیًا في حق آل (علي بن أبي طالب) في الخلافة، وأن العباسيين اغتصبوا حقهم في خلافة المسلمين، وأتى برجل من العلويين أسماه (علاء الملك الترمذي) وجعله خليفة على المسلمين في بلاد (خوارزم) و(خراسان) وبلاد ما وراء النهر، وجهز جيشًا كبيرًا وتوجه به قاصدًا دار الخلافة العباسية (بغداد)، ولكن عندما وصل إلى مدينة (همذان) بالقرب من مدينة (بغداد) سقط على جيشه أمطار غزيرة وثلج في غير أوانه، فهلك معظم جيشه ودوابه وآلاته، فلم يتمكن من الوصول إلى بغيته في (بغداد)، فعاد أدراجه إلى بلاده (خوارزم) دون أن يصل إلى تحقيق هدفه، ألا وهو السيطرة على العالم الإسلامي من خلال تحكمه في الخليفة العباسي.[87]

وهكذا ظهرت الدولة (الخوارزمية) بمظهر سيء أمام العالم الإسلامي، ولم تتمتع بالشرعية اللازمة والاعتراف بوجودها في مسرح الأحداث السياسية في العالم الإسلامي، وقد وجدت ضالتها عندما استنجد بها السلطان (الصالح نجم الدين أيوب) ضد عمه، وابن أخيه في بلاد (الشام) وبالخصوص في مدينة (دمشق)، وذلك بأن تحالفا ضده وحالفا الصليبيين من أجل الحصول على (مصر) وتدمير سلطان الملك (الصالح نجم الدين).

87 - ص 328وص 329 – الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي – إعداد فريق البحوث والدراسات الإسلامية (فدا) – طبعة (2000م) – مكتبة علاء الدين (الإسكندرية).

*النزاع داخل البيت الأيوبي على السلطنة:

كان النـزاع والتقاتـل بين أبنـاء البيت الأيوبي على العرش والسـلطنة عـلى أشـده، واشـتد أكثـر لمـا تحالـف كلا مـن (الصالـح إسـماعيل) والـذي كان في بدايـة أمـره حاكـمًا عـلى إمـارة (بعلبـك) ثـم ضـم إليـه (دمشـق)، والملـك (المنصـور) صاحـب مدينـة (حمـص) ضـد كل مـن الملـك (الصالـح نجـم الدين أيـوب) في (مـصر) والملك (النـاصر داود) في (الأردن)، وزادوا عـلى تحالفهـم هـذا تحالفًـا قـذرًا، فقـد تحالفـوا مـع الصليبيـين عـلى أن يعطوهـم مدينة (القـدس) كاملة على عكـس ما فعل السـلطان (محمـد الكامـل) مـع الإمبراطـور (فريدريك الثـاني)، والذي أعطاهـم المدينـة فقـط وبأسـوار مخربـة، وحافـظ عـلى الحـرم (الأقصى) كامـلًا في يـد المسـلمين، بـل ووعدهـم الملـك (الصالـح إسـماعيل) إعطاءهـم (الأردن)، ولكـي يثبـت صـدق كلامـه معهـم أعطاهـم (القـدس) و(طبريـة) وأعمالهـما، و(جبـل عاملـة) وسـائر بلاد السـاحل السـوري.[88]

وأمـام هـذه الكارثـة التـي قام بهـا (الصالح إسـماعيل) قامـت قائمة العـالم الإسـلامي في بـلاد (الشـام) و(مـصر)، بـل وصل الأمـر إلى حد تمـرد بعـض قـواد حاميـات القـلاع والحصـون ورفضـت أوامـر الملـك (الصالـح إسـماعيل)، فركـب الملـك بنفسـه وتوجـه إلى هـذه الحاميـات لكـي يؤدبهم ويسـلم الحصـون للصليبيـين، وبعـد أن تسـلم الصليبيون (القـدس) بحرمـه كامـلًا قامـوا بتعمـير قلعتـي (طبريـة) و(عسـقلان)

---

88 - ص 286 – الأيوبيون بعد صلاح الدين والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة – الدكتور علي محمد الصلابي – مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة – الطبعة الأولى (1429هـ / 2008م) – (القاهرة).

وحصونهما، ووعدهم الملك (الصالح إسماعيل) بأكثر من ذلك، فقد وعدهم: «بأنه إذا ملك (مصر) أعطاهم بعضها» فزاد من رغبتهم من محالفته، فكيف لهم بمثل هذه الفرصة مرة أخرى، وإن لم يغتنموها لن تتكرر لهم فرصة أخرى مثلها أبدًا، فقد أتتهم على طبق من ذهب، فتجمعوا وحشدوا العساكر من (الشام) إلى (الغزة)، ودخل الرهبان إلى (مسجد الصخرة) ووضعوا عليها قناني الخمر، ووضعوا الأجراس في داخل (المسجد الأقصى)، وتم إبطال الأذان بالحرم.[89]

*قدوم (الخوارزمية) وتقديم نجدتهم للملك (الصالح نجم الدين أيوب) سنة (642هـ):

وأمام هذه الصعاب، وهذه الخيانة الصريحة لأبناء البيت الأيوبي للقضية وتفريطهم في (القدس) بعد ما أنفق عليها كل من (نور الدين محمود) سلطان الدولة (النورية) ثم السلطان (صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب) والذي أكمل الكفاح والجهاد ضد الصليبيين عمرهما، والذي نجح في تحرير (القدس)، ثم يأتي أبناءه وأحفاده من بعده لكي يضيعوا كل هذا الجهاد والكفاح من أجل شهوة الحكم والسلطان.

وبالتالي لم يكن أمام الملك (الصالح نجم الدين أيوب) سوى الاستنجاد (بالخوارزميين) ضد عمه (الصالح إسماعيل) وابن عمه (الناصر داود) واللذين تحالفا معًا ومعهما الصليبيين ضده، وبعد فشل كل محاولات الصلح بينهم.

89 - ص 322وص 323 – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (813هـ – 874هـ) – الجزء السادس – الطبعة الثانية (1426هـ / 2005م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

عبرت الجيوش (الخوارزمية) نهر (الفرات) وكان قوادهم يسمون (حسام الدين بركه خان) و(خان بردي) و(صاروخان) و(كشلوخان) وعددهم يزيد على العشرة آلاف مقاتل، وقد قسموا أنفسهم إلى فرقتين، فرقة توجهت إلى (بقاع بعلبك)، وفرقة توجهت إلى (غوطة دمشق) وكانوا كلما مروا على مدينة أو قرية أسرفوا في النهب والسلب والقتل والسبي، حتى فر أهالي القرى والبلاد من وجوههم، وتحصن الملك (الصالح إسماعيل) مع جيشه (بدمشق)، ثم توجه (الخوارزمية) إلى (طبرية) فاستولوا عليها بسهولة، ومنها إلى (نابلس) ومنها تقدموا إلى (بيت المقدس)، فبذلوا فيها السيف على من كان فيها من النصارى، وعلى الرغم من قيام قواد فرق (الداوية) و(الاسبتارية) بتعزيز الحمايات والحصون، إلا أن جهودهم ذهبت سدى في أدراج الرياح، فقد جرى عليهم القتل في الشوارع، بل ونبشوا قبور النصارى وأحرقوا رممهم، وهدموا المباني التي في كنيسة (قمامة) وهذا يذكرنا بما فعله الصليبيون بالمسلمين عندما دخلوا القدس أول مرة من القتل الذريع وعدم التفريق بين الكبير والصغير والرجال والنساء، واستنجد النصارى بأمير (أنطاكية) و(طرابلس)، وبملك (قبرص) وبإخوانهم في (عكا)، وبحلفائهم المسلمين في (دمشق) و(الأردن) فلم ينجدهم أحد، وكل ما فعله الملك (الناصر داود) أنه توسط في خروج من يرغب منهم في مغادرة المدينة إلى الساحل، غير أنه لم يصل منهم إلى مدينة (يافا) سوى ثلاثمائة، وكان ذلك في الثاني من شهر صفر سنة (642هـ)، وقد سمى المؤرخون هذا النصر وهذا الفتح باسم (الفتح

الصلاحي النجمي)، وذلك لأنه حدث في عهد الملك (الصالح نجم الدين أيوب).[90]

ثم سار (الخوارزمية) بعد أن حققوا هذا النصر العظيم وأعادوا (القدس) إلى المسلمين، ساروا إلى مدينة (غزة) وأرسلوا إلى الملك (الصالح نجم الدين) يعلمونه بقدومهم وما قاموا به من انتصارات، فأمرهم بالمقام في (غزة) ووعدهم ببلاد (الشام)، وأرسل مع الرسل الخلع والأموال والخيول والأقمشة، وكان حامل الرسالة والخلع إليهم (جمال الدين أقوش النجيبي) و(جمال الدين بن مطروح).

وجهز (الملك الصالح نجم الدين أيوب) عسكره من (القاهرة)، وجعل على مقدمهم (ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي) وهو من مماليكه المقربين، فسار إلى (غزة) وانضم إلى (الخوارزمية) جماعة من (القيمرية) وكانوا قد قدموا معهم من الشرق في حملتهم، وهم طائفة من أكراد قلعة (قيمر) تقع على جبال بين (الموصل) و(خلاط).

---

90 - ص 316 – كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – الجزء الأول (القسم الأول) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1430هـ / 2009م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

* الحرب مرة أخرى بين (الخوارزمية) وتحالف الصليبيين والبيت الأيوبي الخائن:

ولم يسكت الملك (الصالح إسماعيل) عما يحدث من حوله، وزاد غضبه بعد الهزيمة التي حاقت بحلفائه الصليبيين، بل وأحس أن ملكه يُسحب من تحت قدميه، فقام بتجهيز عساكره من (دمشق) ومعه الملك (المنصور) ملك مدينة (حمص) ومعه جيوش الفرنجة لمحاربة جيوش (مصر) و(الخوارزمية)، وساروا إلى مدينة (غزة)، وأتت النجدات إلى الملك (الصالح إسماعيل) من ابن أخيه الملك (الناصر داود) ملك (الكرك)، وكان قائد هذه النجدة هو (الظهير بن سنقر الحلبي) و(الوزيري).

فالتقى الفريقان بظاهر (غزة)، وقد رفع الصليبيون الصلبان على عسكر (دمشق)، وفوق رأس (المنصور) صاحب (حمص)، والقسوس يصلبون بأيديهم، ومعهم أواني الخمر يسقون منها الفرسان، وكان (المنصور) على ميمنة الفرنجة، وعلى ميسرتهم عساكر وجنود (الناصر) صاحب (الكرك)، وكان في قلب الجيش (المنصور) صاحب (حماة)، والتحم الجيشان في موقعة رهيبة انجلى غبارها عن نصر ساحق لجيوش (مصر) و(الخوارزمية)، فانكسر الملك (المنصور)، وفر القائد (الوزيري) وقبض على (الظهير بن سنقر الحلبي) كبير قواد الملك (الناصر) بعد أن جرح، وأحاط (الخوارزمية) بالفرنج فأتوا عليهم قتلًا وأسرًا حتى أفنوهم، فقيل: إن عدد قتلى الفرنج والشام في هذا اليوم زاد على ثلاثين ألفاً، وكانت الغنائم تجل عن الوصف، وهرب (المنصور) إلى (دمشق) في عدد قليل من أتباعه.

وأتت البشارة إلى (القاهرة) فأمر الملك (الصالح نجم الدين أيوب) بتعليق الزينات في (القاهرة) و(مصر) ونواحيها وظواهرها، وقلعتي (الروضة) و(الجبل) وكان ذلك في يوم الخامس عشر من شهر جمادى الأولى، وأتت الأسرى من الفرنج ومعهم رؤوس القتلى إلى (القاهرة)، ومعهم (الظهير بن سنقر) وعدة من الأمراء والأعيان الذين وقعوا في الأسر، وقد أركبوا الفرنج الجمال، ومن معهم من قوادهم على الخيول، وساروا بهم شوارع (القاهرة) إمعانًا في إذلالهم، وعلقت رؤوس القتلى على جميع أبواب (القاهرة)، ووضع الأسرى في السجون.[91]

وهذه كانت النهاية الطبيعية لتحالف الخيانة الذي قاده كل من (الصالح إسماعيل) و(الناصر داود) مع الصليبيين أعداء الدين وأعداء الأمة، فقد نسوا أن أساس شرعيتهم في الحكم هو ما كسبه وحقَّقه جدهم الأكبر (الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب) مؤسس الدولة الأيوبية، والذي قام على أساس متين ألا وهو توحيد الأمة والجهاد ضد الصليبيين، وليس تفريق شمل الأمة والتقاتل على السلطان والملك، لهذا كان الحق والنصر في جانب السلطان الملك (الصالح نجم الدين أيوب) ملك (مصر) والذي استعان (بالخوارزمية) من بلاد ما وراء النهر و(خراسان)، وعلى الرغم من همجيتهم وإسرافهم في القتل والنهب، إلا أنهم في النهاية مسلمون، وبالتالي كانت النتيجة الطبيعة هو النصر لصالح جيش الإيمان ضد جيش الكفر.

---

91 - ص 317 – المصدر السابق.

-ص 289 – الأيوبيون بعد صلاح الدين والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة – الدكتور علي محمد الصلابي – مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة – الطبعة الأولى (1429هـ / 2008م) – (القاهرة).

حلفاء الأمس – أعداء اليوم
طرد الخوارزميين من القدس

كما هي الحال، وكما جرت العادة في هذ العصور، وفي كل عصر، فإن المنتصر من حقه أن يتمتع بمكاسب ومغانم السلم، كما ذاق مغارم وويلات الحرب، وهذا شأن المنتصر دائمًا، وهذا ما حدث بالضبط مع الجيوش (الخوارزمية) التي أتت من بلاد ما وراء النهر بإقليم (خراسان)، فقد نظر قواد الجيش (الخوارزمي) إلى أحوال البيت (الأيوبي) ووجدوا ما هم فيه من تناحر وتحارب فيما بينهم، وأحسوا بقوتهم خصوصًا بعد النصر العظيم الذي كانوا فيه الضلع الأساسي والقوة الهجومية الفتاكة والتي قضت على الجيوش الصليبية، صحيح أن السلطان (الملك الصالح نجم الدين أيوب) أرسل جيشًا كبيرًا من مصر بقيادة قائده (بيبرس الصالحي)، وهذا التحالف قضى على تحالف (الأيوبيين) في بلاد (الشام) مع الصليبيين، ولكن إحساس قواد الجيش (الخوارزمي) بضعف (الأيوبيين) أغراهم بالمكث والبقاء في (فلسطين) وبلاد (الشام)، وربما حدثتهم أنفسهم أن يكونوا سلطنة أو ربما حتى إمارة (خوارزمية) تابعة للسلطنة الأم في (خراسان).

*الحرب مع (الخوارزميين):

بعد انتصار الجيوش المتحالفة (الأيوبية والخوارزمية) ظن (الخوارزميون) أن السلطان (الصالح نجم الدين) سوف يقاسمهم الغنائم، بل وصل تفكيرهم إلى مشاطرة السلطان البلاد، ولكن السلطان علم بنياتهم ولم يجاوزهم بل ومنعهم من دخول (دمشق)، فلما رأوا ممانعة السلطان لهم من دخول المدينة، نزلوا بلاد الساحل من بلاد (الشام) فتغيرت نياتهم على السلطان (الملك الصالح نجم الدين)، واتفقوا على محاربة السلطان، ونزلوا قرية (داريا) ونهبوها وآذوا أهلها، وهي قرية كبيرة بمنطقة (الغوطة) من قرى مدينة (دمشق).[92]

*مراسلة (الخوارزمية) للقائد (الأمير ركن الدين بيبرس):

ثم قام (الخوارزميون) بمراسلة قائد جيش السلطان (الصالح نجم الدين أيوب) والذي كان على مدينة (غزة) ومعه جزء من جيش (مصر) في عدد وعدة جيدة ووافية، فلما رأى(الخوارزمية) ذلك راسلوه طمعًا في إمالته عن السلطان وأخذ جانبهم ومحالفتهم، فكاتبوه وحسنوا له التحالف معهم ضد السلطان بل وزوجوه منهم، فمال إليهم (ركن الدين بيبرس) وتحالف معهم وصاروا يدًا واحدة.

---

92 - ص (322) – كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة – الجزء الأول (القسم الثاني) – الطبعة الثالثة (1430هـ / 2009م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

*مراسلة (الخوارزمية) لصاحب مدينة (الكرك) (الملك الناصر داود):

وأيضًا كاتبوا الملك (الناصر داود) صاحب مدينة (الكرك)، وحسنوا له محالفتهم، فوافق على محالفتهم ونزل بهم ضيفًا وتزوج منهم، ثم عاد إلى (الكرك) وقام بالاستيلاء على أملاك الأمير (حسام الدين بن أبي علي) من مدن (نابلس) و(القدس) و(الخليل) و(بيت جبريل) و(الأغوار).[93]

وخافهم (الملك الصالح إسماعيل)، فكاتب (الخوارزميين) وقدم إليهم وحالفهم ووعدوه النصرة على (الملك الصالح نجم الدين أيوب) فحاصروا مدينة (دمشق)، فقام الأمير (حسام الدين بن أبي على) بتحصين المدينة أحسن تحصين، وقام (الخوارزمية) ومعهم (الصالح إسماعيل) بنهب وتخريب أعمال وقرى (دمشق) وقطعوا عن البلد الميرة، ومات الناس جوعًا وغلت الأقوات وعدمت من الأسواق وباع الناس دورهم ومتاعهم من أجل الخبز واللحم، وأكل الناس بعد ذلك القطط والكلاب والميتة، وعم الوباء والمرض في الناس، فمن لم يمت من الجوع مات من الوباء والمرض، واستمر هذا الحصار وهذا البلاء على أهل المدينة مدة ثلاثة أشهر كاملة، وكان المار من جانب المدينة يشم رائحة الموتى ونتنها لعدم قدرة الناس عن دفن مواتهم.[94]

---

93 - ص (322) – المصدر السابق.

94 - ص (322) – المصدر السابق.

* (الملك الصالح نجم الدين أيوب) وفك التحالف (الخوارزمي) (الأيوبي):

ومع كل هذه المحن والمصاعب التي مرت بها بلاد (الشام) وتهديد التحالف (الخوارزمي) (الأيوبي) ضد سلطان (مصر)، وشعوره بالخطر المحدق بدولته، لكنه لم يفقد صبره، ولم يطرأ لعزيمته الفتور، فأعمل الحيلة، فكاتب صاحب (حمص) (الملك المنصور إبراهيم) ووعده بالوعود الحسنة حتى مال إليه، وكذلك انضم إليه مدينة (حلب)، وبهذا التحالف الذي عقده السلطان (الملك الصالح نجم الدين أيوب) كون جبهة قوية قادرة على مواجهة التحالف (الخوارزمي) (الأيوبي).

*هزيمة الجيوش (الخوارزمية):

وقاد الجيش المصري بنفسه (الملك الصالح نجم الدين أيوب) فخرج من (القاهرة) ونزل (العباسة) وهناك أتته رسل الخليفة وهما (القلك محمد بن وجه السبع) و(جمال الدين عبد الرحمن بن محيي الدين أبي محمد يوسف ابن الجوزي) في آخر شهر شوال، ومعهما التقليد والتشريف الأسود وهو (عمامة سوداء، وجبة وطوق ذهب، وفرس بمركوب بحلية ذهب) فنصب المنبر وصعد عليه (جمال الدين عبد الرحمن محيي الدين بن الجوزي) الرسول من قبل الخليفة العباسي، فقرأ التقليد بالدهليز السلطاني، والسلطان قائم على قدميه حتى انتهى من قراءته للتقليد، وركب السلطان بالتشريف الخليفتي، وكان يومًا مشهودًا بين الناس.

ولما علم (الخوارزمية) بتحالف صاحب (حمص) (الملك المنصور) مع السلطان (الملك الصالح نجم الدين) رحلوا عن (دمشق) وتوجهوا لملاقاته، ففرح أهل (دمشق) برحيل (الخوارزمية) عنهم، ووجدوا الفرج بعد الشدة والراحة بعد المعاناة.

وفي سنة (644هـ) قام (الملك الصالح نجم الدين) بإرسال القاضي (نجم الدين محمد بن سالم النابلسي) والمعروف (بابن قاضي نابلس) إلى الأمير (ركن الدين بيبرس) فما زال القاضي يخدعه ويمنيه حتى استطاع من أن يقنعه بفض تحالفه مع الجيوش (الخوارزمية)، بل وأقنعه بالمجيء معه إلى السلطان (بمصر) وهنا تمكن السلطان (الصالح نجم الدين) من اعتقال مملوكه (ركن الدين بيبرس) وإيداعه في سجن (قلعة الجبل) وكان هذا آخر العهد به.

وفي هذه السنة أيضًا عظمت بلية الأمة (بالخوارزمية) في بلاد (الشام) فكثر نهبهم وقتلهم وسفكهم لدماء الأبرياء، وانتهاكهم للحرمات (فقد كان الخوارزمية طباعهم وأخلاقهم شبيهة بالتتار والمغول)، وعند ذلك تحرك إليهم (الملك المنصور إبراهيم) صاحب مدينة (حمص) ومعه جيشه وعساكر (حلب) وقد انضم إليه الكثير من العرب والتركمان مع (الخوارزميين) نصرة للسلطان (الملك الصالح نجم الدين أيوب) والتقوا بظاهر (حمص) في أول يوم من شهر المحرم وقيل ثانيه سنة (644هـ / 1246م) في معركة عظيمة انتهت بهزيمة جيش (الخوارزميين)

هزيمة نكراء، وقتل قائدهم (بركة خان)، وقطعت رأسه وحملت إلى مدينة (حلب) وأسر الكثير منهم، وتشتتوا ففريق منهم فر إلى الشرق بقيادة القائد (كشلوخان) والتحق (بالتتر)، وفريق توجه إلى (البلقاء) ودخلوا في خدمة (الملك الناصر داود) صاحب مدينة (الكرك) والذي تزوج منهم، وتقوى بهم وأصبحوا من خاصته.

ولما وصلت أنباء النصر إلى (القاهرة) فرح السلطان وأمر بتزيين (مصر والقاهرة والقلعتين).[95]

*قيام السلطان (الملك الصالح نجم الدين أيوب) بزيارة بلاد (الشام):

وبعد هذا النصر العظيم وتبديد شمل (الخوارزميين) وكسر شوكتهم في بلاد (الشام) وتبديد شملهم، قام السلطان (الملك الصالح نجم الدين) بتعزيز هذا النصر المادي بقيامه بزيارة بلاد (الشام)، ولهذه الزيارة أهميتها السياسية، فهي تعزيز لنفوذ السلطان في بلاد (الشام) واعترافًا رسميًّا من قبل أمراء وقواد بلاد (الشام) بسلطان ملك (مصر) عليهم وعلى بلادهم، ففي سنة (645هـ / 1247م) استقبل السلطان (الملك الصالح نجم الدين) في (دمشق) استقبالا مهيبًا حافلًا، ثم توجه إلى مدينة (بعلبك) ومنها إلى مدينة (بصرى) ثم إلى (بيت المقدس)، وقام بتعمير ما تخرب وما تهدم من مباني ومنشآت في كل هذه المدن، بل وأقام عمائر ومباني جديدة في

---

95 - ص (323) و(324) – المصدر السابق.

-ص (246) – الأخبار السنية في الحروب الصليبية – سيد علي الحريري – طبعة (1317هـ /1899م) – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

كل المدن التي خضعت له وخصوصا في مدن (بصرى) و(دمشق) و(صرخد) و(بيت المقدس)، وهي تشهد بعظم نفوذ السلطان وهيبته.[96]

وهكذا تمكن السلطان (الملك الصالح نجم الدين أيوب) من بسط نفوذ (مصر) مرة أخرى على جميع بلاد (الشام) تقريبًا، ومن لم يدخل في طاعته صراحة أعلن تبعيته طواعية، وذلك بعد أن استطاع من القضاء على جيوش (الخوارزميين) والتي حاولت تقطيع أوصال الدولة الأيوبية في بلاد (الشام) وإضعاف الجيوش (الأيوبية) مما جعلها في موقف لا يحسد عليه أمام الجيوش الصليبية، فبدلًا من الدخول في طاعة السلطان رغبوا في أكثر من الغنائم، ورغبوا في اقتسام البلاد والعباد، وهذا ما لم يكن ليسمح به السلطان (نجم الدين أيوب) أبدًا، وهكذا عادت الوحدة من جديد إلى بلاد الإسلام في (مصر) و(الشام) مرة أخرى، ولولا قدوم (التتار) إلى المنطقة لتمكن البيت (الأيوبي) من طرد بقايا الصليبيين من المنطقة، ولكن لله في ذلك حكم.

***

96 - ص (290) – الأيوبيون بعد صلاح الدين والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة – الدكتور علي محمد الصلابي – الطبعة الأولى (1429هـ / 2008م) – مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.

الفصل الرابع

خبايا العصر الأندلسي

مقدمة

في هـذا الفصـل سـوف نتنـاول بعـض القضايـا التاريخيـة المهمـة في تاريـخ الأندلـس الإسـلامي، فقـد شـهدت الأندلـس بعـد سـقوط الخلافـة ((الأمويـة)) منحـى خطـيرًا في الأحـداث، فقـد ظهـر مـا عُـرف بتاريـخ ((ملـوك الطوائـف))، والـذي شـهد صراعًـا بـين ملوك وأمـراء شـبه الجزيـرة عـلى السـلطان والحكـم، واسـتعانتهم بالممالـك الإسـبانية النصرانيـة الصليبيـة عـلى بعضهـم البعـض، ودفعهـم الجزيـة لملـوك ((قشـتالة)) و((ليـون)) و((نفـارا))، وفرضهـم الضرائـب والمكـوس عـلى شـعوبهم، وقـد أدت هـذه السياسـة الخطـيرة مـن هـؤلاء الملـوك إلى ضيـاع ممتلـكات المسـلمين، ولكـن عـلى الرغـم مـن ذلـك فقـد شـهدت الأندلـس حركـة جهـاد مسـتمرة، وحركـة علميـة متطـورة ومتقدمـة بالاسـتمرار.

ولهـذا سـوف أتنـاول بعـض القضايـا الأندلسـية، والتـي تظهـر طبيعـة الحقبـة التـي شـهدتها الأندلـس قبـل سـقوطها، وكذلـك سـوف أذكـر شـخصيات كان لهـا أكـبر الأثـر في التاريـخ الجهـادي والعلمـي في الأندلـس، مبتدئًـا بأحـد أعـلام العلـوم والاختراعـات في

العـصر الأمـوي، وذلـك مـن أجـل تعريـف القـارئ بطبيعـة العلـماء والتطـور العلمـي الـذي كانـت بدايتـه في الأندلـس، والـذي وصـل إلى ذروتـه في عهـد ملـوك وأمـراء الطوائـف.

***

العالم الذي طار بأفكاره

أبو القاسم عباس بن فرناس

عندما يُذكر اسم العالم الكبير (عباس بن فرناس) نتذكر دائما قصة محاولته الفريدة والناجحة في الطيران، ويتبادر إلى الذهن دائمًا من رواسب ما تلقيناه في المناهج الدراسية صورة عباس بن فرناس الذي سقط في محاولته للطيران ليموت وتتكسر عظامه، حتى أن هذه الصورة النمطية السائدة عند أجيال كاملة كانت تسرد في الغالب على سبيل السخرية والتندر، وعلى عكس ما يحاول البعض تشويه صورة هذا العالم الجهبذ، وإشاعة فشله في الطيران، فإن محاولة عباس بن فرناس مسجلة في كل مراجع العالم على أنها أول محاولة بشرية للتحليق الشراعي، ودائمًا ما يتردد في المراجع وفي كتب المؤرخين بأن هذا العالم العبقري المسلم ليس من أصول عربية، بل هو من أصول مغاربية، أو وفقًا للتسمية السائدة (أمازيغي بربري).

اسمه بالكامل هو: «عباس بن فرناس بن ورداس التاكرني»، وكنيته هي (أبو القاسم)، فهو ينتمي إلى إحدى العائلات (المغاربية) التي قدمت من بلاد المغرب استوطنت إقليم (تاكرنا) جهة مدينة (رندة) الأندلسية في عهد الإمارة الأموية.

وقد طلب العلم ونبغ فيه حتى عُرف في الأندلس، ومن توسعه في العلوم وتفوقه فيها لقبه أهل الأندلس بلقب إن دل على شيء دل على سعة علمه، فقد لقب بـ(حكيم الأندلس) أو (حكيم قرطبة)، وذلك لغزارة علمه وتعدد مواهبه العلمية والأدبية، وكان مبدأ ظهوره في عهد الأمير الأموي (الحكم الأول) ثم أصبح من رجالات البلاط أيام الأمير (عبد الرحمن الثاني)، ثم الأمير (محمد الأول) وبالتالي أصبح من رجال الأندلس المهمين ذوي المكانة المرموقة والخاصة عند أمراء (بني أمية) أيام إمارتهم بالأندلس.[97]

97 - وقد ذكر صاحب كتاب (المغرب في حلى المغرب) ترجمة العالم الأندلسي (عباس بن فرناس التاكرني) نقلًا عن (ابن حيان) وقد أحببت أن أوردها لأهميتها وهي كالآتي:
«أنه نجم في عصر (الحكم الربضي) ووصفه بأنه حكيم (الأندلس) الزائد على جماعتهم بكثرة الأدوات، والفنون، وهو مولى (بني أمية) وبيته في برابر (تاكرنا)، وكان فيلسوفًا حاذقًا، وشاعرًا مفلقًا، مع علم التنجيم.
وهو أول من استنبط (بالأندلس) صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من فك بها كتاب العروض الذي وضعه (الخليل)، وكان صاحب (نيرنجات)، كثير الاختراع، والتوليد، واسع الحيل حتى نسب إليه السحر، وعمل الكيمياء (القديمة القائمة على السحر)، وكثر عليه الطعن في دينه، واحتال في تطيير جثمانه، فكسا نفسه بالريش على سرق الحرير (شقق الحرير الأبيض أو الحرير عامة)، فتهيأ له أن استطار في الجو من ناحية (الرصافة) واستقل في الهواء، فحلق فيه على مسافة بعيدة، وقال فيه الشاعر الأندلسي (مؤمن) وكانت بينه وبين (ابن فرناس) عداوة:

يطم على العنقاء في طيرانها ... إذا ما كسا جثمانه ريش قشعم

وتوفي في أعقاب أيام الأمير (محمد بن عبد الرحمن) سنة (أربع وسبعين ومائتين) من الهجرة، فتداول صحبة السلاطين الثلاثة، ومدحهم أجمعين، وعمل المنقانة (الميقاتة)

وكان (أبو القاسم عباس بن فرناس) متعدد المواهب والملكات، فقد ذُكر عنه أنه كان «أديبًا، وموسيقيًّا «يجيد الضرب على آلة (العود)، وكان أيضًا «شاعرًا، وفيلسوفًا «وكان له دراية واسعة بعلمي «الفلك، والتنجيم»، ومن الناحية العلمية كان (ابن فرناس) صاحب اختراعات علمية عديدة، كان لها أثر إيجابي على الحياة العامة بالأندلس، كما أنه نبغ في علم «الكيمياء «ومن اختراعاته العظيمة أنه تمكن من الوصول إلى طريقة جديدة في صناعة الزجاج المستخرج من المواد المعدنية، وأيضًا تمكن من اختراع ساعة أسماها: «الميقاتة «وقد أهداها إلى الأمير (محمد الأول)، وأيضًا صنع بإحدى حجرات منزله «قبة سماوية وجعل بها نجوم وسحب وأوصلها بجهاز يصنع من خلاله البرق والرعد والمطر وكافة الظواهر الطبيعية «في محاولة منه لمحاكاة الطبيعة والتوصل إلى أسرار هذه الظواهر الطبيعية وأسبابه، وهو بذلك يكون قد سبق جميع علماء أوروبا في العصر الحديث والمعاصر في محاولته لكشف أسرار الطبيعة والكون، ودراسته بطريقة علمية صحيحة بعيدة عن الأساطير والخرافات اليونانية والرومانية التي كانت سائدة في زمانه حتى العصور الوسطى.

وقد تمكن (ابن فرناس) بفضل علمه وحكمته وسمعته الطيبة أن يكتسب حب الأمراء الأمويين، ويكون له في بلاطهم حظوة ومكانة

لمعرفة الأوقات، ورفعها للأمير (محمد)، ونشأ بينه وبين الشاعر الأندلسي (مؤمن بن سعيد) مهاجاة، فأفحش الاثنان، ومن قول (ابن فرناس) فيه:

ترى أثر الأعراد في حجر مؤمن ... كآثار قضيب في رماد مغربل

«انتهى – ص (333) – المغرب في حلى المغرب – لأبي علي سعيد بن موسى المغربي الأندلسي – الجزء الأول – حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف – الطبعة الخامسة (2018م) – دار المعارف – (القاهرة).

مرموقـة، وخصوصًـا في أيـام الأمير (هشـام بـن الحكم)، والـذي عرف بـ(هشـام الأول)، فقـد ذكر المـؤرخ الأندلسي المعروف (لسـان الدين بن الخطيـب) في كتابـه (أعمال الأعـلام) ما نصـه: «وذكروا أنه سـأل منجم زمانـه (يقصـد الأمـير هشـام الأول)، وأظنـه (العباس بن فرنـاس) عن مقـدار أيـام دولتـه (يقصد عمره) فاسـتعفاه مـن ذلك، فلـم يفعل وعزم عليـه، فقـال لـه بعـد نظـر: «إن صحـت دعـوى هـذه الصناعـة، فإنـك تبقـى في الولاية سـبع سـنين وكـذا، فأطـرق وبكـى، وقال: حسـبي الله ! فـوالله لـو كانـت سـجدة لله لكانـت قليلـة قصـيرة !! «وحـرف وجهه إلى الاجتهـاد والجهـاد – رحمـة الله عليـه ورضوانه –»وكانت مدته سـبع سنين وأشـهرًا «.[98]

وعـلى الرغـم مـن أن البعـض يشـكِّك في أن يكـون صاحـب هـذه الوقعـة هـو العـالم (عبـاس بـن فرنـاس) ويقـول إنهـا كانت بـين الأمير (هشـام الأول) والعـالم (الضبـي) فقـد كان هـو الآخـر معـاصرًا لهـذه الفـترة، والتـي كانـت مليئـة بالعلـماء وانتشـار العلـم وازدهـاره في الأندلـس، ولكـن يُفهـم مـن هـذه القصة التـي ذكرهـا (ابـن الخطيب) أن شـهرة (عبـاس بـن فرنـاس) قـد مـلأت أرض الأندلس كلهـا، حتى أصبـح (منجـم الأمـراء) إن صـح اسـتخدام هـذا التعبـير.

وكان (ابـن فرنـاس) صاحـب عقليـة علميـة ورياضيـة فـذة، مكَّنته مـن التفكير في بعـض الأفـكار، والتي اعتبرت أفـكارًا مجنونـة في زمانه، فقـد فكَّـر في أولى المحـاولات الفعليـة للطـيران والتحليـق في السـماء

98 - ص (14) – كتاب تاريخ إسبانيا الإسلامية (كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام) – لذي الوزارتين (لسان الدين ابن الخطيب السلماني) – تحقيق وتعليق إزليفي بروفنسال – طبعة (1432هـ / 2011م) مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة).

كالطيـور، فقد رغـب في التحليق في السـماء والتنقل والطـيران من مكان إلى آخر دون الاسـتعانة أو الحاجة إلى اسـتخدام الخيول أو الجمال، والتي تسـتغرق وقتًـا طويـلًا في السـفر وقطـع المسـافات بـين المـدن والبـلاد، فكيـف قـام بهـذه التجربة، وكيـف انتهـت، ومحاولة تشـويها؟

*محاكمة (عباس بن فرناس) واتهامه بالكفر:

وشـأن كل عظيـم، فقـد كـره مـن حـول البـلاط الأمـوي أن يكـون لـ(عبـاس بـن فرنـاس) هـذه المكانـة الرفيعـة، وسـماع الكلمة، فـكاد له حسـاده المكائـد الواحـدة تلـو الأخـرى حتـى تمكنـوا مـن الإيقـاع بـه مـن خـلال اتهامـه بالزندقـة والكفر، فقـد كان مـن المعـروف أن كل من تعاطـى كتـب الفلاسـفة وكلامهم اتهم عنـد الفقهـاء بالزندقـة والكفر، وكان (عبـاس بـن فرنـاس) عـالم بالفلسـفة، فوجـد أعـداؤه ضالتهم في هـذه الحجـة فاتهمـوه بالكفـر، وقـدم إلى المحاكمـة فعـلًا، فقـد كانـت تجاربـه شـديدة الغرابـة وبحوثـه واختراعاته العديـدة شـديدة العجب، وأخـيرًا محاولتـه للطـيران، كل ذلـك جعل أعـداؤه وخاصة مـن الفقهاء يعتقـدون أنه يسـتعين بالجـن والشـياطين، فاعتُقـل وقـدم إلى المحاكمة.

وعقـدت المحاكمـة في مسـجد (قرطبـة) الجامـع أمـام القـاضي (سـليمان بـن الأسـود الغافقـي)، وأتـى أعـداؤه بشـهود زور لكـي يثبتـوا عليـه التهمـة، فـكان القـاضي يسـأل أحدهـم عـن دليلـه عـن زندقـة وكفـر عالمنـا (عبـاس بـن فرنـاس) فيقـول: «سـمعت (ابـن فرنـاس) يقـول: «مفاعيـل مفاعيـل «وآخـر يقـول: «رأيـت الـدم تفـور مـن قنـاة داره ليلـة ينـير ««، فلـم يأخـذ القـاضي (سـليمان بـن الأسـود) بهـذا الـكلام الأحمـق، وعلـم أن الأمـر فيـه مكيـدة، وعلـى

الرغم من أن هذا القاضي كان معروفًا بصرامته الشديدة، إلا أنه كان يتمتع بذهن مستنير، فلم يأخذ بكلام شهود الزور، وحكم ببراءة (عباس بن فرناس) بعد أن كاد يُحكم عليه بالموت، أو على أحسن الظروف بالنفي أو السجن المؤبد.[99]

*(عباس بن فرناس) ومحاولة طيرانه بين الحقيقة والتشويه، ومحاولة سرقتها:

وتقول القصة التي ذكرت محاولة (عباس بن فرناس) للطيران والتحليق في السماء:

« أن (أبا القاسم عباس بن فرناس) احتال (بقرطبة) (رصافة قرطبة بالتحديد) في تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش، ومد لنفسه جناحين على وزن معلوم وتقدير قدَّره، فتهيأ له أن استطار في الجو من (الرصافة) وهي على مسافة ستة أميال من (قرطبة)، واستعلى في الهواء فحلّق فيه حتى وقع من مكان مطاره على مسافة بعيدة، وساء على ذلك موقعه لما تأذى من عجب ذنبه (أسفل ظهره)، إذ لم يحسن الاحتيال في وقوعه ولم يقدر أن الطائر إنما يقع على زمكاه (أسفله) فلَهَا عن ذلك، وقد كان أفزع من عاين مطاره من أهل (قرطبة) فكثر تحدثهم عما عاينوه منه ولا يعلمون شأنه «.[100]

---

99 - ص (269) وص (270) – تراجم إسلامية – د. محمد عبد الله عنان – طبعة (2000م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – (القاهرة).

100 - ص (132) وص (133) – الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة – ابن السماك العاملي المالقي الغرناطي – دراسة وتحقيق د. محمود علي مكي – الطبعة الأولى (1424هـ / 2004م) – مكتبة الثقافة الدينية – (القاهرة).

والـذي نفهمـه مـن هـذه القصـة أن محاولـة (عبـاس بـن فرنـاس) للطـيران قـد نجحـت بالفعـل، وأنـه تمكـن مـن الطـيران والتحليـق في السـماء حـوالي مسـافة سـتة أميـال كاملـة، وبذلـك يكـون قـد سـبق الأخويـن (رايـت) في الطـيران، وأيضًـا يكـون (عبـاس بـن فرنـاس) أول مـن اخـترع طريقـة (الطـيران الشراعـي الحديـث)، وعـلى الرغـم مـن سـقوطه وتأذيـه مـن جـراء هبوطـه غـير الموفـق، وقـد أرجـع سـبب سـقوطه بشـكل خاطـئ هـو نسيانه إلى وضـع (عجـب الذنب) مثـل الـذي تملكـه الطيـور في مؤخرتهـا والـذي يسـاعدها في الهبـوط عـلى الأرض بنجـاح، ممـا أفقـده اتزانـه في أثنـاء تحليقـه، وعنـد محاولتـه للهبـوط، فكانـت نتيجـة ذلـك سـقوطه وتأذيـه في أسـفل ظهـره، ويقـال أنـه لم يسـقط عـلى الأرض مبـاشرة وإنـما سـقط في نهـر يحيـط بالتـل، المهـم أن سـبب سـقوطه كان عيبًـا بسـيطًا يمكـن تفاديـه وإصلاحـه في المحـاولات المسـتقبلية، والـذي لا أعلمـه لمـاذا أحجـم عالمنـا مـن تكـرار هـذه المحاولـة مـرة أخـرى؟

ولعـل الـذي منعـه هـو خـوف وصمـه بالجنـون، أو اسـتهزاء النـاس وأعدائـه منـه، فقـط كان الرجـل مكروهًـا مـن بعـض النـاس بسـبب علمـه وابتكاراتـه الكثـيرة، بالإضافـة إلى قربـه وحظوتـه مـن بـلاط الأمـراء الأمويـين، وربـما يكـون المانـع هـو وفاتـه قبـل أن يكـرر المحاولـة مـرة أخـرى، فقـد كان عازمًـا بالفعـل عـلى الطـيران مـرة أخـرى والنجـاح هـذه المـرة متداركًـا خطـأه السـابق، ويـا ليتـه فعـل فيكـون للمسـلمين قصـب السـبق في الطـيران ولربـما نكـون أول مـن يصنـع الطائـرات ويطـير بهـا في السـماء، فكانـت هـذه محاولـة طـيران (ابـن فرنـاس) ونتائجهـا، والآن نتكلـم عـلى محاولـة تشـويه وسرقـة هـذه المحاولـة الناجحـة للطـيران.

(صورة متخيلة للعالم عباس بن فرناس وهو يطير كالطائر بجناحين)

*سرقة وتشويه محاولة (عباس بن فرانس) للطيران:

وقد حاول أحد معاصري (عباس بن فرناس) السخرية من محاولته للطيران والاستخفاف بها، وهو الشاعر (مؤمن بن سعيد القيسي) فقد سخر من عالمنا من خلال أبيات شعر ذكره في بيت منها، وهو:

يطم على العنقاء في طيرانها   إذا ما كسا جثمانه ريش قشعم

يعـرض بـه وبمحاولـة طيرانه التـي اعتبرها فاشـلة واسـتهزأ به، فقد كانـت الغـيرة والحسـد تأكلانـه مـن ناحيـة العـالم (عبـاس بـن فرنـاس) لقربـه وحظوتـه من قـصر الإمـارة الأموية، وهـو لا يتمتع بنفـس القدر من تلـك المكانـة المرموقة.

وأمـا محاولـة سرقـة هـذه القصـة ونسـبتها إلى غـيره، فهـي ترجع إلى الإسـبان الذيـن حالـوا سرقـة هـذه المحاولـة، وأن ينسـبوا هـذا العمـل العظيـم لأنفسـهم ولأبنـاء جنسـهم، فقـد ظهرت هـذه القصـة في آداب وأشـعار شـعراء الإسـبان (التروبـادور)، ومـن أمثـال هـؤلاء الشـعراء والأدبـاء، الشـاعر والأديـب (أوجسـتين دي روخـاس 1572م – 1618م) فقـد ذكـر قصـة ظريفـة ومشـابه لقصة (عبـاس ابـن فرنـاس) في الطـيران مفادهـا:

«في أثنـاء أحـد الاحتفـالات الدينيـة بمدينـة (بلنسـية)، وكان العـرض الدينـي يمـر متتابعًـا في مهابـة عظيمـة وأن يظهر هـذا العرض شيء ضخـم عـلى هيئـة نـسر عظيـم يفـرد جناحيـه الكبيرين ويتوسـطه رجـل، ويحيـط بهـذا الرجـل أو النـسر العظيـم بعـض التماثيـل عـلى أشـكال مختلفـة، ومـن بينهـما ظهـر صبيـان صغـيران بملابـس خاصـة عـلى صـورة الملائكـة، وكانـا جميـلي الصـورة بأجنحتهـما المزركشـة.

وكان ضمـن هـذا العـرض الدينـي أحـد المزارعـين والـذي أعجبـه شـكل النـسر العظيـم، فدفعـه ذلـك إلى التفكـير في محاولـة الطـيران، وفي أحـد الأيـام وهـو ذاهـب إلى حقلـه مـع ابنـه حمـل معـه جناحـين عظيمـين كان قـد أعدهمـا لهـذا الغـرض، وقـام بـشرح فكرتـه لابنـه وأخـبره أنـه يـود خـوض هـذه التجربـة والقيـام بهـا ظهـر هـذا اليـوم

في ساعة الراحة، وعندما يحين الوقت للقيام بهذه التجربة عليه أن يساعده في تثبيت الجناحين.

وبالفعل عند موعد ساعة الراحة وفي الوقت المحدد نفذ الابن طلب أبيه، وصعد الأب على قمة تل قريب حيث أخذ يحرك ذراعيه ويضرب الهواء بجناحيه لكي يطير، ولما أعيته الحيلة جعل ابنه يدفعه من خلفه بقوة، فقام الابن بدفع أبيه من الخلف كما طلب منه، والأب يضرب بجناحيه في الهواء حتى تمكن أخيرًا من التحليق والطيران، ولكنه بدلًا من أن يصعد في الهواء إلى أعلى سقط مباشرة في نهر صغير يحيط بهذا التل الذي طار من فوقه، وأصيب الأب العجوز من هذه السقطة الشديدة في ذراعيه وفخذيه ورأسه، وأسرع الابن لنجدة أبيه وهو يطلب المساعدة من بعض الناس القريبين من المكان، فحملوه إلى منزله، وأخذ يعالج من آثار هذه السقطة المؤلمة والمروعة لمدة خمسة أسابيع حتى شُفي تمامًا، وأكد أنه لولا أنه نسي الذيل لكان طار إلى مسافة أطول، وأكد أنه سوف يكرر المحاولة».(101)

وهكذا نرى مدى التشابه الكبير والواضح بين القصتين الإسلامية والإسبانية، بل محاولة سرقة فاضحة لأول محاولة طيران حقيقية يقوم بها عالم مسلم ونسبتها إلى غيره، متناسين أن هذه القصة مذكورة ومدونة في كتب المؤرخين المسلمين الأوائل.

101 - ص (275) إلى ص (281) – دور العرب في بلاد المغرب والأندلس – أ.د. أحمد إبراهيم الشعراوي – الطبعة الأولى (2015م) – الهيئة العامة المصرية للكتاب (القاهرة).

مجاهد العامري - فارس ملوك الطوائف

كان لسقوط الخلافة (الأموية) بالأندلس سنة (422هـ / 1031م) أثره على جميع النواحي في شبه الجزيرة الأيبيرية، فقد انتهى وجود البيت (الأموي) سياسيًّا وأصبحوا من عامة الناس بعد أن كانوا ملوكًا وأمراء، كذلك ظهرت على الساحة العصبيات العرقية والقبلية فكان إيذانًا بظهور عصر جديد، وهو الذي عُرف في التاريخ الأندلسي بعصر (ملوك الطوائف) وهو اسم له دلالته الواضحة، فقد قفز في كل ثغر وكل مدينة كل طامع في الحكم والسلطة، وكان غالبيتهم من قواد الجيوش وقضاة المدينة، والتف حوله أهله من قبيلته وعصبته، فتكونت إمارات على أساس العصبية لا على أساس العدل في الحكم، والذي جعل الأمر يزداد سوءًا على سوء، أن ملوك الطوائف هؤلاء تحاربوا فيما بينهم على توسيع رقعة أراضيهم وبلادهم، وفي المقابل متناسين الخطر المحيط والمتربص بهم، وأقصد به القوى الصليبية المتواجدة في شمال (الأندلس) وهي ممالك (قشتالة) و(نافار) و(ليون) و(قطلونية)، والتي بدأت بحروب الاسترداد، والتي كان هدفها الرئيسي ليس استرداد الأرض فقط، ولكن مسح الوجود الإسلامي بالكلية من خلال الإبادة بالمعنى الحرفي للمسلمين

(وهـو الـذي حاولـوا فعلـه كل مـن الملكـين إيزابيـلا وفيردنانـدو، وذلـك بعـد سـقوط آخـر ممالـك المسـلمين مملكـة (غرناطـة)، وإقامـة مـا عُـرف باسـم محاكـم التفتيـش).

ولكـن وعـلى الرغـم مـن قتامـة الصـورة في (الأندلـس)، إلا أن فـترة (ملـوك الطوائـف) تعتـبر مـن أكثـر الفـترات خصوبـة في التاريخ الإسـلامي، وذلـك لمـا تجمـع مـن تناقـض غريـب وعجيـب، فقـد بينـا حالهـم فيما بينهم، وقد وصفهم الشـاعر (القيرواني) والذي يسـمى (ابن رشـيق) وذلـك لما دعـاه أحد أصحابـه إلى المجيء إلى (الأندلـس) وتركه لمدينتـه (القـيروان) في (إفريقيـة)، فأجابـه ببيتـين من الشـعر قـال فيهما:

مما يزهدني في أرض أندلـــس

سمـــاع مقتـــدر فيهـــا ومعتضـــــــد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد.[102]

ومـما زاد الأمـر سـوءًا توقـف حركـة الجهـاد ضـد العـدو المشـترك لهـؤلاء الملـوك، ودفعهـم للجزيـة لملـوك النصـارى، وذلـك حتـى يتركوهـم دون أن يحاولـوا أن ينتزعـوا منهـم ممالكهـم، وبالتـالي قامـوا بفـرض الضرائـب الباهظـة والتـي أرهقـت شـعوبهم مـن أجـل توفـير هـذه الجزيـة في موعدهـا السـنوي والمحـدد مـن قبل ملـوك (قشـتالة)، ولم يتركـوا شـعوبهم في حريـة أو بحبوحـة مـن العيـش، بـل حكموهـم بالحديـد والنـار، حتـى مـل أهـل (الأندلـس) حياتهـم وكرهوهـا.

---

102 - ص (66) – ديوان ابن رشيق القيرواني – شرح د. صلاح الدين الهواري، وهدى عودة – الطبعة الأولى (1416هـ / 1996م) – دار الجيل (بيروت).

ودائـمًا لابـد وأن يكـون هنـاك اسـتثناء للقاعـدة، فقـد وجـد في هـذه الفـترة الأولى مـن عـصر (ملـوك الطوائـف) حالـة شـذَّت عـن حـال باقـي ملـوك وأمـراء الطوائـف، وأقصـد بـه الأمـير المجاهـد (أبا الجيـش مجاهـد العامـري) حاكـم مدينـة (دانيـة) والجزائـر الشرقيـة والمعروفـة بـ(جـزر البليـار) عـلى البحـر المتوسـط، والـذي تمكَّـن مـن الاسـتقلال بهـذه الإمـارة سـنة (400 هـ/ 1010م) أي: قبـل السـقوط النهائـي للخلافـة الأمويـة بحـوالي اثنـين وعشريـن عامًـا.

فمـن الأمـير (مجاهـد العامـري)؟ وما جهـوده في الجهـاد وخصوصًا الجهـاد البحـري، ومحاولتـه إحيـاء الخلافـة الأمويـة مرة أخـرى وجعل عاصمـة الخلافـة إمارتـه (دانية)؟

*أصل (مجاهد العامري) واسمه:

أمـا اسـمه فهـو (مجاهـد بـن عبـد الله العامـري أبـو الجيش الموفق)، وأمـا عـن أصلـه فهـو (صقلبـي)، وهـم جنـس مـن سـبي الشـعوب (السـلافية) الآتيـة والوافـدة إلى بـلاد (الأندلـس)، سـواء كانـوا رجالًا أو نسـاء، فكانـوا يؤخـذون صغـارًا ويربـون عـلى المبادئ والأخـلاق الإسـلامية، ومنهـم مـن ترقـوا في الخدمة حتـى وصلوا إلى أعـلى المراتب في الخلافـة (الأمويـة).

والـذي كان مـن بينهـم (مجاهـد العامـري) والـذي نسـب كـما هـو واضـح إلى (بنـي عامـر) الذيـن حكمـوا باسـم الخليفـة (هشـام المؤيـد)، فقـد كان (مجاهـد) مـن مـوالي (عبـد الرحمـن النـاصر ابـن المنصـور محمـد ابـن أبي عامـر) ولهـذا لقـب (بالعامـري) وقـد نشـأ وتربـى في مدينـة (قرطبـة) عاصمـة الخلافـة وحاضرتهـا، وقـد

نشأ محبًّا للعلوم وطلب العلم، فقد عرف عنه بسعة العلم والاطلاع، فقد كان عالمًا باللغة العربية وعلومها، وكذلك علوم القرآن وقراءاته ومعانيه وغريب القرآن والتفسير، بل وقد جعل من بلاطه بعد ذلك في إمارته (دانية) محط أنظار العلماء والأدباء أشهرهم (أبي عمرو المقرئ) و(ابن عبد البر) الفقيه المالكي المعروف، وكذلك (ابن سيده)، وقد انتشر العلم في أرجاء دولته وبين غلمانه وجواريه، حتى عرفوا بالعلم وحب والنباهة فيه.

*محبة (مجاهد العامري) للعلم وللعلماء:

وكان (مجاهد العامري) محبًّا للعلماء، محسنًا لهم، كثير التولع بالمقرئين للكتاب العزيز حتى عرف بذلك ببلده (دانية)، وقصد من كل مكان، وشكر في كل الأقطار بكل لسان، وقد أثنى عليه العالم الكبير (ابن حيان) مؤرخ (الأندلس) في كتابه (المتين) بهذا الشأن، وأيضًا أصبح قبلة الشعراء، فقد وفد عليه عدد منهم مثل (إدريس بن اليمان)، وجلة من العلماء مثل (ابن سيده).[103]

1. (مجاهد العامري) و(أبو غالب):

هو (تمام بن غالب) المعروف (بابن التياني) وهو من الأعلام المشهورين في علم اللغة، انتقل من مدينة (قرطبة) إلى (مرسية) وبث علمه هناك، وكان للأمير (مجاهد) معه موقف عجيب وطريف، فقد صنف (أبو غالب) كتابًا في اللغة وقد وقف عليه (مجاهد العامري)

---

103 - ص (401) – المغرب في حلى المغرب – الجزء الثاني – لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت 685هـ) – حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف – الطبعة الخامسة (2018م) – دار المعارف – (القاهرة).

فأعجبه، فبعث إليه بألف دينار، وكسوة، وذلك على أن يزيد في مقدمة كتابه هذا أنه قد صنفه مطرزًا باسم (مجاهد)، فقال (أبو غالب) عندئذ: «كتاب صنفته لله، ولطلبة العلم، أصرفه إلى اسم ملك، هذا والله ما لا يكون أبدًا» وصرف إلى (مجاهد) الألف دينار، والكسوة، فزاد في عين (مجاهد) وعظم في صدور الناس، وقد أطنب (الحجاوي) بسبب هذه القصة في شكر العالم، والملك، وقال: «هكذا ينبغي أن تكون الملوك، وكذا يجب أن تكون العلماء».[104]

2. العالم (ابن الصفار أبو القاسم):

هو (أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر) والمعروف (بابن الصفار)، كان متحققًا بعلم العدد والهندسة والنجوم، وقعد في (قرطبة) لتعليم ذلك، وله زيج مختصر على مذهب (السند هند)، وله كتاب في العمل بالأسطرلاب موجز حسن العبارة قريب المأخذ، وخرج من (قرطبة) بعد مضي صدر من الفتنة واستقر بمدينة (دانية) قاعدة الأمير (مجاهد العامري)، وتوفي بها رحمه الله.[105]

3. العالم الطبيب (أبو مروان بن زهر):

هو (أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه محمد بن مروان بن زهر الأشبيلي)، رحل إلى المشرق، ودخل مدينة (القيروان) و(مصر) وتطبب هناك زمانًا طويلًا، ثم رجع إلى (الأندلس) واستوطن مدينة

---

104 - ص (166) – الجزء الأول – المصدر السابق.

105 - ص (91) وص (92) – طبقات الأمم – القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت 462هـ / 1070م) – تحقيق وتعليق دكتور حسين مؤنس – الطبعة الثالثة (2019م) – دار المعارف – (القاهرة).

(دانيـة)، وهنـاك اسـتقبله (الموفـق مجاهـد العامـري) وأكرمـه إكرامًـا كثـيرًا، وأمـره أن يقيـم عنـده، ففعـل (أبـو مـروان) وحظـي في أيامـه.

واشـتهر (أبـو مـروان بن زهـر) بآراء شـاذة في الطب منها على سـبيل المثال:

«منعـه مـن تناول طـير الحـمام، واعتقاده أنه يعفن الأجسـام، ويفسـد تركيـب الأمزجـة»، وهـذا رأي خالـف فيـه الأوائل والأواخر، ويشـهد بخطئه العوام والخـواص.[106]

*كتاب الملك (مجاهد):

فقـد اعتنـى (مجاهـد العامري) باختيـار رجـال دولته، فقـد اختارهم مـن الكتـاب المجيديـن، والمعـروف عنهـم النبـوغ والنباهـة، والمعرفـة بفنـون الكتابـة، وأيضًـا بالعلـوم الدينيـة، وأهمهـم هم:

1. (أحمد بن رشيق أبو العباس) الكاتب:

وكان والي جزيـرة (ميورقـة) مـن قبـل (مجاهـد)، فقـد كان أبـوه مـن مـوالي (بنـي شـهيد) ونشـأ بمدينـة (مرسـية) وانتقـل إلى (قرطبة)، وطلـب الأدب فـبرز فيـه، وبـرع في صناعة الرسـائل، مع حسـن الخط، ولـه مشـاركة في كافـة العلـوم، ومـال إلى طلـب الفقـه والحديـث، وبلغ مـن الدنيـا أرفـع منزلـة، وقدمـه الأمير (أبـو الجيش مجاهد بـن عبد الله العامـري) عـلى كل رجـال دولتـه، وولاه جزيـرة (ميورقة)، فـكان ينظر فيهـا نظـر العـدل والسياسـة، واشـتغل بالفقـه والحديـث، وكان يجمـع العلـماء والصالحـين ويؤثرهم، ويصلح الأمـور جهده، وقـد آوى الفقيه

---

106 - ص (106) – المصدر السابق.

(أبـا محمـد علي بـن حـزم) حـين نمـي عليـه (بقرطبـة) وغيرهـا مخالفته لمذهـب الإمـام (مالـك)، وقد تناظـر بين يديه هـو والقاضي (أبـو الوليد الباجي). [107]

2. الكاتب (أبو بكر محمد بن قاسم أشكهباط):

وأصلـه مـن (وادي الحجـارة) ونشـأ بمدينـة (قرطبـة) وسـاد فيهـا، وارتحـل منهـا زمـن الفتنة إلى بـلاد المشرق، فنـزل (العراق) ومـر بمدينة (حلـب) ومنهـا مـر (بدمشـق)، ثم رجـع مرة أخـرى إلى موطنـه وبلاده (الأندلـس)، ونـزل عـلى حـضرة (مجاهـد) في مملكتـه (دانية)، وله شـعر حسـن، وأحسـنه مـا قاله في مـدح (مجاهـد العامـري) فقال:

وكــم قد لقيت الجهد قبل مجــاهد

وكم أبصرت عيني وكم سمعت أذني

ولاقيت من دهري صروف خطوبه

كما جــرت النكباء في معطف الغصن

فلا تســألوني عــن فــراق جهنـم

ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن[108]

---

107 - ص(128) – الحلة السيراء – لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي والمعروف بابن الأبار– الجزء الثاني – حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس – الطبعة الثالثة (2013م) – دار المعاف – (القاهرة).

108 - ص (128) – الحلة السيراء – لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي والمعروف بابن الأبار– الجزء الثاني – حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس – الطبعة الثالثة (2013م) – دار المعارف – (القاهرة).

3. اللغوي (أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأعمى):

وكان أشد العلماء في اللغة (بالأندلس)، فلم يُر من هو أشد اعتناء منه باللغة في الجزيرة كلها، ولا أعظم تواليف منه، وكان من مدينة (مرسية)، وقد ذكره (الحميدي) أنه من ضمن العلماء الذين دخلوا في خدمة الملك (الموفق أبي الجيش مجاهد العامري) ملك (دانية).[109]

4. الكاتب (أبو عامر أحمد بن غرسية):

وكان من كتاب (مجاهد العامري)، وهو من أبناء النصارى من بلاد (البشكنس)، سُبي صغيرًا وأدبه (مجاهد) والذي أصبح مولاه، وكان (أحمد بن غرسية) من عجائب دهره، وغرائب عصره في فن الكتابة والتأليف.[110]

هذه كانت صفات (مجاهد العامري) وخلاله الرفيعة في حبه للعلم، وحبه للعلماء، وهي تعبر عن مدى الأخلاق الرفيعة التي تأدب بها (مجاهد) من حبه لأهل الأدب والعلم، حتى أنه جعل منهم ولاته، وكتابه وندماءه وجلساءه.

*مصاهرة ملوك الجزيرة للملك (مجاهد العامري):

ولعظيم مكانة الملك (مجاهد العامري) بين ملوك (الأندلس) رغب الملوك في مصاهرته، فقد شاع في الجزيرة جمال بناته وحسنهن، وحسن تأدبهن، ولهذا فقد رغب الملوك في الزواج منهن، **ومن هؤلاء الملوك:**

109 - ص (31) وص (32) – المغرب في حلى المغرب – الجزء الثاني – أبي سعيد علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت 685هـ) – حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف – الطبعة الخامسة (2018م) – دار المعارف – (القاهرة).

110 - ص (259) – الجزء الثاني – المصدر السابق.

***ملك (إشبيلية) (المعتضد عباد):**

فقد صاهر (المعتضد) ملك مملكة (إشبيلية) الملك (الموفق أبا الجيش مجاهد العامري) وهي أخت ولي العهد والذي أصبح ملك (دانية) بعد أبيه (علي إقبال الدولة)، وكانت أحب زوجاته إلى قلبه، والفذة من بين حلائله وجواريه، والتي بلغن ما يقرب من حوالي سبعين جارية، غير زوجاته الحرائر.[111]

وقد قال (المعتضد عباد) شعرًا في صهره (مجاهد) مثل:

عرفت عرف الصبا إذ هب عاطره

من أفق من أنا في قلبي أشاطره

أراد تجديد ذكراه على شحط

وما تيقن أني الدهر ذاكره

قصاره قيصر أن قام مفتخرا

لله أوله مجدًا وآخره

خلي أبا الجيش هل يقضى اللقاء لنا

ليشتفي منك طرف أنت ناظره؟

شط المزار بنا والدار دانية

يا حبذا الفال لو صحت زواجره

111 - ص (406) – الجزء الثاني – المصدر السابق.

وله أيضًا فيه:

أتــــرى اللقاء كما نحب يــــوفق
فنظل نصبح بالسرور ونفيق؟
أفــــدي أبا الجيش المــــوفق إنــــه
للمكــــرمــــات ميسر و مــوفق
باهي به الــــزمــــن البهي كــــأنه
بشــــر على وجه الزمان ورونق
ملك إذا فهــــنــــا يطيب ثنــــاؤه
ظلت لــــه أفــــواهنــــا تتمطق.
حسب الرئاسة أن غدت مزادته
بناه فهو التاج وهي المفرق[112]

وهكـذا نـرى مـدى عظمـة ومكانـة (الموفـق مجاهـد العامـري أبي الجيـش) بـين أقرانـه مـن ملـوك (الأندلـس) حتـى رغـب الجميـع في مصاهرتـه والتقـرب منـه لنفوذه ولقوتـه في الجزيـرة، فقد تمتـع بصفات وخـلال أهَّلته لكـي يكون أعظـم ملوك (الأندلـس)، ولو قـدر له لكان هـو الأحـق في أن يكـون ملـك (الأندلـس) كلهـا بـلا منـازع.

112 - ص (43) – الحلة السيراء – لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي والمعروف بابن الأبار – الجزء الثاني – حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس – الطبعة الثالثة (2013م) – دار المعارف – (القاهرة).

*جهاد (مجاهد العامري) في البحر المتوسط:

والآن ننتقل إلى موضوعنا الرئيسي، ألا وهو حركة الجهاد التي قام بها الأمير (مجاهد)، فقد وجَّه اهتمامه إلى البحر المتوسط وجزائره وسواحله، فقد اهتم بتشييد أسطول بحري كبير، وقام أيضًا بتقوية حصونه وقلاعه والتي ما تزال أطلالها قائمة باقية إلى يومنا هذا، وقد امتازت إمارة (دانية) بموقعها الجغرافي المتميز، فهي تطل على ساحل البحر المتوسط جنوبي مدينة (بلنسية)، وكذلك كثرت بهذه المدينة الغابات الكثيفة والمليئة بالأشجار من نوع شجر (الصنوبر)، وهو الخشب الذي تُصنع منه السفن القوية لغرض الملاحة في البحار والمحيطات، فكان خشب هذه الأشجار يقطع ويلقى به في مياه الأنهار المجاورة للمدينة مثل نهر (شقر)، ويحمل منه إلى (دانية) والتي كان بها دار صناعة ضخمة (ترسانة)، وذلك من أجل صناعة السفن الكبيرة، وقد استغل الأمير (أبو الجيش مجاهد) مميزات إمارته أحسن استغلال في قيامه بعملياته الحربية التوسعية في البحر المتوسط، والتي كان أهمها الحملات التالية:

أولا: ضمه (جزر البليار الشرقية):

فقد قام الأمير (أبو الجيش مجاهد) بحملة بحرية كبيرة موجهة إلى (جزر البليار)، وذلك في حدود سنة (405هـ/ 1015م) في شهر رمضان، وقد نجحت حملته تلك وجعل من هذه الجزر قاعدة انطلاق حملاته البحرية المستقبلية، والتي سوف تخرج منها سفنه المجاهدة لتغزو سواحل (إيطاليا) و(فرنسا) و(قطلونية).

ثانيا: غزوه لجزيرة (سردينيا) أو (سردانية):

وفي ربيع الأول من سنة (406 ه أو 407 ه / سبتمبر 1015م) وذلك بعد خمسة أشهر من ضمه (لجزر البليار الشرقية)، أبحر (أبو الجيش مجاهد) في أسطول كبير مكون من حوالي مائة وعشرون مركبًا عليها حوالي ألف فارس، وكانت وجهته هذه المرة هي جزيرة (سردانية) ومصطحبًا معه زوجته والتي كانت نصرانية واسمها (جود) ومعه أيضًا ابنه الأكبر (عليٌّ) وبعض بناته، وقد تمكن (مجاهد) من فتح جزء كبير من هذه الجزيرة، بل وتمكن من قتل ومن هزيمة القوات المرابطة في الجزيرة، وتمكن من قتل قائد من أعظم قواد هذه القوات المرابطة، والذي كان يدعى: (مالوتو)، وقد أشار إلى هذه الغزوة وإلى هذه الحملة المؤرخ الأندلسي الكبير (لسان الدين بن الخطيب) في كتابه القيم (أعمال الأعمال) فقد ذكر في كتابه عن حملة (مجاهد) هذه قائلًا: «أن (سردانية) كان يحكمها أربعة ملوك (ولعله كان يقصد أربعة قواد)، وقام بضرب الجزية على ملوكها (قوادها)، وأكثر من السبي والغنائم، واختط مدينة واسعة وشرع في بنائها وانتقل إليها بأهله وعياله «وقد جعلها قاعدة ملكه وانطلاق غزواته البحرية القادمة منها.

ثالثًا: غزوه لسواحل إيطاليا الغربية:

وبعد نجاحه في حملته على جزيرة (سردانية) قام بعد ذلك بغزو السواحل (الإيطالية الغربية)، فقام بفتح مدينة (لوني) (الإيطالية) بل وجعلها أيضًا قاعدة حربية مهمة لمهاجمة ما حولها من المناطق الساحلية، وهذه المدينة تقع على الساحل

(التيراني) ما بين مدينتي (بيزا) و(جنوه) على خليج (سبيزيا) في إقليم (أتروريا)، وقد امتازت هذه المدينة بموقعها التجاري الهام.

ويرجح المؤرخ الفرنسي (لويس ماس لاتري) أن (مجاهدًا) قد غزا الساحل الجنوبي لجزيرة (كورسيكا) ولكن من أجل أن يضمن إحكام سيطرته على هذا الممر المائي الخطير، والذي يفصل بينه وبين السواحل (الإيطالية)، وهو بذلك يقصد (مضيق بونيفاتشو)، والذي يفصل بين جزيرتي (سردانية) و(كورسيكا).[113]

رابعًا: غزواته لسواحل (أربونة) الفرنسي وساحل (برشلونة) الإسباني:

ولم يكتف (أبو الجيش مجاهد) بغزواته البحرية على سواحل (إيطاليا) وما حولها، بل وجه أنظاره إلى سواحل (فرنسا) و(برشلونة)، فقد قام أغارت أساطيله على إقليم (برشلونة) سنة (1018م)، وفي سنة (1020م) هاجموا سواحل مدينة (أربونة) أو (ناربون) الفرنسية كما يقول المؤرخ (أرشيبالد. ر. لويس)[114]، وربما كان غرضه من هذه الحملات البحرية على هذه السواحل، هو محاولته استعادة النفوذ الإسلامي والذي انتهى في هذه المناطق، وذلك بعد انسحاب القوات الإسلامية التي كانت مرابطة هناك منذ عهد قريب، وأيضًا فقدهم لأهم معاقلهم هناك، وهو حصن (فراكسنيتم).

---

113 - ص (313) و(314) – القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500 – 1100م) – تأليف أرشيبالد. ر. لويس – ترجمة أحمد محمد عيسى – مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال – مكتبة النهضة المصرية.

114 - ص (47) – الجزء الثاني – المصدر السابق.

*الاتحاد الصليبي ضد (أبي الجيش مجاهد العامري):

ونتيجة لهذه الحملات والغزوات البحرية التي قام بها الأمير (أبو الجيش مجاهد) أن أفزعت جميع حكام وملوك غرب أوروبا، وربما حملاته هذه ذكرتهم بماضي القوة الإسلامية البحرية زمن دولة (الأغالبة)، والتي أغارت على سواحل إيطاليا ودخولهم جزيرة (صقلية) وجنوب إيطاليا، أو زمن (بني أمية) في (الأندلس) وهو ماضٍ لا يرغبون في عودته مجددًا، ولهذا اتحدت القوى الأوروبية وبسرعة ضد أساطيل (أبي الجيش مجاهد) وذلك تحت زعامة البابا (بندتو الثامن) فحشدت كل من إمارات (بيزا) و(جنوة) و(برشلونة) و(فرنسا) أساطيلها، وذلك في حملة صليبية واحدة وتحت راية واحدة، فيقول المؤرخون المسلمون في ذلك: «وتداعى عليه ملوك الأرض الكبيرة واستجاشوا، وبلغه من أمرهم ما لا يطيقه، فعزم على التحول إلى محله، والقفول إلى دار ملكه (بدانية) و(ميورقة)، فأعجله العدو عن ذلك، وقطع به فكانت عليه وقيعة شنيعة وظهور ما سمع بمثله، فقتل من أصحابه وجنوده عالم لا يحصى، وملكوا أسطوله واستنقذوه واستولوا على حريمه وفيهن نساؤه وبناته و(علي) ولده الأكبر، وكذلك (جود) أمه النصرانية، ولم يخلص من أسطوله أجمعه إلا خمسة مراكب وأربعة قوارب، وكانت شحنة الأسطول المغلول عن سبي (سردانية) يوم ظهور العدو عليه ثمانية آلاف فارس».

وهنا يذكر أيضًا (الحميدي) صاحب كتاب (جذوة المقتبس) خبر هزيمة (أبي الجيش مجاهد) فيقول:

«أخبرنا (أبو محمد علي بن أحمد) قال: حدثني (أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني) قال: «كنت مع (أبي الجيش مجاهد) أيام غزاته (سردانية) فدخل بالمراكب في مرسى نهاه عنه (أبو خروب) رئيس البحريين فلم يقبل منه، فلما حصل في ذلك المرسى هبت ريح فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركبًا مركبًا إلى الريف، والروم وقوف لا شغل لهم إلا الأسر والقتل للمسلمين، فكلما سقط مركب بين أيديهم جعل (مجاهد) يبكي بأعلى صوته لا يقدر هو ولا غيره على أكثر من ذلك، وذلك لارتجاج البحر وزيادة الريح، قال: فأقبل علينا (أبو خروب) وأخذ ينشد:

بكا دوبل أرقأ الله عينا ... ألا إنما يبكي من الذل دوبل.

ثم يقول: «قد كنت حذرته من الدخول هاهنا فلم يقبل»، قال: فبجريعة الذقن ما تخلصنا في يسير من المراكب».

ومن هنا نستشف عدة عوامل من خلال حدوث هذه الهزيمة الأليمة التي حلت بأساطيل (مجاهد)، والتي ضيعت فتوحاته التي كسبها في البحر المتوسط ألا وهي:

أولًا: تغير الأوضاع السياسية والاستراتيجية في المنطقة:

فعلى الرغم من الغاية النبيلة التي كان يسعى إلى تحقيقها الأمير (أبو الجيش مجاهد العامري) ألا وهي محاولته استعادة واسترجاع النفوذ الإسلامي وبسط السيطرة الإسلامية على سواحل البحر المتوسط وخصوصًا على سواحل (إيطاليا) و(فرنسا) و(برشلونة)، وهي محاولة جريئة منه في ظل الظروف التي كانت تمر بها (الأندلس) حينها من ضعف سياسي وعسكري، وأيضًا تحول

المنطقة فقد ظهرت مدن جديدة في (إيطاليا) بالتحديد وهي مدن (جنوه) و(بيزا) و(البندقية) والتي كونت تحالفات فيما بينها تمكنت من خلالها من بناء أساطيل بحرية امتازت بالقوة والسرعة، جعلتها تقلب موازين القوى في حوض البحر المتوسط، بل ومكنتها من فرض سيطرتها على البحر المتوسط بأكمله، وكان ذلك نتيجة الخبرة التي اكتسبوها جراء احتكاكهم المباشر مع البحرية الإسلامية، فقد أكسبتهم حروبهم البحرية المستمرة مع الأساطيل البحرية الإسلامية الخبرة والقوة التي مكنتهم من تطوير بحريتهم حتى تفوقوا على البحرية الإسلامية.

ثانيًا: اختلاف الجند على الأمير (مجاهد):

فقد ذكر المؤرخون أن من الأسباب التي جعلت الأمير (مجاهد) يوقف حملاته وغزواته البحرية التي قام بها هو تفرق كلمة الجند وشغبهم عليه، فقد خاف الجند تبعات هذه الفتوح وابتعادهم لمدة طويلة عن مدينتهم (دانية)، مما جعلهم ينقسمون ما بين مؤيد لإكمال الفتوح والغزوات وما بين مؤيد للعودة والاكتفاء بما حققوه من فتوح، فلم يجد الأمير (مجاهد) سوى العودة حتى لا تحدث فتنة بين الجند.

ثالثًا: اتحاد الممالك المسيحية ضد الأمير (أبي الجيش مجاهد العامري):

كانت لفتوحات الأمير (مجاهد) في البحر المتوسط صدى واسع وكبير في أوروبا الغربية، فقد خوفتهم هذه الهجمات القوية والشرسة من قبل (مجاهد)، حتى جعلت اسمه مرهوب الجانب في

حـوض البحر المتوسـط كلـه، وهذا جعـل المـدن الموجـودة في (إيطاليا) و(فرنسـا) وغيرهـا تتحـد ضـده، وكان هـذا متوقـع، فـما كانـت هـذه الإمـارات والممالـك لتـترك أمـير (دانيـة) يعيـد أمجـاد المسـلمين، بل من الممكـن أن هـذه الفتـوح تجـرئ عليهـم غـيره من الأمـراء المسـلمين من القيـام بعمليـات وغزوات ومغامرات على حسـاب سـواحلهم، وتكون إمـارات إسـلامية تؤرقهـم وتنهـك قواهـم، وتعيـد أمجـاد المسـلمين الأوائـل، ولهـذا لمـا تزايـد نفـوذ وخطـر الأمـير (مجاهـد) في البحـر المتوسـط اتحـدت مدن (جنـوه) و(بيزا) و(فرنسـا) و(برشـلونة) وكونوا حلفًـا مسـيحيًّا صليبيًّـا كبـيرًا، وكان ذلـك فـوق قـدرة وطاقة أسـاطيل الأمـير (مجاهـد)، والـذي كان يحـارب ويجاهـد وحـده، وكان قـد أوغل في مناطـق جديـدة وغريبـة عن المسـلمين، لهـذا لم يكن أمامه سـوى ترك مـا حققه مـن إنجـازات ونجاحـات عظيمة والانسـحاب سـالمًا بنفسـه وأسـاطيله وجنـوده.

*الانسحاب من سواحل البحر المتوسط:

وكان انسـحاب (أبي الجيـش) كـما هـو متوقـع غـير منظـم ومتعجلًا وسريعًـا، وذلـك لخوفـه الشـديد مـن التحالـف الصليبـي الـذي كـون ضـده، ولم تكـن الريـاح موافقـة لـه، لهـذا سـقطت أسـاطيله في قبضـة أعدائـه، ولم ينـج حتـى أهـل بيتـه وابنـه البكـر وولي عهـده (عـلي) مـن الوقـوع في قبضـة الأعـداء، فقـد وقعـوا في الأسر، أمـا هـو فقـد نجـا بشـق الأنفـس عائـدًا إلى إمارته وقاعـدة ملكـه (دانية)، وهـو لا يصدق بالنجـاة، ولكنـه بالرغـم مـن الهزيمة التـي حاقت بـه وبأسـاطيله إلا أنه تمكـن مـن تثبيـت ملكـه في (دانيـة) و(جـزر البليـار الشرقيـة).

ثـم عمـل سريعًـا بعـد ذلـك عـلى افتـداء أهـل بيتـه وبناتـه وزوجته (جـود) وابنـه (عـلي) فتمكن مـن افتـداء بناته، أمـا زوجته (جـود) فقد اختلـف في حالهـا، فهنـاك نفر مـن المؤرخـين قالـوا: «إنها ماتـت قبل أن تفتـدى وتعـود إلى زوجهـا (مجاهـد) «ورأى فريـق آخـر: «أنهـا رفضت الفـداء والعـودة إلى زوجهـا، وأنهـا فضلـت العيـش والبقـاء في بـلاد النصـارى والمـوت عـلى ديـن آبائها».

أمـا ولـده وولي عهـده (عـلي) فقـد كان أكـبر مآسـيه، فقـد وقـع في سـهم صاحـب القـوات الألمانيـة المشـاركة في الحلـف الصليبـي ضـد (مجاهـد)، والـذي رفض قبـول فداء (عـلي) بالمال، بل اسـتبقاه عنده على سـبيل المباهـاة والفخر بـين أقرانه مـن الأمـراء والقـواد الصليبيين، وقد ظـل الأمـير الصغـير في الأسر مـدة طويلـة حتـى تمكـن الأمـير (مجاهد) مـن افتدائـه بعـد ثمانيـة عـشر عامًـا !! وبعـد أن فـداه بمبلـغ عظيـم من المـال قيـل إنـه بلغ حـوالي عـشرة آلاف دينـار ذهبًـا، فعاد الأمـير (علي) إلى والـده سنة (423 هـ/ 1022م) ولكـن المفاجـأة أنـه عـاد عـلى ديـن النصرانيـة، وقد نـسي اللغـة العربية، فكان يتكلـم اللغـة الألمانية ويلبس اللبـاس الألمـاني، ولكـن بعـد جهـود طويلـة تمكـن الأمـير (أبـو الجيش مجاهـد العامـري) مـن إقنـاع ابنـه مـن اعتنـاق الإسـلام وختنـه وأصابه مـن عمليـة الختـان مـرض شـديد؛ لأنـه ختـن عـلى كـبر، ولكنه شـفي منـه، ونصبـه أبـوه وليًّا لعهـده وقائـدًا عامًّا لجيوشـه.

*محاولة (أبي الجيش مجاهد العامري) إحياء الخلافة (الأموية) من جديد وجعل (دانية) عاصمة لها:

ونأتي هنا للكلام على الشق الثاني من جهود الأمير (أبي الجيش مجاهد)، فإنه لما رأى الأحوال بالجزيرة قد ساءت وانحل عقد الخلافة (الأموية) وتكالب أمراء هذا البيت على الحكم، وكانت النتيجة سقوط الخلافة في (قرطبة)، وإعلان إلغائها نهائيًّا على يد (ملوك الطوائف)، اتجه تفكيره إلى محاولة إحيائها مرة أخرى وجعل إمارته (دانية) مقرًا للخلافة (الأموية)،، فأخذ يبحث عن أحد أبناء البيت (الأموي) الذين طردوا وشردوا في البلاد، وبعد جهد كبير من البحث تمكن الأمير (مجاهد) من العثور على أحد (الأمويين) وكان يدعى (أبو عبد الله بن الوليد المعيطي)، فأتى به إلى (دانية) ولقبه (بالمنتصر بالله) وسك اسمه على النقود، وكتب اسمه على الأعلام الخاصة بإمارته، وكان ذلك في (جمادى الثاني سنة 405ه / 1014م) ونصبه خليفة للمسلمين (بالأندلس)، وقام بدعوة أهل الجزيرة لمبايعته البيعة العامة لجميع مدن وبلاد (الأندلس)، وقد ذكره المؤرخ الكبير (لسان الدين بن الخطيب) فقال عنه: «هو الفقيه (أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي) أحد ممن أزعجته الفتنة من رجال الأشراف (بقرطبة) وكان في عدد الفقهاء المشاورين بها».

وكان هدف (أبي الجيش مجاهد) من إحياء الخلافة (الأموية) سببين:

أولًا: إكساب إمارته الناهضة شرعية وقوة في (الأندلس).

ثانيًا: محاولة كسب تعاطف واحترام أهل (الأندلس) له من خلال إحياء الخلافة (الأموية) من جديد، وتوحيد البلاد مرة أخرى تحت رايته وحكمها من خلال إمارته (دانية).

ولكن الغريب في هذا الأمر أن هذا الفقيه والذي لم يكن يحلم أن يصل إلى مكانة الخلافة ولو من الناحية الاسمية فقط، فبدلًا من أن يحافظ على هذه المنحة التي أتته دون جهد أو تعب، أخذ يتآمر على الأمير ويحرض عليه، فقد انتهز اطمئنان (أبي الجيش مجاهد العامري) له وسفره في غزواته البحرية في البحر المتوسط، فاستبد بأمور الدولة وأخذ يداخل الناس ويحاول أن يجذب إليه أهل (دانية) وأهل (ميورقة) ظنًّا منه أنهم عندما بايعوه بالخلافة، قد بايعوه حقًّا واعتبروه فعلًا أميرًا للمؤمنين لهم متناسيًا تغير الأحوال السياسية في الجزيرة، وكره الأندلسيين للبيت (الأموي) بعد ما شاهدوه من ضعفهم وحربهم ضد بعضهم البعض، فلم يوافقه أهل جزيرة (ميورقة) على محاولته لخلع الأمير (مجاهد) واستبداده بالحكم.

ولما عاد الأمير (أبو الجيش مجاهد العامري) من غزاته التي هزم فيها وفقد أسطوله، وعلم بمؤامرة (المنتصر بالله) وبمحاولته للإطاحة به وطرده من إمارته، قام بعزله من الخلافة وقال له موبخًا: «بلغني ما أحدثته بعدي من العبث بالناس، والاستئثار بالفيء (الخراج) والمجاهرة بالمعاصي، فلم يسعني انتظارك، وأردت قبض يدك عن ظلم العباد، وعلى ذلك بايعتني، ولا هوادة لك عندي».

فاحتمله الأمير (مجاهد) وأركبه إحدى السفن المتجه إلى (عدوة المغرب) وبالتحديد المتجهة إلى مدينة (بجاية)، وهي إحدى مدن (الجزائر) اليوم، فدخل (المعيطي) في إحدى قبائل البربر هناك وعاش وسطهم يعلم الصبيان القرآن الكريم والقراءة والكتابة (أي: أصبح معلم في الكتاتيب الأهلية) لا يرفع رأسًا إلى الدنيا، وطاولته هنالك الحياة إلى أن هلك بعد مدة وأصبح خبره للناس عبرة لكل معتبر لا يحفظ النعمة ولا يقدرها.

*وفاة الأمير المجاهد العظيم (أبي الجيش مجاهد العامري):

وبعد حياة طويلة من الجهاد والمغامرات الحربية والسياسية توفي المحارب والمجاهد الذي كان من المفترض أن يحكم أمراء و(ملوك الطوائف) في (الأندلس)، وكانت وفاته مقر حكمه وإمارته مدينة (دانية) سنة (436هـ/ 1045م) مخلفًا بعده في حكم إمارته ولده (عليًّا) والذي تلقب بـ(إقبال الدولة)، ولكنه لم يكن كأبيه، فقد كان أقل منه حنكة وسياسة وتجربة، ولم يكن مقبلًا على الجهاد كأبيه.[115]

***

115 - ص (217) إلى (220) – أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام – لذي الوزارتين (لسان الدين ابن الخطيب) – تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال – طبعة (1432هـ / 2011م) – مكتبة الثقافة الدينية – (القاهرة)

-ص (352) إلى (354) – جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – الحميدي أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي – طبعة (2008م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – (القاهرة).

-ص (47) إلى (54) – قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام – الدكتور أحمد مختار العبادي – الطبعة الأولى (1406هـ / 1986) – دار النهضة العربية للطباعة والنشر – (بيروت).

السقوط من القمة

إقبال الدولة علي بن أبي الجيش مجاهد العامري

*قصة الأمير (علي) أسره ثم افتداؤه:

هو أكبر أبناء الأمير (أبي الجيش مجاهد العامري) وكان قد اصطحبه معه وأمه في غزواته البحرية، والتي انتهت نهاية مفجعة وبهزيمة شنيعة على أساطيله البحرية، بل ووقع (علي) وأمه في أسر الحلف الصليبي المكون ضد الأمير (أبي الجيش مجاهد)، وقد افتدى الأمير أهل بيته بالمال فردوا إليه بناته فقط، أما والدة (علي) والتي كانت تُدعى (جود) فقد اختارت على أحد القولين البقاء في بلاد النصارى، وذلك أنها كانت على دين النصارى هي وأختها، وعاشوا وماتوا هناك، وأما (علي) فقد كان من نصيب أحد قواد الأمراء (الألمان)، والذي رفض فداءه وأبقاه معه مدة ثمانية عشر عامًا، وكان عمر الأمير الصغير عندما أُسر حوالي سبعة أعوام، وقد أعياه فداؤه حتى تمكن من استرداده في سنة (423هـ)، فوصل إلى جزيرة (ميورقة) ومنها أبحر إلى دار ملك أبيه إلى (دانية)، وكان قد أصبح رجلًا شابًّا، ولكن

كانت الصدمة كبيرة عندما قابله أبوه، فقد وجده رومي اللسان مسيحي الديانة، ولكن الأمير (مجاهد) لم ييأس من إرجاع ولده إلى الدين الإسلامي دينه ودين أبيه، فعرض عليه الإسلام فقبله (علي) وحسن إسلامه، وقام والده بتختينه، فأصابه من جراء الختان مرض شديد ثم شفي منه، وظهرت على (علي) سمات الشجاعة والشهامة والقوة، فقام أبوه (أبو الجيش مجاهد) بإرهاقه في التأديب والسياسة، وألحقه بمرتبة أخيه الذي يصغره والذي كان يدعى (حسنًا)، وكان هو المرشح قبله لمنصب ولاية العهد بعد أسر أخيه الأكبر، وعوَّل عليه دونه في قيادة الجيش وقلده الأمر من بعده، صارفًا ولاية العهد عن ولده الأصغر (حسن)، وكان لهذا الفعل تبعات ونتائج سيئة وخطيرة فيما بعد.

*مؤامرة الأمير (حسن) مع ملك (إشبيلية) لاغتيال الأمير (علي):

وكان لنتيجة صرف الأمير (مجاهد) ولاية العهد لإمارة (دانية) عن ولده الأصغر (حسن) إلى ولده الأكبر (علي) والذي كان قد يئس من عودته من الأسر آثار سيئة، فقد اتفق الأمير (حسن) مع الملك (ابن عباد) ملك مملكة (إشبيلية) الطامع في توسيع ملكه على حساب أمراء و(ملوك الطوائف)، فقد تآمرا على التخلُّص من (علي) وذلك من خلال اغتياله، فقد أرسل (ابن عباد) غلامًا له إلى (دانية) على سبيل الزيارة إلى الأمير (حسن)، وكان هذا الغلام جريئًا شجاعًا لا يهاب المخاطر، وكان الاتفاق على أن يقوم هذا الغلام بقتل واغتيال الأمير (علي)، وذلك عند خروجه من المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة.

فلما كان اليوم الموعود والمحدد لتنفيذ خطة الاغتيال، وأثناء خروج الأمير (علي) من الجامع، وكان الغلام واقفًا منتظرًا خروجه لكي ينفذ المهمة، ولكن الذي حدث أن الغلام قد أصابته حالة من الدهش، فلم يقدر على قتل الأمير، وبدلًا من أن يطعنه بالمدية (سكين صغيرة) في صدره أصابته في يده، فقبض الأمير (علي) على يده من جراء طعنة المدية، فلما أفاق الغلام من دهشه أراد أن يكر مرة أخرى على الأمير، فأراد طعنه بالرمح الذي كان يحمله معه، ولكن المكان لم يسعفه لضيقه فنشب الرمح بالحائط، فلما رأى الجنود ما يحدث من محاولة اغتيال سيدهم، سارعوا لنجدته فتمكنوا من قتل الغلام المرسل من قبل (ابن عباد)، وأما الأمير (حسن) أخو الأمير (علي) لما رأى من قتل الغلام وكشف مؤامرته فر راكضًا ولم يعرف إلى أي جهة فر، وهرب وتبين بعد ذلك أن الأمير (الحسن) قد هرب إلى مملكة (بلنسية) حيث لجأ واحتمى بزوج أخته الآخر (عبد العزيز بن عبد الملك)، وعاش هناك في كنف أخته مغمورًا حتى تُوفي.[116]

وبعد أيام من محاولة الاغتيال للأمير (علي) شُفي من جرحه، واستقل بأمر أبيه وطال حكمه، وكان موفق في حكمه وتزوج الأمير (علي) وأنجب بنات كن آية في الجمال، فصاهره أمراء وقته، وكان الأمير (علي) واسع الحيلة في جباية الأموال من أهل دولته والتكسب منهم.

---

116 - ص (201) – دولة الإسلام في الأندلس – العصر الثاني (دول ملوك الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي) – تأليف محمد عبد الله عنان – الطبعة الرابعة (1417هـ / 1997م) – الناشر مكتبة الخانجي – (القاهرة).

*صفات وأخلاق الملك (علي إقبال الدولة) وسياسته في الملك:

وقد حذا حذو أبيه (أبي الجيش الموفق مجاهد العامري) في الإقبال على العلماء، إلا إنه كان ذلك تطبعًا لا طبعًا فيه، وكانت همته كلها متوجهة إلى التجارة، وجمع الأموال من الرعية، وكانت علاقته بجيرانه ملوك الطوائف (بالأندلس) طيبة، وظل يحكم مملكته (دانية) إلى أن أخذها منه ملك (سرقسطة) الملك (المقتدر بن هود).[117]

*العلماء الذين كانوا في عهد الملك (علي إقبال الدولة) المشهورون هم:

*العالم الطبيب (إسحاق بن قسطار اليهودي):

وهو (إسحاق بن قسطار اليهودي) قد ذكره القاضي (ابن صاعد) في كتابه (طبقات الأمم)، وأنه قد التقى به وجالسه، فقال عنه:

«خدم (الموفق مجاهد العامري) وابنه (إقبال الدولة علي)، كان بصيرًا بأصول الطب، مشاركًا في علم المنطق، مشرفًا على آراء الفلاسفة، وكان حميد المذهب، جميل الأخلاق، وافر العقل، جالسته كثيرًا فما رأيت يهوديًّا مثله في رجاحته وصدقه وكمال مرؤته، وكان متقدمًا في علم اللغة العبرانية، بارعًا في فقه اليهود، خبيرًا في أخبارهم، وقد تُوفي (بطليطلة) سنة (ثمان وأربعين

---

117 - ص (111) – طبقات الأمم – القاضي أبي القاسم صاعد ابن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت 462هـ / 1070م) – تحقيق وتعليق دكتور حسين مؤنس – الطبعة الثالثة (2019م) – دار المعارف – (القاهرة).

وأربعمائة 448 ه / 1056 م) وهو ابن خمس وسبعين، ولم يتخذ فيها قط امرأة.(118)

ومثل أبيه، فقد سعى العديد من الأمراء والملوك إلى مصاهرته، والزواج من بناته، والتي عرف عنهن جمالهن الفائق، وحسن أدبهن، ومن هؤلاء الملوك والأمراء:

*مصاهرة (المعتصم بالله محمد بن معن بن صمادح التجيبي):

فقد صاهر (ابن صمادح) أمير مدينة (ألمرية) الملك (عليًّا إقبال الدولة بن مجاهد)، فقد تزوج من ابنته، فكان بنات (علي) مشهورات بالحسن الفائق، والجمال الباهر في طول (الأندلس) وعرضها، وظلت معه إلى أن انتزع (المرابطون) مدينة (ألمرية) من يد زوجها (المعتصم)، والذي كان خامل الهمة، لا يحب معادة أحد من ملوك الطوائف، فقد اقتصر على إمارته وعلى قصره المتواضع فقط.(119)

*علاقة الأمير (إقبال الدولة علي) بالخلافة (الفاطمية) في (مصر):

وعندما تولى (إقبال الدولة) إمارة (دانية) بعد أبيه (أبي الجيش مجاهد) نظر إلى أحوال مملكته وأحوال ما حوله من ملوك (الأندلس)،

---

118 - ص (402) –المغرب في حلى المغرب – أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي ت 685هـ) – الجزء الثاني – حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف – الطبعة الخامسة (2018م) – دار المعارف – (القاهرة).

119 - ص (82) – الحلة السيراء – لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي والمعروف بابن الأبار– الجزء الثاني – حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس – الطبعة الثالثة (2013م) – دار المعارف – (القاهرة).

فوجد أن الحالة قد بلغت من الضعف السياسي والعسكري منتهاه، بل وإلى حالة من التفكك وعدم رغبة هؤلاء الملوك في المصالحة فيما بينهم وتوحيد صفوفهم ضد عدوهم المتربص بهم في الشمال، أقصد مملكة (قشتالة) و(ليون) و(نافار)، فلم يجد (إقبال الدولة) معينًا له ولا ظهيرًا له في الجزيرة، فوجه نظره إلى أقرب قوة إليه فوجد ضالته في الخلافة (الفاطمية) في (مصر)، فأخذ يتقرب إليها، بل وأبدى استعداده لإعلان تبعيته لها والاعتراف بالخلافة (الفاطمية)، وقد أبدى حسن نيته ورغبته في ذلك عام المجاعة التي حدثت في (مصر) في عهد الخليفة (المستنصر بالله) فقد ذكر المؤرخ (لسان الدين ابن الخطيب) في هذا الصدد: «أن (إقبال الدولة) وجه إلى (مصر) مركبًا ضخمًا مملوءًا طعامًا عام المجاعة المضروب بها المثل في البلاد، وكان ذلك في عام (446 ه)، فعاد إليه المركب «مملوءًا مالًا وذخيرة، أو بالياقوت والجواهر والذهب»، وهي بالتالي اعترافًا ضمنيًّا برغبة (إقبال الدولة) في قبول تبعيته لهم.[120]

وبعث (علي) إلى الخليفة (المستنصر) رسالة شكر فيها هدايا الخليفة الفاطمي، والذي كتبها وزيره (أبو الأصبغ بن أرقم) يمدح فيها الخليفة، ويشيد فيها بمقام الخلافة الفاطمية في (مصر)، وكان مما جاء فيها:

«فالآن استمد المريد، واستقر الضمير، فتبسم مولى الحضرة رياضًا عطرًا، وراد روضها زهرًا، وشام برقها ممطرًا، واستوضح هلالها

120 - ص (221)و(222) – أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام – لذي الوزارتين (لسان الدين ابن الخطيب السلماني) – تحقيق وتعليق إ.ليفي بروفنسال – طبعة (1432هـ / 2011م) – مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة).

مبـدرًا، وارتشـف ماءها حـضرًا، فما الشـكر وإن جزل، يـوف ثنايا ذلك الإفضـال والإنعـام، ولا اللسـان وإن جفـل يتعاطـى ذلـك الشـأو، ولا الأقـلام، ولا الطـوق يقوم بأعبائها حـق القيام، وأي وسـع يباري البحر وهـو طـام، وأي طـوق يطيـق ركنـي شـمام، ولـو كانـت للمـولى بالقدر يـدان وسـاعده إمـكان، وسـاعفه زمـان، لأم بشـخصه كعبـة الآمـال، واسـتقبل بقصـده قبلـة السـعة والإقبـال، واسـتلم بيـده ركـن الإنعـام والإفضـال...» إلى آخر الرسـالة.[121]

*نهاية الدولة (العامرية) في (دانية):

ولكـن عـلى الرغم مـن كفاءة (إقبـال الدولـة) في حكـم مملكته، لكن (ملـوك الطوائـف) طمعـوا في ملكـه والاسـتيلاء عليـه، ولأنـه لم يكـن كأبيـه في الحـروب والجهـاد، فلم تدم أيام سـعده طويلًا، فقـد قام صهره الملـك (المقتـدر بـالله أحمد بن سـليمان بن هـود) ملك مملكة (سرقسـطة) ومـا حواليهـا بإرسـال جيوشـه لمحـاصرة (دانيـة)، وذلـك رغبـة منه في توسـيع مملكتـه، وذلـك لأهميـة موقـع (دانية) البحـري والاسـتراتيجي رغـب (المقتـدر) في أن تكـون لـه قبـل أن يسـبقه إليهـا غيره مـن (ملوك الطوائـف) أمثـال ملـوك (بنـي عبـاد) في (إشـبيلية) أو ملـوك (بنـي ذي النـون) في (طليطلة).

فـضرب (المقتـدر) الحصـار عـلى مدينـة (دانيـة) ولم يتمكـن (إقبـال الدولـة عـلي) مـن مقاومـة هـذا الحصـار، فدخلـت جيـوش (المقتـدر) المدينـة، ولجـأ الأمير (عـلي) إلى قـصره وتحصـن بداخلـه ومعـه أولاده

121 - ص (203) – دولة الإسلام في الأندلس – (العصر الثاني – دول ملوك الطوائف) منذ قيامها حتى الفتح المرابطي – تأليف محمد عبد الله عنان – الطبعة الرابعة (1417هـ / 1997م) – الناشر مكتبة الخانجي – (القاهرة).

ونساؤه، ولكنه أيقن بالهزيمة فطلب التسليم على شرط الأمان، وعلى أن يترك له فرسه وزينته، فكان له ما طلب، وكان سقوط الدولة (العامرية) سنة (468 ه أو 469 ه / 1076 م)، فنقله (المقتدر) إلى جواره في مدينة (سرقسطة) وذلك لكي يكون تحت نظره يراقب حركاته وسكناته، ويأمن جانبه، وقام بإقطاعه إقطاعًا كبيرًا يعينه ويعين أهله على الحياة الطيبة الرغيدة، وظل الأمير (إقبال الدولة علي) يعيش هذه الحياة الخاملة، حتى تُوفي في سنة (469 ه / 1076 م) أي: بعد فقده لمملكته مباشرة.[122]

كان هذا تاريخًا موجزًا لإحدى ممالك وإمارات (الأندلس)، والتي ظهرت ونشأت في ظل ظروف عصيبة من الناحية السياسية والاجتماعية، فعلى الرغم من حالة الضعف والتفكك التي أصابت شبه الجزيرة وعدم التوحد والوقوف صفًّا واحدًا ضد عدوهم المتربص بهم في الشمال، أخذوا يحاربون بعضهم البعض، معلنين حالة من التعصب العرقي والقبلي متناسين أخلاق الإسلام التي تنادي بنبذ الفرقة ونشر العدالة والمساواة دون تفريق على أي أساس قبلي أو عرقي، فكان وجود إمارة (أبي الجيش مجاهد العامري) وولده من بعده (إقبال الدولة علي) حالة تستحق الاحترام والإجلال، خصوصًا ما قام به الأمير (مجاهد) من إعلائه لكلمة الجهاد في البحر المتوسط، حتى وصلت أساطيله إلى سواحل (إيطاليا) و(فرنسا)، ولولا تكالب الممالك والمدن المسيحية عليه لكان له شأن أخر، ولكن حكمة الله اقتضت أمرًا آخر.

---

122 - ص (55) – قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام – د. أحمد مختار العبادي – طبعة (1406هـ / 1986م) – دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت).

نهاية قصة بني مجاهد

سراج الدولة ابن علي إقبال الدولة

ولا نعلم اسمه على وجه التحديد، ولكن الذي نعلمه أنه تلقب بـ(سراج الدولة) على غرار أمراء وملوك الجزيرة (الأندلسية)، ولكنه لم يكن على غرار أبيه وجده من القوة والمنعة، فلم يقف الحظ بجانبه، فقد طمع صهره (المقتدر بن هود) صاحب (سرقسطة) في ملك أبيه (إقبال الدولة علي)، وذلك بعد أن ساءت العلاقات بينهما، فزحف إليه وحاصر مدينته ومقر ملكه (دانية) حتى تمكن من استنزاله منها وأسره وحمله مع أهله وحريمه إلى مملكته (سرقسطة) وكان ذلك في (شعبان من سنة ثمان وستين وأربعمائة).

وأما ابنه (سراج الدولة) فقد تمكن من الفرار من قبضة (المقتدر بن هود) وتوجه إلى الكونت (برنجير) ملك (برشلونة) فطلب منه المدد والعون، فأمده بما أراد من القوات والجنود على شروط شرطوها عليه، فتمكن من الاستيلاء على حصن (شقورة) واستقل به، وأيضًا تمكن من استرداد بعض الحصون الأخرى، وانفرد بحكمها، وأحسن ضبطها، واستمر يحكم هذا الحصن حتى مات حتف أنفه، فيقال: إنه مات مسوما بحيلة

عملها له ملك (سرقسطة) (المقتدر بن هود) سنة (تسع وستين وأربعمائة)، وخلف على حرمه وولده في قصبتها عبدين أبوهما كان عبدًا لأبيه (علي إقبال الدولة) يدعى (سهيلًا) كان من سبي (سردانية) التي غزاها جده (الموفق مجاهد العامري) وكان هذان العبدان يدعيان (ابراهيم) و(عبد الجبار)، ولكنهما شعرا بعدم قدرتهما على الانفراد بحكم الحصن وحدهما، فأخذا يبيعانه لملك من ملوك الطوائف.[123]

وبوفاة أو اغتيال (سراج الدولة) ابن (علي إقبال الدولة) بالسم، ينتهي حكم عائلة بني (مجاهد العامري) من (دانية والجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة) على يد صهرهم (المقتدر بن هود) مالك (سرقسطة)، والذي ضم مملكتهم إلى مملكته في الصراع الذي كان دائرًا على أرض (الأندلس) في هذه الفترة العصيبة من التاريخ الأندلسي الإسلامي، والذي كان ملوك الطوائف يتسابقون فيه على حكم أرض (الأندلس) وبسط سلطانهم على بعضهم البعض، ولكن هذا الصراع أضعف قوى المسلمين في النهاية، وأدى إلى النهاية المحتومة، ألا وهو سقوط (الأندلس) وضياعها من المسلمين.

---

123 - (149) – الحلة السيراء – لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار – الجزء الثاني – حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس – الطبعة الثالثة (2013م) – دار المعارف – (القاهرة).

-ص (164) – تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر – العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت 808هـ) – اعتنى به عادل بن سعد – الجزء الرابع – طبعة (2016م) – دار الكتب العلمية – (بيروت – لبنان).

-ص (209) – دولة الإسلام في الأندلس – العصر الثاني (دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي) – تأليف محمد عبد الله عنان – الطبعة الرابعة (1417هـ / 1997م) – الناشر مكتبة الخانجي – (القاهرة).

(خريطة مملكة دانية في الأندلس)

***

فرسان في زمن الانحطاط

ابن فتحون – سعدارة

في زمن الضعف والذل والهوان الذي عصف بالأندلس في فترة حكم ملوك الطوائف، وتسلط الممالك السيحية الصليبية المتمثلة في ممالك (قشتالة) و(ليون) و(نافار)، وقيام هذه الممالك في التاريخ الوسيط بما عرف (بحروب الاسترداد والتي هدفت إلى طرد المسلمين من الأندلس بالكلية، ومحو كل ما هو إسلامي الهوية في شبه الجزيرة، وهم جادون في تحقيق هدفهم ذلك، ويبذلون في ذلك كل ما لديهم من طاقات وإمكانيات مادية ومعنوية، وقد أعانهم المسلمون في ذلك على أنفسهم من خلال انقسامهم على أنفسهم ومحاربة بعضهم البعض، ودفعهم للجزية لملك (قشتالة)، وقد انعكس ذلك على الحالة النفسية والمعنوية لأهل الاندلس من عامة وخاصة وفرسان وقواد، ولكن وفي وسط هذا الظالم الدامس من الذل والهوان الذي ساد هذه الفترة يظهر فرسان وقواد شجعان، وأصحاب حيلة في الحروب ودهاء، وأول هؤلاء هو فارس قيل عنه: إنه أشجع العرب والعجم في زمانه، فمن هو هذا الفارس الذي سوف نتحدث عنه ؟

*أبو الوليد بن فتحون (فارس الأندلس):

- والفارس الذي نتكلم عنه ذكره (الأبشيهي) في كتابه القيم (المستطرف) وذكر قصته فقال: هو الفارس (أبو الوليد بن فتحون) كان من كبار قواد الملك (المستعين بن هود) ملك مملكة (سرقسطة) بالثغر الأعلى في الأندلس، وكان (المستعين) يكرمه ويقربه لشجاعته وبأسه في الحروب، وقد وضع له عطاء مميزًا له وحده قدره خمسمائة دينار، وكانت جيوش الصليبيين بالأندلس تهابه وتخافه لما عرف عنه من شجاعة وقوة، بل ويخشون لقاءه ومواجهته في الميدان، فيحكى أن الرومي (ملك قشتالة) كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: «ويلك لم لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء؟»‌.

وكما هو شأن كل إنسان عظيم، فقد حسده نظراؤه على كثرة عطائه ومنزلته من (المستعين)، فوشوا به عند الملك وأوغروا صدره عليه، حتى صدق (المستعين) الوشاة، فأبعد (ابن فتحون) ومنع عنه عطاءه، ثم إن الملك بعد مدة أراد غزو بلاد الروم، فتقابل جيش المسلمين بجيش المسيحيين وتقابلت صفوفهم أمام بعضهم البعض، فبرز أحد فرسان الإسبان إلى وسط الميدان ونادى قائلا: «هل من مبارز ؟ «فبرز إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة ثم تمكن الإسباني من قتل المسلم، فصاح أصحابه سرورًا وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الفارس الإسباني يجول بين الصفين وينادى: «هل من اثنين لواحد؟ «فخرج إليه فارس آخر من المسلمين، وقام معه بمثل ما قام به مع سابقه وتمكن من قتله، ثم نادى: «هل من ثلاثة لواحد؟ «فلم يجترئ

أن يخرج إليه أحد من فرسان المسلمين، وبقي الناس في حيرة، فقيل للسلطان: «ما لها إلا (أبو الوليد ابن فتحون)، فدعاه الملك ولاطفه في الحديث والكلام وقال له: «يا (أبا الوليد)، أما ترى ما يصنع هذا العلج (الرجل الأعجمي الذي لا يتكلم العربية)؟ «فقال: «ها هو بعيني «قال: «فما الحيلة فيه؟ «قال: «الساعة أكفي المسلمين شره «ثم قام فارسنا (ابن فتحون) ولبس قميصًا من الكتان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح، وليس معه غير سوطه، وكان سوطًا طويلًا وفي طرفه عقدة معقودة، ثم برز إلى ساحة القتال، وكان الفارس الإسباني مازال يصول ويجول أمام صفوف المسلمين، فلما رأى (أبا الوليد ابن فتحون) أمامه على هذه الهيئة تعجب منه، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه، فلم تخطئ طعنة الفارس الإسباني سرج (ابن فتحون)، فتعلق (ابن فتحون) برقبة فرسه، ثم نزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، ثم انقلب في سرجه وحمل على الفارس الإسباني، وضربه بالسوط فالتوى طرف السوط على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه من على فرسه، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدي (المستعين)، وهنا علم (المستعين) أنه قد أخطأ في حق (أبي الوليد ابن فتحون) فاعتذر إليه وأعاد إليه مكانته وأكرمه وأحسن إليه، وكان أعز الناس إليه.[124]

---

124 - ص (311) وص (312) – المستطرف في كل فن مستظرف – الجزء الأول – شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (ت 850هـ) – تحقيق محمد خيرطعمه الحلبي – الطبعة الخامسة (1429 هـ / 2008 م) – دار المعرفة – (بيروت).

وقـد ذكـر قصـة (أبي الوليـد ابـن فتحـون) أيضًـا في كتابـه (سراج الملـوك) العـالم والفقيـه (أبو بكـر محمد بن الوليـد الفهـري الطرطوشي) في كتابـه (سراج الملـوك) وزاد فيهـا معلومة مهمة، ألا وهـي أن بين (أبي بكـر الطرطـوشي) و(أبي الوليـد بـن فتحـون) قرابـة ونسـب، فقـد كان (ابـن فتحـون) خـال والدتـه «ثم ذكـر تمـام القصة كـما أوردتهـا.[125]

*سعدارة (صاحب الحيلة والمكيدة)

وأمـا قصة فارسـنا الثـاني فـكان صاحب دهـاء ومكر وحيلـة، وكان مـن دهـاة الأندلـس المعروفـين والمعدوديـن، وقـد عـاش أيضًـا في فترة حكـم ملـوك الطوائـف في الأندلـس، وقـد عـاصر دولـة (بنـي هـود) أصحـاب وملـوك مدينـة (سرقسـطة)، وتبـدأ قصتـه عندمـا غـزا الملك (المقتـدر بـالله بـن هـود) بـلاد الـروم، وقـد واجـه جيش طاغيـة الروم (ردميـل)، وقـد حشـد كل منهـما مـا قـدر عليـه مـن الجنـود، والتقـى الطرفـان وتنـازل الفرسـان واحتشـد الجيشـان وتواجهـا في صفـوف مقابـل بعضهـما، والتحـم الفريقـان ودام القتـال بـين المسـلمين والـروم صـدرًا كبـيرًا مـن النهـار، وكان جيـش المسـلمين عليـه الدائـرة في هـذا اليـوم، فأفـزع (المقتـدر) حـال المسـلمين مـن الهزيمـة والخسـران، وقـد وصـل الأمـر أن دب الخـوف في قلـوب جنـود المسـلمين وخافـوا شر وعاقبـة الهزيمـة في هـذا اليـوم، فدعـا (المقتـدر) رجـلًا مـن المسـلمين لم يكـن في ثغور الأندلـس أعرف منه بالحـروب وحيلهـا ومكائدهـا، وكان هـذا الرجـل هو بطـل قصتنـا (سـعدارة).

125 - ص (701) – سراج الملوك – أبي بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي – حققه وضبطه وعلق عليه ووضع فهارسه محمد فتحي أبو بكر – تقديم دكتور شوقي ضيف – المجلد الأول – الطبعة الأولى (1414 هـ / 1994 م) – الدار المصرية اللبنانية – (القاهرة).

وعندما وصل (سعدارة) إلى خيمة (المقتدر) قال له: «كيف ترى هذا اليوم ؟ «فأجابه (سعدارة): «هذا يوم أسود، ولكن بقيت لي حيلة»، فذهب (سعدارة) وفكر في كيفية الخروج من هذا المأزق الخطير والمحنة التي ألمت بالمسلمين، فهداه تفكيره إلى حيلة عجيبة، ولكنها في نفس الوقت خطيرة جدًّا، فقد تنكر في زي الروم الإسبان، وكان (سعدارة) يعرف لغتهم، فاندس بين جيش الروم وأخذ يتكلم ويتحدث بلغتهم (وذلك لمجاورة بلاد المسلمين وكثرة مخالطتهم ببلاد الإسبان فكان سهلًا على المسلمين تعلم لغتهم وإتقانها والتحدث بها)، وتمكن من الانغماس في عسكر الروم، ثم صعد وتوجه إلى مكان ملكهم (ردميل) فألفاه شاكًا في السلاح، مكفنًا في الحديد ولا يظهر منه إلا عيناه، فجعل (سعداره) يترصده ويراقبه، حتى تمكن منه في ساعة غفلة منه، فحمل وانقض عليه وطعنه في عينه، فخر (ردميل) صريعًا لليدين والفم (أي: لا يملك الكلام من شدة الألم)، ثم في مكرٍ شديد وإحكام لخطته نادى (سعداره) بلسان القوم: «قتل السلطان يا معشر الروم»، فشاع قتله في العسكر، فتخاذلوا وولوا منهزمين، وكان النصر والفتح للمسلمين بعد الهزيمة والخسران، وذلك بفضل شجاعة ومكيدة هذا الفارس المسلم العظيم، والذي رغب بنفسه وروحه من أجل حفظ كرامة المسلمين وحماية جيشهم من الهزيمة والأسر، وإعلاء لكلمة الإسلام والمسلمين أمام جيوش الصليبيين.[126]

---

126 - ص (699) وص (700) – سراج الملوك – أبي بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي – حققه وضبطه وعلق عليه ووضع فهارسه (محمد فتحي أبو بكر) – تقديم الدكتور شوقي ضيف – المجلد الأول – الطبعة الأولى (1414هـ / 1999م) – الدار المصرية اللبنانية (القاهرة).

هـذه كانـت قصـة اثنين مـن أبطـال الأندلـس، وجـدوا وعاشـوا في فـترة من أحلـك وأظلم الفـترات التي عاشـتها شـبه الجزيرة الأندلسـية مـن الـذل والهوان، ودفـع الجزية والإتـاوات لملوك الروم والإسـبان من قبـل ملـوك الطوائـف حمايـة لهـم ولعروشـهم من شـعوبهم، ومـن أبناء جلدتهـم ودينهـم، ولكـن عـلى الرغـم مـن قتامـة الأوضـاع السياسـية التـي مـرت بهـا الأندلـس إلا أنها لم تعـدم من أبنائهـا الشـهامة والكرامة وحـب الدفـاع عـن الديـن والوطـن، لهـذا أوردت قصة هذيـن البطلين لكـي أبـين أن الرجـال لا تغيرهم الظـروف، حتى لـو كان الطريق مظلمًا أمامهـم، وإن في ذلـك لعـبرة لمـن يعتبر.

***

عندما يؤتمن الخائن

الحاجب أبو سعيد بن جامع وكارثة العُقاب

بعد الانتصار العظيم الذي حققته جيوش الموحدين بقيادة أمير المسلمين بالمغرب والأندلس في موقعة (الأرك) سنة (1195 م / 591هـ) ضد جيوش قشتالة بقيادة ملكهم المغرور (ألفونسو الثامن)، وبهذا الانتصار ثبت الموحدون أقدامهم في أراضي الأندلس إلى أن تولى الخليفة (محمد الناصر بن أبو يوسف يعقوب الموحدي) والذي لم يكن كأبيه في الحكم والسياسة، فقد كان معجبًا برأيه معتدًّا بنفسه يتولى مباشرة أمور الدولة بنفسه، ولا يأخذ بمبدأ الشورى الذي أقرته الدولة الموحدية، فكان عاقبة ذلك وبالًا عليه وعلى دولة الموحدين كلها.

*الحاجب (أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن جامع):

والذي قضى على ملك (الناصر) توليته لهذا الرجل المدعو (أبا سعيد بن جامع) والذي لم يكن شريفًا في نسبه للموحدين، وقد أحس بذلك ويبدو أنها جعلت لديه عقدة لكل شخص ذي نسب شريف في الدولة، لهذا أخذ يبعد كل أعيان ومشايخ الموحدين وأشرافهم من

بلاط الخليفة (الناصر)، فكان لا يوصل إليه إلا بعد مشقة وجهد، وذلك من أجل أن ينفرد وحده بالوزارة والحكم دون بقية مشايخ الدولة الموحدية، وفي سنة (607 ه) عبر الخليفة (أبو عبد الله محمد الناصر) إلى الأندلس للجهاد ضد مملكة قشتالة، وقد قام بمحاصرة حصن يدعى (سريطوة)، وهو حصن منيع عظيم يقع على رأس جبل عال وليس له مسلك واحد للوصول إليه، ويمتاز بالوعورة والضيق الشديد، فضرب عليه الخليفة (الناصر) الحصار، وأقام عليه أربعين منجنيقًا، ولكن لمنعة الحصن الشديدة ولعلوه لم ينل الحصار من الحصن ولا المنجنيقات منه شيئًا، وقد طول الخليفة (الناصر) الحصار على الحصن حتى بلغ مدة ثمانية أشهر كاملة، ودخل فصل الشتاء على جيش الموحدين في هذا الحصار، وقد مل (الناصر) الحصار ورغب في ترك الحصن، ولكن حاجبه الخبيث (أبو سعيد بن جامع) صده عن ذلك فقال له: «يا أمير المؤمنين لا تتجاوزه حتى نفتحه، فيكون أول الفتح إن شاء الله تعالى».

ومع طول الحصار نفدت الأقوات وأعلاف الدواب والخيول، وأصاب الجنود الملل والضجر من طول الإقامة وحصار هذا الحصن المنيع، ففسدت قلوبهم ونياتهم للجهاد، بل ورغبوا في العودة إلى بلادهم وترك الأندلس، فلم يعد لديهم الرغبة في القتال والجهاد في أرض يعتبرونها أرضًا غريبة عنهم، وقد علم الملك (ألفونسو الثامن) ما أصاب عسكر وجيش الموحدين من نقص الأزواد والعلوفات لديهم، فقام بتعبئة جيشه تعبئة كاملة، وتقدم بجيوشه كاملة العدة والعتاد إلى قلعة (رباح) الحصينة فضرب عليها الحصار، وكان بها حامية يقودها القائد (أبو الحجاج يوسف بن قادس) وهو بطل من

أبطال الأندلس المشهود له بالشجاعة والثبات والإخلاص، والذي كان معه فقط سبعون فارسًا هي كل الحامية التي معه، فضيق الملك (ألفونسو) على القلعة الحصار وشدد فيه، كل هذا والخليفة (الناصر) محاصرًا لحصن (سريطوة) لا يعلم بما يحدث أو يجري من حصار قلعة (رباح) شيئًا، فقد كان يكتب إليه كل يوم من أيام الحصار القائد (أبو الحجاج يوسف) يستغيث به ويستنصره على (ألفونسو)، ولكن حاجبه (أبو سعيد) كان يقرأ هذه الرسائل والكتب ويرى ما فيها من الاستغاثة والشدة التي يلقاها أهل الحصن والحامية، فكان يمنع وصولها إلى (الناصر)، وهذه كانت من صفات هذا الوزير الذميمة، وهي عدم الامانة والغش في النصيحة للخليفة (الناصر) و للمسلمين.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد كان الحاجب (أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن جامع) يكتم عظيم الأمور في الدولة، ويكتم أمور الرعية، فجعل الخليفة (أبا عبد الله محمد الناصر) لا يعلم من أمر الدولة ورعيته شيئًا، أضف إلى ذلك عيب (الناصر) الخطير بل قل القاتل، ألا وهو تسلطه على الحكم ومقاليده واستبداده برأيه، ولهذين السببين نفر منهما شيوخ الموحدين وكبار دولته.

ولما طال الحصار على القائد (أبي الحجاج يوسف بن قادس) ونفد ما لديه من أقوات وزاد وسلاح، ورأى أن الخليفة (الناصر) لا يحفل به ولم يرسل إليه بالنجدات التي طلبها لفك الحصار، خشي من دخول جيش (ألفونسو الثامن) الحصن بالسيف، فحينها سوف يقتل المقاتلة من الرجال ويسبي النساء والأطفال ولن يبقى أحد في الحصن، فطلب من الملك (ألفونسو) تسليم الحصن بالأمان، فوافق

(ألفونسو) على طلب القائد (ابن قادس)، فخرج جميع المسلمين من الحصن على الأمان، ثم توجه القائد (ابن قادس) بنفسه إلى معسكر الخليفة (محمد الناصر)، فلما وصل الى مقر ومحل جيش الموحدين، فلما رآه جميع قواد الأندلس أخذوا يحيونه ويسلمون عليه، فوصل خبر وصوله إلى الوزير (ابن جامع) قبل الخليفة، وهنا خاف الوزير من عاقبة خيانته وفعله الخسيس، وخاف من قيام القائد (أبي الحجاج بن قادس) من كشف خيانته لدى الخليفة (الناصر)، فكتم خبر وصول (ابن قادس) وأمر العبيد أن ينزلوه إلى مكان يعرف (بالحتف)، فأنزله العبيد إلى هذا المكان ووضعوه في القيود، فلما أراد الوزير (ابن جامع) الدخول إلى حضرة الخليفة قبل أن يدخل عليه القائد (قادس)، طلب منه القائد الدخول معه فقال له: «أدخل معك «وكأنه كان يعلم بنية الوزير من تدليس الحقيقة وتزويرها وحتى يكشف له الحقيقة فلا يقتله (الناصر) ظلمًا، فكان جواب (أبو سعيد بن جامع) له: «لا يدخل على أمير المؤمنين فاجر»، وهنا علم القائد (ابن قادس) ما يضمره له الوزير من الشر، ثم دخل الوزير إلى خيمة الخليفة (الناصر) وفعلًا فقد أوغر صدر الخليفة على القائد المظلوم بالكذب والبهتان، وأنه سلم الحصن دون مقاومة أو قتال، فما كان من الخليفة (الناصر) إلا أنه أمر بقتل (أبي الحجاج يوسف بن قادس) ودون أن يسمع منه كلمة واحدة، فقتل في الحال على يد العبيد بالرماح.

فلما رأى الفرسان والقواد الأندلسيون فعل (ابن جامع) والخليفة من قتل أحد كبار قادتهم دون محاكمة أو سماع أقواله ودفاعه عن نفسه، حقدوا عليهما وأضمروا الشر للخليفة ووزيره، ومما زاد

كرههم وحقدهم عليهما هو قيام الحاجب والوزير (أبي سعيد بن جامع) بالتوجه إلى ساقة الجيش وطلبه احضار جميع قادة الأندلس في جيش الموحدين، فلما حضروا ووقفوا بين يديه كلمهم بكلام غليظ أهانهم فيه فقال لهم: «اعتزلوا من جيش الموحدين فلا حاجة بنا إليكم، وكما قال الله تعالى {لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم} (سورة التوبة الآية 46) وسينظر بعد هذه المغافلة في أمر كل فاجر «فلما سمع القواد الأندلسيون هذه المقالة وهذا التهديد، علموا أن الدور القادم سوف يكون عليهم، ففسدت نيتهم وحقدوا على الوزير الخائن.

وهكذا قدم هذا الوزير الخائن أعظم الخدمات للعدو المتربص بالمسلمين، فما قام به هذا الوزير لم يكن الملك القشتالي (ألفونسو الثامن) ليحلم بنصفه أو بأقل من هذا بكثير، فقد طرد القواد الأندلسيون أصحاب الخبرة الكبيرة في حرب القشتاليين وأصحاب البلاد، وبهذا يكون قد خسر (الناصر) نصف النصر، وأيضًا غفلة وغرور (الناصر) ساعدت على القضاء على النصف الآخر من النصر، فقد كانت أمارات وبوادر هزيمة المسلمين تلوح في الأفق، وواضحة لكل لبيب.

وعندما علم الخليفة (أبو عبد الله الناصر) بتملك (ألفونسو) لقلعة (رباح)، شق ذلك عليه وامتنع عن الطعام والشراب، وجد في حصار حصن (سريطوة) وبذل عليه الأموال الجليلة، حتى تمكن من فتح الحصن صلحًا في آخر (ذي الحجة سنة 608 ه)، ولما علم الملك (ألفونسو الثامن) بفتح الحصن من قبل الموحدين خاف من الهزيمة فقام باستنفار البابوية حتى تمده بالجنود، وهنا نشرت

البابوية دعايتها وأنها حرب مقدسة، فأتت جموع الفرسان والمرتزقة من جميع أنحاء أوروبا، ولما تكامل جيش (ألفونسو) توجه بجموع جيشه إلى ملاقاة جيوش الموحدين الضخمة، ولما علم أمير المؤمنين بتوجه (ألفونسو الثامن) إلى ملاقاته، أسرع هو الآخر وجد في السير حتى يسبق الجيش القشتالي في احتلال أفضل المواقع.

والتقى الفريقان عند حصن يُسمَّى بحصن (العقاب)، وضرب (الناصر) قبته الحمراء الخاصة بالحروب وقتال الأعداء وجعلها على رأس ربوة عالية، وجاء الخليفة وقعد على درقته وفرسه أمامه وحوله العبيد وحشمه وخاصته في كامل سلاحهم وعددهم، ووقفت الساقة والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير الخائن (أبي سعيد بن جامع)، فأقبل (ألفونسو الثامن) بجيوشه، وبدأت الحرب بينهما، فأول من التحم من جيش المسلمين مع جيش قشتالة، هي فرقة المتطوعين وقد أبلوا بلاءً حسنًا، ولكن دارت الدائرة على المسلمين واستشهدت هذه الفرقة بأكملها، كل هذا حدث أمام عساكر وجنود الموحدين والعرب، والقواد الأندلسيون ينظرون إليهم ولا يتحرك منهم أحد لنجدتهم ونصرتهم !!

فلما فرغ جيش (ألفونسو) من القضاء على المتطوعة كروا حاملين على جيش الموحدين والعرب حملة واحدة فكسروهم، ولم يسحب الأندلسيون سيفًا واحدًا من قرابه، بل تركوا ساحة المعكرة منهزمين تاركين القشتاليين يحصدون جنود وفرسان وقادة الموحدين حصدًا، كل ذلك حقدًا منهم على الخليفة (الناصر) وحاجبه (أبي سعيد) لما فعلوه بالقائد (أبي الحجاج بن قادس)، وكذلك لما لاقوه من إهانة وتهديد من قبل الحاجب لهم.

ولما رأى قواد (الناصر) فرار القوات الأندلسية من أرض المعركة ومقتل فرقة المتطوعة بأكملها، وكثرة الشهداء في صفوفهم، أيقنوا بالهزيمة ففروا منهزمين من أمام جيوش قشتالة، وتركوا الخليفة وراءهم فانكشف موقعه ومكان خيمته، فقصدته جيوش (ألفونسو) حتى تمكنوا من الوصول إلى دائرته وخاصته وحوله العبيد حاملين الرماح فصدوا المهاجمين أولًا حتى تمكنت جنود قشتالة من النفاذ إلى (الناصر)، وذلك بعد أن أحدثوا مقتلة عظيمة للعبيد، فقد قتلوا حوالي عشرة آلاف عبد، كل ذلك والخليفة جالس في خيمته ينتظر مصيره المحتوم، حتى أجبره بعض قواده على الفرار، ففر وهو لا يصدق بالنجاة.

واستمر القتل في جنود وفرسان المسلمين من وقت بدء المعركة حتى الليل، ونادى قواد جيش (ألفونسو الثامن) في جنودهم وعساكرهم قائلين ومحذرين لهم: «لا أسارى إلا القتل، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره «ولم يؤسر في هذه الوقعة أحد من المسلمين.

وكانت هذه الكارثة العظيمة على المسلمين نتيجة حتمية لجيش يقوده خليفة مغرور معتد بنفسه وبقوته ولا يتوكل على الله، وهو الخليفة (أبو عبد الله محمد الناصر)، ووزير وحاجب خائن غاش للمسلمين سيء النصح والتدبير خبيث النفس والطوية، وهو (أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن جامع)، وكانت هذه الهزيمة والنكبة العظيمة على المسلمين في يوم الإثنين (15 من صفر سنة 609 ه)، وكان تعداد جيش الموحدين في الموقعة حوالي خمسمائة ألف مقاتل كانوا على النحو التالي:

1–مائة وستون ألف من المتطوعة رجالة وفرسان.

2–ثلاثمائة ألف مقاتل من الموحدين.

3–ثلاثون ألفًا من العبيد المقاتلين حاملي الرماح.

4–عشرة آلاف من الرماة والأغزاز.

وذلك في مقابل ثلاثمائة ألف من جيوش قشتالة، أي: أن جيش الموحدين كان يفوق جيش قشتالة بحوالي مائتي ألف، فاغتر (الناصر) بكثرة جيشه، وظن أن النصر في صفه، وأنه منصور لا محالة، ونسي أن النصر بيد الله يهبه لمن يشاء من عباده، وكانت من نتائج هذه الهزيمة الساحقة التالي:

1–ضياع قوة المسلمين في الأندلس ونهائيًّا.

2–قيام الملك (ألفونسو الثامن) بالاستيلاء على مدينة (أبره) العظيمة.

3–سقوط مدن ومعاقل المسلمين الواحدة تلو الأخرى، فلم يكن للمسلمين من قوة تقف أمام قوة قشتالة.

بل كادت أن تضيع الأندلس كلها من أيدي المسلمين لولا رعاية الله وتدبيره، فقد سقطت دولة الموحدين في المغرب، وقامت مكانها دولة (بني مرين)، فعبر إلى الأندلس لإنقاذ ما تبقى من أيدي المسلمين من السقوط والضياع أمير المسلمين (أبو يوسف يعقوب المريني) الملقب (بالمنصور)، والذي تمكن من إنقاذ المسلمين في معركة لا تقل في قوتها وأهميتها عن معركتي (الزلاقة) ومعركة (الأرك).

(صورة توضح هزيمة المسلمين في معركة العقاب)

***

127 - ص (210) إلى ص (213) – الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك مدينة فاس – الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، وقيل لأبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي – تحقيق كارل بوحسن نورتبرغ – الطبعة الأولى (2014 م) – مكتبة الثقافة الدينية – (القاهرة).

مازال الجسد ينبض - إنقاذ الأندلس

معركة الدونونية

مقدمة:

***الزمان منتصف القرن السابع الهجري، المكان (الأندلس):**

لم يتبق في أيدي المسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية بعد انهيار دولة (الموحدين) في المغرب والأندلس بعد معركة (العقاب) الشهيرة، والتي انتهت بهزيمة ساحقة لجيوش (الناصر) ووفاته في عاصمة ملكه في (مراكش) بالمغرب كمدًا وحسرة، فقد انقضت الجيوش الصليبية الإسبانية على مدن الأندلس الإسلامية تلتهمها الواحدة تلو الأخرى، ولم يتمكن الزعماء الضعاف الذين سيطروا على هذه المدن وقيادتها من التصدي لجيوش الإسبان التي كانت مثل الموج الهادر الذي يدمر كل شيء يقف أمامه من قوى المسلمين المتشرذمة وغير المتحدة، فقد كان ميزان القوى في المعركة لصالح العدو الصليبي هذه المرة.

وفي وسط هذه الفوضى، وهذا السقوط السريع لمدن وبلاد المسلمين، يظهر في الأفق أحد الزعماء والذي تمكن بفضل قدراته في القيادة ومهاراته السياسية من تجميع ما تبقى من مدن الأندلس تحت لوائه، وهذه الشخصية الفريدة هي (محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر) وكان يلقب (ابن الأحمر) وقد أرجع نسبه إلى الصحابي الجليل (سعد بن عبادة) الأنصاري صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وزعيم الأنصار، وقد ظهر (محمد بن نصر) بداية في قرية (أرجونة) والتي تبعد عن مدينة (جيان) بحوالي ثلاثين كيلو متر، فانتقل إليها ونادى لنفسه بإمارة الأندلس، ودعا أهل الجزيرة لمباعيته أميرًا عليهم، فتوافد الناس إليه ودخلوا في طاعته، وتمكن بذلك من ضم جميع جنوب الأندلس كلها تحت زعامته، وانضم إليه خيرة الجنود والفرسان الذين تبقوا من بلاد الأندلس، فقد كان الناس في حاجة إلى من يتزعمهم ويقودهم إلى بر الأمان، ويحسون في حكمه بالحماية والأمان، ووجدوا ذلك كله في الأمير (أبي عبد الله محمد بن نصر).

ثم انتقل الأمير (أبو عبد الله محمد بن نصر) بعد ذلك إلى مدينة (غرناطة) عاصمة ملك مملكة (بني زيري) في عصر ملوك الطوائف، فجعلها عاصمة ملكه لمملكته الجديدة الفتية الناهضة، واتخذ الحصن الذي كان مقر إقامة الملك (باديس بن حيوس) ملك (غرناطة) أيام (بني زيري) مقرًّا له يسكنه هو وذريته من بعده، وقد دخل تحت حكمه المدن التالية: «بسطة، ووداي آش، ومالقة، وآلمرية «أي: جميع مدن الجنوب الأندلس أصبحت في قبضته وتحت سيطرته، وكان ذلك في شهر رمضان المعظم وفي عام (635ه)، وبذلك تمكن من

توحيد ما تبقى من بلاد ومدن الإسلام في شبه الجزيرة محاولًا إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتكوين دولة وإمارة تكون له ولعقبه من بعده يحكمونها ويتوارثونها جيلًا بعد جيل.

*خيانة أم مهادنة:

ولكن واجه الأمير (محمد أبو عبد بن نصر) مشكلة عظيمة، فقد نظر إلى أوضاع وأحوال الأندلس السياسية، فوجدها غاية في الضعف والانهيار السياسي، والقوى الإسبانية الصليبية قد تمكنت من احتلال معظم مدن المسلمين، وبالتالي لم ير أمامه سوى مهادنة ومحالفة مملكة (قشتالة) حتى يتمكن من التعايش بسلام وإنقاذ مملكته الصغيرة من مخالب الصليبيين، فأعلن تبعيته لملك (قشتالة) (فرناندو الثالث)، وذلك من خلال توقيع معاهدة فيما بينهما نصَّت على الآتي:

1- إعلان ولائه لملك (قشتالة)، ودفع جزية سنوية قدرها (مائة وخمسون ألف قطعة ذهبية).

2- أن يكون تابعًا لمملكة (قشتالة)، أي: أن يحكم مملكة (غرناطة) باسم ملك (قشتالة).

3- أن يرسل لملك (قشتالة) مساعدة عسكرية له عند اقتضاء الحاجة.

وبالفعل قام الأمير (أبو عبد الله محمد بن نصر) بإرسال قوات عسكرية إلى ملك (قشتالة) فيما بين عامي (1246م) و(1248م) أي: بعد عامين من توقيعه هذه المعاهدة، فقد طلب ملك (قشتالة) هذه القوات ليس لمحاربة أعدائه في الشمال من الممالك المسيحية، ولكن لمحاصرة مملكة (إشبيلية) المسلمة،

وبالفعل أرسل (ابن الأحمر) هذه القوات العسكرية ولم يتحرج من ذلك، أو يحس بالعصبية من أجل حماية مسلمي (إشبيلية)، بل بالعكس كان يعتبر ذلك دليل صدق محالفته لحليفته وصديقته مملكة (قشتالة)، وبذلك اشتركت قوات إسلامية مع الجيش الصليبي في محاصرة إخوانهم، وليت (ابن الأحمر) قام بطلب مدينة (إشبيلية) لنفسه يحكمها مع (غرناطة) باسم ملك (قشتالة)، لكان له في ذلك بعض العذر عند المسلمين علمائهم وعامتهم، بل عندما سقطت المدينة قام بتسليمها بنفسه زيادة في إعلان الولاء والتبعية للملك (فرناندو الثالث)، وفي المقابل أن يترك له الملك طريق (الجزيرة الخضراء)و(جبل طارق) !! وبذلك استقر الملك (لأبي عبد الله محمد بن نصر) سنة (1255م)، وأصبحت مملكة (غرناطة) ملجأ الأندلسيين المسلمين الفارين من جميع مدن وممالك الأندلس الساقطة في أيدي الصليبيين.

وقد حكم (أبو عبد الله محمد بن نصر) والذي اتخذ لقب الملك فكان لقبه (الغالب بالله) من سنة (629ه / 1232م) إلى سنة (671ه / 1273م) وبعد أن تمكن من تكوين مملكة قوية تضم بلاد الجنوب الأندلسي كلها وهي: «بسطة، وادي آش، مالقة، آلمرية، شريش، أركش، شذونة، نيريشة، ولبلة، الجزيرة الخضراء، وجبل طارق «وقد كانت وفاة (أبي عبد الله بن الأحمر) سنة (671ه / 1273م) تاركًا وراءه إرثًا من الذل والخيانة توارثهما أبناؤه وأحفاده من بعده، والتي كانت نتائجهما السقوط النهائي والمفجع لمملكة (لغرناطة) الإسلامية في عام (1492م) إعلانًا لنهاية الوجود الإسلامي في الجزيرة، والتي حكمها المسلمون لما يقارب من الثمانية قرون.

هذه المقدمة البسيطة كان لابد منها حتى يستطيع القارئ أن يفهم طبيعة الفترة الحرجة التي ولدت فيها مملكة (غرناطة) من أحوال سياسية مليئة بالضعف والهوان للمسلمين، ولكي يعلم سبب حدوث موقعتنا العظيمة (الدونونية) والتي أنقذت الإسلام في جنوب الأندلس، وأخَّرت سقوط مملكة (غرناطة) لمدة قرنين آخرين من الزمان.

*السلطان (محمد الثاني بن محمد ابن الأحمر) والملقب بـ(الفقيه):

وقد تولى الحكم بعد وفاة والده السلطان (أبي عبد الله محمد الأول) سنة (671 ه / 1273م)، وكان معاصرًا للملك (قشتالة) الملك (ألفونسو العاشر)، والذي كان يلقب بـ(العالم)، وقد تولى بعد وفاة الملك (فرناندو الثالث)، والذي توفى سنة (1257م)، وكان (ألفونسو العاشر) ملك على مملكة كبيرة، وهي (قشتالة) و(ليون)، وكما فعل الوالد من قبل فعل الابن من بعده، فقد جدَّد السلطان (محمد الثاني الفقيه) العهد بينه وبين مملكة (قشتالة) و(ليون)، وكان (ألفونسو العاشر) قلبه مليء بالحقد على من تبقَّى من المسلمين في الأندلس، وكان كله همة ورغبة في القضاء على مملكة (غرناطة)، ولكن واجهته مشكلة منعته من طرد المسلمين من (غرناطة)، وهي الكثافة السكانية العالية لهذه المدينة، فقد تجاوز عدد سكان المملكة المليون مسلم، ولهذا لم يتمكن من تحقيق حلمه من طرد المسلمين وبشكل نهائي من شبه الجزيرة.

*السلطان (محمد الفقيه) والسلطان المريني (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني):

ولما كان السلطان (محمد الثاني الفقيه) على علم بما ينوي عليه الملك (ألفونسو العالم) من رغبة في القضاء على مملكة (غرناطة)، وبذلك يكون قد حقق ما طمح إليه أجداده من قبله، ألا وهو القضاء على الوجود العربي الإسلامي نهائيًّا في (الأندلس)، ولما كانت قواته العسكرية وجيشه من الضعف المعنوي والمادي بحيث لا يستطيع أن يصمد جولة واحدة أمام جيوش (قشتالة) و(ليون) مجتمعة، فقد وجَّه نظره إلى المغرب الإسلامي، فقد كانت هناك دولة قوية قد قامت على أنقاض دولة (الموحدين) وهي الدولة (المرينية)، فقد تمكنت هذه السلطنة من توحيد قبائل المغرب تحت لوائها.

ولما لم يجد السلطان (محمد الفقيه) سبيلًا آخر أمامه سوى الاستنجاد بسلطان المغرب، فقد أعيته الحيل ولم تنفعه الهدايا ولا المهادنات مع الملك (ألفونسو العاشر)، مما أجبره إلى الاستنجاد بسلطان المغرب، وراسل السلطان (أبا يعقوب يوسف المريني).[128]

*رسالة السلطان (محمد الثاني) إلى السلطان (أبي يوسف يعقوب):

وقد أرسل سلطان (غرناطة) إلى سلطان (المغرب) رسالة يقول فيها: «يا أمير المسلمين، إنك ملك الزمان، والمنظر إليه في هذا اليوم، فقد وجب عليك نصر المسلمين وإعانة المستضعفين، فإن لم تنصر الإسلام فمن ناصره؟»

128 - ص (443) إلى ص (446) – معالم تاريخ المغرب والأندلس – الدكتور حسين مؤنس – الطبعة السابعة (1424هـ / 2004م) – دار الرشاد – (جمهورية مصر العربية).

*تلبية السلطان المريني (أبي يعقوب) نداء سلطان (غرناطة) ونزوله الجزيرة:

وقد استفزت رسالة السلطان (محمد بن الأحمر) مشاعر الجهاد عند سلطان (المغرب)، ولامست قلبه الذي كان يدميه ما يحدث للمسلمين في الأندلس، وكأنه كان في انتظار هذه الرسالة والتي كانت بمثابة الإذن له للجهاد ضد الإسبان (القشتاليين) ورد كرامة الإسلام والمسلمين في الأندلس ومحاولة استرجاع مدن الأندلس.

وكما فعل سلاطين وأمراء المغرب من قبل، فقد عبرت قوات وجيوش المرينيين إلى (الأندلس) نجدة لإخوانهم وردا لاعتداء المعتدي، ومن المفارقات العجيبة هو التشابه في أسماء وكنى السلاطين الثلاثة الذين هبوا لنجدة الأندلس من الإسبان، فكان أولهم أمير (المرابطين) (أبو يعقوب يوسف ين تاشفين)، وثانيهم (أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي) سلطان (الموحدين)، وآخرهم هو السلطان المريني (أبو يوسف يعقوب المريني)، فخرج السلطان من مدينة (فاس) سنة (673 ه) ومنها إلى مدينة (طنجة)، ثم بعث إلى الفقيه (أبي القاسم العزفي) وأمره بتعمير الأساطيل البحرية وإصلاح الأجفان (القوارب الكبيرة) والمراكب وذلك لعبور المجاهدين والعساكر إلى (الأندلس)، وكان تعداد جيش السلطان (أبي يوسف يعقوب المريني) خمسة آلاف من فرسان وأنجاد المغرب والعرب، وقد عقد لابنه (أبي زيان) اللواء عليهم وأوصاه بتقوى الله، واتجه إلى القصر المسمى بـ(قصر المجاز) وتركه فوجد الفقيه (أبا القاسم العزفي) قد جهز له عشرين جفنًا (قارب كبير) قد أعدت لعبور الجيش، فركب الأمير (أبو زيان) البحر مع جيشه من (قصر

المجاز)، ونزل بطريق من بلاد (الأندلس) وكان ذلك في يوم (16 من ذي القعدة سنة 673 ه) فأقام بهذا الطريق مدة ثلاثة أيام كاملة كي يستريح هو وجيشه والخيول من ركوب البحر ومشاقه.

*الأعمال الحربية التي قام بها سلطان المغرب في الأندلس قبل معركة (الدونونية):

وهنا وبعد تكامل وتلاحق جيوش المرينيين في الجزيرة بدأت العمليات العسكرية والتي قام بها الأمير (أبو زيان) في أراضي الملك الإسباني (ألفونسو العاشر)، وذلك بقصد إرهاب وإخافة جيوش وعساكر وجنود (قشتالة)، هاجم الأمير (أبو زيان) مكانًا يعرف (بالبحيرة)، فغنمها وبعث بالغنائم إلى مدينة (الجزيرة الخضراء)، وأخذ بعد ذلك يوالي هجماته على القرى والحصون على الحدود بين (غرناطة) و(قشتالة)، فأخذ يحرق الزروع ويقطع الثمار وينسف الآثار حتى وصل إلى مدينة (شريش)، ولم يوقفه أحد من الجنود (القشتاليين) وكان ذلك فتحًا عظيمًا في (الأندلس) لم يسمع به منذ هزيمة المسلمين في معركة (العقاب) أيام حكم دولة الموحدين للأندلس سنة (609 ه).

ولما علم السلطان (أبو يوسف يعقوب) انتصارات ولده الأمير وقائد جيوشه (أبي زيان)، قام بالعبور بنفسه إلى أرض (الأندلس)، وقام باستنفار جميع القبائل المغربية والعربية على السواء، وأخذ يحفزهم ويشجعهم على الجهاد، ارتحل السلطان من (قصر المجاز) فأخذ بتجهيز الجيوش والخيل والسلاح والعدد والعدة، وجاز إلى (الأندلس) يوم (الخميس من 21 من شهر صفر سنة 674ه)

فصلى صلاة الظهر في الطريق، ثم اتَّجه إلى مدينة (الجزيرة الخضراء) وهناك التقى بكل من السلطان (محمد بن الأحمر الفقيه) سلطان (غرناطة) والأمير (ابن أشقيلولة) أقارب سلطان (غرناطة)، وكانت بينهما عداوة وبغضاء، فأصلح السلطان (أبو يوسف يعقوب) بينهما واتَّحدت كلمتهما وصدقوا النية على الجهاد، ثم انصرف بعد ذلك السلطان (محمد الفقيه) إلى عاصمته (غرناطة) و(ابن أشقيلولة) إلى مدينته (مالقة)، وقام السلطان (أبو يوسف) بتوحيد جيوشه مع جيش الأندلس وتوجَّه بهم جميعًا إلى منطقة (الوادي الكبير) وذلك حتى لا تشعر بهم القوات (القشتالية) ويستعدون لهم أو يقطعون عليهم الطريق أو يتحصنون في حصونهم وقلاعهم، فتضيع جهودهم كلها سدى، ثم عقد لولده (أبي يعقوب) على مقدمته، وجعل بين يديه خمسة آلاف فارس، وأعطاه الطبول والبنود (الأعلام)، فتحرك من (الوادي الكبير) حتى بلغ حصن (المدور) من أحواز مدينة (قرطبة) و(أبدة) و(بياسة) ونواحيها، وهو يقتل الجنود والفرسان (القشتاليين) ويأسرهم ويسبيهم ويغنم الأموال، وتمكن من دخول حصن (بلية) بالسيف، وغنم ما به من الأموال، ثم توجَّه بعد ذلك إلى مدينة (أشجة) ومعه الغنائم والدواب والخيول التي لا تُحصى، وهنا أتى أمير المسلمين السلطان (أبو يوسف يعقوب) الخبر بخروج جيوش (قشتالة) وعلى مقدمتهم الفارس (الدون نونيو دي لارا) ذائع الصيت والشهرة في الفروسية والشجاعة والنكاية في المسلمين.

*المعركة الفاصلة (معركة الدونونية):

ولما علم أمير المسلمين (أبو يوسف يعقوب المريني) بقدوم جيوش (قشتالة) لصد جيوش المسلمين وإبادتهم، فدعا مشايخ (بني

مرين) الكبار للمشاورة وكيف يواجه هذا الجيش الكثيف، وقد زعمت بعض المصادر أن تعداد الجيش (القشتالي) كان يبلغ حوالي التسعين ألفًا، وكان لقائد جيشهم (دون نونيو) أو (دون نونة) كما كان يسميه العرب في كتبهم سمعة وشهرة في بلاد (الأندلس)، فإنه لم ينهزم في حرب خاضها قط، ولما عاين أمير المسلمين الوضع والمأزق الذي هو فيه، علم أن هذه المعركة سوف تكون المعركة الفاصلة، معركة حياة أو موت، إما البقاء في (الأندلس) أو النهاية والضياع التام للإسلام والمسلمين على أرض هذه الجزيرة، ولما عاين السلطان حماس جيش (القشتاليين) لقتال المسلمين ورغبتهم في إبادتهم عمد إلى وضع الخطة التالية:

1-أمر بالغنائم التي غنمها المسلمون فقدمت أمام الجيش (المريني) وجعلها تحت حراسة ألف فارس من خيرة فرسان (بني مرين).

2-تأخر هو ومعه كل الجيش لمحاربة الجيش (القشتالي).

وبعد أن قام السلطان بوضع هذه الخطة، قام بعمل إلهاب حماسة الجيش الإسلامي، فقد نزل من على جواده وتوضأ ثم صلى ركعتين، ثم رفع يديه إلى السماء ودعا والجيش يؤمن من ورائه ثم ختم دعائه بدعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي دعا به يوم غزوة (بدر الكبرى) فقال: «اللهم انصر هذه العصابة، وسلمها وأعنها على جهاد عدوك وعزرها وأيدها «فلما انتهى من دعائه قام فركب جواده وعبأ الجيش واستعد للحرب ولقاء العدو، وجعل ابنه (أبا يعقوب) على مقدمة الجيش، ثم تقدم إلى أمراء العرب ومشايخ (بني مرين) فقال لهم: «يا

معشر المسلمين وعصابة المجاهدين، إن هذا يوم عظيم، ومشهد جسيم، ألا إن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت أترابها، فجدوا في طلابها، فإن الله تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فشمروا ساعد الجد وعاشر المسلمين في جهاد الكافرين، فمن مات منكم مات شهيدًا، ومن عاش عاش غانمًا مأجورًا حميدًا، فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »، فلما سمع الجنود كلامه اشتاقوا إلى الشهادة، وعانق بعضهم بعضًا عناق الوداع، وقد وطنوا أنفسهم على الموت والشهادة، ورفعوا أصواتهم بالشهادة والتكبير وجميعهم يقولون لبعضهم البعض: «عباد الله إياكم والتقصير »وهذا وإن دل على شيء دل على عظم الحدث وجلله، ومعرفة المسلمين بأن المعركة التي هم مقبلون عليها، هي معركة بقاء، إما حياة في عزة وكرامة، أو هزيمة وأسر وهوان، ليس لهم وحدهم فقط، بل لهم ولمن وراءهم من أهليهم وذراريهم من بعدهم، وضياع الإسلام من (الأندلس) بالكلية ونهائيًّا، لهذا لم يكن أمام المسلمين خيار سوى النصر والاستماتة في سبيل تحقيقه.

التقى الفريقان والتحم الجمعان، وقد صبر الجيش الإسلامي المتحالف على قلته أمام جيوش (قشتالة)، وعلى الرغم من قلة العدد والعتاد لجيش الإسلام، ولكن كانت هناك ميزة تميزه، ألا هي روح الجهاد العالية والرغبة الصادقة في النصر، والتوكل الصحيح على الله، وما كان الله ليخيب جيشًا كهذا، بذل كل ما في وسعه من أجل الدفاع عن دينه، وما هي إلا ساعات قليلة حتى قُتل القائد (الدون دنونيو دي لارا) وهُزمت عساكره، وركب المسلمون

أكتاف العدو فأثخنوهم قتلًا وتشريدا وأسرًا، وكانت نكبة عظيمة على جيوش (القشتاليين) ونصرًا مبينًا لجيوش المسلمين.

وبعد انتهاء المعركة أمر أمير المسلمين (أبو يوسف يعقوب) بقطع رقاب ورؤوس الجنود (القشتاليين) في المعركة، وقد تم إحصائها فكانت حوالي ثمانية عشر ألف فارسًا ونيفًا، وقد جعلوها على هيئة الجبل، فصعد المؤذنون على هذه الرؤوس فأذنوا للصلاة، فصلى المسلمين صلاة الظهر والعصر في أرض المعركة، فلما انتهت الصلاة قام أمير المسلمين بتفقد شهداء المسلمين **فوجدهم كالتالي:**

1- تسعة من (بني مرين).

2- خمسة عشر من العرب والأندلسيين.

3- ثمانية من المتطوعين.

فأمر بدفنهم فدفنوا، ثم حمد الله تعالى وشكره وأثنى عليه لما مَنَّ به عليه وعلى المسلمين من هذا النصر العظيم، وكان هذا النصر يوم (15 من شهر ربيع الأول من سنة 674 ه)، وكتب أمير المسلمين بهذا الفتح العظيم إلى جميع بلاد المسلمين في أراضي (الأندلس) و(المغرب) فقُرئت كتب أمير المسلمين على المنابر، وأخرج الناس الصدقات وأعتقوا الرقاب (العبيد) شكرًا لله تعالى على نصره للمسلمين أمام عدوهم (القشتالي).

ثم وصل أمير المسلمين إلى (الجزيرة الخضراء) ومعه السبي والغنائم والأسرى، وكان قدومه إلى (الجزيرة الخضراء) يوم (25 من شهر ربيع الأول من سنة 674 ه) وبعث برأس القائد (دون نونيو)

أو (دون نونـة) إلى سـلطان مملكـة (غرناطـة) السـلطان (محمـد الثـاني الفقيـه)، فأخـذ السـلطان رأس هـذا القائـد ((القشـتالي) وجعلهـا في المسـك والكافـور كـي يحفظهـا مـن العفـن، ثـم بعث بهـا إلى (ألفونسـو العـاشر) ملـك (قشـتالة) و(ليـون) كنـوع مـن التقـرب والتزلـف إليه!

وفي تلـك الأثنـاء قـام أمـير المسلمين في مدينـة (الجزيـرة الخضـراء) بتقسـيم الغنائـم، فأخـرج الخمـس منهـا وأرسـله إلى بيـت المـال الخـاص بالمسـلمين، وقسـم باقـي الغنائـم عـلى المجاهديـن، وظـل أمـير المسـلمين (أبـو يوسـف يعقـوب المرينـي) في (الجزيـرة الخضـراء) بقيـة (شـهر ربيـع الأول) و(شـهر ربيـع الثـاني) ثـم خـرج في أول شـهر مـن (جمـادى الأولى) لإكـمال الجهـاد في (الأندلـس) ضـد مملكـة (قشـتالة) و(ليـون)، فقـد شـن الغـارات عـلى مـدن (أشـبيلية) و(قرطبـة) و(شريـش)، وأكثـر مـن القتـل والسـبي في الإسـبان حتـى طلبـوا الصلـح معـه.(129)

وبهـذا النـصر الـذي تمكـن المسـلمون مـن تحقيقـه بعـون الله وقدرتـه في هـذه المعركـة العظيمـة والفاصلـة بـين جنـود الحـق ضـد جنـود الباطـل، والتـي أشـبهها في عظمهـا وأهميتهـا بموقعتـي (الزلاقـة) و(الأرك) في خطورتهـا وأهميتهـا للمسـلمين، فقـد أخـرت سـقوط (الأندلـس) النهائـي أو مـا تبقـى مـن أمـلاك المسـلمين بهـا حـوالي مائتـي سـنة أخـرى.

***

129 - ص (281) إلى ص (287) – الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس – للشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، وقيل لأبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي – تحقيق كارل بوحسن نورنبرغ – الطبعة الأولى (2014م) – مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة).

الفصل الخامس

خبايا العصر المملوكي

مقدمة

دائما ما كانت ((مصر)) صاحبة السبق في القضايا التاريخية المهمة، فكما كانت صاحبة الريادة في التاريخ القديم، كانت لها الريادة أيضا في التاريخ الوسيط والتاريخ الإسلامي بالتحديد، وفي هذا الفصل سوف أتناول قضايا متنوعة ما بين الحياة السياسية والحربية، والحياة الاجتماعية في تلك الفترة، وهي فترة العصر المملوكي، فقد كانت فترة حروب عظيمة خاضها هؤلاء المماليك ضد بقايا القوى الصليبية في بلاد الشام، وأيضًا ظهور التتار وصد المماليك لهم ودحرهم عن ((مصر)) وبلاد الشام، وسوف أتناول قضايا شغلت بعض القراء في الفترة الأخيرة مثل قضية كسر أنف ((أبي الهول)) وقضية ((هدم الأهرام)) وغيرها من القضايا، والتي أرجو أن تعجب القراء.

***

آخر المماليك الفاتحين

الأشرف برسباي وفتح قبرص

أصبحت (قبرص) راعية الحروب الصليبية، وقائدة القرصنة البحرية في البحر المتوسط، فقد كانت سفن ملك (قبرص) لا تتوقف على السواحل الإسلامية في بلاد (الشام) و (مصر)، ولهذا كان على القوى الإسلامية من وقف هذه المملكة الصليبية التي أصبحت تهدد سواحلها ومدنها القريبة من البحر، وكانت الدولة المصرية هي الوحيدة القادرة على وقف نشاط (قبرص) في البحر، وتهدد سلامة مواطنيها وتهدد تجارتها، وكان المماليك هم من تمكنوا من فتح جزيرة (قبرص) والقضاء على قوتها نهائيًّا، وقد تم ذلك على مراحل هي:

*قيام دولة المماليك الأولى في (مصر) و(الشام) وعلاقتها بجزيرة (قبرص):

في سنة (648 ه / 1250م) قامت دولة المماليك الأولى، وكان أول سلاطينها الملك (المعز أيبك)، ثم قتلته زوجته (شجر الدر) لانفراده

بالملك من دونها، وهي التي رفعته إلى العرش، ثم قُتلت (شجر الدر)، ثم تولى السلطنة (قطز)، والذي هزم التتار سنة (658 ه) في موقعة (عين جالوت) المجيدة، وبهذا الانتصار الكبير كسب المماليك شرعية الحكم من بعد أن كان ينظر إليهم على أنهم مغتصبون للعرش من أصحابه بني (أيوب)، والذين أثبتوا عدم قدرتهم على الحكم، وتخاذلًا في رد التتار، بل إن بعضهم هادى قائد التتار (هولاكو) لكي يأمنوا شره.

ولكن الذي يهمنا هنا هو علاقة المماليك في (مصر) بملوك جزيرة (قبرس)، فقد كان على عرش الجزيرة في حكم السلطان (بيبرس) والذي تولى السلطنة بعد (قطز) الملك (هيو الثالث)، والذي قام بالقبض على رسل السلطان (بيبرس) والذين مروا من جزيرة (قبرس) في سفارة إلى سلاجقة الروم، وكان هذا تعديًا صارخًا على حرمة الرسل، وكسرًا لهيبة سلطان (مصر)، وهذا الفعل أغاظ (بيبرس) كثيرًا، ولكنه اكتفى بتوجيه التهديد والوعيد لأمراء الصليبيين.

*محاولة السلطان (الظاهر بيبرس البندقداري) غزو جزيرة (قبرص) وفشله في فتحها:

وكان لهذا الحدث السابق أبلغ الأثر في نفس (الظاهر بيبرس) ففكر جديًّا في غزو الجزيرة وضمها إلى أملاك المماليك وبشكل نهائي، ولهذا نجده يجهز في سنة (669 ه / 1270م) يأمر بتجهيز الأساطيل لغزو جزيرة (قبرص)، وذلك عندما علم أن ملك (قبرس) (هيو الثالث) يقوم بزيارة لمدينة (عكا) لتفقد شئون

مملكة (بيت المقدس)، فقام السلطان بتجهيز حوالي (ستة عشر) أو (سبعة عشر) شينيا*، وجعل فيها من القواد الرئيس (ناصر الدين عمر بن منصور) رئيس (مصر)، و(شهاب الدين محمد بن عبد السلام) رئيس (الإسكندرية)، (وشرف الدين علوي بن أبي المجد بن علوي العسقلاني) رئيس (دمياط) وأمر على الجميع الرئيس (جمال الدين مكي بن حسون)، فسارت الشواني في شهر شوال، ووصلوا الجزيرة ليلًا حتى قاربوا من جزيرة (قبرص)، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد هاجت الرياح على الأسطول فطردتهم عن المرسى الخاص بالجزيرة، وجعلت الشواني تتخبط بعضها ببعض، فتكسر وتحطم منها أكثر من (أحد عشر شينيا) وأخذ من فيها من الجنود والصناع أسرى، وكانوا حوالي (ألف وثمانمائة) رجل، ولم يسلم من هذه المصيبة إلا الرئيس (ابن حسون) و(ناصر الدين) في الشواني السالمة، وعادت إلى مراكزها، فعظم أمر الهزيمة على السلطان (الظاهر بيبرس).

ولما علم (هيو الثالث) بأمر هذه الحملة المملوكية على جزيرته في أثناء غيابه، وما حل بها من تكسر سفن الأسطول المصري على سواحل جزيرته، أرسل رسالة فيها تقريع وشماتة إلى السلطان، فلما قرأ السلطان الرسالة قال: «الحمد لله منذ ملكني الله تعالى الملك ما خذلت لي راية، وكنت أخاف من إصابة عين، فبهذا ولا بغيره».

ويذكر أن الرئيس (ابن حسون) قد عمل حيلة لكي يتمكن من دخول الجزيرة دون مقاومة أو خسائر، فقد أمر الصناع الذين معهم بطلاء الشواني بالقار الأسود ورسم الصلبان عليها كما يفعل الصليبيون في أساطيلهم، فتطير القوم منه، وحل ما

حل بالأسطول على مرسى الجزيرة (ليماسول) من أمر الريح العاصف التي ضربت الأساطيل وكسرتها.[130]

ونجد في أسلوب رد السلطان (الظاهر بيبرس) على رسالة ملك (قبرص) أسلوبًا تهكميًّا في غير موضعه، وتفاخر بغير حق، فقد كانت كسرة وهزيمة الأسطول المملوكي هزيمة حقيقية، وإن كانت الرياح العاصفة هي سبب الهزيمة، والتي لولاها لأخذت الجزيرة كلها فعلًا، أو بعضها، لكن الذي حدث كان في صالح مملكة (قبرص) فقد طال عمرها حتى مجيئ السلطان (الأشرف قيتباي).

ولكن هذه الكسرة لم تثني السلطان (الظاهر بيبرس) عن مسعاه، فكتب في العشر الأيام الأخيرة من شهر (ذي الحجة) إلى (القاهرة) بعمل وإنشاء (عشرين شينيًّا) جديدة، وإحضار (خمس) شواني من مدينة (قوص) كانت موجودة هناك، وانتهى العمل من الأسطول الجديد في يوم الأحد (رابع عشر المحرم) سنة (670 ه)، ثم كتب إلى ملك (قبرص) برسالة أبرق فيها وهدد، وأرعد، يخوفه منه، ومن أساطيله، ولكن السلطان لم يغزو الجزيرة بعد ذلك.[131]

وتعتبر هذه الغزاة التي لم تكتمل المحاولة الأولى في عهد وحكم السلاطين المماليك (بمصر)، وعلى الرغم من أنها فشلت، إلا أنها نبهت السلاطين من بعد (الظاهر بيبرس) على أهمية الجزيرة من حيث موقعها الجغرافي المتميز، وأهميتها الحربية والسياسية، ولهذا

130 - ص (90) وص (91) – قبرس والحروب الصليبية – د. سعيد عبد الفتاح عاشور – الطبعة الثانية (2000م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – (القاهرة) .

131 - ص (594) – المرجع السابق.

سـوف نـرى كيف تمكـن السـلطان (الأشرف قايتباي) من غـزو الجزيرة وضمهـا إلى مملكـة (مـصر) مـن خـلال ثـلاث حمـلات متوالية.

*سلطنة السلطان الملك (الأشرف سيف الدين أبي النصر برسباي الدقماقي الظاهري الجركسي):

تـولى السـلطنة بالتغلـب، وبويـع من جميـع أربـاب الدولـة والأمراء والقضـاة، وبايعـه الخليفـة العبـاسي في ذلـك (المعتضـد بـالله أبـو الفتح داود بـن المتـوكل عـلى الله أبـى عبـد الله محمد)* في يـوم الأربعـاء (ثامن شـهر ربيـع الآخـر سـنة خمس وعشريـن وثمانمائـة)، ولُقِّـب بالملـك (الأشرف أبي العـز) ونـودي بذلك في جميـع أنحاء (القاهـرة) و(مصر).

وقـد عنـي بأمـر البحـر والغـزو فيـه، وقـد أدرك أن سـفن المماليـك المصريـة سـواء كانـت حربيـة أو تجاريـة لـن تبحـر أبـدًا بحريـة وأمـان طالمـا أن جزيـرة (قـبرس) تحـت حكـم النصـارى، وكان هنـاك أيضًـا هــدف آخـر وهــو الأهــم، ألا وهــو المجـد الشــخصي، فقــد كان السـلطان (الأشرف برسـباي) طموحًـا جـدًّا وذا رغبـة شـديدة في حفر اسـمه في التاريـخ، ولم يجـد أفضـل مـن الغـزو، خصوصًـا وأن جميـع بـلاد الإسـلام في (الشـام) قـد حُـررت بالفعـل كلهـا، ولم تعـد هنـاك شـوكة في جنـب الدولـة الإسـلامية سـوى مملكـة (قـبرص)، والتـي كانـت تقـوم بأعـمال قرصنـة مسـتمرة في البحـر المتوسـط، ولهـذا رأى أن يكـون أعظـم إنجازاتـه عندمـا تـولى السـلطنة هـو فتـح الجزيـرة، وقـد فتحـت هـذه الجزيـرة مـن خـلال ثـلاث حمـلات متواليـة، انتهـت بفتـح الجزيـرة وأسر ملكهـا، وإعـلان تبعيتهـا الفعلية لسـلطان (مـصر) المملوكـي، وهـذه الحمـلات خرجـت عـلى الشـكل التـالي:

*الحملة الأولى (827 ه / 1424م):

وكانت في سنة (827 ه / 1424م)، وهي تعد حملة استكشافية أكثر منها حملة حقيقية لغزو وفتح جزير (قبرص)، وكان سبب خروج هذه الحملة ما قام به القراصنة الفرنج سنة (1423م) من أخذهم مركبين من مراكب المسلمين قرب مدينة (دمياط) فيهما بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجل، وبأن ملك (قبرص) (جانوس لوزجنان) والذي حكم الجزيرة من سنة (1398م) إلى سنة (1432م) قد استولى هو أيضًا على سفينة محملة بالهدايا كانت مرسلة من قبل السلطان (الأشرف برسباي) إلى السلطان العثماني (مراد)، وعندها ثار غضب السلطان، وقرر غزو وفتح الجزيرة بالسيف مهما كلفه ذلك من أموال وذخيرة وعدة وعتاد.

وكما قلنا سابقًا كانت هذه الحملة عبارة عن حملة استكشافية لمعرفة مواطن القوة والضعف في الجزيرة، فقد غادرت الحملة ومؤلفة من سفينتين كبيرتين من ميناء (بولاق)، وبهما عدد (ثمانون) مملوكًا، وقيل: بل كان عددهم (سبعين) فارسًا، وكبيرهم مملوكان هما (يشبك الحرون) و(إياس الطويل)، ثم خرجت سفينة أخرى من (دمياط) ولحقت بالسفينتين، وكان خروج السفن من (القاهرة) في اليوم (التاسع من شهر رمضان سنة 827 ه)، واتجهت السفن إلى مدينة (بيروت)، وهناك انضمت إليهم سفينة رابعة، ثم اتجهت السفن بعد ذلك إلى مدينة (طرابلس)، وخرجت معهم من هناك سفينة أخرى، فأصبح الأسطول عبارة عن (خمسة) سفن، (ثلاثة) منها كبار بكل

واحدة منهما عدد (مائة وثمانين) مجدافًا، و(اثنتان) صغار بكل منهما عدد (مائة) مجداف، ثم اتخذت الحملة وجهتها إلا وهي جزيرة (قبرص).[132]

وصادفت الحملة وهي متجهة إلى الجزيرة ريح شديدة قرب شواطئها، فتفرقت السفن كيلا يتخبطون ببعضهما البعض فتنخرق السفن أو تعطب فتغرق وتفشل الحملة، وذلك كما حدث في الحملة التي كانت في عهد السلطان السابق (الظاهر بيبرس البندقداري)، وبعد أن هدأت الريح عادت السفن وتجمعت من جديد، ثم اتجهت إلى رأس (الياق) جنوبي ميناء (ليماسول)، حيث وجدوا مركبًا فرنجيًّا كانت قد أرست أشرعتها هناك، وكانت المركب مشحونة بالبضائع، فلما أبصر بحارة المركب الأسطول الإسلامي قادمًا نحوهم فروا وتركوا مركبهم، فقام البحارة المسلمون بنهب هذه البضائع، وأشعلوا في المركب النيران، ثم اتجه الأسطول (المصري) إلى ميناء (ليماسول)، فلما علم أهلها بقدوم المسلمين المجاهدين إلى مدينتهم أخرجوا النساء والأطفال من المدينة لئلا يتعرضوا للسبي والأسر، وعندما وصل الأسطول (المصري) إلى الميناء وجد هناك (ثلاث) سفن كانت قد أُعدت للإغارة على سواحل وشواطئ البلاد والمدن الإسلامية، فقام المجاهدون المسلمون بأخذ ما كان بها كلها، ثم أحرقوا هذه السفن، ثم ظهرت في الأفق طلائع الفرسان والقوات (القبرصية) والتي أتت لنجدة المدينة، والتي كانت مؤلفة

132 - ص (668) – كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – الجزء الرابع (القسم الثاني) – حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، أستاذ تاريخ العصور الوسطى كلية الآداب جامعة القاهرة – الطبعة الرابعة (1436هـ / 2014م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

مـن (سـبعين) فارسًـا، وثلاثمائة راجـل بقيادة حاكم (ليماسـول) نفسـه، ولكـن سرعـان من انتهـت المعركة بسرعة بانهـزام القـوات (القبرصية)، ففـروا بعـد أن قُتـل منهـم فـارس واحـد وعـدة رجال.

ثـم اسـتمر المسـلمون المجاهدون في أعـمال الغـزو للجزيـرة، فقاموا بمهاجمـة (ليماسـول) وتمكنـوا مـن فتـح جانـب واحـد مـن المدينـة، وحاولـوا فتـح الجانـب الآخـر، ولكـن تبـين لهـم أنـه شـديد التحصين والمنعـة، وقـد يطـول حصـاره، فاكتفـوا بنهـب كل مـا وجـدوه، ومـا وصلـت إليـه أيديهـم مـن ظـروف العسـل والسـمن وأعـدال الجـوخ والصـوف وأثـاث البيـوت وغـير ذلـك.[133]

ثـم قامت فرسـان المماليك بإشـعال النـيران في عدة جهـات من مدينة (ليماسـول)، ثـم غادروهـا إلى منطقـة (كوكليـا) حيـث التقوا بسـفينتين قادمتـين مـن مدينـة (جورهيجوس) عـلى سـاحل (أرمينيـة الصغرى)، فقامـوا بإشـعال النار في إحـدى هاتـين السـفينتين، وأسروا الأخرى.

وفي أواخـر سـنة (827 هـ / 1424م) أقلعـت السـفن المملوكيـة مـن السـواحل (القبرسـية) فوصلـت إلى السـواحل (المصريـة) محملـة بأكـبر قـدر مـن الغنائـم التـي تمكنـوا مـن حملهـا معهـم، فضـلًا عـن عـدد غـير قليـل مـن الأسرى اختلـف في تقديـره بـين المؤرخـين، ولمـا عـاد المجاهـدون إلى (مـصر) قدمـوا مـا تمكنـوا مـن غنمـه إلى السـلطان (الأشرف برسـباي) فتـصرف فيـه طبقًـا لأصـول الشريعـة الإسـلامية، وقـد آثـر نفسـه بحـوالي (مائـة وثلاثـين) قطعـة مـن الجـوخ باعهـا للتجـار، ولم يعـط المجاهديـن مـن ثمنهـا شـيئًا.[134]

133 - ص (671) وص (672) – المصدر السابق.

134 - ص (262) وص (263) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – بدر الدين العيني – تحقيق

وهـذه كانت نهايـة الحملـة الأولى أو الغـزوة (الصغرى) كما يسـميها بعـض المؤرخـين، وقـد اختلـف المـؤرخ المـصري الكبـير وأعنـي بـه الامـام (المقريـزي) فقـد أورد هـذا الخبر في كتابـه (السـلوك) بشـكل مغايـر قليـلًا فيقـول:

«وفي تاسـعه (يقصـد التاسـع مـن شـهر رمضـان سـنة 827 ه) سـار غرابـان (السـفن الحربيـة الكبـيرة) مـن سـاحل (بـولاق) خـارج (القاهـرة)، وقـد قدمـا منـذ أيـام أحدهمـا مـن (الإسـكندرية)، والآخر مـن (دميـاط)، وأشـحنا بالمقاتلـة والأسـلحة، وأنـزل فيهـما (ثمانـون) مملـوكًا، وقـد أمـروا أن يسـيروا في بحـر الملـح مـن جهـة (طرابلـس)، ويأخـذوا من سـواحل (الشـام) عـدة أغربة عسـى أن يجدوا مـن يتجرم في البحـر مـن الفرنـج.

ثـم يعـود فيكمـل في موضـع آخـر مسـير الحملـة ومـا انتهـت إليـه وعودتهـا إلى (مـصر) سـالمة فيقـول:

«وفي يـوم السـبت عشرينـه (يقصـد العشريـن مـن شـهر ذي القعدة سـنة 827 ه) وصـل الغربـان (السـفن الحربيـة الكبـيرة) بـالأسرى والغنيمـة، وذلـك أنهـما لمـا مـرا (بدميـاط)، تبعهـما قـوم مـن (المطوعة) في سـلورة (سـفينة صغيرة)، حتـى مروا (بطرابلس) سـار معهـم غربان إلى (المغوصـة) – هـي مدينـة (فاما جوسـتا) – فأضافهـم متملكها، فلم يتعرضـوا لبـلاده، ثـم مضـوا عنـه إلى بـلاد يقـال لهـا: (اللمسـون) – يقصـد ميناء (ليماسـول) – مـن جزيرة (قـبرس)، وبعد أن اسـتعد أهلها وأبعـدوا عياهـم، وخرجـوا في (سـبعين) فارسًـا و(ثلاثمائـة) راجـل،

وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي القرموط – الزهراء للإعلام العربي – (القاهرة).

فقاتلهم المسلمون وهزموهم، فقتلوا منهم فارسًا واحدًا وعدة رجال، وحرقوا ثلاثة أغربة، وغرقوا ثلاثة، وعاثوا فيما وجدوه من ظروف العسل والسمن وغير ذلك، وأسروا (ثلاثة وعشرين) رجلًا، وغنموا جوخًا كثيرًا، ورفع للسلطان منه (مائة وثلاث) قطع، طرحت على التجار ولم يعط المجاهدين منها شيئًا»[135].

ونجد في رواية (المقريزي) عدة أمور وملاحظات هي:

1-الاختصار الشديد في إيراد الحملة وسيرها وعدم ذكرها في موضع واحد، فقد ذكرها مفرقة في موضعين مختلفين.

2-أيضا أضاف معلومة لم توجد إلا عنده فقط، وهي قيام صاحب مدينة وميناء (ماغوصة)، وهي الآن تعرف باسم (فاما جوستا) بإضافة الأسطول المملوكي القادم من (مصر)، ولهذا لم يتعرضوا له ولا لبلاده بالسلب والنهب، ولم يذكر مصدره الذي استقى منه مادته التاريخية.

3-كذلك يتضح من إيراد (المقريزي) لهذه الحملة بهذا الاختصار أنه قد اعتبرها حملة انتقامية قام بها الأسطول المملوكي بأمر من السلطان (الأشرف برسباي) ردًّا على قرصنة السفن (القبرسية) والفرنجية على سفن وسواحل المسلمين، أكثر منها حملة استكشافية بغرض فتح الجزيرة.

135 - ص (668) وص (671) وص (672) – السلوك لمعرفة دول الملوك – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – الجزء الرابع (القسم الثاني) – حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، أستاذ تاريخ العصور الوسطى كلية الآداب جامعة القاهرة – الطبعة الرابعة (1436هـ / 2014م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

وبعد نجاح هذه الحملة وعلى الرغم من صغرها، إلا أنها كانت على قدر كبير من الأهمية، وتتضح أهمية هذه الحملة في الآتي:

1-قد أثبتت وأدانت ملك (قبرص)، وأنه مسئول عن جميع أعمال القرصنة، وذلك عندما رأى الأسطول الإسلامي السفن التي كانت راسية في ميناء (ليماسول)، وكان عددها (ثلاثة)، ومعدة لعمل الغارة على سواحل ومدن الدولة الإسلامية، وقد رووا ذلك للسلطان (برسباي)، وأنهم أيضًا رأوا البضائع التي تم نهبها من السفن الإسلامية، وكان هذا دليل قاطع على ضلوع (قبرص) وملكها في أعمال القرصنة بكل وضوح وبلا مواربة أو شك.

2-كما أوضحوا للسلطان مدى ضعف الجزيرة من حيث القوة والتحصين، وأكَّدوا له سهولة غزو وفتح الجزيرة، وأن الأمر لا يحتاج منه سوى إعداد حملة كبيرة، وتكون مجهزة من كافة معداتها من آلات القتال والحصار والفرسان والمطوعة، وسوف يتم الفتح إن شاء الله بسهولة ويسر.

3-اقتناع السلطان (الأشرف برسباي) بإمكانية الفتح بعد أن بين له قواد الحملة سهولة فتح الجزيرة، ولهذا لم يضع الوقت، وبدأ في إعداد للحملة الجديدة.

*الحملة الثانية (828 ه / 1425م):

وعندما قرر السلطان (الأشرف برسباي) فتح الجزيرة أمر بعمل وصنع أسطول بحري وحربي كبير، ولكنه قبل ذلك عمل على تحصين سواحل الدولة الإسلامية في كل من (مصر) و(الشام)، وقام ببناء تحصينات عسكرية، ومن هذه الإجراءات.

أولًا: عمارة البرج الحربي بقرب مدينة (طينة)[136]:

وكان من أهم الأعمال التحصينية والتجهيزات الحربية التي أمر بعملها وعمارتها السلطان (الأشرف برسباي)، ففي سنة (828هـ) أمر الأمير (زين الدين عبد القادر) بإكمال عمارة هذا البرج الحربي، والذي كان يقع بالقرب من مدينة (الطينة)* على بحر الملح، فتم البناء على أحسن وجه، فجاء على شكل مربع، مساحة كل ربع منه حوالي (ثلاثون ذراعًا)، وقام السلطان بشحنه بالأسلحة، وأقيم فيه (خمسة وعشرون) مقاتلًا فيهم (عشرة فرسان، وقام أيضًا بإنزال جماعة من (عرب الطينة)، فكان أكبر نفع للناس القاطنين بالمدينة، فقد كان الفرنج تغير بمراكبها إلى بر مدينة (الطينة)، فيقومون بالنهب والسلب وأسر الناس، وذلك في أثناء مرورهم من (قطيا) إلى جهة (العريش).[137]

ثانيًا: زيادة أعداد الجنود لحراسة السواحل والثغور:

وفي هذه السنة كثرت الإشاعات عن قيام (القبارصة) والفرنج بالاستعداد لمهاجمة الثغور الإسلامية، فأمر السلطان بخروج الأمراء

---

136 - مدينة الطينة: هي مدينة بور سعيد الحديثة. فقد بنيت مدينة بور سعيد سنة (1859م) في الموضع الذي اختاره المهندس (دي لسبس) حين بدأ حفر قناة السويس. وقد بنيت مدينة بور سعيد على بعد 28 كيلو متر غربي مدينة الطينة. والطينة تقع ما بين مدينتي الفرما وتنيس. وكان اسمها القديم هو (بيلوز) وتعني الطينة. وهذا هو الاسم الذي أطلقه العرب الفاتحون عليها بعد فتحهم لمصر – ص (184) – محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامي – الدكتورة سعاد ماهر – طبعة (1386هـ / 1966م) – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – (القاهرة).

137 - ص (683) – السلوك لمعرفة دول الملوك – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – الجزء الرابع (القسم الثاني) – حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.

والمماليك لحراسة هذه الثغور، وكذلك أرسل إلى المدن الساحلية يأمر بتركيز الحراسة على ثغورها، وهي (طرابلس) و(بيروت) في (الشام)، و(دمياط) و(الإسكندرية) في (مصر)، فكانت يقظة من السلطان يُحمد عليها، فقد أفادت هذه الحراسة في حماية الثغور بالفعل، وهذا ما سوف يأتي ذكره بعد قليل.

ثالثًا: محاولة السلطان (الأشرف برسباي) إقامة حلف مع جيرانه حكام وملوك المسلمين:

فقد رغب السلطان (الأشرف برسباي) أن يقيم جبهة إسلامية موحدة ضد غارات وعدون السفن الإفرنجية و(القبرصية) على وجه الخصوص، ولم يجد أفضل من حاكم (تونس) يطلب منه العون، فأمده بعدد من السفن لمساعدته في حملته البحرية.

وهكذا نجد أن السلطان (الأشرف برسباي) قد أعد العدة، وأخذ أهبته لكي يغزو جزيرة (قبرس)، ومما جعله يسرع في صناعة السفن الحربية لغزو وفتح الجزيرة، أن غارات السفن الفرنجية وأعمال القرصنة لم تتوقف ولم تنقطع، بل استمرت في مهاجمة السواحل الإسلامية، فقد هاجمت (أربع) سفن (قبرسية) في شهر (رجب) من سنة (828 ﻫ) قرب مدينة (اللاذقية) مركبًا كان للمسلمين، وكان قد شحن بالمجاديف التي سوف ترسل إلى (مصر) من أجل الأغربة التي أمر بصنعها السلطان، وكان ريس السفينة يدعى الريس (فاضل) وهو من مدينة (أياس)، فلما قاربت مركب المسلمين جزيرة (أرواد)، خرج طائفة من الفرنج الذين كانوا بالمراكب، فقاتلهم المسلمون والذي كان عددهم (خمسون) رجلًا فقط، فاستشهدوا جميعًا عدا واحد تمكن من

الفـرار والنجـاة بحياتـه، فأخـذ الفرنـج المجاديـف وغيرهـا مـن محتويـات المركـب، ثـم حرقـوا المركـب.[138]

فلـما علـم السـلطان (الأشرف برسـباي) بـما حـل بالمركـب ومـن قتـل البحـارة المسـلمين واسـتيلاء القراصنـة الفرنـج عـلى المجاديـف، جعلـه أكثـر حماسـة وتصميـمًا عـلى غـزو الجزيـرة، والمسـارعة في صنـع السـفن، ولمـا اكتملـت عـمارة وصناعـة السـفن في (بـولاق) أعلـن السـلطان الجهـاد ضـد جزيـرة (قـبرص).

ومـع إعـلان السـلطان للجهـاد تطـوع الكثـير، هـذا إضافـة إلى مـا جهزه السـلطان من الجنـود والفرسـان المماليك فكانت عدتهم (سـتمائة) محـارب، وبلغـت نفقـة السـلطان عـلى الواحـد منهـم مبلـغ (عشريـن) دينـارًا لـكل واحـد منهـم، وجهـز الأمـراء عـدد (ثلاثمائـة) محـارب، ونـودي مـن أراد الجهـاد فليحـضر لأخـذ النفقـة، وكان ذلـك في يـوم (الثالـث عـشر من شـهر رجـب)، وفي يـوم (العشرين من نفس الشـهر) سـارت الخيـول الإسـلامية في الـبر إلى مدينـة (طرابلـس)، وعدتهـم (ثلاثمائـة) فـرس، وذلـك مـن أجـل أن تحمـل صحبـة الغزاة مـن مدينة (طرابلـس) في البحـر.[139]

*حملة ملك (قـبرص) الملـك (جانـوس) البحريـة عـلى السـواحل (الشـامية) و(المصريـة):

فلـم يكـن (جانـوس) ملـك جزيـرة (قـبرس) بالغـر ولا بالسـاذج، فقـد وصلـت إلى مسـامعه أخبـار تجهيـز سـلطان (مـصر) المملوكـي

138 - ص (688) – المصدر السابق.

139 - ص (688) وص (689) – المصدر السابق.

من استيراد الأخشاب من بلاد (الشام) وصنع المجاديف، وصناعة الأغربة في دار صناعة السفن (ببولاق)، فأراد أن يستوثق من صحة ما وصل إليه من أخبار، فأمر بمسير سفينتين حربيتين، وذلك من أجل القيام بأعمال الغارة على سواحل وشواطئ (سوريا)، وإفساد ما تصل إليه أيديهم، كما أرسل عدة سفن لمراقبة الشواطئ (المصرية)، وإذا تأكدوا فعلًا من خبر قيام السلطان بصنع السفن والشواني من أجل غزو الجزيرة، فعليهم منع هذه السفن من إكمال مسيرها في البحر المتوسط.

وأما عن السفينتين اللتين أرسلتا إلى سواحل بلاد (الشام)، فقد أخذت في التنقل من موضع إلى آخر دون أن تتمكنا من تحقيق المهمة الموكلة بهما، وذلك بسبب الحراسة اليقظة التي أمر السلطان بوضعها على الثغور بالسواحل الإسلامية في دولة المماليك، ثم نفذ جميع الماء الموجود على متن السفينتين، فقصدتا نهر (الكلب)، ولسوء حظهما فقد لاحظهما جند المماليك هناك، فعملوا الكمائن لهما، وقام (القبارصة) بحيلة ذكية، فقد أطلقوا قذيفة مدفع من سفنهم ليتأكدوا من وجود حراسة على النهر أم لا، لكن الجنود كانوا أذكى من (القبارصة) فلم يخرجوا لهم، فاطمأنت سفن (القبارصة) وظنوا أنهم بمأمن من عيون المماليك، فدخلت إحدى السفينتين النهر، وهنا خرج الجنود من مكمنهم وهجموا على السفينة فأحرقوها وأسروا جميع رجالها، وأما السفينة الأخرى لما رأت ما حل بأختها فرت هاربة، وتمكنت من النجاة بأعجوبة.

وأما عن السفن التي توجَّهت إلى السواحل (المصرية)، والتي كانت مهمتها منع الأسطول (المصري) من الخروج والإبحار في مياه البحر المتوسط، فقد لاذت هي الأخرى بالهرب والفرار عندما رأت الأسطول (المصري) خارجًا من ميناء (الإسكندرية) ومقبلًا ناحيتها، فآثرت السلامة فهربت دون قتال.

وهكذا انتهت حملة ملك (قبرص) بالفشل الذريع، سواء التي توجهت إلى السواحل (الشامية) من أجل الغارة وإفساد خطة السلطان (برسباي)، أو التي توجهت إلى السواحل (المصرية) لمنع خروج الأسطول المصري، وكانت هذه بشائر نصر الحملة الثانية، والتي سوف نذكرها الآن.

*خروج الحملة الثانية:

وكان خروج هذه الحملة في سنة (828 ﻫ / 1425م) من الشواطئ (المصرية)، وكان أميرها هو الأمير (جرباش الكريمي) حاجب الحجاب، وكان معه من الأمراء عدد كبير من المقدمين في السلطنة، واستخدم السلطان أيضًا من البطالين جماعة كثيرة، ومن المثاقفين (المهرة في الرمي) والنفاطين (الذين يرمون بالنار الإغريقية) والزراقين (الرماة الذين يقذفون بالنار عن طريق الرماح والنشاب، أو حتى القارورات)، فاتجهت الحملة إلى (بيروت) حيث انضمت إليها السفينة التي أمر السلطان بصنعها في بلاد (الشام)، وقبل أن تغادر السفن الإسلامية من ميناء (بيروت) قام أمير الحملة (جرباش الكريمي) بإعطاء فرصة أخيرة لملك جزيرة (قبرص) الملك (جانوس لوزجنان)، فقد

أرسل له رسولًا من أجل عقد الهدنة والصلح ويأمره بالدخول في طاعة سلطان (مصر)، وأمر ذلك الرسول بأن يعود برد ملك (قبرص) إلى مدينة (طرابلس)، فقد مكث الأسطول (المصري) حوالي ثمانية أيام من أجل الاستعداد النهائي للحرب والهجوم إذا لم يأت الرسول بقبول الملك الصلح.

والذي حدث بعد ذلك أن الرسول الذي أرسله الأمير (جرباش الكريمي) قد أبطأ في العودة إلى ميناء (طرابلس)، فاستقر رأي قادة الحملة جميعًا على الإبحار إلى (قبرص) بأكملها، فقد كان الأسطول مكونًا من حوالي (أربعين) سفينة وفي رواية (المقريزي) كان عدد السفن (بضعًا وأربعين) سفينة، ولم يكد يغادر الأسطول ميناء (طرابلس) حتى تمكن الرسول من اللحاق بهم من (قبرص) ومعه رد الملك، والذي كان جوابه رفض عرض أمير الحملة.

وقد وصل الأسطول (المصري) ميناء (قرباص) والذي يقع على ساحل (قبرص) من الجهة الشمالية الشرقية، ومنه تحركت السفن جنوبًا حتى رست بالقرب من ميناء (الماغوصة) – فاما جوستا – في برها الغربي حيث نزل أكثر الفرسان والمشاة إلى البر، وقد علم بنزولهم صاحب الميناء، وكان من (جنوة)، فخافهم وبعث يطلب الأمان، وأرسل أنه داخل في طاعة سلطان (مصر) ويقول لهم: «إنه مملوك للسلطان وأن المدينة مدينته»، فأعطاه الأمير (جرباش الكريمي) أمير الحملة الأمان، وذلك بعد أن رفع راية السلطان على قلعة المدينة، وأيضًا دلَّهم حاكم ميناء (الماغوصة) على عورات الجزيرة وأرشدهم إلى نقاط الضعف في الجزيرة، والتي يمكن أن ينفذوا منها إلى داخل الجزيرة بأقل

الخسائر، وفي ذلك الوقت علم ملك جزيرة (قبرس) الملك (جانوس) برسو السفن (المصرية) عند ميناء (الماغوصة) فجهز سفنه لمواجهة الأسطول (المصري)، وقد بلغ الأسطول (المصري) تهيؤ ملك (قبرص) لمواجهتهم ومحاربتهم، فباتوا في مخيماتهم عند ميناء (الماغوصة) وكان ذلك في ليلة (الأحد يوم العشرين من شهر رمضان المعظم).

وبدأت الحملة الحرب وشن الغارات صبيحة يوم الأحد، فشنوا غاراتهم على غربي (قبرص) من الضياع، وكانت حملة موفقة، فقد أوسعوا تلك النواحي سلبًا ونهبًا وتحريقًا، ثم عادوا محملين بالغنائم والأسرى، وقبل أن يبرحوا مكانهم التقت كشافة (المصريين) وكان عددهم (سبعة) فرسان وبعض الرجالة من مماليك السلطان بجيش (قبرصي) بقيادة أخي الملك نفسه ويدعى (أخوانيزا) وكان عددهم حوالي (ثلاثمائة) فارس، فلما رأوا قلة المسلمين طمعوا في قتلهم أو أسرهم، فهاجم المسلمون هذه القوة من (القبارسة) وتمكنوا من قتل (خمسة عشر) فارسًا، وجرحوا أكثر من (خمسين)، في حين لم يقتل من المسلمين سوى مملوكين اثنين فقط.[140]

ثم أقلعت السفن المملوكية من الساحل، وذلك بعد أن أنزلوا من السفن حوالي (أربعمائة) جندي على البر، فجعلوهم يسيرون بحذائهم، وذلك من أجل مراقبة العدو على البر، فأخذ هؤلاء الجنود يقتلون ويأسرون ويحرقون، ثم ركبوا السفن مع إخوانهم في صباح اليوم التالي عند مكان يسمى (رأس العجوز) حاملين

---

140 - ص (264) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي القرموط – الزهراء للإعلام العربي – (القاهرة).

معهم (ثلاثين) أسيرًا، وفي تلك الأثناء ظهر أمام السفن الإسلامية أسطول (قبرسي) مكون من حوالي (ثلاثة عشرة) سفينة، وقد قاموا بمحاولة استدراج السفن الإسلامية، فقد أظهرت الهزيمة والفرار في محاولة منها لسحب السفن المملوكية إلى كمين لها، ولكن كان الأمير (جرباش الكريمي) على وعي تام وحذر شديد، فلم يأمر أسطوله بتتبع السفن (القبرصية).

فقد كانت خطة ملك (قبرص) أن يشتت القوى الإسلامية ما بين الحرب في مكانين مختلفين، فريق يقاتل على البر، وفريق آخر يقاتل في البحر، وهكذا يسهل عليه أن ينتصر على القوى الإسلامية أو يردها على الأقل، فقد بعث أخاه على رأس قوة كبيرة تقدر بحوالي (ثلاثمائة) فارس من أجل رد المسلمين وتأخيرهم عن نزولهم على ساحل البر، وذلك حتى تأتي بقية القوات (القبرسية)، وهنا لم يجد المسلمون سوى أن يسرعوا النزول إلى البر، فأنزل حوالي (ألف) جندي كلهم من المشاة، وذلك لصعوبة إنزال الخيول بنفس سرعة المشاة، فالتحم الفريقان وانتهت المعركة بسرعة، وقد أسفرت عن نصر مشاة المسلمين على خيالة القوات (القبرصية)، فتمكن المسلمين من قتل الكثير من الفرسان وقطع رؤوسهم وعلقوها على أسنة الرماح، وذلك حتى يراها إخوانهم على ظهر السفن فتقوى نفوسهم ويطمئنوا، وكانت هذه المعركة في يوم (الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان).[141]

---

141 - ص (99) – قبرس والحروب الصليبية – د. سعيد عبد الفتاح عاشور – الطبعة الثانية (2002م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – (القاهرة) - وص (266) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي القرموط – الزهراء للإعلام العربي – (القاهرة).

ثـم تقدمـت السـفن الإسـلامية نحـو مراكـب (القبارصـة) والتـي عـادت إلى الظهـور مـن جديـد بعـد أن أيقنـت أن حيلتهـا في جـذب السـفن الإسـلامية لم تنجـح، ودارت بينهـا وبـين السـفن الإسـلامية معركـة بحريـة بالمدافـع البحريـة، سرعـان مـا أسـفرت عـن هزيمـة الأسـطول (القـبرصي) والـذي لاذ بالفـرار، وفي تلـك الأثنـاء كانـت مشـاة المماليـك تعمـل السـيف في الـبر، فقـد أمـر الأمـير (جربـاش الكريمـي) بإنـزال الخيـل إلى الـبر، وكان ذلـك في ليلـة السـبت، فقـام المشـاة والفرسـان المملوكيـة بشـن الغـارات بكـرة صبـاح يـوم السـبت عـلى الضيـاع، فكانـوا يقتلـون المحاربـين ويـأسرون ويحرقـون القـرى، وحملـوا الأسرى والغنائـم إلى المراكـب حتـى ضاقـت مراكـب المسـلمين مـن كثـرة الأسرى، وكان أعظـم غنائمهـم هـو تمكنهـم مـن أسر أمـير (الملاحـة)* والـذي كان يُدعـى: (عـين الغـزال)، فقتلـوه انتقامـا لمـا اقترفـه مـن جرائـم في حـق أسرى المسـلمين الذيـن وقعـوا في يـده، ثـم تمكنـت القـوات المملوكيـة مـن الاسـتيلاء عـلى مخـزن كبـير للأسـلحة.

ثـم أبحـرت السـفن الإسـلامية بعـد ذلـك إلى مدينـة (ليماسـول) فوصلوهـا في آخـر شـهر (رمضـان المعظـم)، وأنـزل إلى الـبر حـوالي (مائـة وخمسـين) مقاتـلًا، ومعهـم بعـض المماليـك السـلطانية، وكان ذلـك في ليلـة العيـد، فلـما أصبحـوا وصلـوا صـلاة العيـد قامـوا فحـاصروا حصـن المدينـة، وكان أمنـع حصـون الجزيـرة (القبرصيـة) وهاجمـوا الحصـن بشـكل عنيـف جـدًّا، وبعـد جهـد شـديد تمكـن الجيـش المملوكـي مـن الاسـتيلاء عـلى الحصـن في نفـس اليـوم وقبـل الظهـر أن ينقـضي !! ولم يكـن في حسـبانهم أنهـم يتمكنـون مـن تحقيـق ذلـك، فـأسروا وقتلـوا مـن فرسـان الحصـن حـوالي (سـتين) فارسًـا،

وأسروا من أهل الحصن حوالي (مائتي) أسير أقل أو أكثر، ورفعوا بعد ذلك الراية السلطانية على رأس الحصن، وذلك بعد أن هدموا وأحرقوا جزءًا كبيرًا منه.[142]

وفي تلك الأثناء وصل إلى معسكر المسلمين خمسة من أسرى المسلمين، تمكنوا من الفرار من معسكر الجيش (القبرسي)، فأخبروا الأمير (جرباش) أن صاحب مدينة (البندقية) قد أرسل نجدة كبيرة إلى ملك (قبرص) الملك (جانوس)، وهذه النجدة عبارة عن (خمسة وعشرين) صندوقا فيه قرقلات (نوع من السفن يستعمل في نقل المؤن والزاد)، و(خمسة عشر) صندوقًا يحتوي على خوذ، و(ثلاثة) صناديق فيها سيوف، و(سبعمائة) رمح، و(أربعة) رؤوس خيل سوداء، و(ستة) سروج، و(مائة وخمسون) حبلًا، و(أربعة) قلوع، و(اثنتا عشرة) سرياقات (الحبل الغليظ أو السوط) مصنوع من القنب وذلك من أجل الشواني وغيرها من آلات الحرب والقتال، فلما سمع المسلمون هذه المعلومات وتأكدوا من صحتها، بدأ قادة الحملة يفكرون جديًّا في العودة سالمين مكتفين بما حققوه من انتصارات والغنائم والأسرى التي تمكنوا من الحصول عليهم.[143]

وهنا رأى الأمير (جرباش الكريمي) أمير الحملة كلها أن الأمر قد أخذ حده من الجد، وقد بلغه مدى استعداد الملك (جانوس)

---

142 - ص (99) – قبرس والحروب الصليبية – د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

143 - ص (268) وص (269) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي.- وص (100) – قبرس والحروب الصليبية – د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

لمحاربتـه، وأيضًـا خـاف مـن ملل العسـكر الإسـلامي من طـول القتال والغيبـة عـن بلادهم ورغبتهـم في العـودة بغنائمهم سـالمين، فجمع قادة الحملـة والأمـراء والجنـود، وقـرر تـرك ميناء مدينـة (ليماسـول)، ولكن قـرر أن يغـير على مدينـة (البـاف) قبل عودة الأسـطول إلى (مـصر) مرة أخـرى، ولكـن أتت الرياح بما لا تشـتهي السـفن، فالرياح لم تسـاعدهم عـلى الإبحـار إلى المدينة، فكـروا راجعين إلى (مـصر).[144]

وخـلال كل هـذه المـدة من مغـادرة الأسـطول الإسـلامي إلى جزيرة (قـبرص) إلى حـين عودتـه، كان السـلطان (الأشرف برسـباي) يترقـب أخبـار الحملـة ومـا أسـفرت عنـه، وقـد قـام مقـدم العسـاكر المجاهـدة أمـير الحملة (جربـاش الكريمي) – حاجـب الحجاب – بإرسـال كتاب إلى نائـب السـلطان عـلى مدينـة (طرابلـس) في خـبر الحملـة مـن سـاعة وصولهـا إلى جزيـرة (قـبرص) وما أحـرزوه مـن انتصارات، ومـا تمكنوا مـن حمله مـن الغنائـم والأسرى، فقام الأمـير (قصروه) نائب السـلطان عـلى (طرابلـس) بإرسـال كتاب إلى السـلطان فيـه خبر الحملـة، وفي طيه كتـاب الأمـير (جربـاش)، ففـرح السـلطان (الأشرف برسـباي) فرحًـا شـديدًا بأنبـاء النصر، وأمـر بدق البشـائر بالقلعة، وقـراءة الكتاب، وفيه أنبـاء النـصر في جامـع (عمـرو بن العـاص)، وزينـت مدينـة (القاهرة)، وأرسـلت البشـائر إلى (الإسـكندرية) و(البحـيرة) و(الوجـه القبلي).

وأما عن الأسـطول (المصري) فقد أرسـى سـفنه على مدينـة (الطينة) قريبًـا مـن مدينـة (قطيـا) ومـن مدينـة (دميـاط)، ثـم وردت الأخبـار بقـدوم الأسـطول بسرعـة، وظنـوا أن الحملة قـد هزمت بعد مـا حققوه

144 - ص (101) – المصدر السابق.

مـن انتصـارات، ولكـن سرعان ما تبـين أن الحملـة قد رجعـت منتصرة سـالمة، ودخلـت جيـوش الحملـة (القاهـرة) وباتـوا ليلتهـم بسـاحل (بـولاق)، ثـم أصبحـوا في اليـوم التـالي وصعـدوا إلى (القلعـة)، وبـين أيديهـم حـوالي (ألـف وسـتين) أسـير، والغنائـم التـي كانت مـن كثرتها محملـة عـلى (مائـة وسـبعين) حمـالًا، و(أربعين) بغـلًا، و(عـشرة) جمال، مـا بين (خـرج)، و(صناديـق)، و(حديـد)، و(آلات حربيـة)، و(أوانٍ)، وكان يومًـا مشـهودًا، ومـن أكثر أيـام (القاهـرة) فرحًا وبهجـة، إذ خرج جميـع النـاس لمشـاهدة الموكـب المحمـل بـالأسرى والغنائم، فلم يسـبق لأهـل (القاهـرة) أن شـاهدوا مثـل كـبر وروعـة هـذا الموكـب مـن قبل في أيـام الدولـة (التركيـة) و(الجركسية)، فازدحمـت الحوانيـت والمنازل بالمتفرجـين، واكتظـت الطرقات والشـوارع بالمشـاهدين.[145]

ثـم أمـر السـلطان (الأشرف برسـباي) برسـم بيـع الأسرى وتقويـم أصنـاف الغنائـم، فابتـدأ البيـع بحـضرة الأمـير (جقمـق العلائـي) أمـير أخـور، وتـولى البيـع عـن السـلطان الأمـير (أينـال الششـماني)، فأقبـل النـاس عـلى شرائهـم عـلى اختـلاف طبقاتهـم مـن أمـراء وتجـار وعـوام، وقـد رسـم السـلطان عـلى ألا يفـرق بـين الأولاد وآبائهـم، ولا بـين قريـب وقريبـه، فكانـوا يشـترونهم جميعًـا، وقومـت بقيـة الأصنـاف مـن جـوخ وصـوف وقـماش، وقـد أنفـق السـلطان في طائفـة الغـزاة (ثلاثـة) دنانـير ونصـف لـكل واحـد منهـم، وأنفـق على طائفـة أخـرى مـن الغـزاة (سـبعة) دنانـير لـكل واحـد منهـم، وقـد بلـغ المـال الـذي بيعـت بـه الغنائـم والأسرى مبالـغ كبـيرة، فقـد ذكـر أن الأسرى قـد بيعـوا بحـوالي (ثمانيـة عـشر ألـف) دينـار، و(ثمانمائـة) دينـار، وكان في جملـة الغنائـم التـي غنمهـا المجاهـدون (فضـة) وزنهـا

145 - ص (101) – المصدر السابق

(ألف) درهم، فبيعت بمقدار (ألف) دينار، وكان في الغنائم أنواع الحديد، فبيع بمبلغ (خمسمائة) دينار، وبيع الباقي من الجوخ والصوف وأنواع القماش بمبلغ يقدر بحوالي (ألفي) دينار.[146]

وهكذا انتهت الحملة الثانية على جزيرة (قبرص) بانتصار ساحق على الأسطول البحري (القبرصي)، وأيضًا هزيمة الجيش البري بقيادة أخي الملك (جانوس)، ونجد أن الدولة المملوكية قد أخذت بالثأر لما حل بمدينة (الإسكندرية) من عبث الأسطول (القبرسي) بقيادة ملك (قبرس) وقتها، والذي كان (بطرس لوزجنان) عندما هاجم المدينة في سنة (767 هـ / 1365م) وتمكن من دخولها ونهبها وقتل أهلها جميعًا، حتى ترك المدينة مفروشة بجثث أهلها، وبنجاح هذه الحملة تحقق أخذ الثأر لأهل مدينة (الإسكندرية) بعد حوالي (ستين عامًا).[147]

(صورة حملة السفن القبرصية على مدينة الإسكندرية)

146 - ص (695) وص (696) – السلوك لمعرفة دول الملوك – الجزء الرابع (القسم الثاني) – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – حققه وقدم له ووضع حواشيه – الدكتور سعيد عبد الفاتح عاشور.

147 - ص (696) – المصدر السابق.- وص (272) وص (273) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي.

وهنا تأكد للسلطان (الأشرف برسباي) بما لا يترك مجالًا للشك أن الجزيرة في أضعف أحوالها السياسية والعسكرية، وأن الوقت قد حان لفتح الجزيرة (القبرصية) فتحًا نهائيًّا، وضمها إلى الدولة المملوكية، وجعلها ولاية تابعة لها، وبذلك يضمن حرية الإبحار في سواحل البحر المتوسط وبشكل نهائي، وأيضًا يضمن حماية السفن الإسلامية التجارية والحربية المبحرة من (مصر) إلى (الشام) ذهابًا وإيابًا، وكان ذلك سبب خروج الحملة الثالثة والأخيرة.

***الحملة الثالثة والأخيرة (829 ه / 1426م):**

وهي المعروفة باسم (الغزوة الكبرى) كما يسميها المؤرخ (بدر الدين العيني)، فبعد الانتصارات التي حققها المماليك والمجاهدون في الغزوة السابقة، تيقن لدى السلطان (الأشرف برسباي) سهولة فتح الجزيرة وضمها إلى سلطنة مماليك (مصر)، وقد زاد من رغبته وإسراعه في تحقيق هذه الغاية عدة أسباب هي:

1- تحريض التجار (الجنويون) وقادتهم على مهاجمة (قبرس) وضمها إليه، فقد حاول الملك (جانوس) ضم ميناء ومدينة (فاما جوستا) والتي كان تحت حكم (الجنويين) في سنة (1403م) ولكنه لم يفلح في تحقيق ذلك، ولهذا كان (الجنويون) على حذر وخوف منه، إذ أصبح (جانوس) على قوة واستعداد من تكرير محاولته مرة أخرى، ويتمكن من ضم المدينة إلى ملكه، وبذلك يخسرون أكبر مورد اقتصادي لهم في البحر المتوسط.

2-كذلك استنفار أمير مدينة (العلايا) في منطقة آسيا الصغرى للسلطان الهجوم على (قبرس)، فقد كان هدفًا لأطماع (آل لوزجنان)

و(آل قرمان)، ورأى أن في كسر شوكة (القبارسة) وضم جزيرتهم إلى سلطنة (مصر) فيه تخفيف عليه، فبدلًا من مواجهة قوتين في وقت واحد، فيكون عليه مواجهة قوة واحدة فيسهل عليه المقاومة.

3-وأخيرًا فقد وصل إلى أسماع السلطان (الأشرف برسباي) من أن ملك (قبرص) الملك (جانوس) قد أرسل إلى ملوك، وأمراء (أوروبا) لكي يرسلوا له النجدات المادية والجنود والسفن، ولكن كانت أوروبا مشغولة بمشاكلها الداخلية، فلم يلتفت إليه أحد، وإنما اكتفى إمبراطور (القسطنطينية) الإمبراطور (حنا الثامن باليولوجس) بإرسال هدية إلى السلطان (الأشرف برسباي) ويتشفع في أهل (قبرص) بألا يغزوا من قبل السلطان ويتوسط في الصلح، فلم يلتفت إليه السلطان، ولكنه قبل الهدية.

*خروج الحملة الثالثة:

وبعد أن تأكد السلطان من أخبار استنجاد (جانوس) بملوك (أوروبا)، أسرع في عمارة السفن الحربية، وأرسل إلى (بيروت) يأمرهم بالتعجيل في بناء وصناعة السفن، وذلك خوفًا من قيام (جانوس) بمهاجمة مدينة (الإسكندرية) وتكرار مأساتها مرة أخرى.

وفي يوم الإثنين (الثالث من شهر ربيع الآخر) عين السلطان الأمراء الذين سوف يقودون الحملة الكبرى على الجزيرة، وهم من الأمراء المقدمين أمراء ألوف، وهم الأمير (إينال الجكمي) أمير مجلس، والأمير (تغري بردي المحمودي) رأس نوبة كبير، والأمير (قرامراد خجا)، والأمير (تغري برمش) نائب قلعة الجبل.

ونحن نرى من أسماء هؤلاء الأمراء المشتركين في الحملة مدى أهميتها للسلطان، فقد اشترك فيها صفوة أمراء المماليك وكبراؤهم، وهذا يؤكد على عزم السلطان من فتح الجزيرة بشكل نهائي، وضم الجزيرة إلى تبعية سلطنة (مصر)، وهذا ما سوف تحققه الحملة بالفعل.

وفي يوم الإثنين (الثالث عشر من شهر جمادى الآخرة) قدم جماعة من مدن (دمشق) و(صفد)، و(غزة) و(طرابلس) إلى العاصمة (القاهرة) من أجل الغزو مع الأسطول (المصري)، وفي يوم الجمعة (الثاني من شهر رجب) خرج جميع الأمراء الذين تقدمت أسمائهم من أجل الغزو والجهاد، وفي اليوم التالي (الثالث من شهر رجب) خرجت الجماعة الذين قدموا من بلاد (الشام) من الأمراء والجنود.

وفي يوم الجمعة (الثالث والعشرين من شهر رجب) اجتمع الجيش والمجاهدون جميعًا، وحملوا مراكبهم بالعدد والعتاد، ومياه الشرب العذبة والطعام وكل ما يحتاجونه من أشياء، وكان عدد الكل حوالي (خمسة آلاف)، منهم من الجنود (الأتراك) أكثر من (ألفين)، ومن مماليك السلطان (ألف)، ومن المماليك المصرية ومن الشوام حاولي (ألف)، ومن العشران (بدو الشام من العربان والدروز والمرتزقة) حوالي (ستمائة)، هذا غير من خرج من المتطوعة من (مصر) و(الشام).

وفي يوم السبت (الرابع والعشرين من شهر رجب) أقلعت مراكب الجيش المملوكي والمجاهدين، وكان السلطان (الأشرف برسباي) وكلَ بقيادة الجيش البري إلى الأمير (تغري بردي المحمودي)، وإلى الأسطول البحري أوكل قيادته إلى الأمير (إينال

الجكمـي)، وقـد حـدد مهـام كل واحـد منهـما في الحملـة، وذلـك حتى لا يتعـارض أحدهمـا مـع الآخـر.[148]

*حادث مفجع لم يكن في الحسبان:

وفي اليـوم الـذي أقلعـت فيـه المراكـب والسـفن والتـي كانـت أكثـر مـن (مائـة) سـفينة، نصـح رؤسـاء السـفن والملاحـون المجربـون بعدم الإقـلاع في هـذا اليـوم، فـإن الريـاح كانـت تنـذر بقـدوم عاصفـة، ولكـن الجنـود والمتطوعـون لم يقبلـوا نصحهـم، فأقلعـت المراكـب بالجميـع، ولم يتأخـر عـن الحملـة سـوى قائدهـا الأمـير (إينـال الجكمـي).

وفعـلًا بعـد إقـلاع السـفن هبـت ريـح عاصـف كـما تنبـأ بذلـك رؤسـاء السـفن، فأظلمـت الدنيـا عـلى السـفن واصطدمـت المراكـب بعضهـا ببعـض، فغرقـت مـن المراكـب (أربعـة) وغـرق جميـع مـا فيهـا مـن القـماش والـزوادات والخيـل، ولكـن الله سـلم فنجـا جميع الجنـود الذيـن كانـوا عـلى هـذه السـفن، وقيـل: بـل غـرق مـن الجنـود (عـشرة)، ومـن الخيـل (مائـة)، وكانـت هـذه المراكـب تخـص الأمـير (تغـري بـردي) رأس نوبـة، والمركـب الثـاني الأمـير (قرامـراد خجـا)، والثالـث مركـب الأمـير (يشـباك) شـاد الـشراب خانـاه، والمركـب الرابـع كانـت مركـب عسـكر (طرابلـس)، فـكان يومًـا محزنًـا ولم يكمـل الحـزن ولله الحمـد بسـبب نجـاة جميـع ركاب السـفن، فقـد خرجـوا بالـزوارق إلى الـبر.[149]

148 - ص (63) وص (64) وص (65) – قبرس والحروب الصليبية – د. سعيد عبد الفتاح عاشور - وص (104) وص (105) – المرجع السابق.- وص (273) وص (274) وص (275) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي القرموط.

149 - ص (276) – المصدر السابق - وص (720) – السلوك لمعرفة دول الملوك – الجزء

وقد وصلت أنباء غرق المراكب (الأربعة) إلى السلطان (الأشرف برسباي) يوم الخميس آخر شهر رجب، وكان على هجين ومعه الأمير (حطط البكلمشي)، فحصل له ولمن حوله من الناس من الهم والحزن ما لا يوصف ولا مزيد عليه، وفي اليوم التالي، وهو يوم الجمعة مستهل شهر شعبان جهز السلطان الأمير (سرماش قاشوق) وهو حاجب الحجاب، وذلك لكي يقف على حقيقة الأمر، ويخبر أصحاب السفن التي غرقت أنهم مخيرون ما بين إكمال السفر والمشاركة في حملة فتح (قبرس) وما بين العودة إلى مدينة (القاهرة)، وأما بقية المراكب فإنها سوف تكمل رحلتها إلى الجزيرة، وكذلك أمر السلطان بتعويض ما تلف من السفن التي غرقت، وأيضًا أرسل معه (خمسمائة قنطار) بقسماط، و(ثلاثين) فرقلا، وغير ذلك من الزاد والعتاد اللازم للحملة.[150]

وفي يوم الأربعاء (الثالث من شهر شعبان) قدم الأمير (سرماش) حاجب الحجاب ووصل إلى السلطان في آخر هذا اليوم، وأخبره بما رآه وأن السفن يسهل إصلاحها، وأيضًا أخبره أنه قد رتب أحوال الغزاة كما أراد ويحب، وأن جميع الجنود والمتطوعة قد ركبوا المراكب وأبحروا إلى ثغر (الإسكندرية)، وفي اليوم (الثامن عشر من شهر شعبان) أقلعت المراكب جميعها وذلك بعد أن تم إصلاح السفن المكسورة إلى وجهتهم المقصودة، وبعد خروجهم من ميناء (الإسكندرية) كانت

الرابع (القسم الثاني) – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.

150 - **ص (277) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي - وص (106) وص (107) – قبرس والحروب الصليبية – د. سعيد عبد الفتاح عاشور.**

هناك سفن (قبرصية) في انتظارهم، كان قد أرسلها ملك (قبرص)، وذلك من أجل قطع الطريق على السفن الإسلامية حتى يتمكن من الاستعداد وتحصين جزيرته، وترامى الفريقان بالنبل والنشاب واستشهد من المسلمين (عشرة) ولكن تمكن المسلمون من جعل السفن (القبرصية) تلوذ بالفرار من أمامهم، ثم وصل الأسطول بعد ذلك إلى جزيرة (قبرص) يوم الأربعاء (السابع والعشرين من الشهر)، ونزلوا من مراكبهم وضربوا خيامهم في أرض الجزيرة، ولكن لم ينزلوا جميعهم فقط القوات البرية، أما أصحاب البحر من الجنود فقد بقوا في مراكبهم استعدادًا لأي هجوم من قبل البحر.

وقد توجهت بعض السفن الإسلامية إلى ميناء الجزيرة المعروف (ليماسول أو لمسون) فرست السفن عند (لنديا) وهي على بُعد عدة أميال من (ليماسول)، فنزلت القوات البرية في الحال وتوجهوا مسرعين نحو قلعة الميناء، فوجدوا القلعة قد عمرت بعد أن خربوها في الحملة السابقة، وأن (القبارسة) قد حصنوها وجعلوا حولها خندقًا زيادة في الحماية والتحصين، ولم يجدوا بدًّا من محاصرة القلعة.[151]

*حيلة بعض الجنود في تسلق الحصن:

وهنا قام بعض الجنود بوضع السلالم على سور الحصن، وتمكن ثلة من الفرسان الشجعان من صعود هذه السلالم، ولكن كانت السلالم أقصر من رأس السور بمقدار ذراع أو أكثر، فقام أحد الجنود وهو (يشبك قراقوش) بنزع سلاحه وتسلق السور فقلده بقية الفرسان والجنود، والعجيب أنه كان خلف سور الحصن هذا ما لا

151 - ص (107) – المصدر السابق.

يقل عن ستين جنديًّا مجهزين بالسلاح، وقد أوقدوا قدور الزفت المغلي لكي يقذفوه على جنود المسلمين، ولكن قذف الله في قلوبهم الرعب فولوا منهزمين حين رؤيتهم للمماليك، وبذلك تمكن جنود المماليك من الاستيلاء على الحصن دون خسائر، ورفعوا السنجق (الراية) السلطاني.

ثم قامت هذه القوات من المماليك بقتل جميع المقاتلة من (القبارصة) الذين كانوا بالحصن، وقاموا بعد ذلك بسلب ونهب وحرق كل ما وصلت إليه أيديهم في المدينة، وجاء خبر هذا النصر إلى السلطان في يوم السبت (السابع من شهر رمضان المعظم) مع أحد المماليك ويدعى (جانبك النوروزي) يخبره بخبر الحلمة، والنصر الذي تمكنوا من تحقيقه، وأخبره أن (جانوس) ملك (قبرص) قد حصن عاصمتها وهي (الأفقسية أو نيقوسيا) ومعه من الفرسان في دروع الحديد (ألف) فارس، ومن الرجالة حوالي (ثمانية آلاف)، وأن الرعية قد هربوا خوفًا من الحرب والسلب والنهب، وكان معه أيضًا (خمسة) من الأسرى، فدقت البشائر بالنصر في (القاهرة).

وقبل ذلك بأيام تحديدًا في آخر شهر (شعبان) توجهت سفينة (قبرصية) حربية إلى ميناء (ليماسول)، وكانت مليئة بالجنود والسلاح، وعلى الفور أمر الأمير (تغري بردي) بتحرك سفينتين، وذلك من أجل مطاردة سفينة العدو، فلاذت السفينة بالهرب والنجاة، ولكن لسوء حظها كانت القوات المملوكية البرية بقيادة الأمير (أركماس العلائي)، والأمير (إياس الطويل) تراقب الذي يحدث في البحر عن كثب، فتبعوا السفينة على أمل

أنها سوف ترسوا على البر، وبالفعل بعد أن اطمأنوا رسوا على ساحل البحر، ونزلت جماعة منهم على البر، وكانوا مسلحين، فهجمت القوات المملوكية البرية على هؤلاء الجماعة، وتمكنوا من قتل (خمسة) منهم، وقطعوا رؤوسهم وعلقوها على جدار قلعة (ليماسول)، ثم قصد جنود المسلمين بمراكبهم يريدون ميناء (الملاحة)، ولكن لم يوافقهم الأمير (تغري بردي) الرأي، واتفقوا في نهاية الأمر على أن يسير الأمير (تغري بردي) بجنوده برًّا، وأن يسير الأمير (إينال الجكمي) بجنوده في مراكبهم في البحر، ثم يجتمعون كلهم جميعًا بعد ذلك عند ميناء (الملاحة)، وكان ذلك ذكاء من أمراء الحملة، فقد كان الهدف من تقسيم الجيش إلى قوات تسير في البر، والبقية في مراكبهم في البحر خوفًا من قيام (القبارصة) من الإطباق على المراكب من جهة البحر فيدمرونها، وتصبح القوات البرية مطوقة برًّا وبحرًا، ولهذا كانت القوات البرية تحمي مراكب المسلمين من جهة البر، والمراكب تحمي القوات البرية من جهة البحر.

وبالفعل فلم تكد تسير القوات البرية بقيادة الأمير (تغري بردي) مسافة قصيرة حتى طلع عليهم طلائع الجيش (القبرصي)، وكانوا في نحو (ثلاثمائة) فارس، مع جمع كبير من المشاة، فحمل عليهم من المماليك (ثلاثون) من الفرسان الشجعان، ومعهم فرقة من المشاة، فولوا الأدبار منهزمين، فلم تمض غير ساعة حتى أقبل ملك (قبرص) (جانوس) في جيش كبير ومعه الفرقة المنهزمة، كان (جانوس) قد خرج من عاصمته (نيقوسيا) قاصدًا مدينة (خيروكيتا) الواقعة في الشمال الشرقي من (ليماسول)،

وكان جيشه مكونًا من خليط من الفرنج من بلاد (الكيتلان)، و(الأردوسية)، و(التراكمين)، فكان عددهم حوالي (خمسة آلاف فارس، و(سبعة آلاف) راجل، وعسكر في سهل متسع استعدادًا للمعركة الفاصلة.[152]

وهنا رأى قادة الحملة قبل أن يغادروا مدينة (ليماسول) أن يرسلوا إلى (جانوس) كفرصة أخيرة للصلح، فأرسلوا إليه يطلبون أن يأتي إليهم لعقد الصلح، وأن يتعهد أمامهم بعدم تقديم المساعدة إلى قراصنة الفرنج من أجل الإغارة على الشواطئ والمدن الساحلية للمسلمين، وفي المقابل يتعهد المماليك بمغادرة أرض جزيرة (قبرس) فورًا إن قبل شروطهم، ولكن (جانوس) أخذه الغرور والكبر بعدد قواته وجيش وعتاده وتجهيزه الكامل لخوض الحرب، فرفض الصلح مع المسلمين، بل وارتكب جرمًا لا يُغتفر فقد أمر بقتل الرسول الذي أرسل من قبل قادة المماليك، فكان ذلك إعلانًا صريحًا للحرب.

وباقتراب الجيشين من اللقاء، قام (جانوس) بتقسيم جيشه إلى وحدات منفصلة، وذلك حتى يسهل جمع وتفريق الوحدات حسب ما تقتضيه مصلحة الحرب مع المسلمين، فقام بتقسيم هذه الوحدات إلى (مائة) جندي في كل فرقة، وأحيانًا (خمسين) في وحدات أخرى، ولكن جيش (جانوس) كانوا حديثي عهد بالحروب وطرقها وتنظيمها، ولهذا لم يطيعوا أوامر قادتهم، وإنما كانوا يطيعون ملكهم فقط، وكانت هذه من علامات الهزيمة.

---

152 - ص (281) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرزاق الطنطاوي القرموط.

أما في الجهة المقابلة، فقد كان المماليك منظمين وتملؤهم الحماسة الدينية، ووضعوا خطة ممتازة ألا وهي محاصرة الجيش (القبرسي)، فتوجه جزء من الجيش إلى الناحية الشرقية لإحكام الحصار، وبقية جيش المماليك ظهروا من فوق التلال التي تشرف على السهل الواسع المطل على معسكر الملك (جانوس)، وبذلك يكسبون سبق الهجوم وضرب الصدمة الأولى لجيش (جانوس).[153]

*معركة (خيروكيتا) الفاصلة وأسر ملك (قبرص):

وبدأت المعركة بسرعة، فلم يضيع المسلمون الوقت وانقضوا على جيش (جانوس)، والذي كان يزيد على (عشرة آلاف)، ولكن هذا قوى من عزم المسلمين، ولما رأى جيش (قبرص) والذي قلنا من قبل أنهم كانوا خليطًا من عدة أجناس، وأنهم كانوا حديثي عهد بحرب، فقد ولوا الأدبار منهزمين من أمام جيش المماليك، ولهذا تعجب واستغرب المسلمون على قلتهم من فرار (القبارصة) من أمامهم، وظنوا في البداية أنها خطة موضوعة لسحبهم واستدراجهم إلى الكمائن وإبادتهم، ولكن عندما تبين للمماليك أن جيش الملك (جانوس) يفر حقيقة خوفًا منهم وليس لاستدراجهم، ركبوا أكتافهم وأخذت المعركة تشتد وأسرع المسلمون في اللحاق بهم، حتى اشتد وطيس الحرب وعملت سيوف ورماح المسلمون في (القبارسة) حتى نهاية يوم المعركة، حتى أهلكوا معظم الجيش، ولما رأى (جانوس) ما حل بجيشه حاول الهرب والنجاة بحياته، ولكنه جرح في ثلاثة مواضع وسقط عن فرسه، وأركبه أصحابه فرسة أخرى فكبا من عليها، وهنا رآه

153 - ص (108) – قبرس والحروب الصليبية – د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

بعض فرسان المماليك فهجموا عليه يريدون قتله، وهم لا يعلمون أنه الملك (جانوس)، ولكن الذي أنقذه أنه كان يعرف القليل من اللغة العربية فصاح قائلًا: «أنا الملك»، فأسره المسلمون ووضعوه في حراسة الأمير (تغري بردي المحمودي) قائد الحملة.[154]

وهكذا انتهت المعركة الفاصلة والتي لم تستغرق سوى يوم واحد، وكان نصرًا عظيمًا للمسلمين سحقت فيه جيوش الأعداء من الصليبيين (القبارصة)، وقد قتل أيضًا في هذه المعركة أخو الملك المدعو (أخوانيزا) وكثر القتل في جيش (جانوس) حتى خاضت خيول المسلمين في دمائهم، واختلف في تعداد القتلى ما بين (ألفين) إلى (ستة آلاف) قتيل، وبات المسلمون من ليلتهم على أهبة حتى يصبحوا فيكملوا حملتهم المظفرة على بقية أنحاء الجزيرة (القبرصية).

ثم أصبحوا فتوجهوا إلى مدينة (خيروكيتا) فوجدوا جثة الرسول الذي أرسلوه من أجل المفاوضة على الصلح معلقة على باب المدينة، فأنزلوها ودفنوها، ثم تفرق جيش المماليك في القرى والمدن يعمل القتل في الجنود الفارة ويقوم بأعمال التخريب من سلب ونهب، وهنا لابد أن نشير إلى أن هذه الأعمال على الرغم من أنها تنافي الشريعة الإسلامية، ولكنها للأسف الشديد كانت سمة العصر في ذلك الوقت، فقد كانت غارات الصليبيين والفرنج على المدن والقرى الإسلامية من البشاعة في القتل والحرق والسلب والنهب والأسر أضعاف ما فعله المسلمون، ولهذا كانت أعمال المسلمين تقابلهم بالمثل من أجل الأخذ بالثأر، ولكن مع الفارق أن المسلمين لم يكونوا

154 - ص (109) وص (110) وص (111) – المرجع السابق.

يقتلـون الأطفـال والنسـاء والشـيوخ، وهـذا مـا لم يراعـه الصليبيون مع المسـلمين، وهـذا يتبـين مـن قتـل الرسـل والذي هـو محـرم في الحروب.

نعـود فنكمـل أعـمال حملـة المسـلمين في الجزيـرة، فقـد انتـشرت القـوات البريـة المملوكية فيـما حول القـرى والضياع يـأسرون وينهبون، وصعـدوا إلى جبـل (الصليـب)، حيـث كانـت هنـاك كنيسـة الجزيـرة وبهـا (صليـب الصلبوت)*وهـو المعـروف (بالصليـب الأعظـم) عنـد الصليبيـين، فقـد أشـعل المماليـك النـار في الكنيسـة فاحترقـت، وهدموا كنائـس أخـرى، ثـم اتجـه الجنـود أخـيرًا إلى مينـاء (الملاحـة)، ووصلت السـفن الإسـلامية إلى المينـاء حسـب الميعـاد المتفـق عليه بـين الفريقين، فزفـوا إلى زملائهـم بالمراكـب خبر النصر عـلى جيش الملـك (جانوس)، وكيـف كانـت المعركـة وكيف انتـصروا رغم قلتهـم، ثم ما قامـوا به من أعـمال في جميـع أنحـاء الجزيرة.

ولكـن فاجـأت الحملـة أنبـاء وأخبـار عـن وجـود أخ آخـر للملـك غـير الـذي قُتـل في أرض المعركـة، وأن هـذا الأخ موجـود في العاصمـة (الأفقسـية) وهـي (نيقوسـيا) عاصمة الجزيـرة، وأنه أسـقف العاصمة، جاءتهـم الأخبـار أنـه يقـوم بتجميـع الجنـود والفرسـان لقيـادة حركـة المقاومـة ضـد المسـلمين مـن بعـد أن وصلتهـم أنبـاء هزيمـة ملكهـم في (خيروكيتـا)، وأنـه قـد حصـن المدينـة اسـتعدادًا للقيـام بجولـة أخـرى للانتقـام مـن المسـلمين وطردهـم مـن الجزيرة.

وهنـا بـادر قـادة الحملـة بسرعـة التوجـه إلى العاصمـة (نيقوسـيا) للقضـاء عـلى هـذا الخطـر وهـو في بدايتـه، فقـاد الأمـير (تغـري بـردي المحمـودي) قواتـه إلى المدينـة لفتحهـا والقضـاء عـلى المقاومـة هنـاك،

وركب وراءه الأمير (تغري برمش) مع طائفة منهم، في حين بقي أمير البحر (إينال الجكمي) بأسطول المسلمين في البحر لحماية القوات البرية من أية مراكب قد تهاجمهم، وقد أحسن قادة الحملة التفكير في وضع هذ الخطة المحكمة، فلم تكد تسير القوات البرية إلى جهة (نيقوسيا) حتى فاجأتهم مراكب الأسطول (القبرسي).

***المعركة البحرية وانهيار المقاومة تمامًا:**

ويبدو من ظهور هذا الأسطول أن الملك (جانوس) قد وضع خطة مقتضاها أن يحاصر المسلمين من البر والبحر، فيقع المسلمون بين فكي الرحى، وهذا يفسر ظهور السفن (القبرصية) في هذا الوقت بالتحديد، ويبدو أنهم قد تأخروا عن الميعاد المحدد لهم، فكانت الهزيمة على جيش (قبرص)، والحمد لله أن هذا قد حدث، وإلا كانت الحرب والدائرة سوف تكون على المسلمين، ولأبيدوا كلهم عن آخرهم.

ولما رأى الأمير (إينال الجكمي) الأسطول قادمًا ناحيته وكانوا حوالي (خمسة عشر) مركبًا كبار وصغار، أرسل رسولًا إلى الأمير (تغري بردي المحمودي) يخبره بأمر الأساطيل، فأرسل معظم القوات التي كانت معه وكان فيهم الأمير (تغري برمش) مقدم الألف، والأمير (يشبك المشد)، والأمير (إينال الأجرود)، ومعهم بقية الأمراء والجنود، وبقي هو ومعه (ستون) فارسًا فقط توجه بهم إلى (نيقوسيا) لفتحها.

ودارت المعركة البحرية بين الطرفين على أشد ما يكون من الحرب والرمي بالنشب، والضرب بالمدافع، والذي يظهر من أمر السفن

(القبرصيـة) أنهـم لم يعلمـوا بخـبر هزيمـة الملـك، ولهـذا استماتوا في القتـال حتـى صباح اليـوم التـالي في إصرار وعزيمة لا تلـين، وفي المقابل حـارب المسـلمون ببسـالة وشـجاعة، وتمكنـوا مـن أسر إحدى السـفن (القبرصيـة) وقتـل مـن فيهـا جميعًـا، وذلـك بعـد أن أمطروهـا بوابـل كثيـف من السـهام، وفي النهاية انتصرت الأسـاطيل الإسـلامية ولاذت السـفن القبرصيـة بالهـرب والفرار، وفي ذلـك يقول بعـض المؤرخين أن الـذي حمـل الأسـطول (القـبرصي) عـلى الفـرار هـو قيـام قـادة وأمـراء البحـر المسـلمين أن جعلـوا الملـك (جانـوس) يكتـب كتابًـا يخـبر فيـه السـفن (القبرصيـة) بخـبر هزيمته وأسره، هـذا بالإضافة أن الأسـطول (القـبرصي) قـد تكبد خسـائر فادحـة في الأرواح، فقـد قُتل منـه ما يزيد عـلى (مائـة وسـبعين) نفسًـا، ولهـذا لاذت بقية السـفن بالهـرب والفرار في عـرض البحـر ناجـين بحياتهم، وهكـذا انتهـت المعركة الحربيـة أيضًا بنـصر عظيـم للمسـلمين، وسـحق آخـر مقاومـة (للقبارصـة) ولم يبـق سـوى فتـح عاصمة الجزيـرة، وبذلـك تكون الحملـة قد حققـت هدفها وغايتها المنشـودة.

*فتح (نيقوسيا) وإعلان تبعية الجزيرة لسلطان (مصر):

وفي تلـك الأثنـاء توجـه الأمـير (تغـري بـردي المحمـودي) بفرقتـه المكونـة مـن (سـتين) فارسًـا لفتح عاصمـة الجزيـرة، ومـروا في طريقهم عـلى قريـة تدعـى (بوتاميـا) فأحرقوهـا، كـما ظلـوا وهـم في طريقهـم يـأسرون وينهبـون ويحرقـون، وذلـك حتى تنهـار المقاومـة في العاصمة، ويعلمـوا أنـه لا جـدوى مـن القتـال، وبالفعـل وصلـت أنبـاء مـا فعله الأمـير (تغـري بـردي المحمودي) إلى مسـامع أخـو الملـك في العاصمة، فخـاف عـلى نفسـه وهـرب ومعـه ابـن الملـك ويدعـى (حنـا) وابنتـه،

وما استطاع حمله من أموال وذخائر وتحف ملكية، تاركًا المدينة إلى مصيرها المحتوم.

وكان فرار أخو الملك إلى مدينة تدعى (كيرينا)، وقد فر كثير من سكان المدينة هم أيضًا حاملين ما استطاعوا إلى مدينة (كيرينا) ومعهم نساؤهم وأطفالهم، واحتمى من بقي من أهل العاصمة بأهليهم وذويهم بفندق (البنادقة)، ودخل المسلمون عاصمة (قبرص) دخول الظافر المنتصر، وكان ذلك في بكرة يوم الخميس (الخامس من شهر رمضان المعظم) ونزل الأمير (تغري بردي) على قصر الملك (جانوس)، ثم نادى بالأمان لأهل المدينة، وأعلن أنها أصبحت من ممتلكات سلطان (مصر) السلطان (الأشرف برسباي)، وقد اتفق جميع أعيان وتجار المدينة على جمع المال من أجل إعطائه للسلطان مقابل الأمان الذي حصلوا عليه، وانفصل الجميع على ذلك .

وفي اليوم التالي الموافق ليوم الجمعة (السادس من شهر رمضان المعظم) وصلت بقية القوات المملوكية بقيادة الأمير (تغري برمش) إلى العاصمة، ولم يكونوا قد عرفوا بأمر الأمان الذي أعطي لأهل المدينة من قبل رأس النوبة (تغري بردي المحمودي)، فقاموا بأعمال السلب والنهب والقتل والأسر وحدث اضطراب عظيم في المدينة، وفي تلك الأثناء كان الأمير (تغري بردي المحمودي) يصلي صلاة الجمعة في كنيسة المدينة، ولم يعلم بقدوم الأمير (تغري برمش) وجنوده، وبعد انتهاء الصلاة رجع إلى قصر الملك الأسير وهو لا يعلم بما يحدث، حتى أن جنود الأمير (تغري برمش) أعملوا النار في القصر وهم لا يعلمون أن

قائد حملتهم به، ولم ينجو الأمير (تغري بردي المحمودي) إلا بعد مشقة عظيمة.

ثم بعد ذلك علم الأمير (تغري برمش) بخطأ فعله، فقد كانت غلطة كبيرة من المسلمين إذ لا يجوز القتل والأسر والسلب بعد إعطاء الأمان، وأن ما فعلوه على عكس ما تأمر به الشريعة، والحقيقية أنهم لا يعذرون بجهلهم، فعندما دخلوا المدينة دخلوها دون مقاومة من أهلها، فكان عليهم أن يعرفوا أن المدينة أصبحت في حوزة المسلمين، وليس هناك ما يبرر ما فعلوه سوى حب الانتقام والسلب، ولكن لكل حرب أخطائها.

واجتمعت بعد ذلك جميع الأمراء وقادة الحملة البرية والبحرية في المدينة، واستقر رأيهم بعد أن تمكنوا من تحقيق النصر والاستيلاء على الجزيرة، وإعلان تبعيتها لسلطنة (مصر) أن يعودوا على بلادهم، فقاموا بإخلاء المدينة كلها من أهلها، وأيضًا أرسلوا الأمير (جانبك) رأس نوبة إلى السلطان في (مصر) بأخبار الفتح والنصر، وبقي الجيش في (نيقوسيا) يومين وليلة يخلونها من سكانها، ثم توجهوا جميعًا إلى ميناء (الملاحة) ليجتمعوا ببقية الحملة المرابطة هناك، وأحصوا الأسرى في الميناء فوجدوهم قد بلغوا حوالي (ثلاثة آلاف وسبعمائة) أسير، هذا غير الأموال والذخائر والتحف، وفي تلك الأثناء أرسل أهل مدينة (فاما جوستا) يطلبون الأمان من المسلمين، فأمنهم المسلمون على أرواحهم وأموالهم.

وفي يوم الأحد (الثاني والعشرين من شهر رمضان المعظم) وصلت بطاقة من (طينة قاطية) تخبر بوصول الأمير (جانبك) ومعه مماليك، وفي يوم الاثنين (الثالث والعشرين من شهر رمضان) وصل الأمير (جانبك) ومعه كتاب من أمراء وقادة الحملة إلى السلطان بالبشارة والنصر وأن ملك جزيرة (قبرس) الملك (جانوس) قد أسر، وأن أخيه الآخر قد قتل في أرض المعركة، ففرح الناس، وأمر السلطان بدق البشائر وتزيين الأسواق، وأبواب بيوت الأمراء، وكذلك أمر السلطان بخروج (أربعمائة وأربعة) من أمراء الطبلخانات يذهبون إلى الأمير (جانبك) ومن معه من المماليك، وذلك من أجل تحصيل المراكب إلى ثغري (دمياط) و(الإسكندرية)، وأن تهيأ الخيول والهجن، والطعام الكثير، والإقامات من أجل الغزاة والمجاهدين القادمين من جزيرة (قبرص) منتصرين.

وأمر السلطان كاتب السر (بدر الدين بن مزهر) أن يقرأ الكتاب الذي وصل من قادة الحملة بالبشارة في مدرسة (الأشرفية) والمدرسة (المؤيدية)، فطلع القاضي (شرف الدين الحلبي) منبر (الأشرفية)، وقرأ الكتاب، ففرح الناس فرحًا شديدًا وأعلوا أصواتهم بالتكبير والتهليل، ثم قاموا واتجهوا إلى المدرسة (المؤيدية)، ووقف القاضي (شهاب الدين التقي المالكي) في أحد شبابيك (المؤيدية) والمطلة على الطريق، وقرأ نسخة من الكتاب، فزاد من فرح الناس، وزادوا من التكبير والتهليل، وكان يومًا مشهودًا وعيدًا من أعياد المسلمين.(155)

155 - ص (281) وص (282) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي القرموط

وفي تلك الأثناء استقر رأي الحملة على أحد رأيين إما إبقاء جزء من الجنود للقضاء على بقايا المقاومة في الجزيرة، أو الرحيل كلهم عن الجزيرة فقد طال مقامهم بها، وإذا رغب السلطان من إرسال حملة رابعة فما أسهل القيام بها، وذلك بعد أن تم القضاء على قوة الجزيرة كلها، وقد تغلب الرأي الثاني على الرأي الأول، وهنا أقلعت السفن والمراكب الإسلامية من ميناء (الملاحة)، ووصل عدد كبير من الغزاة إلى ثغر (دمياط) يوم الأربعاء (الثالث من شهر شوال) قادمين من جهة مدينة (طينة)، ثم وصل البقية إلى مدينة (الإسكندرية)، وكان في انتظارهم المماليك السلطانية التي أمر السلطان بذهابهم لتجهيز ما سبق الإشارة إليه.

وفي يوم الإثنين (الثامن من شهر شوال) كان دخول جميع الغزاة والمجاهدين إلى مدينة (القاهرة) ومعهم الملك الأسير (جانوس) وسنجقه (علمه) مسحوبًا على الأرض إمعانًا في المهانة والإذلال، فكان يومًا مشهودًا في (القلعة)، وكان الموكب على النحو التالي، فقد سار في أول الموكب الفرسان على خيولهم، ثم تبعهم المشاة، ووراءهم أحمال الغنائم على رؤوس الحمالين وظهور البغال والحمير، ومعهم تاج الملك وأعلامه منكسة، وخلفهم الأسرى من النساء والأطفال، وكان الملك (جانوس) في آخر الموكب ممتطيًا بغلًا أعرجا ومصفدًا في قيود الحديد، ومعه اثنان من خواصه، وعن يمينه الأمير (إينال جكمي)، وعن يساره الأمير (تغري بردي المحمودي)، ويسير أمامه الأمير (قرامراد خجا الشعباني)، وقد وافق دخول موكب الفاتحين وفاء النيل (ستة عشر ذراع) فزاد سرور الناس وفرحهم.

وعندما وصلوا إلى باب (القلعة) نزل (جانوس) من على بغله، وكشف رأسه فخر على الأرض وقبلها (إظهارًا للطاعة)، ثم سار إلى أن وصل إلى مجلس السلطان (الأشرف برسباي) والذي كان في انتظاره، والذي كان في مجمع حافل شمل في حضرته شريف (مكة)، وأكابر الأمراء والسفراء، ومنهم رسل السلطان (ابن عثمان)، ورسل ملك (تونس)، ورسل أمير (التركمان)، ومماليك نواب البلاد (الشامية)، فكان مجمعًا مدهشًا وباهرًا وأبهة عظيمة لسلطان (مصر).

ووصل (جانوس) إلى حضرة السلطان فقبل الأرض بين يدي السلطان، ثم سقط مغشيًّا عليه من الهوان والتعب، ثم أفاق فأمر بتقبيل الأرض مرة أخرى، ثم أمر السلطان فتنحى (جانوس) ليستعرض الغنائم والأسرى، فعرض الأسرى وهم يمشون طائفة بعد طائفة، ثم عرضت الغنائم بكافة أصنافها وأنواعها، وبعد أن فرغ السلطان من استعراض الغنائم أمر بإحضار (جانوس) مرة أخرى، فأتى وانحنى وقبل الأرض، ثم أغمي عليه للمرة الثانية، فلما أفاق أمر السلطان أن يقف بين يديه لمدة تقارب الساعة حتى يتأكد أنه فعلًا ملك (قبرص)، وبعد أن تأكد أمر به أن يوضع في أحد أبراج (القلعة).[156]

وفي يوم الثلاثاء (التاسع من شهر شوال) أمر السلطان أن يقوم السبي والغنائم تقويمًا حسنًا، وأمر أن يفرق على الغزاة على قدر أنصبتهم بما يوافق الشريعة الإسلامية، وفرقوا السبي جميعه على الأمراء لكي يفرقوه على من كانوا معهم في الحملة.

156 - ص (285) وص (286) – المصدر السابق.

وفي يـوم الأربعـاء (العـاشر مـن شـهر الشـوال) أمـر السـلطان بـأن تُبـاع بقيـة الأسرى في الرحبـة أمـام بيـت النائـب (بالقلعـة)، فبطلـوا سـائر الأسـواق أيضًـا لأجـل بيـع البضائـع والأمتعـة والأقمشـة مـن الغنائـم.[157]

*مصير الملك (جانوس):

وأمـا الملـك (جانـوس) فإنـه قـد بقـي في الـبرج إلى أن أرسـل إليه في طلـب الفديـة فأجابـه قائلا: «مـالي إلا روحـي وهي بيديكـم، وأنا رجل أسـير لا أملـك الدرهـم الفـرد، ومـن أيـن تصـل يـدي إلى مـال أعطيـه لكـم؟»، فغضـب السـلطان مـن هـذا الرد غضبًـا شـديدًا، وأرسـل إليه يهـدده بالقتـل إذا لم يبـادر إلى دفـع فديتـه من المـال، فلا يزيـد (جانوس) إلا بالـرد بمثـل مـا أجاب به سـابقًا، فاسـتدعاه السـلطان مـرة أخرى في حضرتـه وذلك أثنـاء توزيع بعـض الأسرى، فلـما رآه الأسرى على تلك الحـال المهينـة صرخـوا جميعهـم وحثوا عـلى رؤوسـهم الـتراب، فأخذه السـلطان مـرة أخـرى وأخـذ يفاوضـه على أمـر الفـداء ويهـدده بالقتل، ولا يزيـد الملـك عـلى الـرد إلا بمثل مـا أجاب.

---

157 - ص (118) قبرس والحروب الصليبية – د. سعيد عبد الفتاح عاشور. - وص (286) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي قرموط. - وص (154) – مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة – يوسف بن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن – تحقيق ودراسة وتعليق أ.د. نبيل محمد عبد العزيز أحمد – المجلد الثاني – الطبعة الثانية (1433هـ / 2012م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة) - وص (48) – عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي – محمود رزق سليم – المجلد الأول (وهو القسم الأول من الجزء الأول) – الطبعة الثانية (1381هـ / 1962م) – مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز – المطبعة النموذجية – (جمهورية مصر العربية).

وفي تلك الأثناء حضر إلى مدينة (الإسكندرية) جماعة من قناصل الفرنج، فتعهدوا أمام السلطان بدفع الفدية عن الملك، ولكن دون أن يحددوا مبلغًا معينًا، وقبل السلطان وساطة القناصل، وأمر بإعادة ملك جزيرة (قبرص) إلى محبسه، وأرسل له بدلتين، كما أمر بتعيين مقدار من اللحم والطيور كل يوم لطعامه، هذا غير (خمسمائة) درهم لحوائجه الخاصة، بل وسمح له السلطان بحرية الاجتماع بمن يختاره من الفرنج، وأن يقوم على خدمته جماعة من (القبارصة).

وظلت الرسل تتردد بينه وبين السلطان على تحديد مبلغ الفدية، وقد صمم السلطان على مبلغ (خمسمائة) ألف دينار، ولم تزل الرسل والتراجمة تتردد بين الفريقين حتى قنع السلطان أخيرًا بمبلغ (مائتي ألف) دينار يدفع منها (جانوس) مبلغ (مائة ألف) دينار عاجلًا على أن يرسل النصف الباقي بعد عودته إلى بلاده، وقد شرط السلطان لكي يحصل كل ذلك أن يحكم الملك (جانوس) الجزيرة باسمه، أي: أن يكون نائب السلطان على جزيرة (قبرص)، وأن يدفع جزية سنوية مقدارها (عشرون ألف) دينار، ولكي يتمكن الملك (جانوس) من دفع المبلغ المعجل طلب من السلطان (الأشرف برسباي) أن يسمح لقائده الذي أسر معه وهو (قشتالي) الأصل دخل في خدمة الملك (جانوس) وكان يدعى (موسى سوارز) أن يسافر إلى (قبرس) لجمع المال اللازم من أجل فدائه، فسمح له بالسفر وتمكن من مقابلة أخي الملك أسقف عاصمة الجزرة (نيقوسيا)، وبالفعل أرسل أخو الملك رسله إلى ملوك أوروبا يطلب منهم مساعدته من أجل تحرير وإطلاق سراح الملك، وقد عاد الرسل من أوروبا ومعهم ما

قدروا عليه من المال، فرجع القائد (موسى سوارز) إلى (مصر) ومعه مبلغ (ثلاثمائة ألف دوكات) ومعه بعض رجال مملكة (قبرص).[158]

وبعد أن تسلم السلطان المبلغ المتفق عليه أرسل إلى الملك (جانوس)، والذي ظل في البرج إلى يوم السبت (السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة 830 ه)، فأمر السلطان (الأشرف برسباي) بأن يطلق سراحه من الأسر في هذا اليوم، وأمر له بخلعة هائلة، وأركبه فرسًا خاصًّا بكنبوش زركش، وأنزله في بيت في حي (الكافورية)، ثم أمر الأمير (تاج) متولي (القاهرة) أن يمشي معه ويزور المعابد والكنائس، وقد زاره العديد من النصارى والفرنجة والقناصل، ثم استأذن الملك (جانوس) السلطان في الرحيل إلى مملكته، فأذن له السلطان وخلع عليه، فسافر (جانوس) إلى مدينة (الإسكندرية) في صحبة بعض مندوبي السلطان.

وعندما وصل (جانوس) إلى مدينة (الإسكندرية) طلب من التجار الفرنجة أن يقرضوه مبلغًا من المال لكي يوزعه على حاشية السلطان، فأقرضوه مبلغًا كبيرًا من المال، ولم يشأ متولي مدينة (الإسكندرية) الأمير (آقبغا التزازي) أن يسافر (جانوس) قبل أن يلقنه الدرس الأخير، وذلك حتى تظل نفسه منكسرة ولا يرفع راية العصيان على سلطنة (مصر)، فأمر بعرض جند (الإسكندرية) وكانوا زهاء (ألفين وخمسمائة) جندي مدربين على أتم وأحسن

158 - ص (286) – عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – تحقيق وتعليق الدكتور عبد الرازق الطنطاوي قرموط.

وجـه، مما جعـل الملـك (جانـوس) يسـلم أخـيرًا بعـدم الجـدوى مـن محاربـة سـلطنة (مـصر) وسـلطانها.

وسـافر الملـك (جانـوس) وبرفقته سـفراء جزيـرة (رودس) وبعض (القبارسـة) فوصل (قـبرس) في سـنة (830 هـ / 1427م) ليجد الجزيرة في حالـة مـن الفوضى والاضطـراب، وذلك لما تعرضت لـه من الحروب والفتـن الداخليـة، فعمـل عـلى تنظيـم شـئونها وأحوالهـا، وحافـظ على عهـده مـع السـلطان (الأشرف برسـباي) مـن إعـلان تبعيتـه، وإرسـال الجزيـة حتـى وفاته.

*وفاة الملك (جانوس):

عـلى أن مـدة حيـاة ملـك (قـبرص) لم تطـل، فقـد عانـى الرجـل جميـع ألـوان العـذاب مـن ذل الهزيمـة، وهـوان الأسر، فأصابتـه الأمـراض حتـى ألـزم الفـراش لمـدة عـام كامـل، وانتهـت حيـاة هـذا الملـك القرصـان (جانـوس بـن جـاك) كـما يسـميه (المقريـزي) في عـام (1432م) أي: بعـد (خمسـة) أعـوام من هزيمتـه وأسره وإعـلان تبعيته لسـلطان (مـصر)، وقـد نـشر أهـل (قـبرص) أن المسـلمين قـد دسـوا لـه السـم في (مـصر)، وأنـه ظـل يعـاني منـه عـلى هيئـة الأمـراض التـي أسـقمته وأقعدتـه طريـح الفـراش طيلـة عـام كامـل حتـى وافتـه المنيـة في النهايـة.[159]

---

159 - ص (120) – قبرس والحروب الصليبية – د. سعيد الفتاح عاشور - وص (121) – المرجع السابق.

وهكـذا انتهـت الحمـلات البحريـة المملوكيـة عـلى أقـوى جزيرة في حـوض البحـر المتوسـط، والتـي أتعبـت وأرهقـت البحرية الإسـلامية طيلـة قـرن ونصـف تقريبًـا مـن الجهـاد ضـد أسـاطيلها وقراصنتهـا، وبقيـام السـلطان الملـك (الأشرف برسـباي) بإرسـال هـذه الحمـلات الثـلاث، والتـي كانـت نتيجتهـا أن فتحـت الجزيـرة وأعلنـت ضمهـا وتبعيتهـا للسـلطنة المصريـة، فـكان نـصرًا باهـرًا في سـجل البحريـة المصريـة المـشرف، ودليـل عـلى أن الأسـاطيل المملوكيـة المصريـة هـم سـادة البحـر الحقيقيـين، وقـد ظلـت الجزيـرة تابعـة (لمـصر) حتـى وقـوع سـلطنة المماليـك بعـد ذلـك في قبضـة الدولـة الناهضـة الدولـة (العثمانيـة)، فقـد ضمـت إلى أمـلاك (العثمانيـين) بعـد أن تمكنـوا مـن هزيمـة المماليـك وضمهـم (لمـصر) في سـنة (922 هـ/ 1516م)، وقضائهـم التـام عـلى هـذه الدولـة التـي ظلـت منـذ قيامهـا وحتـى سـقوطها تنافـح عـن الإسـلام والمسـلمين طـوال تاريخهـا العظيـم.

***

السلاح السري للشعب المصري
مسرحيات خيال الظل في العالم الإسلامي

مقدمة:

مسرحيات (خيال الظل) أو (بابات خيال الظل)، وهو المسمى التي عرفت به هذه المسرحيات في العصور الوسطى في الدولة الإسلامية عندما ظهرت وانتشرت بين عامة الشعوب العربية والإسلامية، ولكن في بداياته لم يكن هذا الفن الخطير متاحًا لعامة الشعب، ولكنه كان حكرًا على طبقة الحكام والأمراء في الدولة، ولعلية القوم من الأغنياء والتجار فقط، ولكن متى ظهر هذا الفن، وأين كانت نشأته، وكيف وصل إلى العالم الإسلامي؟ وكيف استغل من قبل الحكام، ثم كيف استغلته العامة بعد ذلك؟ هذا ما سنحاول معرفته في هذه المقالة البسيطة.

أولًا: نشأة (خيال الظل):

اختلفت الآراء والدراسات حول بداية ظهور ونشأة هذا الفن الفريد، والذي يعد طفرة حقيقية في مجال الفنون في ذلك الوقت، ولكن انحصرت هذه الدراسات على الآراء الثلاثة وهي:

الرأي الأول (الهند):

وأصحاب هذا الرأي يذهبون أن نشأة (خيال الظل) الأولى كانت (بالهند)، ويستدلون على صحة رأيهم هذا من خلال عثورهم على بعض النصوص الأدبية المكتوبة باللغة الهندية القديمة (السنسكريتيه) والتي تسمى (بالتيرة جاثا) وتعني (أغاني الراهبات)، وعلى الرغم من أن هذه الأغاني ليست بها أدلة مباشرة تدل على أن (خيال الظل) هندي الأصل، أو أن نشأة هذا الفن كان في بلاد (الهند)، وإنما الإشارات تدل على تبعية أكثر منه ريادة أولى وسيادة (للهند) على غيرها.

الرأي الثاني (الصين):

وهذا الرأي هو الأقوى من حيث إن نشأة (خيال الظل) كان (صيني) النشأة والبداية، حيث يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن ظهور هذا الفن وألعابه إنما كان ببلاد (الصين)، وأنه انتقل منها إلى (الهند) والجزر الجنوبية مثل (جزيرة جاوه) ومنها إلى بلاد وسط آسيا، ومنها انتقل إلى بقية الدول الإسلامية الأخرى.

وأصحاب هذا الرأي يستدلون على صحة رأيهم بحجة قوية جدًّا في كيفية ظهور فن (خيال الظل) في (الصين) من خلال هذه القصة، والتي تقول:

«أن الإمبراطور الصيني والذي كان يدعى (ووتي) قد توفيت زوجته والتي كان يحبها حبًّا عظيمًا، ولم يستطع الإمبراطور أن ينساها حتى اضطربت حالته النفسية واضطربت معها حال إمبراطوريته ومملكته، وهنا فكر أحد رجال حاشيته في فكرة

ذكيـة، ألا وهــي عمـل صــورة محاكيــة لصــورة زوجــة الإمبراطــور المتوفيــة، وذلــك عــن طريــق صنــع خيــال لهــا يظهــر عــلى شاشــة خفيفــة مصنوعــة بإحــكام، وبفضــل انعــكاس لضــوء يصــدر عــن إحــدى ردهــات قــصر الإمبراطــور، وجعــل هــذا الخيــال يتحــرك ويتحــدث بشــكل طبيعــي كأنــه إنســان حــي، فوجــد الإمبراطــور في هــذا الخيــال بعــض ســلوته وراحتــه النفســية، فعــاد إلى الحكــم مــرة أخــرى بشــكل طبيعــي»[160]

ثانيًا: انتقال فن (خيال الظل) إلى العالم العربي والإسلامي:

وعـلى الرغـم مـن تعـدد الروايات عـن حول كيفيـة انتقـال ووصول هـذا الفـن إلى العـالم العربي والإسـلامي، وكيفية انتشـاره بين الأوسـاط والطبقـات الحاكمـة والغنيـة، إلا أنـه باتفـاق الآراء أن هـذا الفـن قـد وجـد بالفعـل في دولـة (مـصر) وتحديـدًا في فـترة حكـم (العبيديـن) أو كـما كانـوا يسـمون أنفسـهم (بالفاطميين)، فقـد كان خلفاء هـذه الدولة محبـين لفـن (خيـال الظل)، بـل كانـوا مولعين بـه، ومولعين بـكل ما هو غريـب وفريـد مـن نوعـه ومميـز، ولعل هـذا الفن قـد هاجر مـن موطنه الأصـلي الـذي ابتكـر فيـه إلى جميـع أنحـاء العـالم الإسـلامي مـن خلال التجـار وقوافـل المهاجريـن، فقـد كان التجـار هـم الوسـيط دائـمًا لنقل كل مـا هـو نـادر وفريـد مـن نوعه، وقـد لاقى هـذا الفـن رواجًـا عظيمًا في (مـصر)، ولكنـه مـع ذلـك ظـل حبيـس القصـور حتـى أواخر عصر الدولـة (الفاطميـة)، ومقتـصرًا عـلى طبقـة معينـة، وهـي طبقـة الخلفاء والحـكام وعليـة القوم فقـط محصـورة عليهـم وحدهـم.

160 - ص (47) وص (49) وص (50) – تمثيليات خيال الظل – الدكتور علي إبراهيم أبوزيد – الطبعة الخامسة – دار المعارف – (القاهرة).

ولم يصبح فن (خيال الظل) فنًّا شعبيًّا عاميًّا إلا بعد ظهور الدولة (الأيوبية) و(المملوكية)، وذلك بعد سقوط الخلافة (الفاطمية)، فأصبح هذا الفن العظيم ملكًا للشعب وحده يسخر من خلاله على الحكام والأمراء، ويسخر كذلك من الأوضاع الاجتماعية السلبية التي كانت منتشرة بين طبقات الشعب المختلفة، وبالتالي أصبحت (بابات خيال الظل) مجالًا خصبًا لإنتاج المسرحيات الكوميديا والهزلية الساخرة، ولكنها في نفس الوقت هدفت إلى نقض أوضاع المجتمع الاجتماعية والسياسية، وكانت أحيانًا سلاحًا يهدد الطبقة الحاكمة، لهذا فقد واجهه بعض السلاطين بالمحاربة وحرق شخوصه (الدمى).[161]

*شمس الدين محمد بن دنيال الموصلي:

وهو من أشهر المخايلين وصاحب الفضل في انتشار مسرحيات (بابات) خيال الظل في مصر، وقد عرف في كتب التواريخ وترجم له العديد من المؤرخين، وهو ما يدل على مكانته وأهميته في هذا الفن، وهذه ترجمة مختصرة له:

«هو الأديب الخليع الحكيم البارع (شمس الدين محمد بن دنيال بن يوسف الموصلي، صاحب الطباع الداخلة، والنكت الغريبة، والنوادر العجيبة، وهو صاحب كتاب (خيال الظل)، وكان كثير المجون والدعابة، وكان أعجوبة في النوادر والأجوبة، وكان له دكان كحال (هو طبيب العيون) داخل باب (الفتوح) من (القاهرة)، ومولده (بالموصل) سنة ست وأربعين وستمائة ومن شعره في صنعته الكحالة:

161 - ص (60) وص (61) – المرجع السابق.

ما عاينت عيناي في عطلتي أقـل مـن حظـي ولا بختـي
قد بعت عبدي وحصـاني وقد أصبحت لا فوقي ولا تحتي

وله في المعنى أيضًا:

يا سائلي عن حرفتي في الورى وضيعتـي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفـاقه يأخذه من أعين الناس

ومن نوادره الظريفة أنه كان يلازم خدمة الملك (الأشرف خليل بن قلاوون) قبل سلطنته فأعطاه فرسًا ليركبه، فلما كان بعد أيام رآه (الأشرف) وهو على حمار زمن، فقال له: يا حكيم، أما أعطيناك فرسًا لتركبه؟ فقال: نعم ياخوند، بعته وزدت عليه واشتريت هذا الحمار، فضحك (الأشرف) وأعطاه غيره.

ومن شعره في الحشيش:

قل للذي ترك الحشيشة جاهـلًا وله بكاسات المدام ولوع
إن المدامة إن أردت تطـوعً لهي المحرم والحشيش ربيع

ومن شعره في المجون واللهو:

قد قام ناعي الدجا على ساق يا حاسي الكأس نبه الساقي
وبشَرت بالصباح ساجعـة خضيبة الكف ذات أطـواق
ورقاء تشدوا بعودها طـربًا محجـوبة مـن بين أوراق
وللضيا في الرياض إذ نعس ال نرجس بالطل مشي سـراق

فاغتنم العمـــــر في أوائله فلسـت تـدري أواخــــــر الباقي

وهـو صاحب المسرحيـات (البابـات) المعروفة وأشـهرها بابة (طيف الخيـال)، وقـد تـوفي سـنة سـبعمائة وعـشرة، واختلـف في يـوم وفاتـه، فالبعـض جعلـه يـوم الثامـن والعشرين مـن جمـادى الآخـرة، والبعض يجعـل وفاتـه في يـوم الثامن عـشر من جمـادى الآخـرة[162].

*موقف السلاطين من مسرحيات (خيال الظل):

ولكـن مـا يهمنـا هنا في مسـألة مسرحيـات (بابـات خيـال الظل) هو دراسـة هـذا الفـن وأهميتـه مـن الناحيـة التاريخيـة والسياسـية، وقد ذكر بعـض المؤرخـين أن السـلطان (الناصر يوسـف صـلاح الديـن الأيوبي) أول سـلاطين الدولـة (الأيوبيـة) في (مـصر) قـد حـضر أحـد عـروض (خيـال الظـل) مع قاضيـه (القـاضي الفاضـل)، وذلك من أجـل معرفة ماهيـة هـذا الفن.

أولًا: موقف السلطان (الناصر صلاح الدين الأيوبي):

أمـا عن موقف السـلطان (صـلاح الدين الأيـوبي) فتقـول الروايات التاريخيـة أن السـلطان في سـنة (567 ه / 1171 م) قـد حضر لمشـاهدة أحـد عـروض (خيـال الظـل) مـع قاضيـه، وتخبرنـا الروايـات بكيفيـة القصـة كالتالي:

---

162 - ص (215) – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي – الجز التاسع – طبعة (1426هـ / 2005م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة) - وص ((674)) وص ((676)) – عيون التواريخ – لصلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي – عصر السلاطين المماليك – الجزء الثالث – تحقيق أحمد عبد الستار – زينب علي البندري – مراجعة أ.د أيمن فؤاد السيد – طبعة (1438هـ / 2017م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

«حضر السلطان (صلاح الدين) ومعه قاضيه (القاضي الفاضل) وقد أخرجوا من قصور (الفاطميين) من يعاني (يمارس) (خيال الظل) ليريه (للقاضي الفاضل)، فقام عند الشروع فيه فقال له (الملك): «إن كان حرامًا، فلم نحضره؟ «وكان حديثا بعهد خدمة السلطان (الناصر) قبل أن يلي السلطنة، فلما أراد أن يكرر عليه، فجلس إلى آخره، فلما انقضى قال له (الملك): «كيف رأيت ذلك؟ «فقال القاضي: «رأيت دولًا تمضي، ودولًا تأتي، ولما انطوى الإزار طي السجل للكتب إذا المحرك واحد». (163)

وهكذا نرى أن السلطان رأى في (خيال الظل) عاملًا إيجابيًّا وليس سلبيًّا، وبالتالي ترك هذا الفن ينتشر بين العامة والشعب في دولته في (مصر) وغيرها، فقد عبر عنه (القاضي الفاضل) بأنه فن فيه موعظة عظيمة، وعبر لكل من أراد أن يعتبر بقضاء الله في خلقه وكونه.

ويعتبر موقف السلطان (الناصر صلاح الدين) موقفًا إيجابيًّا معتدلًا، فإنه لم يشغف (بخيال الظل) ولم يحرمه، ربما يعود ذلك إلى الظروف الزمانية التي كان السلطان يحكم فيها (مصر) وبلاد (الشام)، فقد كانت هناك أمور أكثر أهمية وخطرًا أكثر من تحليل أو تحريم ألعاب ومسرحيات (خيال الظل)، فقد كانت الحروب الصليبية على أشدها، فشغل السلطان (صلاح الدين) عن هذا الفن واكتفى بإباحته للناس، وهذا في حد ذاته موقف إيجابي تجاه هذا الفن العظيم، وبموقفه ذلك ترك فن (خيال الظل) يتطور وينتشر في البلاد والمدن الإسلامية.

---

163 - ص (56) – تمثيليات خيال الظل – الدكتور على إبراهيم أبوزيد – الطبعة الخامسة –دار المعارف – ((القاهرة)) .

ثانيًا: السلطان (الأشرف زين الدين شعبان ابن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاون):

وقد تولى هذا السلطان الملك والسلطنة في عمر صغيرة، وكان معروفًا عنه حبه الشديد لمسرحيات وألعاب (خيال الظل)، وقد بلغ به حبه لهذا الفن حد الإفراط، فقد ذكر المؤرخ المصري (تقي الدين المقريزي) حادثة تدل على مدى حب السلطان (الأشرف شعبان) لبابات (خيال الظل) مفادها:

«أنه في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (778 ه) وفي (الأحد 13 من شهر شوال) من هذه السنة خرج السلطان للحج فعرض عليه رواحل الحج وما فيها من العجائب والصنائع الشيء الكثير، وكان من ضمن قافلة الحج جماعة من أرباب الملاهي والمخايلين، فأنكر الناس ذلك من أجل أنه غير لائق بالحج».[164]

وهذه الحادثة تدل على مدى الشغف الذي وصل إليه السلطان (الأشرف شعبان) لبابات (خيال الظل)، والذي استولى عليه لدرجة أنه لم يستطع أن يخرج للحج من دون أن يأخذ معه ما يسليه في طريق الحج الطويل من أصحاب هذا الفن واللعب، فلم يكن يتصور ألا يكون معه تسليته المفضلة والتي اعتاد عليها، ولولا إنكار الناس عليه ذلك وخوفهم من ضياع هيبة الحج، لأخذهم معه ولتسلى بهم حتى في أيام الحج.

---

164 - ص (273) – كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك – لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي – الجزء الثالث – القسم الأول – حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور – الطبعة الرابعة – (1436 ه / 2014م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

وبذلك يعتبر السلطان (الأشرف شعبان) من الذين أطلقوا العنان لهذا الفن أن ينتشر أكثر من سابقيه، بل ويعتبر من الذين رخَّصوا في انتشاره لحد الإفراط، وهذا ما جعل هذا الفن بعد ذلك يتجه اتجاهًا جديدًا مخالفًا لمن بدأوه في (مصر) وغيرها من بلاد ومدن العالم الإسلامي، فقد أخذ هذا الفن العظيم في الانحدار وعرض مسرحيات هابطة بدأ السلاطين بعد ذلك في محاربتها، وهذا ما سوف تخبرنا بها الحادثة التالية.

ثالثا: السلطان (الظاهر جقمق) يضطهد (خيال الظل):

بلغت مسرحيات (خيال الظل) من الهبوط في عهد هذا السلطان مبلغها، فقد انحرف أصحاب وأرباب هذا الفن من إنتاج مسرحيات وبابات هادفة إلى إنتاج وإخراج مسرحيات مليئة بالانحرافات الخلقية، وتصوير مشاهد جنسية قبيحة أو شاذة واضحة وصريحة، وهذا ما دعا إلى ذكر الإمام (محمد السخاوي) هذه الحادثة فقال:

«وفي سنة خمس وخمسين وثمانمائة (855 ه) في شهر شوال، في يوم الثلاثاء يوم العشرين منه، حرق السلطان ما مع أصحاب (خيال الظل) من الشخوص (الدمى التي يمثل بها المسرحيات) وما نحوها، وكتب عليهم قائم (عهد) في عدم العود لفعله، ونعم الصنيع جوزي خيرا». [165]

---

165 - ص (102) – التبر المسبوك في ذيل السلوك – تأليف محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902 هـ / 1496م) – مراجعة أ.د سعيد عبد الفتاح عاشور – تحقيق د. لبيبة إبراهيم مصطفى، وأ. نجوى مصطفى كامل – الجزء الثالث (854 هـ – 855 هـ) – طبعة (1426 هـ / 2005 م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

ويفهم من جملة الإمام (سخاوي) الأخيرة الكثير من الأمور المهمة، ألا وهي أن هذا الفن قد انحرف في تمثيلة المسرحيات الهابطة جدًّا مما أثار غضب وحفيظة العلماء والشيوخ إلى كرهه والنفور منه، وطلبوا من السلطان أن يأخذ موقفًا حازمًا من أصحاب وأرباب هذا الفن، وهذا ما دفع السلطان (جقمق) من القيام بهذا الفعل المتطرف أيضًا، فقد كان كافيًا أن يأخذ على أرباب هذا الفن ألا يمثلوا مسرحيات هابطة خلقيًّا، بل كان عليه أن يأخذ عليهم أن ينشروا الأخلاق الحسنة ونقض الأخلاق السلبية في المجتمع، فما ذنب الدمى أن تحرق، إلا أن يكون أحد هذه المسرحيات قد مسَّت أحد المماليك بالغمز أو التصريح به، أو تكون إحدى هذه المسرحيات قد مسَّت السلطان نفسه، ولهذا كان انتقام السلطان عنيفًا ومتطرفًا بعض الشيء تجاه مجموعة من الدمى المصنوعة من الورق المقوى، أو الخشب التي لا حول لها ولا قوة.

رابعًا: السلطان العثماني (سليم الأول) ومشاهدته لمسرحية (خيال الظل):

ويذكر المؤرخ المصري (ابن إياس الحنفي) في كتابه (بدائع الزهور) والذي كان معاصرًا لسقوط دولة المماليك (الجراكسة) في (مصر) على يد السلطان (سليم الأول) سنة (922 ه / 1517 م)، فقد ذكر التالي:

«أن السلطان بعد دخوله (القاهرة) واستقراره فيها أنه في سنة (923 ه) صعد السلطان (سليم شاه) إلى المقياس، وأنه أحضر في بعض الليالي (خيال الظل)، فلما جلس للفرجة قيل: إن المخايل صنع صفة باب (زويلة)، وصفة السلطان (طومان باي) لما شنق

عليه ولما انقطع به الحبل مرتين، فانشرح (ابن عثمان) لذلك وأنعم على المخايل في تلك الليلة (بمائتي دينار)، وألبسه (قفطان مخمل مذهبًا)، وقال له: «إذا سافرنا إلى (إسطنبول) فامض معنا حتى يتفرج ابني على ذلك (يقصد ولده سليمان الذي سوف يتولى السلطنة من بعده)».[166]

*أمثلة من مسرحيات (خيال الظل) وإسقاطاتها على الأحوال التاريخية والسياسية في الدولة المصرية:

ومن أشهر الذين ألفوا في بابات (خيال الظل) الحكيم والشاعر الظريف (محمد بن دانيال الكحال) والذي ذكرنا ترجمته سابقا، وقد ألّف عدة بابات مهمة كان لها أثر بالغ الأهمية في تطوير فن (خيال الظل) في (مصر)، فقد وضع الأسس التي سار عليها المخايلون من بعده، ومن هذه البابات بابة مهمة جدًّا ولها إسقاط على حدث مهم حدث في تاريخ (مصر) السياسي، بل على تاريخ الدولة الإسلامية بأجمعها، وهذه البابة أسماها (طيف الخيال)، فعن ماذا تتحدث هذه البابة:

*بابة (طيف الخيال):

وهذه البابة من أجمل ما أنتج وأخرج المخايل (محمد بن دنيال)، فقد ابتكرها وأخرجها في ظروف سياسية خطيرة، ألا وهي قدوم

166 - ص (192) – بدائع الزهور في وقائع الدهور – تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي – حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى – الجزء الخامس (من سنة 922 إلى سنة 928 هـ) – الطبعة الثالثة (1429هـ / 2008 م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).87-ص (525) وص (526) – تاريخ الخلفاء – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي – الطبعة الأولى – (1422هـ / 2001 م) – دار مصر للطباعة (سعيد جودة السحار وشركاه) – (القاهرة).

أحـد أفـراد البيـت (العبـاسي) إلى (مـصر) هاربًـا مـن (التتـار)، وكان يُدعـى (أبـو العبـاس أحمـد بـن أبي عـلي الحسـن بـن أبي بكر بن الحسـن بـن علي القبـي ابن الخليفة المسترشـد بـالله بن المسـتظهر بـالله العباسي)، وقـد قـدم (مـصر) في سـنة (661 ه)، وقـد عقـد لـه السـلطان (الظاهر بيـبرس البندقـداري) لـه مجلسًـا عامًّـا يـوم الخميـس (الثـاني من الشـهر المحـرم سـنة 661 ه)، وحضر إلى هـذا المجلس (أبو العبـاس أحمد) راكبًا إلى الإيـوان الكبـير (بقلعـة الجبـل) فأثبـت صحـة نسـبه أمام السـلطان والعلـماء، وبعـد إثبـات صحـة نسـبه قـام السـلطان والعلـماء وجميع من في المجلـس بمبايعـة الخليفـة الجديـد ولقَّبـه السـلطان بلقـب الخلافـة، وهـو (الحاكـم بأمـر الله) وذلـك أن العـالم الإسـلامي ظل بـدون خليفة لمـدة ثلاث سـنوات كاملة بسـبب قتل (التتـار) لآخر الخلفاء العباسـيين بمقـر الخلافـة (بغداد) سـنة (656 ه) وقام السـلطان (بيبرس) بإسـكان الخليفـة الجديـد وأهـل بيته في (الـبرج الكبـير) في (القلعـة) وذلك حتى يكـون تحـت ناظريه ويراقـب تصرفاتـه.[167]

ونتيجـة لهـذا الحـدث السياسي الخطـير الـذي طـرأ عـلى البـلاد من قـدوم أحـد أفـراد بيـت الخلافـة العبـاسي إلى أرض (مـصر)، ومـا تـلا ذلـك مـن أحـداث جسـام، كل هـذه الأحـداث شـحذت فكـر (ابـن دانيـال) لكـي يبتكـر أجـرأ مسرحية (لخيـال الظـل) في زمانه، وأسـماها (طيـف الخيـال) وهـي اسـم عـلى مسـمى، وهـذه المسرحيـة أو البابـة عبـارة عـن إسـقاط سـياسي بالكامـل عـلى هـذا الحـدث الخطـير، فقـد ابتكـر شـخيصة الأمـير (وصـال) والتـي تمثل شـخصية الخليفـة الجديد

---

167 - ص (206) وص (207) – تمثيليات خيال الظل – الدكتور علي إبراهيم أبو زيد – الطبعة الخامسة – دار المعارف – (القاهرة).

(بالقاهـرة)، والـذي جعـل منـه شـخصية ماجنـة مسـتهترة تجـري وراء نزواتهـا وشـهواتها الطبيعيـة والشـاذة، وقـد شـابه حالـه حـال الخليفـة الجديـد مـن العجـز والضعـف، فقـد ذكـر في مشـهد مـن مشـاهد هـذه المسرحيـة مرسـوم تقليـد الأمير (وصـال) لكثير من الجهـات والأوقاف والإقطاعـات وهـذا التقليـد يقـول فيـه:

«فـإن أولى مـن يسـتندب لاسـتجلاب الفـرح، ويسـتحضر لاسـتماع النـوادر والملـح، مـن يقـوم في دفـع الهموم مقـام ابنـة الكروم، ولمـا كان الأمـير الأجـم الأوحـد عـين الديـن، فخـر البلـه والمجانـين، (وصـال) الإصبـع، أطـال الله قفـاه، وبـارك في خصـاه، وأعطاه من الصفـح أوفره وأوفـاه، ممـن تتجمـل بطلعتـه المجالـس، ويمـن إلى صفـح قذالـه كل واقـف وجالـس، كان جديـرًا بـأن تمد إليـه الأكـف والسـواعد، فوضنا إليـه أمـور القبـور، وجعلناه أميرا عـلى مسـاخرة الجمهـور، وأضفنا من الولايـات مـا يـأتي ذكـره من هـذه الجهـات، وهـي ولاية مـصر القديمة والسـنباب، ومعهـا دثـر مـن الجـدران والخـراب، وشـد (وقـف) عماير الأهـرام، ومـا يجاورهـا مـن التـلال والآكام، ونقـارة السـنجة بـصرف النـوى والكعـاب، وشـد (وقـف) كيالـة الرمـل والحـصى والـتراب، ويسـتخرج أمـوال أوقـاف المواجـير، وحفـظ كل مـا تكـسر مـن خزف الفواخـير... إلـخ». (168)

ويفهـم مـن هـذا المشـهد الرائـع الكثير مـن الإسـقاطات السياسـية الكثـيرة، فقـد غمـز على شـخص الخليفـة من بعيـد من خلال شـخصية الأمـير (وصـال)، الـذي هـو أمير عـلى ولاية (مـصر) و(السـنباب) وما حولهـا من أحجـار وتراب وجـدران وآكام، فهو ليس أمـير على الحقيقة،

168 - **ص (140) – المرجع السابق.**

بـل هـو أمير بالمجـاز فقط، وليـس له من الحكـم شيء ولا أمـر ولا نهي، ثـم عرض بأمـراء المماليك الذين تسـلطوا عـلى الأوقاف وأمـوال الناس مـن خـلال قوله: (المشـد)، وهـو الوقف الـذي يوقف عـلى كل ما يخرج مـن الأرض مـن أمـوال ومـا شـابهها مـن عمايـر وغيرهـا، وهـو بذلـك عـرض بهـم مـن بعيـد أيضًـا، وهو إسـقاط سـياسي آخـر خطـير، وكان الجمهـور مـن العامة الذيـن يفهمـون ويعون مقصـد (محمد بـن دانيال) وليـس بخـافٍ عنهـم يسـتمتعون بهـذه البابـات أيـما اسـتمتاع، ولكن لم يتعـرض (ابـن دانيـال) لأي نـوع مـن أنـواع الأذى، ربما يعـود ذلك إلى اهتـمام السـلطات الحاكمة بأمور أشـد خطـرًا من التعـرض لمخيال يمثل مسرحيـات يسـلي بهـا العامـة مـن الشـعب، فقـد كانـت هنـاك جيوش (التتـار) التـي ما زالت تجـوب بلاد (الشـام) و(العـراق)، وهنـاك أيضًا الصليبيـون فيـما تبقـى في ممالكهـم، كل هـذا كان يشـغل ذهـن السـلطة الحاكمـة في (القاهـرة)، هـذا بالإضافـة إلى أن دولـة المماليـك كانـت مـا تـزال في طـور النشـوء، ولم تكـن بعـد قـد ثبتـت ملكهـا إلا بعـد أن أتى (الحاكـم بأمـر الله) الخليفـة الجديـد إلى (مـصر)، ونقـل مقـر الخلافة من (بغـداد) المحتلـة مـن قبـل (التتـار) إلى (القاهـرة)، والتي سـوف تكون عاصمـة العـالم الإسـلامي الجديـدة وحاضرتـه، وهـذا الـذي أكسـب (المماليـك) صفـة الشرعيـة في الحكـم وثبـت أركانهـم، بالإضافـة إلى النـصر الـذي حققته جيـوش (المماليـك) في (عين جالـوت) على جيوش (التتـار)، ولهـذا أظـن أن أمر هـذه البابـات (المسرحيات) التـي أخرجها (محمـد بن دانيـال) لم يكـن لتثير غضب السـلطان أو حفيظتـه، وإلا كان لاتخـذ منهـا موقفًـا صارمًـا حيالـه، وهـذا لم يحدث لمـا ذكرناه سـابقًا.

(إحدى مسرحيات خيال الظل)

***بابة (حرب العجم أو لعب المنار):**

وهـذه المسرحيـة أيضًـا من المسرحيـات المصريـة السياسـية التاريخية، وترجـع هـذه المسرحيـة إلى القرنين السـادس والسـابع الهجريـين، وهي تتكلـم عـن الحـروب الصليبيـة التـي دارت بـين المسـلمين والصليبيـين القادمـين مـن الغـرب لكـي يطـردوا المسـلمين مـن الأراضي المقدسـة في (فلسـطين) و(بيـت المقـدس)، ولكـن أحـداث هذه المسرحيـة دارت في مدينـة (الإسـكندرية)، ولهـذا سـميت (بلعـب المنـار) أو (بحـرب العجـم)؛ لأنهـا تتكلـم عـن الصليبيين.

وتبـدأ هـذه المسرحيـة بوصف (منـار الإسـكندرية) من خلال شـعر جميل يقـول فيه منشـده:

سعود الأديب يا صـــاح نظموا عـــجز الفصـــاح

أنظـر ذا المنـار بإنســان تلقـى عمـود لـــه بنيـان

مـن بلـور وش مرجـــان نقشـه بالذهـــب وضـاع

لـه سـلم تـراه معقـــود مبنـى بالحـكم مرصـــود.

كـم جـاد لـه حزيـن مكمـود زالـــت عنـه الأتـراح.

وأنظـر بـاب شريـق فـد نـار مـن خلفـه رجـــال أخيـار

لم يشهـــروا البتـــار يخلـــو الــــدما سواح

بــاب البحـر يا قمر عنـــابي ولـــه منظر

كم جـــاله ملك قسـور راح مكسـور جليـــل منجـاح

وأقشع يا أولي الألـــبـــاب قنديلـــن على الأبــــواب

كم فيهم فنون وإنـــداب ضيـــاهم خفي المصبـــاح

واتحقق ترى بالعين مـــا أظـــرف حســن ذا البرجـين

جواهم رجال يا زيـــن يرمـــوا الكـــافر الفضاح

باب الـــوســط ما مثله حسنـــه ولا في شكـــله

له وزرا زهـــت تعلـــو عـلى مـن يكـــمن جحـــجاح

وبعد وصف (منار الإسكندرية) والتي كانت إلى هذا الزمن تُعد من عجائب الدنيا السبع، يتحول المخايل إلى تمثيل مشهد أخر، وهو مشهد الحرب بين المسلمين والصليبيين، وانتصار المسلمين عليهم، وتصوير قتل البعض وأسر البعض الآخر في مشهد بديع فيقول:

جيش اللئام قد انكسر وجيش الإسلام انتصر

الروس على أعلى الرماح والبعض موسوقين جراح

والمسلمين زانوا السلاح وصبروا الكفار عبر

صغير وأمه مع أبوه وأخوته اثنين يسحبوه

من تحت تخته يحملوه متقيدين يمشوا زمر

وانظر ترى كم قوم أسار مستيسرين في انكسار

داقوا العنا والاحتضار والهم والضيق والضرر

وانظر بني الأصفر حقبق مجنزرين لفريق

والدمع سال بل الطريق وحالهم حال وانذثر

وانظر جيوش الكيتلان من القيود ذاقوا الهوان

وحينهم بالقرب حان وأرواحهم تذهب سقر

ثم يذكر بعد ذلك أسماء البلاد التي حاولت أن تغزو مدينة (الإسكندرية) وكيفية هزيمتهم وأسرهم:

رودس أسرناهم جميع بإذن مولانا السميع

وانظر تراهم يا شجيع نفر ومن خلفه نفر

وأهل قبرص واللئام من حربنا ذاقوا الحمام
وانتظرنا يا كرام على الذي بالدين كفر
وانظر لدير به كبار دموعهم تجري غزار
وكل واحد في افتكار للخلق يشخص بالنظر
جنود ما قاسوا قليل أضحى العزيز منهم ذليلًا
وفي الحديد قاموا العويل ودمعهم يحكي المطر
والفنش جتنا في القيود دولا ملاعين الجدود
لما تعدوا الحدود صاروا حديث بين البشر
وانظر لاستبتار كمان مسلسين يمشوا عيان
وماهم معهم بيان لو ينتظر من كان حضر
وانظر تجار أولاد ملوك لهم على السرقة سلوك
ياما خدو جنح الجلوك من المراكب في البحر
معهم ترى أكياس دهب والعقل منهم قد ذهب
وحالهم صار حال عجب والحق بالإسلام نصر
دول جنوس لم يحصروا وكلما طال يقصروا
وعاينوهم وأبصروا أقوام يحير فيها النظر.[169]

١٦٩ - ص (١٣٩) – المرجع السابق.

وهكذا تنتهي هذه المسرحية بانتصار جيوش الإسلام على جيوش الصليبيين، وتأسر قوادهم وجنودهم، والجدير بالذكر أن هذه المسرحية قد مثلت في عاصمة السلطنة العثمانية (إستانبول)، فقد قام رئيس فرقة (خيال الظل) في (مصر) والذي يسمى (داود العطار) أو (المناوي) وهو من كتب هذا المخطوط الخاص بمسرحية (حرب العجم أو لعب المنار) ونقله إلينا، بل وأضاف فيها الكثير من أزجاله وأشعاره، فقد سافرت الفرقة لإحياء حفل الوزير العثماني (محمد باشا السابع) ابنة السلطان العثماني (أحمد الأول) وأنه تشرف بالمثول أمام حضرة السلطان والذي أعجب بمسرحيته وأنعم عليه بالعطاء، وكان ذلك في سنة (1611م) واستمرت هذه الرحلة حتى عام (1613م) فقد رجعت الفرقة إلى (مصر) بعد أن سلكت طريق (الشام) مارة بمدينة (دمشق) و(القدس).

(إحدى مسرحيات خيال الظل)

*نهاية فن (خيال الظل):

وكغيرها من الفنون الشعبية بدأت مسرحيات (خيال الظل) ينحدر مستواها الفني والاخلاقي، وذلك لعدة أسباب، منها أن هذا الفن أصبح مشاعًا لكل من أراد أن يتكسب، فلم تراع الأجيال التالية لجيل الحكيم والمخايل (محمد بن دانيال) أن تحافظ على قيم وأسس وأخلاقيات هذا الفن العظيم، فأخذت المسرحيات تأخذ منحنى هابطًا في عروضها، فبدأت تعرض المسرحيات الجنسية والسافلة، وهذا كان إرضاءً لقطاع كبير من جمهور (خيال الظل) الذي بدأت اهتماماته تنحصر في المسائل الجنسية والسلوكيات الأخلاقية الشاذة.

وهناك السبب الرئيسي والذي أدى إلى القضاء التام على هذا الفن، ألا وهو ظهور فن السينما، وهذا الفن الحديث والتطور الطبيعي لفن (خيال الظل)، فقد كان ظهور الفن بمثابة الضربة القاضية لهذا الفن، وعلى الرغم من ذلك استمرت مسرحيات (خيال الظل) في الموالد والمناطق الشعبية العميقة، وبلاد الريف، ولكن كان ولابد أن يصيب هذا الفن السنة الطبيعية في التطور الذروة ثم النهاية ومن ثم الفناء، فلم تستطع مسرحيات (خيال الظل) من الاستمرار أمام موج الفن الحديث (السينما) ودور عروضها التي انتشرت في المدن والأقاليم، فأفل نجمها، ولكن على الرغم من ذلك فهناك اتجاه إلى إعادة إحياء الفنون الشعبية المختلفة، ومن ضمنها (خيال الظل)، وذلك من خلال عرضها على مسرح العرائس وغيرها من الأماكن التي تهتم بالثقافة المصرية والشعبية لدراسة ومعرفة أهمية هذا الفن الشعبي العظيم، والذي يؤرخ لموروث الطبقة الشعبية المصرية في عصري (المماليك) و(العثمانيين).

من كسر أنف أبي الهول نابليون أم صائم الدهر

مقدمة:

دائـمًا مـا كانت (مـصر) تمتـاز بقضاياهـا الشـائكة، والممتعـة في ذات الوقـت، وهـذا لما تتمتع به مـن كبر المسـاحة وتنـوع ثقافاتها الداخلية، وكثـرة علمائهـا وتنـوع مذاهبهـم ومشـاربهم الثقافيـة، ففيهـم المتشـدد، وفيهـم المتسـاهل اللـين، وفيهـم الوسـطي السـمح الـذي يأخـذ بـروح الشريعـة السـمحة، فـلا تجده بالمتشـدد الجامـد، ولا هو باللين المتسـاهل في الأحـكام الشرعيـة فيميـع الديـن ويخربه.

ومـن هـذه القضايـا التـي شـغلت ومـا تـزال تشـغل بـال وفكـر المصريـين، قضيـة أنـف (أبي الهـول) مَنْ كسرهـا؟ ومتى كُسرت؟ ولماذا كُسرت؟

فدائـمًا مـا ترتبـط قصـة تحطيـم وكـسر أنـف تمثـال (أبي الهـول) الموجـود بأهـرام (الجيـزة) بقـدوم الحملـة الفرنسـية عـلى (مـصر) سـنة (1798م) والتـي اسـتمرت ثـلاث سـنوات حتـى سـنة (1801م)، فقـد شـاع بـين المصريـين أن الإمبراطـور الفرنـسي (نابليـون بونابـرت)

قائد الحملة التي احتلت (مصر) هو من أمر مدفعيته بضرب أنف (أبي الهول) وكسرها، ولم يكلف المصريين خاطرهم أن يفكروا لماذا قد يأمر هذا الإمبراطور الفرنسي بضرب (أنف أبي الهول وكسرها)؟ مع العلم أن (نابليون) كان من أشد المعجبين بالحضارة المصرية القديمة، فقد أتى معه في الجيش علماء الآثار مثل (شامبليون)، والذي تمكن من فك رموز (حجر رشيد)، ومعرفة قواعد وأصول الكتابة (الهيروغليفية)، ومن ثم اللغة المصرية القديمة، فكيف يأمر بتحطيم أنف تمثال لا يعود عليه فعله بأي فائدة، كذلك هناك لوحة مرسومة تعود إلى ما قبل الحملة الفرنسية على (مصر) رسمها أحد الرحالة الذين زاروا (مصر) ويظهر فيها (أبو الهول) مكسور الأنف، وبالتالي فإن الحملة الفرنسية بريئة من هذا الفعل.

ثم ظهر في الآونة الأخيرة وسائل التواصل الاجتماعي من يبرئ (نابليون) من هذه الجريمة، وينسب فعلها إلى أحد الشيوخ الصوفية المتشددين في فترة المماليك، وكان يُعرف بالشيخ (صائم الدهر) هو من قام بهذا الفعل، والذي عاش في فترة القرن الثامن الهجري، وكان من صوفية (خانقاه الصلاحية سعيد السعداء)، ثم قتله السلطان بعد ذلك بسبب كسره لأنف (أبي الهول).

والسؤال هنا من الذي قام بهذه الجريمة (نابليون بونابرت)؟ أم الشيخ (صائم الدهر)؟ ولهذا سوف نذكر قصة (صائم الدهر) مع أنف (أبي الهول) ثم نعرض الأدلة على الفاعل الحقيقي لهذه الجريمة.

***قصة كسر الشيخ (صائم الدهر) لأنف (أبي الهول):**

وإليكم القصة المتداولة والمزعومة عن كسر الشيخ (صائم الدهر) لأنف (أبي الهول):

«وفي سنة ثمان وسبعمائة (708 ه) خرج أحد صوفية الخانقاه (الصلاحية سعيد السعداء)، كان يُعرف بالشيخ (محمد صائم الدهر) وأراد أن يغير المنكرات فسار إلى (الأهرام) وشوَّه وجه (أبي الهول) وشعثه (أخربه)، فهو على ذلك إلى اليوم، ومن حينئذ غلبة الرمل على أراضي كثيرة من (الجيزة)، وأهل تلك النواحي يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضي هو فساد وجه (أبي الهول)»[170].

هذه هي الرواية التي يسردها أصحاب هذا الاتجاه، بل ويزيد البعض أن الشيخ (صائم الدهر) قد قتله السلطان بسبب تجرئه على القيام بهذا الفعل، والذي اعتبره من سلطات الحاكم وليست من سلطات العامة، ولكن هل القصة تنتهي عند هذا الحد؟ أم أن القصة أكثر تعقدًا وتشعبًا؟

في الحقيقة استوقفتني هذه القصة كثيرًا، فهل من الممكن أن يقوم رجل واحد بكسر أنف تمثال (أبي الهول)؟ ولماذا يقدم على هذا الفعل الغريب؟ هل كان من وراء هذا الفعل أسباب معينة؟

كل هذه الأسباب استوقفتني وأخذت في البحث في المصادر والمراجع القديمة حتى توصلت إلى نتائج مهمة جدًّا تخص هذه القضية.

---

170 - ص (123) – الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة – علي باشا مبارك – الجزء السادس عشر – طبعة (1435هـ / 2014م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

أولًا: شخصية (صائم الدهر):

من هو الشيخ (صائم الدهر) هذا؟ وما المكانة التي تمتع بها في (مصر)؟ وما مدى نفوذه في عهد المماليك؟ وهل هناك من تلقب غيره بهذا اللقب؟

وكما كتبت قبل ذلك عن شخصية (شجرة الدر) في كتابي السابق (عقول تزور التاريخ)، وتمكنت من إثبات أن هناك شخصية أخرى كانت تدعى (شجرة الدر) وأنها تُوفيت في (بغداد)، كذلك توصلت إلى نفس النتيجة مع صاحب قصتنا هذه، فقد وجدت أن في هذه الفترة كان هناك شخصيتان حملتا نفس اللقب، ألا وهو (صائم الدهر)، وأيضا تشابها في الاسم فكلاهما كان يدعى (محمدا)، فمن الفاعل فيهما يا ترى؟ والآن نبدأ الكلام على كل واحد منهما على حدة:

الأول: (محمد بن صديق شمس الدين أبو عبد الله التبريزي):

هو الشيخ الأوحد، القدوة (أبو عبد الله) ابن الشيخ (صدر الدين الشافعي التبريزي)، قدم (مصر) ونزل بخانقاه (سعيد السعداء) وأقام بها مشتغلًا بالعلم، وتحصيل الكتب، ووقف بعضها، وكان متقللًا من أمر الدنيا، يلبس ثوبًا أزرق، ويتعمم بمئزر صوف، ويأكل عند إفطاره حمصًا مسلوقًا، وله رغيف في اليوم.

وقف دوره على وجوه البر من قراء وأيتام، ومات عن نقد جيد، وأثاث وكتب وبعض أملاك، في ليلة يسفر صباحها عن

يـوم الإثنـين مسـتهل شـهر شـوال سـنة سـبع وثمانـين وسـبعمائة (787هـ)، ودُفـن بمقابـر الصوفيـة خـارج (بـاب النـصر) استنسـخ شرحـي للبخـاري ووقفـه.[171]

هـذا مـا ذكـره عنـه (ابـن الملقـن) في طبقاتـه، ولم يذكـر حادثـة كسر أنـف (أبي الهـول) ولم يـشر إليها مـن قريب أو مـن بعيد، ولـو كان فعلها لـكان ذكرهـا وذكـر مـا حـدث له بعـد ذلك.

وقد تناول سيرة هذا الشيخ أخرون ولم يذكروا هذه الحادثة منهم:

1 -(المؤرخ زين الدين عبد الباسط بن خليل الظاهري) فقال عنه:

«الصـوفي، الصالـح، العابـد، الزاهـد، (محمد بـن صديـق التبريزي) والمعـروف (بصائـم الدهـر) وكان شـديدًا في ذات الله تعـالى، أقـام نيفًـا وأربعـين سـنة يصـوم الدهـر ولا يفطـر إلا عـلى حمـص يخلطـه بالملـح فقـط، يشـتريه بفلـس (أي: الحمـص) ويقسـم أوقاتـه كلهـا للطاعات، مـا بين صـلاة وذكر وتـلاوة، ومطالعـة لكتب العلـم، وقد تُوفي في سـنة سـبعمائة وسـتة وثمانـين (786هـ) في شـهر رمضـان»[172]

2 -(المـؤرخ جمـال الديـن أبـو المحاسـن يوسـف ابـن تغـري بردي) فقـد ذكـر وفاته:

---

171 - ص (502) – طبقات الأولياء – ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري – تحقيق نور الدين شريبة (من علماء الأزهر) – الطبعة الثالثة (1427هـ / 2006) – الناشر مكتبة الخانجي – (القاهرة).

172 - ص (220) – نيل الأمل في ذيل الدول – الجزء الأول (القسم الثاني) (771 – 800 هـ) – المؤرخ زين الدين عبد الباسط بن خليل ابن شاهين الظاهري الحنفي – تحقيق الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري – الطبعة الأولى (1422هـ / 2022م) – المكتبة العصرية – (صيدا – بيروت).

«وفي سنة سبعمائة وستة وثمانين (786 ه) توفي (محمد بن صديق التبريزي) والمعروف (بصائم الدهر) أحد الصوفية بخانقاه (سعيد السعداء) وكان على قدم هائل من العبادة إلى أن توفي «انتهى»[173]

3-(المؤرخ المقريزي) وقد ذكر نفس الكلام عنه فقال:

«وفي السنة الثالثة من سلطنة الملك (الظاهر برقوق) الأولى على (مصر) وهي سنة سبعمائة وستة وثمانين (786 ه) تُوفي (صائم الدهر) الشيخ (محمد بن صديق التبريزي الصوفي) في ليلة الإثنين خامس عشر من شهر (رمضان) (بالقاهرة)، أقام نيفًا وأربعين سنة يصوم الدهر، ويفطر على حمص بفلس لا يخلطه إلا بالملح فقط، وكان على قدم هائل من العبادة، ويقسم أوقاته كلها للعبادة ما بين صلاة وذكر وتلاوة ومطالعة كتب العلم، وكان شديدًا في ذات الله».[174]

4-(الخطيب الجوهري) وقد ذكر وفاة الشيخ (صائم الدهر التبريزي) وسيرته، فقال:

«ومات الشيخ الصالح العابد الناسك (صائم الدهر) (محمد بن صديق التبريزي) الصوفي ليلة الإثنين يوم 15 من شهر (رمضان)

---

173 - ص (629) تحت رقم (2165) – الدليل الشافي على المنهل الصافي – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي المتوفي (874 ه) – تحقيق وتقديم فهيم محمود شلتوت – الجزء الأول – (المملكة العربية السعودية – جامعة أم القرى – مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية) – (مكة المكرمة).

174 - ص (110) تحت رقم (30) – نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان – الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي – تحقيق الدكتور حسن حبشي – الجزء الأول – طبعة (1970م) – الجمهورية العربية المتحدة – وزارة الثقافة مركز تحقيق التراث – مطبعة دار الكتب.

(بالقاهرة) وله أربعون سنة صائم الدهر، كذا ذكر الشيخ القاضي (البدر العيني) والشيخ (تقي الدين المقريزي)، وكان فطره على حمص بفلس واحد لا يشوبه إلا بالملح خاصة دون غيره، وكان عمره ينفقه في أوقات العبادة ما بين صلاة وصيام وتلاوة قرآن وقراءة حديث، وذكر ومطالعة كتب العلم، وكان فيه قيام لله، شديدًا في ذات الله، رحمة الله ورضوانه عليه». [175]

وكما رأينا لم يذكر أحد من المؤرخين لفترة المماليك أو من تناول سيرة الشيخ (صائم الدهر) قيامه بهذا الفعل، والأن نتناول الشخصية الأخرى لربما تكون هي الفاعل؟

الثاني: (تاج الدين محمد بن محمد بن محمد المليجي) المعروف أيضًا (بصائم الدهر):

وكان يشغل عدة مناصب منها (القضاء) و(الحسبة) و(نظارة الأحباس)، وقد تناول المؤرخون أيضًا سيرته وما تولى من مناصب وما قام به من أفعال، وسوف أتناول من تكلَّم عنه وهم:

1 -(الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي) فقال عنه:

«القاضي الفاضل (تاج الدين محمد بن محمد بن محمد المليجي) المعروف (بصائم الدهر) وكان ناظر الأحباس، ومحتسب الديار المصرية، الخطيب بمدرسة السلطان (حسن)، وكان من أهل الخير والصلاح والدين والعفة الزائدة، كثير السكون مع الوقار والهيبة،

175 - ص (527) – السلوك لمعرفة دول الملوك – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – الجزء الثالث (القسم الثالث) – حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور – الطبعة الرابعة (1436هـ / 2014م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

عديم الكلام إلا جوابًا، وآية الصوم وديدنه، وقد تُوفي في سنة سبعمائة وستة وتسعين (796 ه) في التاسع عشر من شهر (صفر) عن سبعين سنة». [176]

وبالتالي يكون معاصرًا للشيخ الصوفي (محمد بن صديق الشافعي) والذي تُوفي قبله بعشر سنوات فقط، ولم يذكر عن هذا القاضي أيضًا ما إذا كان هو الذي قام بكسر أنف (أبي الهول) أم لا؟

2 -(ابن العماد شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي):

«وفي سنة سبعمائة ستة وتسعين (796 ه) تُوفي (تاج الدين المليجي محمد بن محمد بن محمد) المعروف (بصائم الدهر) ولي نظر الأحباس والجوالي والحسبة، وخطب بمدرسة السلطان (حسن) بمدينة (بالقاهرة)، وكان ساكنًا، قليل الكلام، جميل السيرة». [177]

3 -(المؤرخ زين الدين عبد الباسط بن خليل الظاهري) فقد ذكر عنه التالي:

---

176 - ص (395) تحت رقم (206) – نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان – الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي – تحقيق الدكتور حسن حبشي – الجزء الأول – طبعة (1970م) – الجمهورية العربية المتحدة – وزارة الثقافة مركز تحقيق التراث – مطبعة دار الكتب.

177 - ص (592) – شذرات الذهب في أخبار من ذهب – ابن العماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الفكري الحنبلي الدمشقي (1032- 1089هـ) – المجلد الثامن – حققه وعلق عليه محمد الأرناؤوط – أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط – الطبعة الأولى (1413هـ / 1992م) – دار ابن كثير (دمشق – بيروت).

«وفي سنة سبعمائة وستة وتسعين (796 ه) مات (صائم الدهر التاج المليجي محمد بن محمد) وكان ولي حسبة (القاهرة)، ونظر الأحباس، وخطبة مدرسة (الناصر حسن)، وهي بيد ذريته إلى الآن، وكان يسرد الصوم دائمًا مع خير ودين وكثرة نسك».(178)

4-(ابن حجر العسقلاني) فقد ذكر:

«وتُوفِّي في شهر (صفر) سنة سبعمائة وستة وتسعين (796 ه) (محمد بن محمد المليجي تاج الدين) والذي كان يُعرف بـ(صائم الدهر)، ولي نظر الأحباس والجوالي والحسبة، وخطبة مدرسة (السلطان حسن)، وكان ساكنًا قليل الكلام، جميل السيرة».(179)

5-(المؤرخ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي) فقال عنه:

«وفي تاسع عشر من شهر (صفر) من سنة سبعمائة وستة وتسعين (796 ه) تُوفي (محمد بن محمد بن محمد) القاضي (تاج الدين المليجي) والمعروف (بصائم الدهر) ولي نظر الأحباس وحسبة (القاهرة)».(180)

---

178 - **ص (340) – نيل الأمل في ذيل الدول – المؤرخ زين الدين عبد الباسط بن خليل ابن شاهين الظاهري الحنفي – الجزء الأول (القسم الثاني) (800-771 ه) – تحقيق الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري – الطبعة الأولى (1422ه/ 2002م) – المكتبة العصرية (صيدا – بيروت).**

179 - **ص (484) – انباء الغمر بأبناء العمر – شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني – الجزء الأول – تحقيق الدكتور حسن حبشي – طبعة (1389ه / 1969م) – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة إحياء التراث الإسلامي) – (القاهرة).**

180 - **ص (701) تحت رقم (2395) – الدليل الشافي على المنهل الصافي – جمال الدين**

6-(المؤرخ المقريزي) والذي ذكر تفاصيل أكثر عن القاضي على شكل يوميات (تاج الدين المليجي) فقال:

«وفي سنة سبعمائة وثلاثة وثمانين (783 ه) في يوم الخميس من شهر (شعبان) خلع على (تاج الدين محمد المليجي) الملقب (بصائم الدهر من خزانة الخاص، واستقر في منصب حسبة (القاهرة) عوضًا عن (جمال الدين محمود العجمي)».[181]

«وفي سنة سبعمائة وثلاثة وثمانين (783 ه) في يوم 29 من شهر (ذي القعدة) وقفت العامة واستغاثت من ارتفاع الأسعار ووقف الحال وطلبت ولاية (العجمي) الحسبة مرة أخرى، فطلب في يوم السبت سلخه، وخلع عليه وأعيد إلى الحسبة عوضًا عن (محمد المليجي صائم الدهر).[182]

«وفي سنة سبعمائة واثنتين وتسعين (792 ه) يوم 12 من شهر (جمادي الأولى) عزل (شمس الدين الدميري) عن نظر الأحباس، واستقر عوضه القاضي (تاج الدين محمد بن محمد بن محمد المليجي صائم الدهر».[183]

أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (المتوفي سنة 874 ه) – تحقيق وتقديم فهيم محمود شلتوت – الجزء الأول – (المملكة العربية السعودية – جامعة أم القرى – مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية) – (مكة المكرمة).

181 - ص (449) – كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك – تقي الدين أحمد بن على المقريزي – حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور – الجزء الثالث (القسم الثاني) – الطبعة الرابعة (1436ه / 2014م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

182 - ص (457) – المصدر السابق.

183 - ص (714) – المصدر السابق.

«وفي سنة سبعمائة ستة وتسعين (796 ه) وفي يوم 25 من شهر (صفر) استقر (شمس الدين محمد بن الدميري) في نظر الأحباس، وذلك بعد وفاة القاضي (تاج الدين محمد المليجي صائم الدهر)».[184]

«وقد توفي القاضي (تاج الدين محمد بن محمد بن محمد المليجي) سنة سبعمائة ستة وتسعين (796 ه) المعروف (بصائم الدهر)، ناظر الأحباس ومحتسب ((القاهرة))، وخطيب مدرسة (السلطان حسن) في تاسع عشر من شهر (صفر) عن عمر نحو سبعين سنة، وكان خيرًا دينًا، كثير النسك، ساكنًا قليل الكلام، بهج الزي، جميل الهيئة، يسرد الصوم دائمًا».[185]

وهكذا يسرد (المقريزي) سيرة القاضي (تاج الدين المليجي) والمعروف (بصائم الدهر) على شكل يوميات أو تفاصيل منثورة في كتابه (السلوك)، ولم يذكر عنه أنه قام بفعل كسر أنف (أبي الهول) أو أي فعل مشابه له.

7-(بدر الدين العيني) فقد ذكر عنه (المؤرخ جمال الدين بن تغري بردي) حضور القاضي (تاج الدين محمد المليجي صائم الدهر) لحادثة تسمير (ابن عرام) فقال:

«وفي سنة سبعمائة واثنتين وثمانين (782 ه) كان القاضي (تاج الدين محمد المليجي) وكان شاهد الخاص الشريف، وأنه طلع إلى (القلعة)

---

184 - ص (798) – المصدر السابق.

185 - ص (821) – المصدر السابق.

وهـم يسـمرون الأمـير (صـلاح الديـن خليل ابـن عـرام) والـذي كان نائـب مدينـة (الإسـكندرية)، واتهـم في قتـل الأمـير (زيـن الديـن بركة الجوبـاني اليلبغـاوي)، فأمـر (الظاهـر برقوق) بتسـميره، فقعـد القاضي (تـاج الديـن محمـد المليجـي) إلى أن تخـف النـاس، فلـما فرغـوا مـن تسـميره جـازوا به عليه فسـمعه وهـو يقول في تلـك الحالة وينشـد أبياتًا للصـوفي (أبي بكـر الشـبلي) «وهي:

لك قلبي تعـــــــله   فدمـي لم تحـــــــله.

قال إن كنت قاهرًا   فـلي الأمـــــر كلـه.[186]

وهـذه كانـت سـيرة القـاضي (تـاج الديـن محمـد بـن محمد بـن محمد المليجـي) والمعـروف (بصائـم الدهـر) منشـورة قـد جمعتهـا مـع بعضهـا البعـض عـلى قـدر الوسـع، وذلـك لكي أظهـر لك أيهـا القـارئ أن هذا الشـيخ والقـاضي أيضًـا لم يفعـل ولم يقـم بهـذه الفعلـة هـو الآخر.

إذن مـن أيـن أتت هـذه الرواية التي تقول إن الشـيخ (صائـم الدهر) قد كـسر وحطم أنـف (أبي الهول)؟

وهنـا لابـد لنـا مـن العـودة مـرة أخـرى إلى (صائـم الدهـر)، ولكن هـذه المـرة مع الشـيخ الصـوفي (محمد بـن صديق التبريـزي) ومـا قام به مـن أفعـال متشـددة منها:

---

186 - ص (187) – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي – الجزء الحادي عشر – الطبعة الثانية (1427هـ / 2006م) – دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة).

1-فقد ذكر (المقريزي) هذه الحادثة عنه فقال:

«وفي سنة سبعمائة وواحد وثمانين (781 ه) وبالتحديد في أول شهر (ربيع الآخر) أمر الشيخ (صائم الدهر) بتركيب سلسلة على فم (قنطرة الخور)، وعلى (قنطرة الفخر) بموردة الجبس لمنع مراكب المتفرجين من دخول الخليج (الناصري) وبركة (الرطلي) من أراضي (الطبالة)».(187)

فقد كانت أرض (الطبالة) معروفة لدى أصحاب الفسوق والمعاصي، فقد كانت مكان العصاة والذين يحبون أن يشربوا الحشيشة والخمر وارتكاب الفواحش، فقام الشيخ (صائم الدهر) بتركيب هذه السلسلة لمنع هؤلاء العصاة من الدخول والوصول إلى (أرض الطبالة) وهو بذلك يقوم (بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) والذي من المفترض أن يقوم بذلك (المحتسب) وليس هو، ولكنه قام بذلك.

2-(الشيخ ابن حجر العسقلاني) فقال عنه:

«(محمد بن صديق شمس الدين التبريزي) نزيل (القاهرة) والمعروف (بصائم الدهر)، وكان مشهورًا بالعبادة، وهو الذي طمس وجوه السباع التي بقناطر بين (مصر) و(القاهرة) وشوهها وقلع عيونها».(188)

187- ص (357) - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - تقي الدين أحمد بن علي المقريزي - الجزء الثالث (القسم الأول) - حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الطبعة الرابعة (1436هـ / 2014م) - دار الكتب والوثائق القومية (لقاهرة).

188- ص (300) - إنباء الغمر بأنباء العمر - شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني - الجزء الأول - تحقيق الدكتور حسن حبشي - طبعة (1389هـ / 1969م) - الجمهورية العربية المتحدة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة إحياء التراث الإسلامي) - (القاهرة).

وهـذا الـذي يهمنـا في هـذه القصـة، وهـي قيـام (الشـيخ محمـد التبريـزي) والمعـروف (بصائـم الدهـر) بتشـويه وطمس وجوه السـباع التـي بناهـا السـلطان (الظاهـر بيـبرس البندقـداري) بالقناطـر التي بين (مـصر) و(القاهـرة)، وهـو فعـل شـديد التشـدد وليـس له مبرر سـوى اعتقـاده أن التصويـر (نحـت التماثيـل) حـرام، متناسـيًا أن الصحابـة الكـرام عندمـا قدمـوا (مـصر) في أيـام الفتـح لم يقومـوا بهـذا الفعـل الغريـب، وكذلـك أن هـذه التماثيل لا تُعبـد من دون الله، ومـا أظنه أقدم عـلى هـذا الفعل إلا لعـدم فهمه الصحيـح لنصوص التصويـر والنحت، والتـي كان يقصـد بهـا نحت تماثيل الأصنـام التـي كان يعبدها المشركون أيـام (مكـة) في الجاهلية.

وربـما هـذا الفعل هو الـذي ربط بـين قيام (صائـم الدهـر التبريزي) بتشـويهه لتماثيـل السـباع التـي أمـر بنحتهـا السـلطان (الظاهـر بيـبرس البندقـداري) وبـين تحطيـم وكسر أنـف (أبي الهول)، على أن هـذه التهمة بعـد البحـث والقـراءة وجدنـا أن (محمد بـن صديق التبريـزي) والملقب (بصائـم الدهـر) بـريء منهـا ولم يقـم بهـا، فقـد عثـرت على نـص مهم لأحـد الرحالـة المسـلمين الأوائـل والذيـن زاروا (مـصر) وذكـر قصـة كـسر أنف تمثـال (أبي الهـول) وتفصيلهـا في الفقـرة التالية.

ثالثًا: (الرحالة شمس الدين المقدسي) وأنف (أبي الهول):

هـو الرحالـة (أبـو عبـد الله محمـد بـن أحمـد بـن أبي بكـر المقـدسي شـمس الديـن) المولـود سـنة (336 ه / 947 م) والمتـوفى في سـنة (380ه / 990م) وقـد وضـع كتابـه الشـهير (أحسـن التقاسـيم في وصـف الأقاليـم)، والـذي ذكـر فيـه أقاليـم العـالم الإسـلامي كلـه

من بلدان وأقاليم، وقد زار (مصر) وتكلم عنها، والعجيب أنه ذكر حادثة كسر أنف (أبي الهول) وشفتيه والذي يبدو من كلامه أنه كان شاهد عيان، أو أحد الذين حضروا هذه الحادثة، ولكنه تكلم أولًا عن (الأهرام) فيقول عنها التالي:

«وفيه عجائب منها الهرمان اللذان هما أحد عجائب الدنيا من حجارة شبه عماريتين، ارتفاع كل واحدة أربعمائة ذراع بذراع الملك في عرض مثلها، قد ملئت بكتابة يونانية وفي داخلها طريقان إلى أعلاهما، وطريق تحت الأرض نبية موضوعة في الرمال، وسمعت فيها أشياء مختلفة، فمنهم من قال: هما طلسمان، ومنهم من قال: كانتا إهراء (يوسف)، وقيل: بل كانت قبورهم، وقرأت في كتاب (ابن الفقيه) أنهما للرمل المحبوس، ويقال مكتوب عليهما «إني بنيتهما فمن كان يدعي قوة في ملكه فليهدمهما، فإن الهدم أيسر من البناء، فأراد بعض الملوك هدمهما، فإذا خراج (مصر) لا يقوم بهدمهما فتركهما وهما أملسان مثل العماريتين يريان من مسيرة يومين وثلاثة، لا يصعد فوقهما إلا كل شاطرة، وحولهما أمثالهما عدة صغار، وهذا يدل على أنها مقابر، ألا ترى إلى ملوك الديلم (بالري) كيف اتخذوا على قبورهم قبابا عالية، وأحكموها جهدهم، وعلوها طاقتهم كيلا تندرس، ومن دونهم أصغر منها «

ثم يعرج (المقدسي) بقية كلامه عن آثار (الجيزة) ويذكر تمثال (أبي الهول)، ولكنه لا يذكره باسمه، ولكن يقول عنه ويسميه (بالصنم) فيقول: «وثم صنم يزعمون أن الشيطان كان يدخله فيكلمه، حتى كسر أنفه وشفتاه».[189]

189 - ص (210) – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – شمس الدين المقدسي المعروف

ومـن كلام (شـمس الديـن المقدسي) هـذا يظهـر أنه كان شـاهد على هـذه الحادثـة، وعـلى مـا حصـل لتمثـال (أبي الهـول)، وهـذا واضح من سـياق كلامه على حادثـة كسر الأنف والشـفتين، وبالتـالي يكون كل من (نابليـون بـو نابرت) والشـيخ الصـوفي (محمد صائـم الدهـر التبريزي) بريئـين من هـذه الفعلة الشـنيعة.

*خلاصة ما توصلت إليه:

وهـي النتيجـة التـي توصلـت إليهـا، وبعـد أن ذكرت سـيرة (صائم الدهـر) وأوضحنـا حقيقتـه وكل مـا قيـل عنـه، وتمكنـت من إثبـات أن هنـاك شـخصيتين حملتـا نفس اللقـب، وأن كلاهمـا لم يقـم بهـذا الفعل الشـنيع، وبعـد أن ذكـرت كلام الرحالـة (شـمس الديـن المقـدسي) نتوصـل إلى أن الفاعـل مجهول حتـى الآن، وأنه ربما كان أحد المتشـددين مـن الشـيوخ أو أتباعهم مـن الذيـن رأوا أن وجود هـذا التمثال الضخم (أبي الهـول) مـا هـو إلا صنـم، وأنه مـن بقايـا الوثنية للحضـارة المصرية القديمـة، بـل واعتقـدوا مـن جهلهم أنه مسـكن من مسـاكن الشـياطين والسـحرة الذيـن يقومون فيه بأعمال السـحر والشـعوذة، فلابـد إذن من تحطيمـه وهدمه، ولما كان ذلك مسـتحيلًا في ظل إمكانيـات ذلك الوقت المحـدودة، فاكتفـى الفاعـل بكسر أنف تمثـال (أبي الهول) وشـفتيه وكان هـذا في نظر الفاعـل كافٍ، وأرضى دوافعـه الدينيـة وأراح قلب الفاعل.

(بالبشاري) – الطبعة الثالثة (1411هـ / 1991م) – مكتبة مدبولي – (القاهرة).

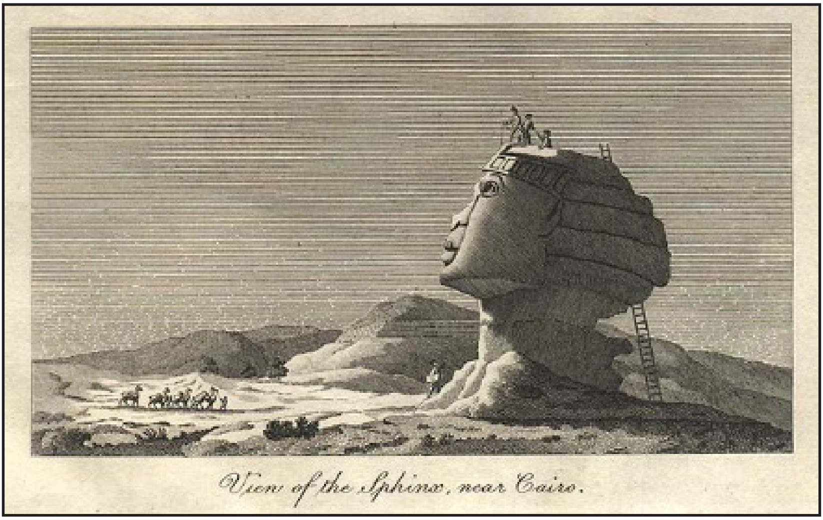

View of the Sphinx, near Cairo.

(صـورة لتمثـال أبي الهول بريشـة أحـد الأجانب الذيـن زاروا مـصر قبل حملة نابليـون على مصر)

XLVI.

Tête colossale du Sphynx, vue en face.
Elle est au devant de la seconde Pyramide de Memphis.

XLVII

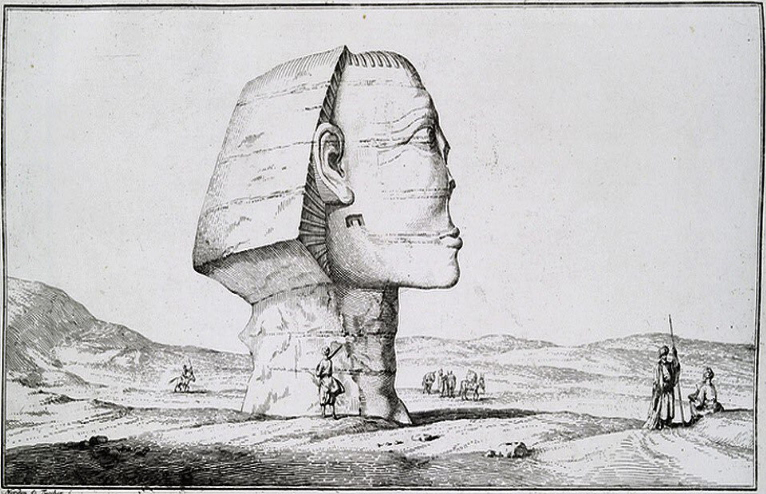

Norden f. Tucker

Profil de la tête colossale du Sphinx.

اكتشاف المجهول

ومحاولة الدخول إلى الهرم الأكبر

من الاتهامات التي وُجِّهت إلى السلطان (الناصر يوسف صلاح الدين) محاولته هدم الأهرام، واستخدام حجارتها في بناء سور (القاهرة) وبناء قلعة (الجبل)، ولكن هل صحيح أن السلطان (صلاح الدين) فعل ذلك؟ وهل كان الأول الذي تعدَّى على أهرام (مصر)؟ أم سبقَه أحد في ذلك؟

وقبل أن نجيب على هذه التساؤلات كلها، لابد وأن نشير على أمور مهمة تتعلق بمسألة الآثار المصرية القديمة والأهرام بالتحديد، وكيف كان يُنظر إليها في ذلك العصر من حيث أهميتها الثقافية والاقتصادية بالنسبة للدول الإسلامية التي حكمت (مصر) في ذلك الوقت.

أولًا: أهمية الأهرام والآثار من الناحية الثقافية في العصور الوسطى:

لم يعرف أهل هذا الزمان وعلماؤهم أهمية الآثار المصرية ولا أهمية أهرام (مصر)، فلم يكن يشغل بالهم، وهذا ربما يعود لجهلهم للغة المصرية القديمة، ولهذا لم يعرفوا ما تحمله هذه الآثار من أهمية تاريخية وثقافية وحضارية لأمة حكمت العالم في الزمن القديم، وبالتالي كان تعامل أهل هذا الزمان مع المعابد والآثار والأهرام بالتحديد على أنها كانت لحضارة بادت واندثرت، واكتفوا بأخذ العظات مما حل بهذه الأمة من إهلاك أو تسلط، واكتفوا من تاريخها مما نقل عن أخبار الإسرائيليات من بني (إسرائيل) سواء أكانت صحيحة أم كاذبة، وهذا كله يعود إلى جهل أهل (مصر) بالكتابة (الهيروغليفية) القديمة، وبالتالي لم يكن لها أهمية ثقافية لدى أهل هذا الوقت من العصور الوسطى، وهذا الأمر جعلهم لا يتعدون على الآثار بالتخريب، ولكن هذا لم يمنع الأمراء والسلاطين من أن يستغلوا حجارة بعض الأهرام في بناء الحصون والقلاع والأسوار، على سبيل أنها مجرد حجارة لا أهمية لها، والغريب أن المسلمين لم يتعرضوا إلى المعابد أو التماثيل بالهدم أو التخريب وهذا لعمق فهمهم ومعرفتهم أنها لم تعد تعبد، وأنها ليست كأصنام العرب في الجاهلية، ولهذا لم يتعرضوا للمعابد ولا التماثيل، وربما يعود أيضًا أن الكثير منها كان مدفونًا تحت الأرض ولم يظهر منها إلا القليل.

ثانيًا: أهمية الأهرام والآثار من الناحية الاقتصادية في العصور الوسطى:

وهذه أيضًا نقطة مهمة وجوهرية، فلم تكن للآثار المصرية في ذلك الوقت أهمية اقتصادية يعود فائدتها على المصريين، فلم يكن لهذه الأهرام أو الآثار القديمة مردود مادي يعود على خزانة الدولة في العصور الوسطى، ولهذا لم يكن لها أهمية كبيرة لدى الحكام والسلاطين، وهذا أتاح لهم حرية التعامل معها بما تقتضيه المصلحة، ولهذا نجد أن بعض الخلفاء والسلاطين حاول فعلًا هدم الأهرام بدعوى استخراج الكنوز المدفونة التي تركها ملوك (مصر) بداخلها، ولكن لضعف إمكانيات هذا الزمان المادية والمعنوية لم يتمكنوا من فعل ذلك، والحمد لله أنهم لم يتمكنوا من ذلك ولا نجحوا فيه، وإلا كانوا ضيعوا الكثير من تاريخ (مصر) وتاريخ ملوكها، ولهذا لم يقدروا على هدم سوى مجموعة من الأهرام الصغار واستخدام حجارتها في بناء الحصون والقلاع والأسوار العالية، وكان ذلك بالتحديد في زمن الحروب الصليبية وتكرار محاولة الصليبيين دخول (مصر) في فترة حكم الدولة (الفاطمية – العبيدية) في أواخر حكمها وتهاونها وضعفها، وأما الهرم الأكبر فلم يتمكنوا من هدمه لعظمة وقوة إحكامه، ولهذا لم يقدروا على ذلك سوى إحداث فتحة فيه محاولين الدخول إلى داخله ومعرفة ما بداخله، أو الوصول إلى كنوزه.

والآن نعود إلى الحديث عن المحاولات التي قام بها الخلفاء والسلاطين لهدم الأهرام والولوج إلى داخله ومعرفة ما بداخله، والوصول إلى كنوزه وذخائره:

أولًا: الخليفة العباسي (عبد الله المأمون 198هـ - 218هـ) وإحداثه للثلمة (الفتحة) التي في الهرم:

وهو الخليفة العباسي السابع في ترتيب خلفاء بني (العباس)، والأول والوحيد الذي زار (مصر) في فترة خلافته وحكمه، وقد رأى عظمة الأهرام وبُهر بعجيب صنعه ودقة بنائه وإحكامه، فأراد أن يهدم أحد هذه الأهرام، وذلك من أجل أن يصل إلى داخله ويعرف ما يوجد بداخله، فقيل له: «إنك لا تقدر على ذلك» فقال: «لابد من فتح شيء منه» ففتحت له هذه الثلمة المفتوحة والتي ما تزال موجودة بالهرم إلى الآن، وقد تمكنوا من إحداث هذه الفتحة أو الثلمة من خلال استخدام النار، فقد أوقدوا النار فيه وجعلوا يرشون الخل على الحجارة حتى يسهل عليهم كسرها، واستخدموا أيضًا المعاول الخاصة بالحدادين وأخذوا يضربون بها الحجارة، وقد أنفق الخليفة في هذا الأمر أموالًا عظيمة، فوجدوا عرض الحائط قريبًا من عشرين ذراعًا، فلما وصلوا إلى آخر هذا الحائط وجدوا خلف هذا الثقب الذي أحدثوه مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب، وزن كل دينار من هذا الذهب أوقية، وكان عددها حوالي (ألف دينار)، فجعل الخليفة (المأمون) يستغرب من ذلك الذهب وجودته، ثم أمر الخليفة بحسب جملة ما أنفق من فتح هذه الثلمة، فلما حسبوا ما أنفقوه على إحداث الثلمة وما وجدوه من هذا الذهب، وجدوه يعادل نفقات التكسير والهدم لا يعدوه، فزاد عجب الخليفة من ذلك أشد العجب، وذكروا أن الخليفة (المأمون) لما رأى المطهرة الخضراء التي وجدوا

بداخلها الذهب أعجب بها، فحملها معها في رحاله عند عودته إلى عاصمته (بغداد)، فقد كانت من ضمن ذخائره وكنوزه.[190]

ثانيًا: محاولة السلطان (أحمد بن طولون 254 ه – 270ه) فتح الأهرام:

وهو مؤسس الأسرة (الطولونية) التي حكمت (مصر) واستمرت حوالي (38) سنة فقط، ولكنها تركت من الآثار الكثير، فهو صاحب الجامع الكبير والمعروف بجامع (ابن طولون)، وهو تركي الجنس، كان أبوه (طولون) من أتراك حاكم ووالي (بخارى)، وهو (أسد بن نوح الساماني) والذي أهداه إلى الخليفة العباسي (المأمون)، وكانت محاولة (أحمد بن طولون) الاستقلال عن الخلافة وحكم (مصر) هي الأولى من قبل ولاة (مصر) للاستقلال والحكم الذاتي، وكان السلطان (أحمد بن طولون) في بداية ولايته يخطب باسم الخليفة (المعتز بالله)، وبعد وفاة الخليفة استقل بحكم (مصر) لتكون له ولأولاده من بعده.

وقد حاول هو الآخر أن يفتح مدخلًا إلى داخل الأهرام والوصول إلى ما بداخله من أموال وكنوز، وأمر بالحفر على أبواب الأهرام،

---

190 - «وقد ذكر المؤرخ (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) هذا الخبر، ولكنه نسبه إلى الخليفة العباسي (هارون الرشيد)، وهذا خطأ فإن الخليفة (هارون) لم يزر (مصر)، وربما يكون هذا الخطأ من فعل النساخ». ص (138) – أخبار الزمان وما أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران – تأليف أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي – طبعة (2015م) – الهيئة العامة لقصور الثقافة – (القاهرة) - وص (78) – الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة – الجزء السادس عشر – تأليف علي باشا مبارك – طبعة (1435هـ / 2014م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

فوجد الحفارين في أثناء حفرهم قطعة من المرجان مكتوب عليها باللغة اليونانية القديمة، فأحضروا من يعرف هذا اللغة ويفهمها، فإذا هي عبارة عن أبيات من الشعر، فترجمها لهم:

أنا باني الأهرام في مصر كلها وما لكها قدما بها والمقدم
تركت بها آثارًا على وحكمتي على الدهر لا تبلى ولا تتثلم
وفيها كنوز جمة وعجائب وللدهر لين مرة وتهجم
وفيها علومي كلها غير أنني أرى قبل هذا أن أموت فتعلم
ستفتح أقفالي وتبدو عجائبي وفي ليلة من آخر الدهر تنجم
ثمان وتسعة واثنتان وأربع وسبعون من بعد المئين فتسلم
ومن بعد هذا جزء سبعين برهة ويلغي البرابي تنحر وتنهدم
تدبر فعالي في صخور قطعتها ستبقى وأفنى قبلها ثم تعدم

ولا يخفى من كون أن هذه الأبيات الشعرية ربما هي من وضع المؤرخين الذين أتوا في عصور متأخرة، فإن الوضع والصنع لا يخفى فيها، وهنا جمع (أحمد بن طولون) الحكماء من رجال دولته، وأمرهم بحساب هذه المدة التي ذكرت في الأبيات فلم يتمكنوا من تقدير وتحقيق هذه المدة، فيئس السلطان (أحمد بن طولون) من فتح الهرم، فترك ذلك من غير أن يصل إلى هدفه ومبتغاه.[191]

191 - ص (80) – المصدر السابق.

ثالثًا: هدم الأمير (بهاء الدين قراقوش الأسدي) الطواشي لأهرام الجيزة الصغار:

وفي عهد السلطان (الناصر صلاح الدين الأيوبي) حدثت وأن هدمت بعض الأهرام الصغار التي كانت موجودة بجانب الأهرام الثالثة، وهي التهمة التي ألصقت بهذا السلطان العظيم محرر (بيت المقدس) من الصليبيين، فما الدافع الذي دفعه إلى هدم هذه الأهرام الصغار؟

وهنا لابد أن نشير إلى أن السلطان لم يأمر بهدم هذه الأهرام، ولكن الذي قام بذلك هو نائبة على (مصر) الأمير (بهاء الدين قراقوش)، فقد كلفه السلطان ببناء قلعة تكون حصنًا له من أعدائه، وذلك في حالة دخول الأعداء إلى (مصر) فتكون حصنًا له ومكانًا للمقاومة، وكذلك حماية له من (الباطنية) الذين حاولوا اغتياله أكثر من مرة، وأيضًا أمره ببناء سور حول (مصر) وعاصمتها (القاهرة)، ولم يوجد في البلاد في هذا الوقت ما يقوم على بناء هذا السور العظيم من مواد البناء والحجارة العظيمة التي لا تعمل فيها أدوات وآلات الهدم والحصار سوى أحجار أهرام (الجيزة)، فقد هدت قريحة (بهاء الدين قراقوش) إلى استخدام حجارة الأهرام لقوتها وقدرتها على تحمل ضربات آلات الحصار فلا تعمل فيها شيء.

وكما أشرنا سابقًا أن هذه الأهرام لم يكن لها أهمية ثقافية أو اقتصادية كما هي عليه الآن، ولهذا رأى الأمير (بهاء الدين قراقوش) أن يستغل هذه الحجارة في العمارة والبناء، وهذا ما قام به فعلًا فقد قام ببناء الآتي:

1-قناطر الجيزة: فقام ببناء قناطر الجيزة والتي بلغ عددها حولي نيف وأربعون قنطرة، وقد بدأ ببناء رصيف من الحجارة، ابتدأه من حيز النيل بإزاء مدينة (مصر) من يراه يخاله جبل من بعيد، وهو ممتد لمسيرة ستة أميال حتى يصل إلى القناطر نفسها.»2»

2-سور القاهرة: فقد عمد (بهاء الدين قراقوش) إلى استخدام حجارة الأهرام في بناء السور الذي بناه حول عاصمة الدولة (القاهرة) حتى يكون حماية للمدينة من هجمات الأعداء.

3-قلعة الجبل: وهي القلعة التي ما تزال شامخة إلى يومنا هذا، وهي من الروعة في البناء ودقة الصنع وإحكام الصنعة وإتقانها لا مزيد عليها، وقد بناها للسلطان (صلاح الدين) حتى تكون مقر إقامته ومقر حكمه، وقد أصبحت مقر الحكم طوال العصر (الأيوبي والمملوكي) و(العثماني) وحتى عصر الخديوي (محمد علي).(192)

رابعًا: محاولة السلطان (العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين 567 ه – 595 ه) هدم وفتح الأهرام:

وهو السلطان الثاني من سلاطين الدولة (الأيوبية) الذين حكموا (مصر) وبلاد (الشام)، وقد كان حوله من أصحابه بعض الجهلة وأصحاب الرأي الفاسد، فقد حسنوا له فكرة هدم الأهرام وفتحها، وقد اقتنع بالفكرة، وأمر بأن يبدؤوا بهدم الهرم الصغير (الهرم الأحمر اللون)، وهو الثالث في ترتيب

192 - ص (80) وص (81) – المصدر السابق.

الأهـرام، فأخـرج إليـه طائفـة الحلبيـة (الفعلـة) والنقابـين والحجاريـن وجماعـة مـن عظماء دولتـه وأمـراء مملكتـه، وأمرهـم عندئـذ بالقيـام بعمليـة هـدم الهـرم وتخريبـه، فخيمـوا عنـد الأهـرام وحـشروا عليـه الرجـال والصنـاع، ووفـروا لهـم الأمـوال والنفقـات، وأقامـوا عـلى عمليـة الهـدم مـا يقـرب مـن ثمانيـة أشـهر بخيلهـم ورجالهـم، فكانـوا يهدمـون كل يـوم بعـد المشـقة البلغـة وبـذل الجهـد العظيـم الحجـر والحجريـن فقـط، فقـد قسـموا أنفسـهم إلى فـرق، فرقـة تقـوم بدفـع الحجـر مـن فـوق مسـتخدمين الأسـافين والمخـال، وفرقـة مـن أسـفل يجذبـون مـا يلقـى إليهـم بالقلـوس والأشـطان (الحبـال الطويلـة المصنوعـة مـن الليـف، وكانـت تسـتخدم لجـر السـفن) فـإذا سـقط الحجـر الواحـد منهـم أحـدث جلبـة وسـمع لهـم وجبـة (هبـدة) عظيمـة مـن مسـافة بعيـدة حتـى ترجف لـه الرجـال وتزلـزل الأرض، ويغـوص في الرمـال فيتعبـون تعبًـا أخـر حتـى يخرجـوه، ثـم يضربـون فيـه الأسـافين بعـد مـا ينقبـون لهـا موضعًـا ويبيتونهـا فيـه فيتقطـع قطعًـا فتسـحب كل قطعـة عـلى العجـل حتـى تلقـى في ذيـل الجبـل وهـي مسـافة قريبـة، فلـما طـال ثواؤهـم ونفـدت نفقاتهـم وتضاعـف نصبهـم ووهنـت عزائمهـم وخـارت قواهـم كفـوا محسـورين مذمومـين لم ينالـوا بغيتهـم، ولا بلغـوا غايتهـم أن شـوهوا الهـرم وأبانـوا عـن عجـز وفشـل وكان ذلـك في سـنة (593 ه).[193]

193 - ص (25) وص (26) – الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر – تأليف عبد اللطيف البغدادي – طبعة (1286هـ) – مطبعة وادي النيل.

خامسًا: محاولة (مراد بيك) خدش وفتح الهرم الثالث:

وقد وجدت أثار لخدش على الهرم الثالث يقال: إن سببه أن (مراد بيك) والذي كان يحكم (مصر) بالاشتراك مع (إبراهيم بيك) قبيل مجيء الحملة الفرنسية على (مصر)، فقد أراد أن يهدم الهرم فتطاول عليه بهذا الخدش فقط، ولم يتيسر له ذلك، فتركه على هذه الحال.[194]

*الخلاصة مما ذكرناه:

أن هذه كانت أبرز المحاولات التي حاول أصحابها فيها هدم الأهرام، أو فتح ثغرة للدخول فيها من قبل الخلفاء والسلاطين والأمراء ولم يتيسر لأحدهم ذلك، والوحيد الذي تمكن من هدم بعضها خصوصًا الصغار منها هو الأمير (بهاء الدين قراقوش)، والذي يشفع له أنه لم يستخدمها في بناء قصور أو بيوت الأمراء، وإنما استخدمها في بناء السور الذي حول مدينة (القاهرة)، وبناء (قناطر الجيزة)، وبناء (قلعة الجبل) لتكون حصن السلطان، وكذلك أن السلطان (صلاح الدين) لم يكن هو الآمر بهدم الأهرام، وإنما الذي حاول فعلًا وبأمره المباشر هو ابنه السلطان (العزيز عثمان عماد الدين)، وكان الراجع إلى قيام هؤلاء الخلفاء والسلاطين والأمراء من محاولة هدمهم للأهرام هو كما قلنا سابقًا أنها لم تكن لها أهمية اقتصادية وثقافية في العصور الوسطى لعدم معرفة ما تحتويه من علوم، وذلك لجهل أهل هذا الوقت باللغة المصرية القديمة،

194 - ص (82) – الخطط التوفيقية الجديدة – الجزء السادس عشر – تأليف علي باشا مبارك.

ولـو كانـوا عـلى علـم بهـا لمـا أقدموا عـلى محاولـة هدمهـم للأهـرام، بل كانـوا استخرجوا مـا فيها مـن برديات، وحاولـوا ترجمتهـا لمعرفة أسرار وعلـوم المصريـين القدمـاء، ولمـا اسـتثنوا علـوم المصريـين مـن حركـة الترجمـة التـي قام بهـا علماء المسـلمين لكتـب اليونان والفـرس وغيرهم، واسـتفادوا منهـا وطـوروا مـا فيهـا، ولربـما وصلـوا إلى أبعد مـن ذلك.

***

آخر الخلفاء الدمى في مصر

المتوكل على الله محمد العباسي

الخلافة (العباسية) وخلفاؤها، حكاية تزيد على السبعة قرون وتقرب من الثمانية قرون، فقد قامت الخلافة (العباسية) سنة (132هـ) بعد أن تمكنت من إسقاط الخلافة (الأموية) في موقعة رهيبة تعرف في التاريخ الإسلامي بمعركة (الزاب الكبرى)، وأخذت الجيوش (العباسية) تطارد فلول (الأمويين) في جميع أنحاء وأرجاء الإمبراطورية الإسلامية تقتل من تجده منهم حتى هلك أكثرهم، ولم ينجو من سيوفهم إلا قلة قليلة من بينهم (عبد الرحمن الداخل) والذي تمكَّن من إنشاء دولة أموية في أقصى الدولة الإسلامية في الغرب، وهي دولة (بني أمية) في (الأندلس).

واستمرت الخلافة (العباسية) في قوة ونفوذ حتى انتهاء العصر الذهبي لها، أو ما يعرف بالعصر الأول، وذلك قبل أن يتحكم فيهم من قبل قواد جيوشهم، ويصبح الخليفة (العباسي) لعبة في أيدي القواد والوزراء، وهذا العصر استمر حتى سقوط

الخلافـة (العباسـية) نهائيًّـا في (بغـداد) عاصمـة خلافتهـم عـلى يـد قائـد الجيـوش التترية (هولاكـو خـان)، والـذي دخـل (بغـداد) وقـضى عـلى الخلافـة (العباسـية)، ويقتـل آخـر خلفـاء الخلافـة وهـو (المسـتعصم بـالله) سـنة (656 ﻫ)، وهنـا تنتهـي الحقبـة الثانيـة مـن تاريـخ الخلافـة (العباسـية) في منطقـة بـلاد (العـراق).

وبعـد سـقوط الخلافـة (العباسـية) ظـل العـالم الإسـلامي بـدون خليفـة لمـدة ثـلاث سـنوات كاملـة، وكان هنـاك اعتقـاد بـين المسـلمين أن العـالم سـوف ينتهـي لعـدم وجـود خليفـة، وهـو اعتقاد سـاذج جدًّا ولكـن كانـت هـذه هـي الفكـرة السـائدة في ذلـك الوقت، وظـل الأمر عـلى هذا الحـال حتـى تمكـن السـلطان (المظفر قطـز) من هزيمـة ودحر التتـار في المعركـة الخالـدة (عين جالـوت)، والتي انتـصرت فيها جيوش (مـصر) الإسـلامية عـلى جيـوش التتـار الوثنيـة، وتمكـن المصريـون من طـرد التتـار من بـلاد (الشـام)، وهنـا يلتقـي (قطز) بأحـد أفـراد البيت (العبـاسي) وهـو (أبـو العبـاس أحمـد) وكان ضيفًـا عـلى بنـي (خفاجة) بعـد هروبـه مـن التتـار بعـد أن دخلـوا عاصمـة الخلافـة، وقـد وعـده بإعادتـه إلى (بغـداد) وإحيـاء الخلافـة (العباسـية) مـرة أخـرى، ولكـن القـدر لم يمهلـه، فقـد قتـل قبـل أن يحقـق وعده في إعـادة إحيـاء الخلافة مـن جديد.

ثـم تسـلطن عـلى حكـم (مـصر) السـلطان (الظاهـر بيـبرس)، ووفـد عليـه أحـد أبنـاء البيـت (العبـاسي)، وكان محتميًـا عنـد بنـي (مهاريـش) مـن عـرب (العـراق)، وهـو (أبـو القاسـم أحمـد)، وقـد بايعـه السـلطان (بيـبرس) في (مـصر) بعـد أن أثبـت صحـة نسـبه أمـام القضـاة، ولقـب (بالمسـتنصر بـالله)، وقـد رغـب في العـودة

مـرة أخـرى إلى (بغـداد)، فجهَّـزه السـلطان ووجَّـه معـه مـن الجنـود القليـل، والتقـى هـو والتتـار في (هيـت)، وانتهـى الأمـر عـلى هزيمتـه وفقـده، وانتهـت خلافتـه والتـي لم تسـتمر إلا سـتة أشـهر أو أقـل.[195]

ثـم ظهـر رجـل آخـر مـن (العباسـيين) وهـو (أبـو العبـاس أحمـد) والـذي التقـى بالسـلطان (قطـز)، ولكنـه لم يـلي الخلافـة إلا بعـد أن فقـد الخليفـة (المسـتنصر بـالله)، فقـد كان معـه في معركـة (هيـت) ونجا بأعجوبـة، ورحـل إلى (مصر) وقابل السـلطان (الظاهر بيـبرس) والذي تنبَّـه إلى أن وجـود الخلافـة في (مـصر) أفضـل مـن قيامهـا في (العراق)، وذلـك لعـدة أسـباب منها:

1 -أن الدولـة الجديـدة في (مـصر) لم تكـن دولـة شرعيـة، فقـد كان سـلاطينها مجموعـة مـن المماليـك المجلوبـة مـن أجـل خدمـة سـلاطين بنـي (أيـوب)، أي: أنهـم لم يكونـوا حتـى مـن الأحـرار، وبالتـالي كانوا في حاجـة ماسـة إلى شرعيـة لحكمهـم، فلـم يجـد (بيـبرس) أفضـل مـن إقامـة الخلافـة (العباسـية) في (مـصر) بـدلًا مـن إعادتها مـرة أخرى إلى (بغداد).

2 -أن وجـود الخليفـة في (مـصر) يحافظ عـلى بقاء دولـة المماليك دون أن تتعـرض إلى إلغائهـا، فقـد كانـت حادثـة السـلطانة (أم خليل شـجر الـدر) ماثلـة أمـام السـلطان (بيـبرس)، فقد كان شـاهد عيـان على عدم اعـتراف الخليفـة (المسـتعصم بـالله) بهـذه السـلطانة على عـرش (مصر) فقـد خلعـت بعد (ثمانـين) يومًـا فقط مـن حكمهـا، وذلك بعـد أن كان

---

195 - ص (523) وص (524) – تاريخ الخلفاء – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي – الطبعة الأولى (1422هـ / 2001م) – دار مصر للطباعة (سعيد جودة السحار وشركاه) – (القاهرة).

يُخطب لها على جميع منابر ومساجد (مصر) وضُربت السكة باسمها، ولهذا فإن بقاء الخليفة في يد سلاطين (مصر) من المماليك فيه إبقاء لشرعية حكمهم المسلمين إلى أبد الدهر.

3-أصبحت (مصر) بعد إحياء (الظاهر بيبرس) للخلافة (العباسية) فيها قلب العالم الإسلامي، فهي حامية الخلافة، بل أصبحت جميع الإمارات والدول الجديدة تطلب الاعتراف الرسمي لها من قبل سلطان (مصر)، فهو الحامي والمتحدث الرسمي باسم الخليفة (العباسي).

وهكذا نرى أن (الظاهر بيبرس) كان من الذكاء والدهاء من قيامه بإحياء الخلافة ((العباسية)) في (مصر)، بل طلب من الخليفة الجديد (الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن الحسن) أن يقلده الأمور كلها، وقد وافق الخليفة على ذلك، ولم يكن ليرفض أو يقدر حتى على الاعتراض، وكان ذلك في سنة (661 ه)، وهكذا تم إحياء الخلافة (العباسية) في (مصر) وهو الإحياء الثاني لها والأخير.[196]

وتبدأ مسيرة الخلافة (العباسية)) في (مصر) وحماتها المماليك، ولكن الخليفة في (مصر) كان مجرد خيال أو صورة فقط ينحصر دوره على الجانب الروحي، وهو الخطبة باسمه على منابر المساجد، وعلى ضرب اسمه على السكة (النقود) وحضور المناسبات الدينية المهمة، وليس له من الحكم شيء، بل كان شأنه شأن بقية الرعية، بل ربما كان الرعية أو العوام أفضل منه، من حيث حرية الحركة والتصرف، فقد كان الخليفة دائمًا تحت أنظار السلاطين مراقب

196 - ص (525) إلى ص (530) – المصدر السابق.

الحركات والسكنات تعد عليه أنفاسه، ولو لم يكن المماليك يخافون العامة على حكمهم لأنهوا الخلافة تمامًا، فلم يكونوا في حاجة إليهم في الحقيقة، إنما كانت حاجتهم لهم فقط من أجل الحصول على شرعية لحكمهم، والاعتراف بهم من قبل العالم الإسلامي، وهذا ما تمكنوا من الحصول عليه بفضل كفايتهم في الحروب ضد أعداء الأمة، فقد تمكنوا من تحرير بقية (الشام) من الوجود الصليبي، إضافة أنهم تمكنوا من القيام ببعض الفتوحات في البحر المتوسط، هذا كله أكسبهم ثقة في أنفسهم وأكسبهم شهرة كبيرة في بقية أنحاء العالم الإسلامي والمسيحي على السواء.

وهنا سوف أستعرض بشكل مختصر سيرة آخر الخلفاء (العباسيين) في (مصر) وهو الخليفة (محمد المتوكل على الله) والذي بدأ حكمه في سنة (914 ه) وحتى مجيء (العثمانيين) إلى (مصر) وإنهائهم حكم المماليك (لمصر) و(الشام)، وذلك بعد انتصار السلطان (سليم شاه الأول) على السلطان (قانصوه الغوري) آخر السلاطين (الجراكسة) في (مصر) في معركة (مرج دابق)، وأسرهم للخليفة وترحليه إلى عاصمتهم (إسطنبول)، وسوف أتكلم على عدة نقاط أهمها، هل فعلًا تنازل الخليفة (محمد المتوكل على الله العباسي) عن لقب الخلافة للعثمانيين أم أنها أكذوبة لم تحدث؟ وكذلك سوف أعرض كيف كانت حياة الخلفاء (العباسيين) في ظل المماليك، وأنهم كانوا أفضل حالًا في (بغداد) منهم في (مصر)

*تولي (محمد المتوكل على الله) الخلافة وسبب توليه:

اقتصر دور الخليفة (العباسي) في (مصر) على مجرد مبايعة السلطان الجديد وتهنئته في الأعياد، وحضور المناسبات الدينية والسياسية في الدولة لمباركتها فقط لا غير، وأما الحكم فلم يكن للخليفة أية سلطة سياسية نهائيًّا، وإنما له فقط السلطة الروحية، أي: أن الخليفة كان مجرد لعبة في يد السلاطين مثله مثل لعبة خيال الظل في يد المخايل.

في سنة (914 هـ) وكما هي العادة المتبعة فقد صعد الخليفة (العباسي) والذي كان وقتها هو (المستمسك بالله يعقوب) ومعه القضاة الأربعة إلى (القلعة) مقر حكم السلطان المملوكي والذي كان (قانصوه الغوري)، فقد كان صعودهم من أجل التهنئة بدخول الشهر الجديد، وهو مستهل شهر (شعبان)، وقد جرت العادة أن يصعد الخليفة ومعه القضاة والعلماء من أجل إلقاء التحية وتهنئة السلطان في مستهل كل شهر عربي جديد، انظر كيف انحط مقام الخليفة إلى درجة أنه يعامل كأنه فرد من أفراد العامة، فبدلًا من أن يأتي السلطان إلى الخليفة من أجل التهنئة يحدث العكس، وهذا دليل على مدى تسلط المماليك على الخليفة، بل وتطاولهم على مقام الخلافة.

وفي هذا اليوم حدث أمر مؤسف، فقد كان من ضمن الوفد المهنئ ابن عم أبي الخليفة (يعقوب) وكان يدعى (خليل) ويبدو أنه كان طامعًا في الخلافة، فقد وقع شجار عنيف بينه وبين الخليفة في مجلس السلطان (الغوري) فقال للخليفة: «أنت ولايتك ما

تصح فإنك أعمى»، فقد كان الخليفة يعاني من ضعف شديد في البصر والرؤية أضف إلى ذلك أنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب !! فقام إليه ولده وهو (الناصري محمد) قائلًا (لخليل): «وأنت ما تصح خلفك صلاة، لأنك ما تحسن قراءة الفاتحة «فقد كان ألثغ لا يحسن نطق حرف الراء جيدًا.

وهنا تدخل السلطان (الغوري) بعد أن أفحش الاثنان في بعضهم البعض، فألزم (خليلًا) على قراءة سورة الفاتحة أمام الجميع وبحضرة القضاة، فلما بدأ بقراءة سورة الفاتحة تفحش في قراءتها بين الناس، ثم سكت ولم يكمل القراءة، وهنا انفض المجلس فقال السلطان: «يوم الإثنين نعقد مجلسًا في أمر من يصلح للخلافة !!»، فقام الخليفة (يعقوب المستمسك بالله) والقضاة على أن يكون ميعاد المجلس المتفق عليه هو يوم الإثنين كما أمرهم السلطان، وقد ترشح أمر (الناصري محمد) لمنصب الخلافة مكان أبيه.

وفي يوم الإثنين حضر القضاة الأربعة والخليفة (يعقوب) وولده (محمد) وابن عمهم (خليل)، وكان الخليفة قد تنازل لولده بالخلافة عندما حصل هذا الشجار في حضرة السلطان، فقام وعرض هذا العهد على قاضي القضاة الشافعي (كمال الدين الطويل)، وكان الخليفة السابق (عبد العزيز) قد عهد بالخلافة من بعده لولده (يعقوب) الخليفة الحالي، وبولاية العهد من بعده لحفيده (محمد)، فلما وقف قاضي القضاة على هذين العهدين قال: «الحق (للناصري محمد) بن الخليفة (يعقوب)». ثم قام الخليفة للسلطان وقال له: «أنا قد شخت، وكبر سني

وقـد عزلـت نفـسي مـن الخلافـة وعهـدت إلى ولـدي بالخلافـة، فـإن شـاء السـلطان يوليـه أو لا !! «فقـال السـلطان: «قـد وليـت ولـدك «وقـد سـاعدت الأمـراء عـلى تـولي (محمـد) للخلافـة.

ولكـن لنـا وقفة هنـا، فقد وصل الحـال بالخلفاء في (مـصر) إلى طلب الإذن مـن السـلطان على توليـة مـن يصلـح للخلافـة، إذًا فقـد علمـوا أنهـم مجـرد أدوات ولعـب في يـد السـلاطين، وليـس لهـم حيلـة في هـذا الأمـر، إذا مـا الداعـي إلى خلافـة صوريـة وإقامـة خليفـة لعبـة؟ اللهـم إلا الحفـاظ عـلى صورة الشـبح الذي يدعـى منصب الخليفـة، والذي لا أهميـة لـه في الحقيقة.

ثـم قـام وتقـدم كاتـب الـسر (محمـود بـن أجـا) واسـترعى الشـهادة عـلى السـلطان بولايـة (النـاصري محمـد)، فقـام وخطـب خطبـة بليغـة وقـال في آخرهـا: «يـا مولانـا السـلطان، نشـهد عليـك أنـك وليـت الخلافـة (للنـاصري محمـد) ابـن الخليفـة (يعقـوب) »، فقـال السـلطان: «نعـم»، فشـهد القضـاة جميعهـم عـلى ذلـك، فقـام الخليفـة (يعقـوب) إلى السـلطان فودعـه، فأكرمـه السـلطان (الغـوري) وعظـم الخليفـة وأكرمـه، ثـم نـزل الخليفـة إلى داره وهـو في غايـة العـز والعظمـة، وألبسـه السـلطان سـلاري صـوف أبيـض بسـمور، وكانـت مـن ملابـس السـلطان، ثـم أحـضروا (للنـاصري محمـد) الخليفـة الجديـد شـعار الخلافـة، فأفيـض عليـه وتلقـب (بـأبي عبـد الله المتـوكل عـلى الله) وهـو لقـب جـده، فـولَّاه السـلطان الخلافـة عـلى أجمـل وجـه، وبهـذا يكـون الخليفـة رقـم (سـتة عـشر) مـن خلفـاء بنـي (العبـاس) في (القاهـرة)، وسـوف يكـون آخرهـم.[197]

197 - ص (139) وص (140) – بدائع الزهور في وقائع الدهور – محمد بن أحمد بن إياس الحنفي

*أول موكب للخليفة الجديد بعد توليه الخلافة:

وقام الخليفة الجديد بمهام وظيفته كاملة، ففي مستهل شهر (رمضان سنة 914 ه) نزل السلطان (قانصوه الغوري) إلى الميدان من أجل التهنئة بالشهر المعظم، وطلع إليه الخليفة (محمد المتوكل على الله) وهنأه بحلول شهر (رمضان)، وكان لابسًا العمامة (البغدادية)، وكان هذا أول مواكبه في الخلافة، فقام إليه السلطان وعظَّمه إلى الغاية.[198]

فكما رأينا كانت مهام الخليفة محصورة في الصعود إلى (القلعة) لتهنئة السلطان بحلول الشهر الجديد، ثم النزول من (القلعة) بعد أن يتم مهمته، ويقوم السلطان ويرحب بمقدم الخليفة ويكرمه ثم يودعه عند انفضاض مجلسه، وقد انقلبت الآية على يد سلاطين (مصر)، فكان من المفترض أن يقدم السلطان التهنئة للخليفة وليس العكس، ولكن انتهى أمر الخلافة إلى الانحلال والضعف إلى ما رأينا، فقد كانت مجرد مراسم تؤدى من أجل إتمام الصورة الشكلية فقط لا غير.

واستمر الخليفة على هذه العادة ولم يحدث أمر جلل طوال (ثماني) سنوات كاملة، إلى أن حدث أمر جلل، فقد كانت الدولة (العثمانية) والتي تحكم منطقة (آسيا الصغرى) والتي حققت فتوحات كبيرة وعظيمة في أوروبا، قد حدث خلاف بين سلطانها (سليم شاه) وبين

– حققها وكتب لها المقدمة والفهارس أ/ محمد مصطفى – الجزء الرابع (من سنة 906 إلى سنة 921هـ) – الطبعة الثالثة (1429هـ/ 2008م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

198 - ص (143) – المصدر السابق.

إخوته، فهرب على إثره ابن أخيه منه واحتمى بسلطان (مصر)، فاتخذها ذريعة لمهاجمة دولة المماليك في (الشام) و(مصر)، فقد رغب في الاستيلاء على بلاد (الشام) و(مصر) لكي يزيد في ملك بني (عثمان) وخصوصًا وقد لمس ضعف دولة المماليك في (مصر).

ففي مستهل شهر (صفر سنة 922 ه) وهو يوم الأربعاء صعد الخليفة (محمد المتوكل على الله) ومعه القضاة لتهنئة السلطان بقدوم الشهر الجديد، فقال السلطان (قانصوه) للخليفة لما جلس: «اعمل يرقك إلى السفر، وكن على يقظة فإني مسافر إلى (حلب) بسبب (ابن عثمان)».[199]

ثم أتى شهر (ربيع الأول) وكان مستهله يوم الجمعة، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة على عادتهم وهنأوا السلطان بقدوم الشهر الجديد، وقيل: إن السلطان في اليوم التالي أرسل إلى (شمس الدين بن ناشي) وإلى (بركات بن الظريف) شيخ القراء أرسله إلى الخليفة يقول له: «اعمل يرقك إلى السفر، فإنه لابد من سفر السلطان إلى (حلب)، وأنه ينفق ويخرج في شهر واحد، فتنكد الخليفة لهذا الخبر».

وفي يوم الثلاثاء (الخامس من شهر ربيع الأول) نزل القاضي (شهاب الدين بن الجيعان) نائب كاتب السر عن لسان السلطان إلى أمير المؤمنين (المتوكل على الله محمد) بسبب عمل يرقه للخليفة، وقد كشفوا في الدفاتر القديمة أن الخليفة إذا سافر صحبة السلطان يكون

199 - ص (15) – بدائع الزهور في وقائع الدهور – محمد بن أحمد بن إياس الحنفي – حققها وكتب لها المقدمة والفهارس أ/ محمد مصطفى – الجزء الخامس (من سنة 923 إلى سنة 928هـ) – الطبعة الثالثة (1429هـ / 2008م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

جميع عمل يرقه على نفقة السلطان، فكتب الخليفة قوائم بمصروف عمل اليرق، فكان ذلك بنحو (عشرة آلاف) دينار، وقيل: (خمسة آلاف) دينار، فأخذ القاضي (شهاب الدين أحمد) تلك القوائم وطلع إلى (القلعة) حتى يعرضهم على السلطان.[200]

وفي يوم الإثنين (الخامس والعشرين) من الشهر أنفق السلطان على الأمراء الطبلخانات والأمراء العشرات، وصار يستدعيهم واحدًا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية، فأعطى لكل طبلخاناه (خمسمائة) دينار، وأعطى لكل أمير العشرة (مائتي) دينار، ولم يرسل للخليفة نفقة وكان قاعدًا ينتظر دوره من عطاء السلطان، ولكن خاب ظنه، ولكنه أرسل له بعد ذلك نوبة خيام جديدة ولم يرسل له نفقة، فحصل للخليفة غاية المشقة، فقد علم أنه سوف ينفق على سفره من ماله الخاص، لهذا ترامى على جماعة من الأمراء في أن يقرضوه مبلغًا بفائدة، ودخل في جملة دين لم يثر به، وهذا الأمر قط لم يتفق بأن السلطان إذا سافر إلى البلاد (الشامية) وصحبته الخليفة أن يخرج بلا نفقة، وكان عادة جميع برك الخليفة إذا سافر يكون على السلطان، وكان قد أرسل إليه أي السلطان مبلغ (خمسمائة) دينار لأجل جوامك غلمانه، فلم يلتفت السلطان إلى شيء من ذلك، بل شح معه في أمر النفقة، وكان الخليفة مظلومًا مع السلطان في هذه الواقعة.

وفي يوم الخميس من شهر (ربيع الآخر) أي: بعد حوالي عشرة أيام أرسل السلطان إلى أمير المؤمنين أخيرًا نفقة السفر بعد طول انتظار ومذلة، وقد أرسلها مع (حسام الدين الألواحي) بواب (الدهيشة) ومقدارها (ألف) دينار فقط، وكان الساعي له في

200 - ص (23) – المصدر السابق.

ذلك هو الأمير (طومان باي) الدوادار الكبير، والذي لولاه ما كان أرسل له شيئًا.

ثم بعد أيام أرسل السلطان إلى الخليفة سيفًا مسقطًا بالذهب على يدي رجل من الزردكاشية يقال له: (محمد العادلي)، فكان مجموع ما حصل له من السلطان من الإنعام من الذهب وغير ذلك دون (الألفي) دينار!!، وقد تكلف الخليفة في هذه السفرة على مصروف بركه وغير ذلك فوق (الخمسة آلاف) دينار، وقيل أكثر من ذلك، وفي يوم الإثنين (العاشر من شهر ربيع الآخر) خرج سنيح (ركب) أمير المؤمنين (المتوكل على الله) وكان قدامه طبلان وزمران ونفير، وكان هذا هو كل موكب الخليفة أمير المؤمنين وخليفة المسلمين!!.[201]

*الخليفة (محمد المتوكل على الله) مع السلطان في (حلب):

ورحل السلطان والخليفة والقضاة إلى مدينة (حلب)، ودخلوها قبل السلطان (قانصوه الغوري)، وعندما دخل السلطان المدينة كان أول شيء أمر به هو أن تقرأ ختمة كاملة في الميدان الكبير بمدينة (حلب)، وكان ذلك في يوم الخميس ليلة الجمعة، وقد حضر أمير المؤمنين (المتوكل على الله) والقضاة الأربعة ومشايخ الزوايا هذه الختمة، ثم قام الخليفة وصلى بالسلطان في الخيمة التي بالميدان صلاة العصر وصلاة المغرب، فأنعم السلطان على أمير المؤمنين في ذلك اليوم (بأربعمائة) دينار و(مائة) رأس غنم، وكأنه رجل من فقراء العامة يتصدق عليه!!.[202]

201 - ص (30) – المصدر السابق.

202 - ص (33) وص (37) – المصدر السابق.

وفي يوم الأربعاء (الحادي والعشرين من شهر رجب) رحل السلطان من (جبلان) وتوجه إلى (مرج دابق)، فأقام هناك إلى يوم الأحد (الخمس والعشرين) من هذا الشهر، وكان السلطان العثماني (سليم) قد جهز جيوشه لمحاربة السلطان المملوكي (قانصوه الغوري)، فلم يشعر السلطان إلا وقد دهمته عساكر السلطان (سليم شاه بن عثمان)، فصلى السلطان صلاة الصبح، ثم ركب وتوجه إلى مكان يدعى (زغزغين) و(تل الغار)، فركب السلطان وهو لابس تخفيفة صغيرة، وملوطة بيضاء وعلى كتفه طبر (فأس)، وصار يرتب العساكر بنفسه، وقد وضع أمير المؤمنين على ميمنته وهو أيضًا لابس تخفيفة وملوطة، وعلى كتفه طبر مثل السلطان تمامًا، وعلى رأسه الصنجق (الراية) الخليفتي.(203)

*هزيمة السلطان (قانصوه الغوري) وأسر الخليفة:

وعند (مرج دابق) وقعت الحرب بين جيش العثمانيين والمماليك، والتي انتهت بهزيمة جيش المماليك، ووفاة السلطان وأسر الخليفة (محمد المتوكل على الله العباسي)، وفر بقية الجيش المصري من أرض المعركة، بعد أن كانت النصرة لهم في أول الحرب، ولكن دارت الدائرة على المماليك، ثم قام السلطان العثماني (سليم شاه) باحتواء ما في عسكر السلطان (قانصوه الغوري)، ثم أقام بالميدان الكبير الذي بمدينة (حلب)، فتوجه إليه أمير المؤمنين (محمد المتوكل على الله) والقضاة الثلاثة، وقيل: لما دخل الخليفة (العباسي) على السلطان (سليم) وهو بالميدان قام له وعظَّمه غاية التعظيم، ثم جلس بين

203 - ص (63) – المصدر السابق.

يديه فأشيع أنه قال له: «أصلكم من أين؟ «فأجابه الخليفة: «من (بغداد) «فقال له السلطان (سليم): «نعيدكم إلى (بغداد) كما كنتم «والأقوال في ذلك كثيرة، فلما أراد الخليفة الانصراف أخلع عليه السلطان بدلامة من حرير من ملابسه، وأنعم عليه بمال كثير، ثم رده إلى مدينة (حلب) ووكل به ألا يهرب من المدينة، أي: وضعه بما يعرف في العصر الحديث بمصطلح (تحت الإقامة الجبرية).

وهكذا وضع الخليفة (محمد المتوكل على الله) والقضاة الثلاثة (الشافعي والمالكي والحنبلي) في الترسيم (تحت الإقامة الجبرية) بمدينة (حلب) لا يخرجون منها إلا أن يأذن لهم السلطان (سليم)، والوحيد الذي تمكن من الهرب هو قاضي القضاة الحنفي.[204]

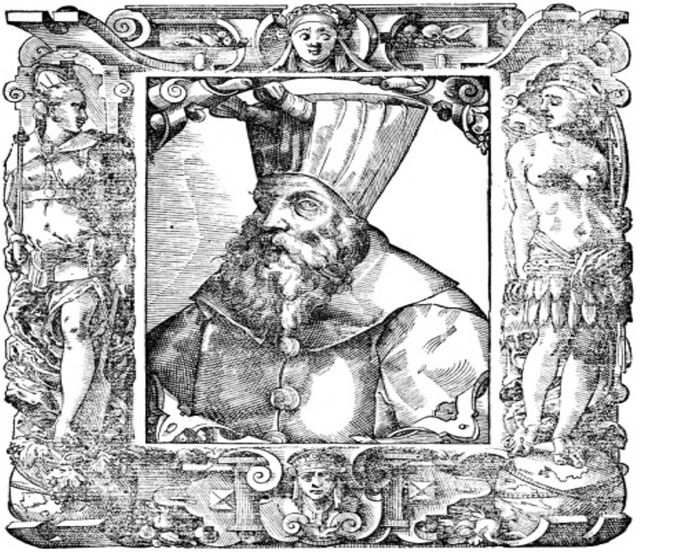

السلطان الأشرف قانصوه الغوري بريشة الرسام الإيطالي باولو جيوفيو

204 - ص (68) – المصدر السابق.

(معركة مرج دابق وانهزام قنصوه الغوري)

*إقامة الخطبة في مساجد (مصر) للخليفة (محمد المتوكل):

وفي يوم الجمعة وبعد أن وصلت أنباء هزيمة جيش المماليك، والتأكد من خبر وفاة السلطان (قانصوه الغوري)، قام جميع الخطباء في (مصر) بالدعاء على المنابر للخليفة (محمد المتوكل على الله) فقط، ولم يذكروا معه أحدًا، وقد قال بعضهم في الدعاء هكذا: «اللهم ولّ علينا خيارنا، ولا تولّ علينا شرارنا» وقد استمر الحال على ذلك مدة طويلة و(مصر) بلا سلطان، وكذلك البلاد (الشامية).

وفي شهر (رمضان) وصل إلى (مصر) قاضي القضاة الحنفية (محمود بن الشحنة)، والذي تمكن من الهرب من السلطان (سليم شاه) بعد هزيمة جيش المماليك فلم يقع في الأسر مع بقية قضاة المذاهب الأخرى، ولكنه دخل الديار (المصرية) في حالة مزرية، فقد نهبت العربان جميع بركه وكل ما يملك، وقد أخبر بما حل بالسلطان (قانصوه) وخبر الهزيمة، وأخبر أن السلطان (سليم) تمكن من الاستيلاء على حوالي (ثلاث عشرة) قلعة في بلاد (الشام)، وأن الخطباء تخطب باسمه فيها، وأن حكمه قد امتد من بلاد (الفرات) إلى مدينة (حلب)، وأخبر كذلك أن الخليفة والقضاة الثلاثة قد وقعوا في أسر (ابن عثمان) وأنهم تحت الترسيم بمدينة (حلب)، وأنه لولا تمكنه من الهروب مع بقية العسكر لكان هو الآخر معهم في الأسر.[205]

*تولية الأمير الدوادار الكبير (طومان باي) سلطنة (مصر):

ولم يجد المماليك في (مصر) من يصلح لتولي السلطنة غير الدوادار الكبير (طومان باي)، فهو الوحيد الذي توافرت فيه شروط السلطنة، وفي يوم الجمعة (الرابع من شهر رمضان سنة 922 ه) صلى الأمير (طومان باي) صلاة الفجر، وركب معه الأمراء المقدمون وقدامه الفوانيس والمشاعل، فطلع إلى (باب السلسلة) وجلس به، وأرسل إلى والد الخليفة (محمد المتوكل) الخليفة السابق (المستمسك بالله)، فحضر وصحبته ولد الخليفة وكان يدعى (هارون) وأولاد ابن عمهم (خليل)، وحضر قاضي القضاة الحنفي (حسام الدين محمود

205 - ص (74) وص (77) – المصدر السابق.

بن الشحنة)، والقاضي (شرف الدين يحيى بن البرديني) وهو أحد نواب القاضي الشافعي، وجماعة من نواب قضاة المذاهب الأخرى (بالقاهرة)، فلما تكامل المجلس واجتمع سائر الأمراء المقدمين وغيرهم من الأكابر والأصاغر وجميع العساكر، فأظهر أمير المؤمنين (يعقوب) وكالة مطلقة عن ولده الخليفة (محمد المتوكل على الله)، وبأنه قد وكله في جميع أموره وما يتعلق به من أمور الخلافة وغيرها في غيبته، وهي وكالة مفوضة، وثبت ذلك على القاضي (شمس الدين بن وحيش) فاكتفوا بذلك، وكان أشيع بأن يولوا الخلافة إلى أحد أبناء ابن عم الخليفة (خليل)، فإن الخليفة (محمد المتوكل) كان في الأسر عند (ابن عثمان)، ووالده (يعقوب) كان قد عزل نفسه من قبل عن الخلافة، فلما أحضر هذه الوكالة عن ولده وثبتت صحتها عند القضاة بطل كل ما أشيع، واكتفوا بذلك.[206]

*مبايعة أمير المؤمنين (يعقوب) للسلطان (طومان باي) بالسلطنة:

وعندما اتفقت كلمة أمراء المماليك والمقدمين منهم على تولية أمر السلطنة إلى الدوادار الكبير (طومان باي)، تقدم وبايع السلطان أمير المؤمنين السابق (يعقوب المستمسك بالله) بالوكالة عن ولده الخليفة الأسير عند (ابن عثمان) (محمد المتوكل على الله الثالث)، وبعد المبايعة والانتهاء من مراسم التولية، نزل السلطان الجديد (لمصر) من سلم (الحراقة) التي بباب (السلسلة) والخليفة أمامه، فطلع من باب سر القصر الكبير، وجلس على كرسي المملكة، ولما انتهت مراسيم المبايعة أخلع السلطان على أمير المؤمنين (يعقوب)، ونزل

206 - ص (81) وص (84) – المصدر السابق.

إلى داره في موكب حافل، وقيل: إن السلطان لما قرئ عهد السلطنة بحضرة أمير المؤمنين (يعقوب) أنعم عليه بحصة ونصف وثلث في منشية (دهشور).[207]

*محاربة السلطان (طومان باي) للسلطان (سليم شاه الأول) وهزيمته (بالريدانية):

ثم تجهز السلطان (طومان باي) لمحاربة العثمانيين وردهم عن دخول (مصر)، ولكنه للأسف انهزم وانهزمت عساكره وجنوده في (الريدانية)، وكانت هذه الكسرة والهزيمة هي الأخيرة والقاضية للمماليك في (مصر)، وكانت هذه المعركة الفاصلة في يوم الخميس (التاسع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة 922 ه).

وفي يوم الجمعة نهاية سنة (922 ه) دخل أمير المؤمنين (محمد بن يعقوب المتوكل على الله الثالث) إلى عاصمة المماليك (القاهرة) مع وزراء السلطان الجديد (سليم شاه الأول) العثماني، والذي دخل مع جيشه الغفير، ودخل معهم ملك الأمراء (خاير بك) نائب مدينة (حلب)، ودخل قاضي القضاة الشافعية (كمال الدين بن الطويل)، وقاضي المالكية (محي الدين الدميري)، وقاضي الحنابلة (شهاب الدين الفتوحي)، وهؤلاء جميعًا كانوا في أسر السلطان (سليم) من بعد هزيمة السلطان (الغوري).

فلما دخل الخليفة من باب (النصر) ومنه شق مدينة (القاهرة) وأمامه المشاعلية نادوا في الناس بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء والأخذ والعطاء، وفي ذلك اليوم خطب جميع الخطباء على منابر

207 - ص (104) وص (105) – المصدر السابق.

وجوامع (مصر) و(القاهرة) باسم السلطان (سليم شاه)، وقالوا في نهاية الخطبة هذا الدعاء: «وانصر اللهم السلطان بن السلطان، ملك البرّين والبحرّين، وكاسر الجيشين (يقصدون جيش إسماعيل الصفوي، وجيش السلطان الغوري)، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه، اللهم انصره نصرًا عزيزًا، وافتح له فتحًا مبينًا، يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين.[208]

*شفاعة الخليفة (محمد المتوكل) في أهل (مصر):

وهنا لابد من نشير إلى دور الخليفة العباسي (محمد المتوكل على الله) الإيجابي، فعلى الرغم من أن الخليفة ليس له دور في الحكم إلا أن السلاطين كانوا يكنون احترامًا كبيرًا للخليفة لقرابته من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد كان دخول السلطان العثماني إلى (القاهرة) يوم الإثنين (الثالث من شهر المحرم سنة 923 ه)، وكان موكبه موكبًا مهيبًا تقدمه الخليفة (محمد المتوكل على الله) وقضاة القضاة وجماعة من المباشرين الذين كانوا في (مصر).

وقد أشيع عن السلطان (سليم) عندما كان في بلاد (الشام) أنه قال في بعض مجالسه بين أمرائه وأخصائه أنه قال: «إذا دخلت إلى (مصر) أحرق بيوتها قاطبة، وألعب في أهلها بالسيف»، فقيل: إن الخليفة تلطف به حتى رجع السلطان عن قراره ذلك، ولو أراد السلطان ((سليم)) فعل ذلك، فإنه لن يجد من يمنعه من القيام بهذه الأفعال الشنيعة، ولكن الله سلم.

208 - ص(110) – المصدر السابق.

*شفاعة الخليفة (المتوكل) لخطيب جامع (شيخو):

فقد كان إمام وخطيب هذا الجامع الواقع في منطقة (الصليبة) يدعو في خطبة الجمعة للسلطان (طومان باي) عندما تمكن من مقاومة العثمانيين في شوارع منطقة (الصليبة) و(خان الخليلي)، فلما انهزم وهرب من الجنود العثمانيين، دخلوا الجامع وقبضوا على هذا الخطيب وكان يُدعى: (الشرفي يحيى بن عداس) وأحضروه أمام السلطان (سليم شاه الأول) وأراد أن يضرب عنقه، فلما بلغ الخليفة ذلك ركب مسرعًا إلى السلطان (سليم) وشفع في (ابن عداس) وخلصه من القتل، ولولا قبول السلطان شفاعة الخليفة لقتل (الشرفي بن عداس).[209]

*شفاعة الخليفة (المتوكل) لزوجة السلطان (طومان باي):

أصبح الخليفة (المتوكل على الله الثالث) صاحب نفوذ وحظوة لدى السلطان (سليم الأول) ولم يدخر وسعًا في استغلال هذا النفوذ في الشفاعات، وممن شفع لهم لدى السلطان العثماني زوجة السلطان (طومان باي)، فقد لجأت إليه (الخوند) زوجة السلطان المملوكي السابق وابنة الأمير (أقبردي) وأقامها في بيته، وكان السلطان (سليم الأول) قد ألزمها برد مبلغ كبير من أموالها إلى خزينته، وهنا صعد إليه الخليفة (المتوكل على الله) وشفع لها عنده، ومازال به حتى خفف عليها السلطان من المال المقرر عليها، فكانت خدمة جميلة وردًا للمعروف مشكور من قبل الخليفة إلى زوجة السلطان الهارب (طومان باي).

---

209 - ص (147) وص (148) – المصدر السابق.

*نفوذ الخليفة في (مصر):

ويبدوا أن الخليفة قد تمتع بمكانة مرموقة عند السلطان العثماني (سليم) أكثر منه في أيام السلطان المملوكي (قانصوه الغوري)، فقد أصبح كما يذكر (ابن إياس): «هو صاحب الحل والعقد، والأمر والنهي في الديار المصرية، وصارت أولاد السلاطين جالسة في دهاليز بيته، وكانت رسالته ماشية في (القاهرة)، ولا ترد عند وزراء (ابن عثمان)، وشفاعته في الناس لا ترد، وصار رنكه (شعاره) مضروبًا على غالب البيوت في (القاهرة)، بل صار هو مقام السلطان في (مصر) في نفاذ الكلمة واظهار العظمة في تلك الأيام، ودخل عليه من الناس أموال وتقادم عظيمة ما لا فرح به آباؤه ولا أجداده «ظانًّا منه أن الأمر سوف يستمر هكذا إلى الأبد، ولكن سوف يحدث له أمر لم يخطر ببال أبدًا.[210]

*مراسلة (طومان باي) للخليفة (محمد المتوكل على الله):

وحدث أمر هام، ألا وهو قيام السلطان المهزوم والهارب (طومان باي) بمراسلة الخليفة (محمد المتوكل)، ويبدو أن (طومان باي) قد أحس أن وضع الخليفة السياسي في (مصر) قد أصبح ذا خطر ونفوذ، ولهذا قام بإرسال رسالة إليه وإلى أعيان الناس، وإلى كاتب السر والتي كانت فحواها: «يا سبحان الله إن كنتم نسيتمونا فنحن ما نسيناكم».

ثم أشيع بعد أيام أن السلطان (طومان باي) قد أرسل إلى السلطان (سليم شاه) يطلب منه الصلح والرحيل من أرض (مصر)، وفي المقابل يعترف للسلطان (سليم) بالسلطنة على دولة

210 - ص (150) وص (156) – المصدر السابق.

المماليك، وأن يكون هو نائبه على (مصر)، وأنه يقبل أن يضرب السكة (العملة) باسمه، وأن يخطب باسمه على المنابر.

وقد وقف فعلًا السلطان (سليم شاه) على مطالعة ورسالة (طومان باي) التي أرسلها إلى الخليفة، وكذلك القضاة الأربعة، فأحضر جماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة حلف إلى (طومان باي)، وكتب (ابن عثمان) خطه عليه، ووقع في ذلك اليوم الاتفاق في القلعة أن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجهون إلى السلطان (طومان باي) بذلك الحلف على أيديهم، ولكن الخليفة امتنع من الذهاب إلى معسكر (طومان باي) وقال: «أنا أرسل دواداري (برد بك) صحبة القضاة».[211]

*سفر الخليفة (محمد المتوكل على الله) في صحبة السلطان (سليم) إلى (إسطنبول):

وفي أواخر شهر (ربيع الآخر سنة 923 ه) أرسل السلطان (سليم شاه) إلى أمير المؤمنين (محمد المتوكل على الله) يقول له: «اعمل يرقك حتى تسافر إلى (إسطنبول)»، فلما تحقق الخليفة من صحة ذلك القول اضطربت أحواله، وشرع في عمل يرقه، وأرسلوا إليه مرة أخرى يقولون له: «سافر أنت وأولاد عمك (خليل) وصهرك (محمد بن خاص بك)»، فلما بلغهم ذلك تنكدوا أجمعين.

وفي يوم الثلاثاء (ثاني عشر من شهر جمادى الأولى) خرج أمير المؤمنين (المتوكل على الله الثالث) قاصدًا عاصمة العثمانيين (إسطنبول) وخرج صحبته أولاد ابن عمه (خليل)، وهما (أبو

211 - ص (157) وص (158) – المصدر السابق.

بكـر) و(أحمـد) وخـرج صحبتـه أيضًـا (النـاصري محمـد بـن العـلاي عـلي بـن خـاص بـك) وهـو صهـر الخليفـة، فتوجهـوا جميعًـا إلى (بـولاق) ونزلـوا مـن هنـاك في المركـب ليتوجهـوا إلى ثغـر (رشـيد)، فحصـل للنـاس عـلى فقـد أمـير المؤمنـين مـن (مـصر) غايـة الأسـف وقالـوا: «انقطعـت الخلافـة مـن (مـصر) وصـارت إلى (إسـطنبول) «واسـتمر الخليفـة مقيـمًا بالمركـب بـبر (بـولاق) إلى يـوم الثلاثـاء (تاسـع عـشر مـن شـهر جمـادى الأولى) فعـوم الخليفـة مـن ميناء (بـولاق) إلى ثغـر (رشـيد)، ثـم وردت الأخبـار أن الخليفـة لمـا وصـل إلى ثغـر (رشـيد) أنـه أقـام بـه.[212]

*خروج نظر المشهد (النفيسي) من يد الخليفة:

وكانـت نظـارة وقـف مشـهد السـيدة (نفيسـة) في يـد الخلفـاء (العباسـيين) عندمـا اسـتقروا بـأرض (مـصر) وكانـت مصـدر رزقهـم الأهـم ودخلهـم الوحيـد، ولكـن حـدث أنـه في شـهر (جمـادى الآخرة مـن سـنة 923 ه) وذلـك أن سـافر الخليفـة (المتـوكل عـلى الله) مـن (مـصر) مبـاشرة إلى (إسـطنبول) أن أخرجـوا مـن يديـه نظـر مشـهد السـيدة (نفيسـة)، والـذي كان بيـد الخلفـاء مـن قديـم الزمـان، وكان مـن جملـة تعاظمهـم، وكان يحصـل لهـم مـن هـذه الجهـة غايـة الخـير مـن الشـموع والزيـت، وكان يحصـل لهـم في كل شـهر مـن الصنـدوق الـذي تحـت رأس السـيدة مبلـغ لـه صـورة مـن النـذور التـي كانـت تدخـل عليهـم، فخـرج ذلـك كلـه عـن يـد الخليفـة، وقـد حصـل للخليفـة (يعقـوب المستمسـك بـالله) والـد الخليفـة الغائـب غايـة الـضرر بسـبب ذلـك، وشـق عليـه ذلـك ولم يفـده شيء.[213]

212 - ص (166) – المصدر السابق.

213 - ص (183) وص (185) – المصدر السابق.

*مقابلة الخليفة (محمد المتوكل) للسلطان (سليم) عند مشارف (إسطنبول):

وعندما رحل بعد الخليفة السلطان من (مصر) وصل إلى مدينة (حلب) ثم رحل منها إلى بلاد (علي الدولات) فنزل على (مرعش) وأقام هناك مدة، ثم رحل من هناك متوجهًا إلى عاصمته (إسطنبول)، وهناك على مشارف العاصمة كان في انتظاره أمير المؤمنين الخليفة (محمد المتوكل على الله) والذي كان ينتظره خارج المدينة ومعه أولاد عمه والعلاي (علي بن الملك المؤيد أحمد) وأولاد الأمراء الذين كانوا هناك والمباشرون وأولاد (الجيعان) وجميع أعيان أهل (مصر)، فلما وقعت عيني الخليفة على (سليم) أراد أن ينزل له من على فرسه، ولكن السلطان حلف ومنعه من النزول إليه، وقيل: إن السلطان (سليم) قد عظم الخليفة غاية التعظيم، وكانوا يظنون أن السلطان (سليم) إذا دخل إلى عاصمته (إسطنبول) يفرج عن الجميع ويرسم لهم بالعود مرة أخرى إلى (مصر)، ولكنه لم يفعل.[214]

*مرافعة ومخاصمة أولاد (خليل) لابن عمهم الخليفة عند السلطان (سليم شاه):

وفي يوم الأربعاء (الثاني من شهر ذي القعدة) حدث أمر ارتجت له (مصر) كلها، فقد وصل رسول من عند السلطان (سليم) وانتشرت إشاعة في طول البلاد وعرضها أن سبب حضور هذا القاصد أن الخليفة (محمد المتوكل على الله) لما توجه

---

214 - ص (192) – المصدر السابق.

إلى مدينة (إسطنبول) وكان في صحبته لما توجه إلى هناك مع أولاد ابن عمه (خليل) هما (أبو بكر) وأخوه (أحمد) وقع بينهم وبين ابن عمهم الخليفة خلاف كبير، فرافعوه عند (السلطان سليم شاه الأول) وكان مفاد هذه المرافعة أن الخليفة (محمد المتوكل) عندما كان في (مصر) حصل على ودائع كثيرة، فقد ترك عنده الأمراء الذين قتلوا في معركة (مرج دابق) أموالهم عنده وديعة (أمانة)، وكذلك أودعوا عنده الكثير من القماش، وأخذ من (خوند زوجة السلطان طومان باي) ومن أمها مالًا كثير، وكذلك أخذ من نساء الأمراء المقدمين الذين قتلوا من الأموال ما لا حصر له، ولم يطلع الخليفة (المتوكل) السلطان (سليم) على هذه الأموال، وتكلموا في حقه بالباع والذراع وما أبقوا في ذلك ممكنًا، فاعتدل السلطان على الخليفة (محمد المتوكل على الله) وقد انحط من قدره عنده، وكذلك ساعدت وزراء السلطان (سليم) أولاد (خليل) على الخليفة، وكان الخليفة لما أقام في (إسطنبول) أظهر فتكًا زائدًا للأموال، وأنهم العيش واشترى لنفسه الجواري اللاتي يتقن الضرب بالجنك، ثم إنه قطع معلوم أولاد ابن عمه (خليل)، فعندها شكوه إلى السلطان، فحنق على الخليفة ورسم بأن يكون إقطاع الخلافة وجهاتها تقسم بينهم ثلاثة أثلاث من الجميع بالسوية، فقام السلطان بإرسال هذا القاصد لكي يحاسب لهم عن ذلك، فلما أن حضر القاصد رسم على مباشري الخليفة، وعلى داوداره (برد بك) وقال لهم: «قيموا لنا حساب معلوم أولاد (خليل) من حين مات أبوهم وإلى الآن»، واستمر هذا الرسول يضيق على المباشرين وجماعة الخليفة بسبب ذلك،

وبذلك انتصفت أولاد (خليل) على الخليفة (محمد المتوكل) غاية الإنصاف.[215]

*تغير السلطان (سليم شاه) على الخليفة (محمد المتوكل على الله الثالث):

وكان في (إسطنبول) أحد الأمراء المماليك المقيمين هناك ويدعى (جانم الحمزاوي)، وكان عند السلطان (سليم شاه) وبقي عنده في (إسطنبول) مدة ستة أشهر، فلما عاد إلى (مصر)، واستقر في داره أخذ يشيع بين الناس أن السلطان (سليم شاه) قد تغير خاطره على الخليفة (محمد المتوكل على الله)، وأنه قد أخرجه من عاصمته (إسطنبول) على صورة غير مرضية، وأنه قد نفاه إلى مكان يدعى (السبع قلّيات)، وكان هذا المكان هو موضع أموال السلطان وتحفه، وذلك لكون هذا المكان حصين جدًّا، وقد اختلف في سبب تغير خاطر السلطان على الخليفة على عدة أوجه هي:

الوجه الأول: أن أولاد ابن عمه (خليل) رافعوه كما قلنا سابقًا بسبب إقطاع الخليفة والخلافة، وأن يعطيهم حقهم وهو الثلث على أن يأخذ هو الثلثين، فأبى من ذلك، فحدث ما حدث من أمر المرافعة أمام السلطان.

الوجه الثاني: أن الخليفة قد طاش عقله في (إسطنبول) وصار ينهم من العيش الرغيد جهارًا، وقام بشراء الجواري اللاتي يضربن له على الجنك، وقد فتك في الانبساط والانشراح غاية الفتك، فبلغ

---

215 - ص (272) – المصدر السابق.

ذلك السلطان فلم يعجبه ذلك، فتغير خاطره عليه، وكانت الوزراء مساعدين للأولاد (خليل) على الخليفة، وقد تمكنوا من حط قدره عند السلطان.

الوجه الثالث: أن هناك جماعة كثيرة من أهل (مصر) ممن أتوا إلى (إسطنبول) بدأوا يهربوا من هناك، منهم (بدر الدين) ابن القاضي (كمال الدين) ناظر الجيش، وتسحب آخرون من الأعيان، فخشت الوزراء أن يهرب الخليفة (المتوكل) من (إسطنبول) فقبضوا عليه ونفوه إلى المكان المذكور.(216)

*وفاة السلطان (سليم الأول) وتولي ابنه (سليمان) وعفوه عن الخليفة:

وقد تولى السلطان (سليمان) بعد وفاة أبيه السلطان (سليم شاه) في يوم الأحد (ثاني عشر من شهر شوال من سنة 926هـ)، وهو التاسع من سلاطين (بني عثمان)، والجدير بالذكر أن الخليفة (محمد المتوكل على الله الثالث) قد أرسل خطابًا إلى أبيه أمير المؤمنين (أبى الصبر يعقوب) يخبره فيه بوفاة السلطان (سليم) فقال فيه: «إن السلطان (سليم شاه) خرج يتصيد فرد من الصيد وهو متوعك في جسده، وقد طلعت له فرخة جمرة فتألم لها ولزم الفراش أيامًا، وثقل في المرض واشتد عليه الأمر جدًّا، فمات في يوم الخميس (التاسع من شوال سنة 926 هـ)، فلما مات كتم موته من العسكر فأقام ثلاثة أيام، حتى حضر ولده (سليمان).

---

216 - ص (317) وص (318) – المصدر السابق.

(السلطان سليم الأول)

ولما تولى السلطان (سليمان) السلطنة وجلس على سرير الملك أظهر العدل في الرعية، وأرسل يطلب حضور الخليفة من (السبع قلّيات)، وهو المكان الذي سجنه فيه أبوه السلطان (سليم شاه) فأحضر الخليفة إلى العاصمة (إسطنبول) ورتب له مرتبًا في كل يوم كان مقداره (ستون درهما) !!.[217]

*وفاة الخليفة السابق (يعقوب) في (مصر):

وحدث أن توفي أمير المؤمنين (المستمسك بالله أبي الصبر يعقوب) والد الخليفة المنفي في (إسطنبول)، وكانت وفاته في يوم الخميس (التاسع عشر من شهر ربيع الآخر سنة 927 ه) وهو ابن الخليفة أمير المؤمنين (عبد العزيز المتوكل على الله الثاني)، وقد ولد في سنة (إحدى وخمسين وثمانمائة من الهجرة)، وكانت أمه تدعى (آمنة)،

217 - ص (352) وص (353) – المصدر السابق.

وهـي ابنـة أمـير المؤمنـين (أبي الربيـع سـليمان بن محمـد المتـوكل على الله الأول)، فهـو بذلـك (هاشـمي) الأبويـن، وكان ريسًـا حشـمًا دينًـا خيرًا صالحًـا لـين الجانـب متواضعًـا، ولي أمـر الخلافـة (الاسـمية) في دولـة السـلطان (النـاصر محمد بـن الأشرف قايتبـاي) وأقام بالخلافـة (إحدى عـشرة سـنة ونصف السـنة)، وقد بايـع طوال مدتـه في الخلافـة (أربعة) مـن السـلاطين المماليـك، ثـم صرف مـن الخلافة (عـزل نفسـه) في دولة السـلطان (قانصـوه الغـوري)، وقـد عهد إلى ولـده بأمر الخلافـة (محمد المتـوكل عـلى الله الثالـث)، وقد قاسـى شـدائد ومحنًا كثـيرة، وقد حصل لـه ضعـف بـصر ثـم كـف بـصره كليـة في أواخـر عمـره، وكان أميًّـا لا يقـرأ ولا يكتـب، وكان رجـلًا مباركًا لم يعهـد لـه صبـوه قـط، ومـات ولـه مـن العمـر نحـو (ثمانـين) سـنة أو دون ذلـك، وكان ولـده الخليفة (محمـد) غائبًـا في (إسـطنبول) نفـي هنـاك مـع مـن نفاهـم السـلطان العثـماني (سـليم شـاه الأول)، وقـد صـلى عليـه قضـاة القضـاة وبعـض الأمـراء، فصلـوا عليه ودفن عنـد أقاربه بالمشـهد (النفيسي)، وكان يوم دفنـه يـوم الجمعـة (العشريـن من ربيـع الآخـر سـنة 927 ه).[218]

*مناقشـة ودحـض الرأي القائـل أن آخر الخلفاء العباسـيين (بالقاهـرة) قـد تنازل عـن لقب الخلافـة للعثمانيين:

والآن وبعـد اسـتعراض حيـاة الخليفـة العبـاسي الأخـير مـن وقـت توليـه للخلافـة في (القاهـرة) إلى وقـت أسره ونفيـه إلى عاصمـة الدولـة العثمانية (إسـطنبول)، سـوف نناقش مسـألة مهمة جدًّا مازالـت تُتداول وتُناقـش، ألا وهـي تنـازل الخليفـة العبـاسي (أبي عبـد الله محمـد المتوكل عـلى الله الثالـث) عن لقـب الخلافة لسـلاطين (بني عثـمان)، وإعطاؤهم

218 - ص (389) وص (390) – المصدر السابق

الأثـار النبويـة، ويكون بذلك سـلاطين (بني عثـمان) هم الخلفـاء الجدد للدولـة الإسـلامية، فهـل فعـلًا حـدث هـذا التنـازل، أم إنـه مجـرد رأي قائـم عـلى فهـم خاطـئ للأحداث؟ هـذا ما سـوف نناقشـه الآن.

*القائلون بهذا الرأي والذي يرى تنازل الخليفة (محمد المتوكل العباسي) عن الخلافة لبني (عثمان):

الأول: المستشرق الإنجليزي (ستانلي لين بول):

وهـو صاحـب كتاب تاريـخ (مصر في العصـور الوسـطى) وقد ذكر في كتابـه هـذه الحادثـة، فقـال: «بعـد أن تـولى (طومـان باي) السـلطنة، وهزيمتـه في معركـة (الريدانيـة) يـوم (22 ينايـر سـنة 1517م) دخـل السـلطان (سـليم شـاه) بنفسـه إلى ((القاهرة)) في يـوم (26 يناير) ومعه الخليفـة الأسـير (المتوكل عـلى الله الثالـث)، وبعدها قبض عـلى (طومان بـاي) وشـنقه عـلى بـاب (زويلـة) يـوم (14 أبريـل)، وبعدهـا تـم نقل الخليفـة (المتوكل) آخر الخلفاء العباسـيين في (مصر) إلى (القسـطنطينية)، وظـل أسـيرًا هنـاك إلى أن تـولى السـلطان (سـليمان القانـوني)، والـذي أطلـق سراحه وسـمح لـه بالعـودة إلى (القاهـرة)، وتُوفي فيهـا بعد وقت قصـير، وذلـك بعـد أن ورث لقـب الخلافـة للسـلطان العثـماني، وتنازل لـه عن حقوقـه كخليفـة»[219].

219- ص (631) وص (632) – تاريخ مصر في العصور الوسطى – ستانلي لين بول – ترجمة وتحقيق وتعليق أحمد سالم سالم – مراجعة وتقديم د. أيمن فؤاد السيد – طبعة (2015م) – الهيئة العامة المصرية للكتاب – (القاهرة).

الثاني: الأستاذ (محمد فريد) السياسي المصري وزميل السياسي الكبير (مصطفى كامل):

وهو صاحب كتاب (تاريخ الدولة العلية العثمانية) وقد ذكر في كتابه هذا رأيًا مشابهًا لرأي المستشرق والمؤرخ الإنجليزي (ستانلي لين بول) فيقول: «ومما جعل لفتح وادي النيل (يقصد دخول سليم شاه العثماني) أهمية تاريخية عظمى أن (محمد المتوكل على الله) آخر ذرية العباسية، الذي حضر أجداده (لمصر) بعد سقوط مدينة (بغداد) مقر خلافة بني العباس في قبضة (هولاكو خان) التتري سنة (656 ه) الموافقة لسنة (1091م)، وكانت له الخلافة (بمصر) اسمًا فقط، وقد تنازل عن حقه في الخلافة الإسلامية إلى السلطان (سليم العثماني)، وسلَّمه الآثار النبوية الشريفة، وهي (البيرق (العلم)، والسيف، والبردة) وسلَّمه أيضًا مفاتيح الحرمين الشريفين، ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني أميرًا للمؤمنين، وخليفة رب العالمين اسمًا وفعلًا».[220]

الثالث: المؤرخ الكبير (محمود شاكر):

وينتصر أيضًا لهذا الرأي الأستاذ والمؤرخ الكبير (محمود شاكر) فقد ذكر في كتابه (التاريخ الإسلامي – الجزء الثامن – العهد العثماني) الآتي: «عندما بدأ العهد (العثماني) عام (923 ه) أو عندما بدأ عهد الخلافة (العثمانية) وهو انتصار السلطان (سليم العثماني) على المماليك في (الشام) و(مصر)، وقضى على سلطانهم، وبويع بالخلافة بعد أن تنازل له الخليفة العباسي المقيم (بالقاهرة)، والذي ليس له

220 - **ص (174) – تاريخ الدولة العلية العثمانية – محمد فريد – طبعة (2009م) – مكتبة الآداب – (القاهرة).**

من الأمر سوى الاسم، وكل شيء بيد السلاطين المماليك، وعندها أرسل (بركات الثاني بن محمد) شريف (مكة) ابنه (محمد أبا نمي) إلى (القاهرة) فأعلن للسلطان (سليم) الطاعة، وقبل الخضوع له، وسلم له مفاتيح الحرمين الشريفين دلالة على ذلك الخضوع، فرضي السلطان (سليم) ذلك منه، وأقر أباه على شرافة (مكة) أو على ملك (الحجاز)». [221]

فهذه أقوى الآراء التي تقول بتنازل الخليفة العباسي (محمد المتوكل على الله الثالث) عن لقب الخلافة لسلطان بني (عثمان)، وبهذا التنازل تنتهي نهائيًّا الخلافة العباسية في العالم الإسلامي، لتبدأ خلافة أخرى جديدة وغير (قرشية) أو حتى عربية.

*دحض ونقض هذه الآراء:

والأن نبدأ بنقض هذه الأقوال، فعلى الرغم من قوتها وحجيتها، إلا أني أعتقد أن انتقال لقب الخلافة من الخليفة (محمد المتوكل على الله الثالث) إلى سلاطين بني (عثمان) لم يحدث على هذا النحو الذي قال به أنصار هذا الرأي، وذلك لعدة أسباب هي:

الأول: أن المؤرخين المعاصرين لدخول (سليم شاه) إلى (مصر) وأشهرهم (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي)، و(شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي توفي سنة 953 ه)، فكلاهما كان معاصرًا لأواخر عهد المماليك وبداية العهد العثماني لبلاد (الشام) و(مصر) لم يذكرا في كتابيهما أي شيء عن قصة تنازل الخليفة العباسي

221 - ص (242) وص (243) – التاريخ الإسلامي – محمود شاكر – العهد العثماني – الجزء الثامن – الطبعة الرابعة (1421هـ/ 2000م) – المكتب الإسلامي – (بيروت – دمشق – عمان).

(محمد المتوكل على الله الثالث) عن لقب الخلافة إلى السلطان العثماني (سليم شاه الأول)، وكذلك لم يذكر المؤرخ (ابن إياس) قصة قيام شريف (مكة) بإعطاء مفتاح الحرمين الشريفين إلى السلطان (سليم الأول)، وإنما ذكر مجيء ابن شريف (مكة) والذي يُدعى (محمد النمي) وأعلن طاعته للسلطان (سليم) فأقره أميرًا على (مكة) بدلا من الباشا الذي كان فيها، وأضاف إليه حسبتها، ولم يذكر قصة مفاتيح الحرمين، وكيف له أن يأخذ المفاتيح وهي في يد (بني شيبة) منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - فكيف لم يذكر (ابن إياس) هذا الحدث الجلل، وهو من الأحداث المهمة التي لا تفوت مؤرخًا عاديًّا فضلًا عن مثل قامة هذين المؤرخين العملاقين.

الثاني: وهو مرتبط بالسبب الأول، فقد استعرضت عامدًا سيرة (محمد المتوكل على الله) من كتاب تاريخ (ابن إياس) والمعروف (ببدائع الزهور في وقائع الدهور) كي أثبت الحالة التي وصل إليها الخلفاء العباسيون على يد المماليك (بالقاهرة)، فقد كانوا يعاملونهم معاملة العامة من الناس، أو على أفضل الحالات كأمير عادي من أمراء المماليك، فقد ذكر (ابن إياس) كيفية تولي الخليفة (المتوكل على الله) الخلافة، وأنه لابد من موافقة السلطان على هذا التولي، وأن من حق السلطان أن يرى الأصلح لتولي منصب الخلافة من أفراد آل البيت العباسي، ثم ذكر كيفية خروج الخليفة مع السلطان إلى حرب العثمانيين، وكيفية هزيمة السلطان (قانصوه الغوري) وأسر الخليفة ورحيله إلى (إسطنبول)، ثم دخوله مع السلطان العثماني (سليم) إلى (مصر)، ثم رحيله

مـرة ثانيـة إلى (إسـطنبول) وإقامتـه هنـاك إلى أن تـوفي السـلطان (سـليم) وتـولي السـلطان (سـليمان)، ولم يذكـر (ابـن إيـاس) ولا لمـرة واحـدة في ذكـره لـكل هـذه الأحـداث الجسـام قيـام السـلطان العثـماني بإجبـار الخليفـة عـلى التنـازل للقـب الخلافـة، أو قيـام الخليفـة بالتنازل عنـه طواعيـة، وقـد ذكـر أن الخليفـة قـد أرسـل إلى أبيـه (المستمسـك بـالله) خطابًـا يذكـر فيـه كيفيـة وفـاة السـلطان العثـماني (سـليم)، فلـو حـدث هـذا التنـازل لذكـره الخليفـة في خطابـه المذكـور.

الثالـث: أن المـؤرخ (شـمس الديـن محمـد بـن عـلي الطولـوني) قـد ذكـر كتابـه (مفاكهـة الخـلان في حـوادث الزمـان) حـوادث التاريـخ سـنة (924 ه) وسـنة (936 ه) كالآتي:

1-سنة (أربع وعشرين وتسعمائة):

استهلت والخليفـة أمـير المؤمنين (المتـوكل على الله أبو عبـد الله محمد بن المستمسـك بالله أبي يعقوب العبـاسي).[222]

2-سنة (ست وعشرين وتسعمائة):

اسـتهلت والخليفـة أمـير المؤمنـين (المتـوكل عـلى الله أبـو عبـد الله محمـد بـن المستمسـك بـالله أبي الصـبر يعقـوب العبـاسي) وهـو مقيـم (بإسـطنبول) وسـلطان (مـصر) و(الشـام) هـو (أبـو النـصر سـليم بـن عثـمان خـان).[223]

---

222 - ص (378) – مفاكهة الخلان في حوادث الزمان – شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي المتوفى سنة (953هـ) – وضع حواشيه خليل المنصور – الطبعة الأولى (1418هـ / 1998م) – دار الكتب العلمية – (بيروت – لبنان).

223 - ص (388) – المصدر السابق.

فمتى حصل هذا التنازل عن لقب الخلافة من قبل الخليفة (المتوكل على الله) إلى السلطان (سليم) إذ أنه حتى سنة (926 ه) وهي سنة وفاة السلطان (سليم شاه) ما يزال حاملًا للقب الخلافة.

الرابع: أن السلطان العثماني (سليم شاه الأول) كان يخطب له على منابر (الشام) و(مصر) بهذا الدعاء التالي:

«وانصر اللهم السلطان ابن السلطان، ملك البَرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر (سليم شاه) » إلى آخر الدعاء، هذا بالإضافة أن السلطان العثماني (سليم شاه) كان قد أطلق على نفسه لقب الخلافة (خليفة الله في طول الأرض وعرضها) منذ سنة (920 ه / 1514م) أي بعد الانتصارات الحربية الساحقة التي حققها في بلاد (أوروبا)، وبعد انتصاره العظيم على شاه (إيران) الشاه (إسماعيل الصفوي الشيعي) فقد انتصر عليه في معركة كبيرة هي معركة (تشالديران أو جالديران) وذلك في (23 أغسطس عام 920 ه / 1514م)، أي: قبل فتحه لبلاد (الشام) و(مصر) وإخضاعه بلاد (الحجاز) لنفوذه، أي: أن السلطان (سليم) فعليًّا قد تلقب بلقب الخلافة قبل أن يرى الخليفة العباسي (المتوكل على الله)، ولم يكن في حاجة إلى تنازل الخليفة أصلًا عن لقبه. [224]

الخامس: أن الروايات التي ذكرها كل من (ابن إياس) و(ابن الطولوني) عن إقامة الخليفة تحت الترسيم في (إسطنبول) ثم عودته

---

224 - ص (174) – الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط) – د. علي محمد الصلابي – الطبعة الأولى (1426هـ / 2005م) – مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة – (مصر).

إلى (القاهـرة) ثـم عودتـه مـرة أخـرى لم تذكـر ولا لمـرة واحـدة تخـلي الخليفـة عـن لقبه، بـل عـلى العكس، فقـد ذكرنا في سـيرته أن السـلطان (طومـان بـاي) عندمـا تـولى السـلطنة تـولى مبايعتـه والـد الخليفـة وهو الخليفة السـابق (المستمسـك بـالله يعقوب) وأن الإشـاعات قد سرت في (القاهـرة) أن أبنـاء عـم الخليفـة وهـم أولاد (خليل) قد يـولى أحد منهما الخلافـة وهمـا (أبو بكـر) و(أحمد)، ولكـن عندمـا أظهر الخليفة السـابق (يعقـوب) وكالـة ولـده الخليفـة (محمد) لـه في تـولي مهام الخلافـة كلها بطلـت وتوقفـت هـذه الإشـاعات، وكذلك عند عـودة الخليفـة (محمد) مـع السـلطان (سـليم) إلى (مـصر) لم يحـدث أمـر التنـازل عـن لقـب الخلافـة هذا.

السـادس: تضـارب أقـول المنتصريـن لـرأي تنـازل الخليفـة (محمـد المتـوكل عـلى الله الثالـث) عـن لقبـه إلى السـلطان العثـماني، فالمسـتشرق الإنجليـزي (سـتانلي لـين بـول) يجعـل تنـازل الخليفـة عـن لقبـه إلى السـلطان الجديـد (سـليمان القانـوني)، بينما يجعله الأسـتاذ (محمـد فريد) والمؤرخ (محمود شـاكر) للسـلطان الفاتح (سـليم شـاه)، بينـما أثبتنا أن هـذا التنـازل لم يحـدث لكليهـما.

السـابع: القـول بأن الخليفـة قد تنازل عـن الخلافة وأعطى السـلطان الآثـار النبويـة الشريفـة (البـيرق، والسـيف، والـبردة) وأعطـاه أيضًـا مفاتيـح الحرمـين الشريفـين كلها مجـرد تكهنـات وادعـاءات، والحقيقية أن مفاتيـح الحرمـين الشريفـين لم تكن أبدًا بيـد الخلفاء منـذ زمن الخلافة الراشـدة، وحتـى زمن الخلافـة العباسـية في (القاهرة)، بل هـي في أيدي أبنـاء (بني شـيبة) منـذ زمـن فتـح (مكـة) إلى يومنا هـذا، وهكـذا نرى تضـارب الروايـات التـي ينقلهـا كل من المناصريـن لرأي تنـازل الخليفة

العباسي للسلطان العثماني وإعطائه الأثار النبوية، وبطلان إعطائه مفاتيح الحرمين الشريفين.

*خلاصة القول:

وخلاصة القول الذي أنتهي إليه هو: أن حقيقة انتقال الخلافة من (العباسيين) إلى (العثمانيين) قد حدث فعلًا، ولكن بشكل تلقائي وسلمي، ودون حدوث تنازل قهري من قبل آخر الخلفاء العباسيين (محمد المتوكل على الله الثالث)، فقد أحس الخليفة ومعه جميع البيت العباسي أن السلاطين العثمانيين ليسوا بحاجة إلى سند شرعي لحكمهم، فقد كانوا على عكس المماليك الذين لم يكونوا سوى أرقاء مجلوبين من بلاد وأصقاع شتى لا يُعرف لهم نسب صريح أحرار أولاد أحرار، هذا بالإضافة إلى أن العثمانيين قد كسبوا حب واحترام العالم الإسلامي والمسلمين أجمع لتصديهم لجيوش وأساطيل (البرتغاليين) و(الإسبان) والتي اجتاحت الشواطئ الإسلامية بعد سقوط آخر معاقل المسلمين في (الأندلس)، وهي مدينة (غرناطة)، بالإضافة إلى فتحهم لعاصمة الإمبراطورية البيزنطية (القسطنطينية) وامتداد فتوحهم في (أوروبا) إلى أسوار مدينة (فينا)، وبالتالي فلم يكن سلاطين بني (عثمان) في حاجة إلى إجبار الخليفة العباسي عن التنازل عن لقبه الخليفي، بل أعتقد أنه تنازل له طواعية وأعطاه الآثار النبوية الشريفة يحتفظ بها عنده في عاصمة الخلافة الجديدة (إسطنبول)، فقد كان الخليفة العباسي صورة لا أكثر ولا أقل، وبالتالي فليس له حاجة في لقب الخلافة، ويكفي احتفاظه بلقب (سيد) أو شريف، فهو أفضل له من الناحية الروحية وأكثر احتراما.

(صورة آخر سلاطين المماليك طومان باي وهو مأسور على جمل)

(صورة السلطان طومان باي بريشة الرسام الإيطالي باولو جيوفيو)

الدولة العباسية
خلفاء بني العباس في القاهرة
المستنصر بالله الثاني (1261 – 1262)
الحاكم بأمر الله الأول (1262 – 1302)
المستكفي بالله الثاني (1302 – 1340)
الواثق بالله الثاني (1340 – 1341)
الحاكم بأمر الله الثاني (1341 – 1352)
المعتضد بالله الثاني (1352 – 1362)
المتوكل على الله الأول (1362 – 1377)
المستعصم بالله الثاني (1377 – 1377)
المتوكل على الله الأول* (1377 – 1383)
الواثق بالله الثالث (1383 – 1386)
المستعصم بالله الثاني* (1386 – 1389)
المتوكل على الله الأول* (1389 – 1406)
المستعين بالله الثاني (1406 – 1414)
المعتضد بالله الثالث (1414 – 1441)
المستكفي بالله الثالث (1441 – 1451)
القائم بأمر الله الثاني (1451 – 1455)
المستنجد بالله الثاني (1455 – 1479)
المتوكل على الله الثاني (1479 – 1497)
المستمسك بالله (1497 – 1508)
المتوكل على الله الثالث (1508 – 1516)
المستمسك بالله* (1516 – 1517)
المتوكل على الله الثالث* (1517 – 1517)
علامة (*): تعني فترة خلافة أخرى قام بها الخليفة.

قائمة المصادر والمراجع

1. راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية – محمد بن علي بن سليمان الراوندي – ترجمة إبراهيم أيمن الشواربي، وعبد المنعم محمد حسنين، وفؤاد عبد المعطي الصياد – طبعة (2005م) – المركز القومي للترجمة – (الجيزة – القاهرة).

2. تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى – د. سعيد عبد الفاتح عاشور – طبعة (1991م) – دار النهضة العربية للطباعة والنشر – (بيروت – لبنان).

3. الاستيطان الصليبي في فلسطين (تاريخ الحملة إلى بيت المقدس 1095م – 1127م) – تأليف فوشيه الشارتري – ترجمة ودراسة وتعليق د. قاسم عبده قاسم – الطبعة الأولى (1422ه / 2001م) – طبعة دار الشروق – (القاهرة).

4. نصارى الهلال الخصيب والحملة الصليبية الأولى – د. جمعة محمد مصطفى الجندي – دراسات تاريخية (تصدر عن قسم التاريخ – كلية التربية – جامعة عين شمس) – العدد الأول – (1423ه / 2001م).

5. السلام الصليبي (الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي الغربي) – تومس ماستناك – ترجمة بشير السباعي – الطبعة الثانية (2009م) – المركز القومي للترجمة – (القاهرة).

6. مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي) – للإمام أبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي الشافعي – تصنيف الدكتور محمد موسى الشريف – الطبعة الثالثة (1424ه/ 2003م) – دار الأندلس الخضراء – المملكة العربية السعودية (جدة).

7. الاعتبار – أسامة بن منقذ – دار الهلال – طبعة (2002م) – (القاهرة).

8. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – الجزء الثالث – تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد – وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة إحياء التراث) – طبعة (1429ه/ 2008م) – (القاهرة).

9. المنتقى من أخبار مصر – ابن ميسر تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب – انتقاه تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – قابله بأصوله وأعده للنشر د. أيمن فؤاد السيد – طبعة (1436ه/ 2014م) – الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

10. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي – الجزء الخامس – الطبعة الثانية (1426ه/ 2005م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

11. تاريخ الشيعة (السياسي، الثقافي، الديني) – تأليف العلامة الشيخ سليمان ظاهر عضو المجمع العلمي العربي بدمشق – حققه وضبطه عبد الله سليمان ظاهر – المجلد الأول – الطبعة الأولى (1422ه / 2002م) – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – (بيروت – لبنان).

12. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية – تأليف محمد بن علي بن طباطبا والمعروف بابن الطقطقا – دار صادر – (بيروت).

13. السلوك لمعرفة دول الملوك – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – الجزء الأول (القسم الثاني) – صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة – الطبعة الثالثة (1430ه / 2009م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

-السلوك لمعرفة دول الملوك – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – الجزء الثالث (القسم الثالث) – حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة لقاهرة – الطبعة الثانية (1430ه / 2009م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

-السلوك لمعرفة دول الملوك – الجزء الرابع (القسم الثاني) – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة – الطبعة الرابعة (1436ه / 2014م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

14. بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء – لأبي الحسن الروحي علي بن أبي عبد الله محمد بن أبي السرور بن عبد الرحمن بن عبد العزيز – تحقيق عماد هلال، ومحمد حسني عبد الرحمن، وسعاد محمود عبد الستار – إشراف ومراجعة الدكتور أيمن فؤاد السيد – طبعة (1435هـ/ 2014م) – وزارة الأوقاف (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) – مركز السيرة والسنة – إدارة وتحقيق المخطوطات وكتب التراث – (جمهورية مصر العربية).

15. تاريخ الخلفاء – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي – الطبعة الأولى (1422هـ/ 2001م) – مكتبة مصر – (القاهرة)

16. مختصر كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – شهاب الدين ابن فضل الله العمري (ت 749هـ) – الجزء الثاني – اختصار وتقديم دكتور عامر النجار – الطبعة الأولى (2012م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – (القاهرة).

17. طبقات ناصري – تأليف شيخ الإسلام وقاضي القضاة أبي عمر منهاج الدين عثمان المعروف بالقاضي منهاج السراج الجوزجاني – الجزء الثاني – كتبه في دلهي بالهند عام (658هـ) – ترجمة وتقديم ملكه علي التركي – الطبعة الأولى (2012م) – المركز القومي للترجمة – (القاهرة).

18. الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة – علي باشا مبارك – الجزء السادس عشر – إعداد ومراجعة ومتابعة خديجة محمد كامل – طبعة (1435هـ/ 2014م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

19. الأخبار السنية في الحروب الصليبية - تأليف سيد علي الحريري - طبعة (1317هـ/ 1899م) - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - (القاهرة).

20. البداية والنهاية - لشيخ الإسلام الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير - المجلد السادس - الطبعة الأولى (1412هـ/ 1991م) - دار الغد العربي - (القاهرة).

21. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين - بهاء الدين بن شداد - تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - الطبعة الثانية (1415هـ/ 1999م) - الناشر مكتبة الخانجي - (القاهرة).

22. الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون) - الدكتور السيد الباز العريني - دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

23. الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي - إعداد فريق البحوث والدراسات الإسلامية (فدا) - طبعة سنة (2000م) - مكتبة علاء الدين - (الإسكندرية).

24. الأيوبيون بعد صلاح الدين والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة - الدكتور علي محمد الصلابي - مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة - الطبعة الأولى (1429هـ/ 2008م) - (القاهرة).

25. ديوان ابن رشيق القيرواني - شرح د. صلاح الدين الهواري، وهدى عودة - الطبعة الأولى (1416هـ/ 1996م) - دار الجيل - (بيروت).

26. المغرب في حلى المغرب - أبي المحاسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت 685ه) - الجزء الأول - حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف - الطبعة الخامسة (2018م) - دار المعارف - (القاهرة).

-المغرب في حلى المغرب - أبي المحاسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت 685ه) - الجزء الثاني - حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف - الطبعة الخامسة (2018م) - دار المعارف - (القاهرة).

27. طبقات الأمم - القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت 462ه / 1070م) - تحقيق وتعليق دكتور حسين مؤنس - الطبعة الثالثة (2019 م) - دار المعارف - (القاهرة).

28. الحلة السيراء - لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي والمعروف بابن الأبار - الجزء الثاني - حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس - الطبعة الثالثة (2013م) - دار المعارف - (القاهرة).

29. القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500 - 1100م) - تأليف أرشيبالد. ر. لويس - ترجمة أحمد محمد عيسى - مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال - مكتبة نهضة مصر.

30. أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام - لذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب - تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال - طبعة (1432ه / 2011م) - مكتبة الثقافة الدينية - (القاهرة).

31. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – للحميدي أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي – طبعة (2008م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – (القاهرة).

32. قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام – الدكتور أحمد مختار العبادي – الطبعة الأولى (1406ه/ 1989م) – دار النهضة العربية للنشر – (بيروت).

33. تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر – العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت 808ه) – الجزء الرابع – اعتنى به عادل بن سعد – طبعة (2006م) – دار الكتب العلمية – (بيروت – لبنان).

34. المستطرف في كل فن مستظرف – شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (ت 850ه) – الجزء الأول – تحقيق محمد خير طعمة الحلبي – الطبعة الخامسة (1429ه/ 2008م) – دار المعرفة – (بيروت).

35. سراج الملوك – لأبي بكر بن الوليد الفهري الطرطوشي – المجلد الأول – حققه وضبطه وعلق ووضع فهارسه – الطبعة الأولى (1414ه/ 1994م) – الدار المصرية اللبنانية – (القاهرة).

36. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك مدينة فاس – للشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، وقيل: لأبي محمد بن صالح بن عبد الحليم الغرناطي – تحقيق كارل بوحسن فورنبرغ – الطبعة الأولى (2014م) – مكتبة الثقافة الدينية – (القاهرة).

37. معالم تاريخ المغرب والأندلس - الدكتور حسين مؤنس - الطبعة السابعة (1424ه / 2004م) - دار الرشاد - (جمهورية مصر العربية).

38. الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة - ابن السماك العاملي المالقي الغرناطي - دراسة وتحقيق د. محمود علي مكي - الطبعة الأولى (1424ه / 2004م) - مكتبة الثقافة الدينية - (القاهرة).

39. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان - الجزء الأول - تحقيق دكتور إحسان عباس - طبعة (1398ه / 1978م) - دار صادر للنشر والتوزيع - (بيروت).

40. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - بدر الدين محمود بن العيني - الجزء الأول (العصر الأيوبي) - تحقيق ودراسة دكتور محمود رزق محمود - طبعة (1423ه / 2003م) - دار الكتب والوثائق القومية - (القاهرة).

41. مضمار الحقائق وسر الخلائق - تأليف صاحب (حماة) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي (ت 617ه) - تحقيق د. حسن حبشي، أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي والوسيط بجامعة عين شمس - الطبعة الثانية (2007م) - الهيئة العامة المصرية للكتاب - (القاهرة).

42. المختار من الكامل في التاريخ - لابن الأثير - قصة صلاح الدين الأيوبي - طبعة (1998م) - مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - (القاهرة).

43. تمثيليات خيال الظل – الدكتور علي إبراهيم أبو زيد – الطبعة الخامسة – دار المعارف – (القاهرة).

44. التبر المسبوك في ذيل السلوك – تأليف محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ / 1496م) – الجزء الثالث (854هـ – 855هـ) – مراجعة أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور – تحقيق د. لبيبة إبراهيم مصطفى، وأ. نجوى مصطفى كامل – طبعة (1426هـ / 2005م) – دار الكتب والوثائق القومية – (القاهرة).

45. قبرس والحروب الصليبية – د. سعيد عبد الفتاح عاشور – الطبعة الثانية (2002م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – (القاهرة).

46. البلدان وفتوحها وأحكامها – تأليف أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري – تحقيق أيمن محمد عرفة – المكتبة التوفيقية – (القاهرة).

47. محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامي – تأليف الدكتورة سعاد ماهر – طبعة (1386هـ / 1966م) – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – (القاهرة).

48. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر المملوكي) – بدر الدين محمود بن العيني – تحقيق عبد الرازق الطنطاوي القرموط – مركز الزهراء للإعلام العربي – (القاهرة).

49. مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة – يوسف بن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبي المحاسن – المجلد الثاني

- تحقيـق ودراسـة وتعليـق أ. د. نبيـل محمـد عبـد العزيـز أحمـد - الطبعـة الثانيـة (1433هـ/ 2012م) - دار الكتـب والوثائـق القوميـة - (القاهـرة).

50. عـصر سـلاطين المماليـك ونتاجـه العلمـي والأدبي - محمـود رزق سـليم - المجلـد الأول (وهـو القسـم الأول مـن الجـزء الأول) - الطبعـة الثانيـة (1381هـ/ 1962م) - مكتبـة الآداب ومطبعتهـا بالجماميـز - المطبعـة النموذجيـة - (جمهوريـة مـصر العربيـة).

51. بدائـع الزهـور في وقائـع الدهـور - تأليـف محمـد بـن أحمـد بـن إيـاس الحنفـي - الجـزء الرابـع (مـن سـنة 906هـ إلى سـنة 921هـ) - حققهـا وكتـب لهـا المقدمـة والفهارس محمـد مصطفـى - الطبعـة الثالثة (1429هـ/ 2008م) - دار الكتـب والوثائـق القوميـة - (القاهـرة).

-بدائـع الزهـور في وقائـع الدهـور - تأليـف محمـد بـن أحمـد بـن إيـاس الحنفـي - الجـزء الخامـس (مـن سـنة 922هـ إلى سـنة 928هـ) - حققهـا وكتـب لهـا المقدمـة والفهـارس محمـد مصطفـى - الطبعـة الثالثـة (1429هـ/ 2008م) - دار الكتـب والوثائـق القوميـة - (القاهـرة).

52. تاريـخ مـصر في العصـور الوسـطى - تأليـف سـتانلي لـين بـول - ترجمـة وتحقيـق وتعليـق أحمـد سـالم سـالم - مراجعـة وتقديـم د. أيمـن فـؤاد السـيد - طبعـة (2015م) - الهيئـة العامـة المصريـة للكتـاب - (القاهـرة).

53. تاريـخ الدولـة العليـة العثمانيـة - محمـد فريـد - طبعـة (2009م) - مكتبـة الآداب - (القاهـرة).

54. التاريخ الإسلامي – محمود شاكر – العهد العثماني – الجزء الثامن – الطبعة الرابعة (1421ه / 2000م) – المكتب الإسلامي – (بيروت – دمشق – عمان).

55. مفاكهة الخلان في حوادث الزمان – تأليف شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي المتوفي سنة (953ه) – وضع حواشيه خليل منصور – الطبعة الأولى (1418ه / 1998م) – دار الكتب العلمية – (بيروت – لبنان).

56. الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط) – د. علي محمد الصلابي – الطبعة الأولى (1426ه / 2005م) – مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة – (مصر).

57. طبقات الأولياء – تأليف ابن الملقن سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد المصري – تحقيق نور الدين شريبة (من علماء الأزهر) – الطبعة الثالثة (1427ه / 2006م) – الناشر مكتبة الخانجي – (القاهرة).

58. نيل الأمل في ذيل الدول – الجزء الأول (القسم الثاني) (771ه – 800ه) – تأليف المؤرخ زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري الحنفي – تحقيق الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري – الطبعة الأولى (1422ه / 2002م) – المكتبة العصرية – (صيدا – بيروت).

59. الدليل الشافي على المنهل الصافي – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي المتوفى سنة (874ه) – الجزء الأول – تحقيق وتقديم فهيم محمود شلتوت – مركز البحث

العلمي وإحياء التراث الإسلامي – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية – (مكة المكرمة).

60. نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان – تأليف الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي – الجزء الأول – تحقيق الدكتور حسن حبشي – طبعة (1970م) – وزارة الثقافة (مركز تحقيق التراث) – مطبعة دار الكتب – (الجمهورية العربية المتحدة).

61. شذرات الذهب في أخبار من ذهب – تأليف ابن العماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الفكري الحنبلي الدمشقي (1032ه – 1089ه) – المجلد الثامن – حققه وعلق عليه محمد الأرناؤوط – وأشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط – الطبعة الأولى (1413ه/ 1992م) – دار ابن كثير – (دمشق – بيروت).

62. إنباء الغمر بأبناء العمر – تأليف شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني – الجزء الأول – تحقيق الدكتور حسن حبشي – طبعة (1389ه/ 1969م) – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة إحياء التراث الإسلامي) – (القاهرة).

63. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – تأليف شمس الدين والمعروف بالبشاري – الطبعة الثالثة (1421ه/ 1991م) – مكتبة مدبولي – (القاهرة).

64. تراجم إسلامية – محمد عبد الله عنان – طبعة (2000م) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – (القاهرة).

65. دولة الإسلام في الأندلس – العصر الثاني (دول ملوك الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي) – تأليف محمد عبد الله عنان – الطبعة الرابعة (1417ه/ 1997م) – الناشر مكتبة الخانجي – (القاهرة).

66. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران – لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي – طبعة (2015م) – الهيئة العامة لقصور الثقافة – (القاهرة).

67. الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر – تأليف عبد اللطيف البغدادي – طبعة (1286ه) – مطبعة وداي النيل.

68. إغاثة الأمة بكشف الغمة – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق وتعليق الدكتور جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ الإسلامي – الطبعة الأولى ((1420 ه/ 2000 م)) – مكتبة الثقافة الدينية – ((القاهرة)).

69. الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة – لمحيي الدين أبي الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري – حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور أيمن فؤاد السيد – الطبعة الأولى ((1417 ه/ 1996 م)) – أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع – ((بيروت – لبنان)).

70. نزهة المقلتين في أخبار الدولتين – لابن الطوير أبي محمد المرتضى عبد السلام بن الحسين القيسراني – أعاد بناءه وحققه وقدم له الدكتور أيمن فؤاد السيد – الطبعة الأولى ((1992 م)) – مؤسسة الريان ((بيروت – لبنان)).

الفهرس

خفايا العصور الوسطى...9

الفصل الأول: خفايا العصور الصليبية - التتارية

مقد مة : 13

هدنة الرب وسلام الرب:...14

خروج الحملة الصليبية الأولى سنة (1096 م) 15

البلاد الإسلامية قبيل مجيء الحملة الصليبية الأولى مباشرة 17

مذابح الصليبيين ضد المسلمين من خلال اعترافاتهم......... 18

مذبحة أنطاكية (491هـ/ 1098م)..18

مذبحة الجيش الإسلامي الذي حاول استرداد المدينة 21

حادثة التنصير الجبري لمن كان بقلعة (أنطاكية):........................23

مذبحة (البارة) و (معرة النعمان) وأكل لحوم المسلمين سنة (492هـ/1099 م).......24

*مذبحة مدينة (القدس) سنة (492 هـ/ 1099 م):........................26

*حرق جثث المسلمين بعد قتلهم:..27

فرسان الهيكل سفراء إبليس – عندما يكون القتل مقدسًا باسم الإله......31

أولًا: جماعة (أيمون) وتكوينه لجيش (السلم الشعبي):....................32

*الأعمال المتطرفة والمذابح التي قام بها القس (أيمون):...................33

*نهاية جيش (السلم الشعبي) 34
ثانيًا: جمعية الهيكليين (فرسان الهيكل) أو(فرسان المعبد)........................ 36
أولًا: القديس (برنار) من (كليرفو):... 38
ثانيًا: (جيجو) الرئيس الخامس لدير (لاجراند شارتروز):.......................... 41
ثالثًا: (إيلجيه) أسقف مقاطعة (أنجيه):.. 41
رابعًا: البابا (سليستين الثاني):... 41
نهاية جميعة (فرسان الهيكل) على يد ملك فرنسا (فيليب الرابع):............... 42
الزنا تحت عباءة الدين – نكاح الجهاد عند الصليبيين 44
نشر الدين عن طريق الدياثة - استخدام النساء كسلاح في الحروب الصليبية........ 48
(بييرديبوا) وفكرة استخدام النساء في الحروب ضد المسلمين:.................... 49
وقد ابتكر (بييرديبوا) نظام تعليمي منظم يقوم على النقاط التالية:................ 49
الفرنج وقلة نخوتهم وانعدام غيرتهم على نسائهم –
من خلال مذكرات الأمير أسامة بن منقذ.......................... 54
تحالف (الحلة) الشيعي الصليبي ضد العباسيي 58
أولا: مشاركة (نور الدولة دبيس بن مزيد) مع (أبي الحرث أرسلان البساسيري):..... 59
ثانيا: محاربة (دبيس الثاني بن صدقة) للخليفة العباسي (المسترشد بالله):........ 60
ثالثًا: الخيانة العظمى (لدبيس الثاني بن صدقة) بمحالفته للفرنج على المسلمين.. 60
*نهاية (دبيس الثاني بن صدقة):.. 63
تولي (صدقة الثاني بن دبيس الثاني) ومقتله:..................................... 63
نهاية إمارة (بني مزيد) في الحلة وانقراض دولتهم:................................ 64
*نكبة (علي بن دبيس الثاني) ووفاته:.. 65
الحلف الشيطاني بين الشيعة والتتار الوزير مؤيد الدين بن العلقمي
وإنهاء الخلافة العباسية.. 67
*ذكر حال الجيش المغولي وكيفية دخولهم (بغداد):................................ 70

أولًا: رأي المؤرخ (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي):..........73
ثانيًا: رأي المؤرخ (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي):..........................77
ثالثًا: رأي المؤرخ (أبي الحسن الروحي علي بن أبي عبد الله محمد):..................78
رابعًا: رأي المؤرخ والعالم (جلال الدين السيوطي):.................................. 79
خامسًا: رأي المؤرخ والجغرافي (شهاب الدين ابن فضل الله العمري):............81
سادسًا: رأي عالم ومؤرخ معاصر لنكبة (بغداد) وهو العالم
(شيخ الإسلام وقاضي القضاة أبو عمر منهاج الدين عثمان) والمعروف
بـ(القاضي منهاج السراج الجوزجاني):...82
*مصير ابن الخليفة (أبي بكر):...89
*مصير الخليفة العباسي (المستعصم بالله):...90
*مصير إحدى بنات الخليفة في الأسر:..92
*ذكر ما حل بالوزير الرافضي (مؤيد الدين أحمد بن محمد ابن العلقمي):............93

الفصل الثاني (خفايا العصر الفاطمي)

مقدمة :...97
(عندما تأتي الطعنة في الظهر- خيانة الفاطميين للمسلمين والإسلام............99
حملات الفاطميين على ديار الإسلام...102
حملة (بيت المقدس) سنة (491هـ)...102
ثانيا: تقاعس الوزير (الأفضل) عن جهاد ومحاربة الصليبيين........................103
ثالثا: وصف الخليفة (المستعلي بالله) من قبل المؤرخ المصري (أبو المحاسن):.....105
رابعا: وصف المؤرخ (أبو المحاسن) للخليفة (الآمر بأحكام الله):...................105
خذلان الفاطميين للأمة 107
أولًا: سقوط (عكا) سنة (497هـ/1103 م):..107
ثانيًا: سقوط (القدس) سنة (492هـ/1099 م):..112

هزائم الفاطميين – هزيمة الوزير (الأفضل) نموذجًا:.................... 114
القاهرة المعزية (يوتوبيا سوداء على الطراز الفاطمي) 116
مقدمة 116
دخول القائد (جوهر) بجيوشه (مصر).................................. 117
(القاهرة) العاصمة الجديدة.. 119
بناء (القاهرة).. 120
قدوم (المعز لدين الله) إلى مصر.................................... 121
تسمية (المعز) لمدينته الجديدة وسبب ذلك 122
تقسيم وتخطيط (القاهرة).. 124
بناء القصر (الشرقي الكبير).. 130
ثانيًا: سياسة الفاطميين تجاه أهل السنة في مصر.................... 132
مجاعة فاطمية في مصر المحروسة - الشدة المستنصرية
السنوات العجاف 137
بداية ظهور الفتنة أو الشدة (المستنصرية) وأسبابها 139
مظاهر المجاعة الي ضربت مصر.................................... 139
أشهر قصص المجاعة التي حدثت في مصر............................ 141
حال الخليفة (المستنصر) وأهل بيته.................................. 145
الخلاصة 147

الفصل الثالث: خفايا العصر الأيوبي

المقدمة:.. 153
قراقوش – المظلوم حيًا وميتًا.. 155
من هو قراقوش.. 156
أعمال قراقوش 156

أولًا: مصادرة خزائن الخلافة الفاطمية 156
ثانيًا: الأعمال المعمارية والتحصينية 157
استخدام قراقوش لأحجار الأهرام المهدمة 157
ثالثًا: حملة (بلاد اليمن) 159
رابعًا: عمارة مدينة (عكا) 160
خامسًا: مقاومة قراقوش لحصار التحالف الصليبي على (عكا) 161
*تسليم (عكا): 64
سادسًا: ولاية عدة مهام في عهد (العزيز عثمان) 166
سابعًا: الوصاية على السلطان (محمد بن العزيز) 167
ثامنًا: إتمام الأعمال المعمارية 170
وفاة قراقوش 170
ضياع القدس من جديد -
(بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور فريدريك الثاني)............... 172
مراسلة السلطان (الكامل) للإمبراطور (فريدريك الثاني) 175
قدوم الإمبراطور (فريدريك الثاني) سنة ((625هـ). 178
شروط الاتفاق بين السلطان (الكامل) والإمبراطور (فريدريك الثاني)............... 179
موقف المسلمين من توقيع هذه الاتفاقية 184
موقف البابا (جويجوريوس) والقوى الصليبية من الإمبراطور (فردريك الثاني).184
حطين الثانية – الخوارزميون يستردون القدس 187
من هم الخوارزميون 188
علاقة (علاء الدين محمد) بالخلافة العباسية 188
النزاع داخل البيت الأيوبي على السلطنة 190
قدوم الخوارزمية وتقديمهم النجدة للملك (الصالح نجم الدين أيوب) 191
الحرب مرة أخرى بين الخوارزمية وتحالف الصليبيين والبيت الأيوبي الخائن 194

حلفاء الأمس - أعداء اليوم (طرد الجيوش الخوارزمية من القدس)......196
الحرب مع الخوارزميين..197
مراسلة الخوارزمية للقائد (الأميركن الدين بيبرس)..................................197
مراسلة الخوارزمية لصاحب مدينة الكرك الملك (الناصر داود)................198
الملك (الصالح) وفك التحالف الخوارمي الأيوبي 199
هزيمة الجيوش الخوارزمية...199
قيام السلطان (الملك (الصالح نجم الدين أيوب) بزيارة بلاد الشام 201

الفصل الرابع

مقدمة :..205
العالم الذي طار بأفكاره – أبو القاسم عباس بن فرناس 207
محاكمة (عباس بن فرناس) واتهامه بالكفر..211
عباس بن فرناس ومحاولة طيرانه بين الحقيقة والتشويه ومحاولة سرقتها........211
سرقة وتشويه محاولة (عباس بن فرناس) للطيران 214
(مجاهد العامري – فارس ملوك الطوائف)..........................217
أصل (مجاهد العامري) واسمه..219
محبة (مجاهد العامري) للعلماء 220
(مجاهد العامري) و (أبو غالب) 220
العالم ابن الصفار أبو القاسم...221
العالم الطبيب أبو مروان بن زهر...221
أحمد بن رشيق أبو العباس الكاتب..222
الكاتب أبو بكر محمد بن قاسم أشكهباط...223
اللغوي أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأعمى..................................224
مصاهرة ملك إشبيلية المعتضد عباد لمجاهد العامري...................................224

جهاد مجاهد العامري في البحر المتوسط:........................227
أولًا: ضمه (جزر البليار الشرقيية) 227
ثانيًا: غزوه لجزيرة(سردينية) أو (سردانية)........................ 228
ثالثًا: غزوه لسواحل إيطاليا الغربية:........................228
رابعًا: غزواته لسواحل (أربونة) الفرنسي وساحل (برشلونة) الإسباني........................229
أولًا: تغير الأوضاع السياسية والاستراتيجية في المنطقة:........................231
ثانيًا: اختلاف الجند على الأمير مجاهد:........................232
ثالثًا: اتحاد الممالك المسيحية ضد الأمير أبي الجيش مجاهد العامري:........................232
الانسحاب من سواحل البحر المتوسط........................233
محاولة إحياء مجاهد للخلافة الأموية في دانية 235
وفاة الأمير المجاهد العظيم أبي الجيش مجاهد العامري........................237
السقوط من القمة - إقبال الدولة علي ابن أبي الجيش مجاهد العامري...238
قصة الأميرعلي أسره ثم افتداؤه:........................238
مؤامرة الأمير حسن) مع ملك (إشبيلية لاغتيال الأمير علي........................239
صفات وأخلاق الملك (علي بن مجاهد) وسياسته في الملك........................241
العلماء الذين كانوا على عهد (علي إقبال الدولة) المشهورون........................241
علاقة (إقبال الدولة علي) بالدولة (الفاطمية) في (مصر) 242
نهاية الدولة العامرية بدانية 244
نهاية قصة بني مجاهد - سراج الدولة ابن علي إقبال الدولة........................246
فرسان في زمن الإنحطاط (ابن فتحون – سعدارة)........................249
أبو الوليد ابن فتحون (فارس الأندلس) 250
سعدارة (صاحب الحيلة والمكيدة) 252
عندما يؤتمن الخائن - الحاجب أبو سعيد بن جامع وكارثة العُقاب..... 255
مازال الجسد ينبض – إنقاذ الأندلس (معركة الدونونية)........................264

مقدمة : 264
خيانة أم مهادنة: 266
السلطان (محمد الثاني) والملقب (بالفقيه) 268
السلطان (محمد الفقيه) والسلطان (أبويوسف يعقوب المريني) 269
رسالة السلطان (محمد الفقيه) إلى السلطان المريني 269
تلبية السلطان المريني نداء سلطان (غرناطة) 270
الأعمال الحربية التي قام بها سلطان المغرب في الأندلس قبل معركة الدونونية 271
المعركة الفاصلة (الدونونية) 272

الفصل الخامس : خفايا العصر المملوكي

مقدمة : 279
آخر المماليك الفاتحين - الأشرف برسباي وفتح قبرص 281
قيام دولة المماليك الأولى في (مصر) و (الشام) وعلاقتها بجزيرة بقبرص 281
محاولة السلطان (بيبرس) فتح قبرص وفشله في تحقيق ذلك 282
سلطنة (الأشرف أبي النصر سيف الدين برسباي) 285
الحملة الأولى سنة (827هـ / 1424م) 286
الحملة الثانية سنة (828هـ/1425م) 291
حملة ملك (قبرص) على السواحل (الشامية) و (المصرية) 294
خروج الحملة الثانية 296
الحملة الثالثة والأخيرة (829هـ/ 1426م) 305
خروج الحملة الثالثة 306
حادث مفجع لم يكن في الحسبان 308
حيلة بعض الجنود في تسلق الحصن: 310
معركة (خيروكيتا) الفاصلة وأسر ملك (قبرص) 314

المعركة البحرية وانهيار المقاومة تمامًا 317
فتح (نيقوسيا) وإعلان تبعية الجزيرة لسلطان (مصر) 318
مصير الملك (جانوس) 324
وفاة الملك (جانوس) 327
السلاح السري للشعب المصري -
مسرحيات خيال الظل في العالم الإسلامي 329
أولًا: نشأة خيال الظل...329
الرأي الأول الهند:...330
الرأي الثاني الصين:..330
ثانيًا: انتقال فن خيال الظل إلى العالم العربي والإسلامي 331
شمس الدين محمد بن دانيال الموصلي 332
موقف السلاطين من مسرحيات (خيال الظل) 334
أولًا: موقف السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.............................334
ثانيًا: السلطان الأشرف زين الدين شعبان ابن الأمجد حسين
بن الناصر محمد بن قلاون...334
ثالثًا: السلطان الظاهر جقمق يضطهد خيال الظل..............................337
رابعًا: السلطان العثماني سليم الأول ومشاهدته لمسرحية خيال الظل............338
أمثلة من مسرحيات خيال الظل وإسقاطاتها على الأحوال التاريخية
والسياسية في الدولة المصرية:...339
من كسر أنف أبي الهول - نابليون أم صائم الدهر.................. 349
قصة كسر الشيخ (صائم الدهر) لأنف (أبي الهول) 351
أولًا: شخصية صائم الدهر..352
الأول : محمد بن صديق شمس الدين أبو عبد الله التبريزي.........................352
الثاني : تاج الدين محمد بن محمد بن محمد المليجي 355

الثالث : الرحالة شمس الدين المقدسي وأنف أبي الهول:.................362
خلاصة ما توصلت إليه 364
اكتشاف المجهول – ومحاولة الدخول إلى الهرم الأكبر.....................367
أولًا: أهمية الأهرام والآثار من الناحية الثقافية في العصور الوسطى:............368
ثانيًا: أهمية الأهرام والآثار من الناحية الاقتصادية في العصور الوسطى:..........369
أولا: الخليفة العباسي عبد الله المأمون
(198هـ 218-هـ) وإحداثه للثلمة (الفتحة) التي في الهرم:..................370
ثانيا: محاولة السلطان أحمد بن طولون (254هـ – 270هـ) فتح الهرم:...............371
ثالثا: هدم الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي الطواشي لأهرام الجيزة الصغار:....373
رابعا: محاولة السلطان العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين
(567هـ 595-هـ) هدم وفتح الأهرام:...375
خامسا : محاولة مراد بيك خدش وفتح الهرم الثالث:...............................376
آخر الخلفاء الدمى - المتوكل على الله محمد العباسي 378
تولي (محمد المتوكل) الخلافة وسبب توليه 383
أول موكب للخليفة الجديد بعد توليه الخلافة 386
الخليفة (محمد المتوكل) مع السلطان في (حلب) 389
هزيمة السلطان (قانصوه الغوري) وأسر الخليفة 390
إقامة الخطبة في مساجد (مصر) للخليفة (محمد المتوكل)...............................392
تولية الأمير الكبير الدويدار (طومان باي) سلطنة (مصر) 393
مبايعة أمير المؤمنين (يعقوب) للسلطان (طومان باي) 394
محاربة السلطان (طومان باي) للسلطان (سليم شاه) وهزيمته 395
مناقشة ودحض الآراء التي تقول بتنازل آخر الخلفاء العباسيين بمصر
عن لقب الخلافة لبني عثمان 406
قائمة المصادر والمراجع 418